

جامعة سعيدة – الدكتور مولاي الطاهر
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

أطروحة

مقدمة لنيل شهادة

دكتوراه الطور الثالث

التخصص : فلسفة إسلامية

الفرع : علوم اجتماعية

من طرف :

سحانين حسين

عنوان الأطروحة:

التربية الصوفية وبعدها الوظيفي في المجتمع الجزائري دراسة ميدانية



أطروحة مناقشة بتاريخ 2023/05/14 أمام لجنة المناقشة المشكلة من :

الرقم	اللقب والإسم	الرتبة	المؤسسة	الصفة
01	آيت أحمد نور الدين	أستاذ محاضراً	جامعة سعيدة – د مولاي الطاهر	رئيساً
02	حفيان محمد	أستاذ ت ع	جامعة سعيدة – د مولاي الطاهر	مشرفاً ومُقرراً
03	بشير جلطي	أستاذ ت ع	جامعة وهران 02	مُمتحناً
04	رزقي بن عומר	أستاذ ت ع	جامعة وهران 02	ممتحناً
05	بن علي محمد	أستاذ ت ع	جامعة غليزان	ممتحناً
06	بومعالي رشيد	أستاذ محاضراً	جامعة سعيدة – د مولاي الطاهر	ممتحناً

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى رُوح أبي العزيز، وإلى والدتي حفظها الله تعالى

إلى مَنْ تقاسمت معي نفسي وهَيَّأت السَّكن والمودة والرَّحمة زوجتي

وإلى أبنائي: عبد الرَّحمان خليل، عبد الرَّؤوف، شيماء، جلال علاء الدين.

وإلى جميع إخوتي وأخواتي، وكلّ مَنْ تربطني بهم صلة رحم ومحبة وودّ وصداقة.

وإلى كلّ مَنْ يعشق البحث العلمي

شكر وتقدير

أتوجّه بالشكر لله عزّ وجلّ الذي وفّقني لإتمام هذا العمل.

كما أتوجّه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف (حفيان محمّد)

الذي أثار لي درب البحث وكان خير مُعينٍ ومُشرفٍ لإنجاز وإتمام هذا العمل ولم يبخل عليّ بتوجيهاته ودقيق ملاحظاته

كما لا أنسى فضل الزملاء والأساتذة (شريف جلول، بن صافي سعيد، سحانين علي)

وإلى جميع أساتذة قسم الفلسفة بجامعة سعيدة.

وإلى مَنْ صبر معي وتحمل مشقّة الكتابة الأستاذ "قاسم أبا حمزة".

كما أتوجّه بالشكر إلى أعضاء اللجنة المناقشة الذين تحملوا عناء تنقيح هذا العمل ومناقشته.

مقدمة

التصوّف قديم من حيث المسمّى والممارسة، حادث من حيث التسمية، فمن حيث المسمّى لا يعدو كونه سعيًا إلى مرتبة الإحسان، التي تسعى لتزكية النفوس من الأمراض والعلل، فهو بهذا المعنى كان موجودًا زمن النبوة استنادًا لقوله تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (سورة الشمس، الآية 10-9)، أمّا لفظ التصوّف فحادث الإطلاق، وله العديد من الأصول اللغويّة منها الصُّفّة، والصُّوفة، والصفاء والصف، وبناءً على هذه المعاني اللغويّة تمت صياغة العديد من التعاريف الاصطلاحية.

وضعت له قواعد وأسس وألّفت كتب وتمّ ضمّه إلى العلوم الشرعيّة باعتباره علم الأخلاق والتزكية وما تثمره من المعارف الدنيّة مصداقًا لقوله تعالى: "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ"، (سورة البقرة، الآية 282)، وهذا يدلّ على أنّ مصدره القرآن الكريم والسنة النبويّة وإلهامات ذوي المجاهدات والمشاهدات.

تشكّل التصوّف عبر مراحل متلاحقة، بدأت مع مرحلة الزهد والتعبّد والنسكية كردّ فعل على ما شهدته الحياة الاجتماعية من بذخ وتعلّق بالشهوات، فظهرت فئة الزهاد وهذا حفاظًا على الخط الإسلامي والسنة النبويّة، ثمّ ظهور التأليف أو ما يسمّيه بعض الدارسين سواء من المستشرقين أو المفكرين العرب بالتصوّف الفلسفي، وهو تصوّف النخبة ثمّ تبلورت عملية التربية والتزكية لتأخذ إطارًا وهيكلًا تنظيميًا عرف فيما بعد بالطرق الصوفيّة التي تعود بداياتها للجنيديّة باعتبارها الوجه الأكمل الذي جمع أسس الطريفة دون أن ينظروا لذلك، أي كان الغالب هو الممارسة واقتصار علومهم وأسرارهم على من ينتمي إلى الطريقة ويصدق بها.

اختلفت أشكال الطرق الصوفيّة بسبب اختلاف الفتوح والبيئات التي ظهرت فيها، وإن كان الهدف واحد وهو السلوك والسير إلى الله لمعرفة ذلك بالوصول إلى الكمال الإنساني ومشاهدة الله وتحقيق مقام الإحسان وهو عبادة الله كأنك تراه، وانتشرت الطرق الصوفيّة وتفرّعت وكثرت التأليف وأصبح لها أتباع في كلّ البقاع الإسلامية عبر مراحل التاريخ الإسلامي وأزهى مرحلة هي مرحلة القرن السادس الهجري.

تعود جذور الطرق والزوايا بالجزائر إلى مرحلة الفتوحات الإسلامية وعرفت ازدهارها في الفترة العثمانية التي اعتنى حكامها بالطرق الصوفية ومشايخه^١، والجزائر أو المغرب الأوسط تجذرت فيها الطرق الصوفية وشكلت بعدا روحيا وثقافيا وممارساتيا ساهمت فيه جملة من العوامل السياسية والسوسيولوجية، وانخرطت فيه شتى الفئات الاجتماعية والنخب بمختلف انتماءاتها الثقافية، من فقهاء ومفسرين ومحدثين وأصوليين وحتى مؤرخين.

والحديث عن الطرق الصوفية هو في الحقيقة حديث عن التربية الروحية أو الأخلاقية أو تزكية الفرد والجماعة وهذا يعدّ أسّا من أسس الطريق ووظيفته الكبرى لذلك أولتها اهتماما كبيرا في طريق التربية والسلوك بالفرد نحو طريق النجاة والمعرفة. والوصول إلى الكمال الإنساني المنشود بالسيرة المقامات والمجاهدات والرياضات والعبادات.

وهناك جملة من الأسباب والدواعي التي حفزتني على اختيار هذا الموضوع، أوجزها فيما يلي:

- الترسبات والتجارب الماضية والتي أدت إلى بناء أحكام مطلقة وجاهزة ومعمّمة وبلورت وعيا معيّنا عن التصوف ورجاله عموما، وعن الطرق الصوفية والزوايا^١ على أنها منهج حاد عن الصواب وعن الأحكام الشرعية، وعلى أنّ الطرق الصوفية ومنهجها التربوي كان سببا رئيسا في تخلف المجتمع وانحطاطه دينيا واجتماعيا وأخلاقيا وثقافيا، فكان البحث فرصة جادة لمعاودة دراسته وفهمه وتحليله بطريقة علمية وموضوعية وفاحصة، ومعرفة أبعاده الفعلية ومدى ارتباطه بالشخصية التاريخية الجزائرية وتفاعله وتأثره وتأثيره عليه.
- رغبتني الشديدة في فهم التصوف من جوانبه النظرية والعملية والسلوكية. والمتتمثلة في التربية كآلية لتحقيق الكمال الإنساني والانسجام الاجتماعي.
- محاولة معرفة أهمية البعد الروحي في الحفاظ على الهوية الجزائرية منذ الفتوحات الإسلامية وإبان فترة الاستعمار والمحافظة على النسيج الاجتماعي وجذوة التدين.
- أثر غياب البعد التربوي الروحي في تربيتنا المعاصرة أضحي يشكل عائقا معرفيا يحول بيننا وبين فهم مقام "الإحسان" كمرتبة عليا للدين، لهذا أصبح حضوره ضرورة اجتماعية

وحضارية لتحسين الفرد والمجتمع وتقديم البديل للحضارة المعاصرة، التي تغرق في العنف والتطرف الديني خاصة في ظل العولمة والعالمية.

– توفر الموضوع على عناصر بحثية جديدة غير مدروسة سابقا، فأردت أن أوضح هذه الجوانب الغامضة فيه، خاصة ما تعلق بأهمية التربية الصوفية وأبعادها الوظيفية وربطها بدراسة تطبيقية ميدانية، فحاولت هذه الدراسة البحث في منهجية التربية الصوفية وشروطها وآلياتها ومميزاتها وخصوصياتها في المجتمع الجزائري، وأهم الطرق الجزائرية وملامحها التربوية وخصائص أبعادها الوظيفية وتأثيراتها عليه.

اعتمدنا المنهج الكرونولوجي في عرض الوقائع والأحداث وتتبع تطور التصوف كعلم وممارسة وهذا بالعودة إلى تاريخ الطرق الصوفية ونشأتها، كما استخدمنا منهج الاستقراء والتحليل والنقد في تحليل النصوص والامتون الصوفية المستقاة من مظانها ومقارنتها بغيرها قصد الوصول إلى معرفة حقيقة التربية الصوفية ووظيفة الطرق في المجتمع الجزائري ري لبناء تصور وحكم من خلال استقراء أسس ومناهج الطرق والزوايا.

الدراسات السابقة كثيرة على المستوى العام، فظاهرة التصوف من أكثر المواضيع تناولا من قبل الباحثين والمؤرخين والأدباء والناقدين، أمّا الدراسات التي تؤصل للمنهج التربوي الصوفي الجزائري ودراسته دراسة ميدانية فهي شحيحة جدا، وشبه معدومة، وإن وجدت فهي تتناول جزئية معينة من البحث وترتكز على مستوى محدد، أو على مواد متفرقة وتعالج إمّا التربية الروحية عموما، أو جانبا واحدا فقط من الأبعاد الوظيفية للتربية الصوفية وترتكز كذلك على جانب واحد ومحدد لطريقة أو زاوية أو شخصية معينة.

هذا لا ينكر أو ينقص ما قدّمته لنا هذه الدراسات من معلومات مهمة وتفاصيل تاريخية مرتبطة بمراحل تطور وتبلور الاتجاه الصوفي ومنهجه التربوي، كما قدّمت لنا الكثير من التوضيحات عن علم الاجتماع الديني بصفة عامة وكتابات وسلوكيات مشايخ التصوف ومريديهم، وساعدتنا

كذلك في تحليل بعض الجوانب والقضايا التي تناولناها ميدانيا لقربها وصلتها من أهداف الدراسة ، ومن أهم هذه الدراسات:

1/- دراسة منال عبد المنعم جاد الله بعنوان "أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها دراسة أنثربولوجية في مصر والمغرب " ، رسالة دكتوراة سنة 1987م تحت إشراف الأستاذين محمد علي أبو ريان وفاروق أحمد مصطفى، جامعة الإسكندرية كلية الآداب، قسم الأنثربولوجيا، والتي حاولت الباحثة من خلالها تقصي أهم ما يميز التصوف الطرقي في المشرق والمغرب، وقامت بتحليل السلوك الديني والاجتماعي لمريدي الطريقة الشاذلية في المغرب الأقصى ومصر، كمحاولة لفهم دينامية حياة هذه الطريقة وتأثيرها على السلوك الفردي والاجتماعي وعلى باقي أفراد المجتمع واستكشاف تأثير الممارسات الصوفية على تنشئة المريدين وأثر ذلك الطريقة في البلدين.

وقد خلصت الباحثة إلى عدد من النتائج أهمها: أن التصوف تجربة ذوقية دينية متأصلة في الإنسان، أساسها المجاهدة والتركية، كما تبين لها التأثير الاجتماعي الواضح للطريقة الشاذلية في عملية التنشئة والضبط الاجتماعيين وحل المشكلات، إضافة للبعدين التربوي والتعليمي.

2/- دراسة الطاهر بونابي وهي عبارة عن رسالة دكتوراة في التاريخ الإسلامي الوسيط للموسم الدراسي 2008-2009 بعنوان "الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ 14 - 15 الميلاديين" وتحت إشراف الأستاذ عبد العزيز فيلاي، قسم التاريخ جامعة الجزائر العاصمة.

والذي حاول فيها الوقوف تاريخيا على النماذج الصوفية في المغرب الأوسط خلال هذه الفترة التاريخية وأهم تياراتها، من خلال دراسة الحركة الصوفية وانتشارها وطرق تغلغلها في البنى الاجتماعية والدينية والفكرية وذكر أهم أشكال التنظيمات الصوفية وعلاقتها بالمجتمع، ليختتم بحثه بأهم النتائج التي توصل إليها والتي خلصت إلى أن التصوف في المغرب الأوسط مظهر متمخض عن حالة من التعبد في نطاق مؤثر للمذهبيين المالكي والإباضي المرتبطين في

تواصلهما بالمؤثرات الزهدية والصوفية المشرقية والإفريقية والأندلسية، وأنّ نشاط أشكال التنظيمات الصوفية بالمغرب الأوسط قد كرّس مبادئ الحقيقة والشرعية والإصلاح ضمن منظومة التصوّف النظري والطّقوسي، ممّا يعكس حالة التكيّف لدى هؤلاء في الارتباط بالقاعدة الواسعة من المريدين والطلبة وعامة الناس.

3/- الدراسة الثالثة والمتمثلة في أطروحة دكتوراة بعنوان "التربية الصوفية وأثره في السلوك - دراسة أنثربولوجيا -" من إعداد الطالب أحمد ربيع، الموسم الدراسي 2008-2009م تحت إشراف الدكتور العربي بن الشيخ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة.

قام فيها الباحث بمناقشة إشكالية التربية الصوفية وتأثيرها في توجيه السلوك عنده من خلال القيام بدراسة ميدانية تطبيقية للتربية عند الصوفية، لإدراك أثرها سلوكيا، ومحاولة إجراء مقارنة بين الجانبين عندهم، النظري والتطبيقي، وقد اعتمد في ذلك على المنهج التاريخي، الوصفي والاستقرائي، كما ركّز خلالها على دراسة الظاهرة أنثربولوجيا، وتتبع الباحث نشأة التصوّف ومصادره، وأهم الأفكار الدخيلة عليه وركّز أكثر على التصوّف والصّوفية في الجزائر.

تميّزت مجمل هذه الدراسات بـ

- اعتمادها على الدراسة الأنثربولوجية في فهم واستقصاء ظاهرة التصوف والمنهج التربوي الصوفي، واستخدامها في دراستها الميدانية لأدوات الملاحظة بالمشاركة والمقابلة، واستثنائها لأداة "الاستمارة" في ذلك.

- لم تخصص حيّزا بحثيا كافيا وملما لأثر التربية الصوفية (روحيا وأخلاقيا وإنسانيا وثقافيا...)، بل ركّزت كل الدراسات تقريبا على وظيفتين فقط السلوكية والاجتماعية بل ولم تكن - أحيانا - نتائج البحث المتوصّل إليها متوافقة والسياق العام للبحث المقدّم،

كحال الدراسة الثالثة، التي ارتبطت بالدراسة التاريخية وتحديد مراحل تطور الطرق الصوفية، ووصف المنهج التربوي عند بعض الطرق الصوفية في الجزائر ولم تتطرق للأثر والبعد السلوكي والاجتماعي لها ، إلا النقطة الأخيرة التي ذكر فيها البعد الاجتماعي للطريقة القادرية والمتمثل في التكافل الاجتماعي وحفظ الهوية الإسلامية العربية للمواطن الجزائري.

بناء على ما سبق طرحه، يمكننا تحديد الإشكالية التي ينطلق منها هذا البحث وهي: تكتسي التربية الصوفية أهمية قصوى عند أصحاب الطرق الصوفية، فما هي الأبعاد الوظيفية التي حققتها الطرق الصوفية بالجزائر ؟ وهل تمكنت من تجسيدها في المجتمع الجزائري عبر مسيرتها؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية وما تستنبته من تساؤلات فرعية أدرجناها في متن الرسالة جاءت خطة البحث على الشكل الآتي:

مقدمة وأربعة فصول، كل فصل به ثلاث مباحث، ثلاثة فصول اهتمت بالجوانب النظرية للأطروحة، والفصل الرابع خصص للدراسة الميدانية التطبيقية، وتحليل النتائج.

أما الفصل الأول فقد خصصته للمنهج التربوي الصوفي، وتعرضت فيه أولاً لمقاربة مفاهيمية لأهم المصطلحات التي تخص عملية التسليك والتزكية، كمفهوم النفس والروح والقلب والتصوف والتزكية والتربية وغيرها وأهم مصادر هذه التربية، ثم تعرضت لفلسفة التربية الروحية ومنهجها الروحي، في إعداد المريد وتربيته، من مجاهدات ورياضات وذكر وخلوة وضرورة اتخاذ الشيخ والتزام الآداب للمريد، وصولاً إلى البعد العرفاني لهذه التربية من مشاهدات وتجليات وحقائق عرفانية.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للطرق الصوفية في الجزائر وتعرضت فيه للتأصيل والخصوصية، فدرست فيه أولاً علاقة الطريقة بالشرعية والحقيقة، ثم عرجت على أهم الطرق

الصوفية في الجزائر وعوامل نشأتها تاريخيا وأهم مؤسسيها، وأهم العوامل التي ساهمت في انتشارها وتنظيمها واستمرارها وذكرت أهم خصوصيات هذه الطرق في مجال التربية والتسلية والتركية، من حيث الذكر والأوراد واتخاذ العهد وغيرها.

الفصل الثالث خصّصته للأبعاد الوظيفية للتربية الصوفية، فالبعد الروحي ركّز فيّه على الروابط الروحية للمريد بالشيخ ودوافع الانخراط في الطريق الصوفي، وأهم التغييرات الحاصلة بعد ممارسة عملية التربية، وفي البعد الأخلاقي، ركّزت على أهم التأثيرات الحاصلة للمريد أخلاقيا وعلاقة هذه الأخلاق في التعامل مع الآخر (العاصي والكافر كنموذجين في ذلك)، وأهم الصفات الأخلاقية الواجب تعهدها وتمثلها في الطريق التربوي الصوفي، أمّا البعد الحضاري والإنساني فقد ركّزت فيه على أهم المبررات الحضارية والإنسانية الداعية لانتهاج التربية الصوفية في زمن المادية والعولمة والتسويق والاستهلاكية، وعلاقة هذه التربية بخلق أنسنة جديدة مبنية على السلام والإخاء الإنساني.

الفصل الرابع والأخير خصّصته لتحليل الدراسة الميدانية وتفرغ الاستمارة ومناقشة أهم نتائجها، باتباع برنامج الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية، وختمت الأطروحة بأهم نتائج البحث والتوصيات المتوصّل إليها.

وقد واجهتنا بعض الصعوبات في معالجة هذه الإشكالية وإتمام البحث منها:

-لقد كلفتنا الاتصالات والزيارات، قصد مقابلة الشيوخ والمريدين وتوزيع الاستمارات وملئها وجمعها زمنا طويلا، وجهدا كبيرا، ذهابا وإيابا، وربما المكوث لأيام عديدة لبلوغ مقصدنا، خاصة مع تنويع العينات من الطرق الصوفية والزوايا الجزائرية وبعدها الجغرافي عن بعضها، ضف إلى ذلك صعوبة لقاء المشايخ - خاصة - والمريدين لمشاغل الناس وانهماكهم في متطلبات الحياة اليومية الذي حال دون تحديد وقت لذلك، وأخذ الوقت اللازم في زيارتهم ومقابلتهم، مع إحجام بعضهم وعدم رغبة بعضهم الآخر في التعامل

- مع هذا النوع من الدراسات، بالإضافة لتزامن هذا البحث مع وباء كوفيد 19، والإجراءات الاحترازية الصحية المفروضة وفترات الحجر الصحي التي قيدت تحرّكاتنا، وقلّصت من حريتنا في التنقل وإنجاز العمل الميداني بطريقة وافية.
- طبيعة الموضوع والتي صعبت علينا معالجة جميع جزئياته دون إلغاء بعضها ومحاولة دراسة كل أبعادها ومظاهرها، واستحالة استيفاء تام لها، خاصّ مع جمعنا بين الجوانب التوثيقية والدراسة الميدانية في بحث فلسفي واحد.
- صعوبة بناء أسئلة الاستمارة وتحكيمها وتفريغها والتعامل مع برنامج الإحصاء spss.

الفصل الأول: التربية الصّوفيّة

وَمِنْهَاجُهَا

المبحث الأول: مقارنة مفاهيمية للتربية الصوفية ومصادرها

- 1/- تعريف التصوّف
- 2/- مفهوم التربية الصوفية.
- 3/- التزكية.
- 4/- النفس عند المتصوّفة.
- 5/- الرّوح.
- 6/- مصدرية التصوّف.
- 7/- مصادر التربية الصوفية.

المبحث الثاني: أصول التربية الصوفية وشروطها

- 1/- شروط التربية الصوفية.
- 2/- المجاهدات ومراقبتها.
- 3/- الشيخ.
- 4/- المريد.
- 5/- الذكر.
- 6/- العهد والتلقين.
- 7/- لبس الخرقة.
- 8/- الخلوة.

المبحث الثالث: البعد العرفاني للتربية الصوفية

- 1/- مفهوم المعرفة "العرفان".
- 2/- هدف المعرفة الصوفية.
- 3/- حقائق المعرفة.

المبحث الأول: مقارنة مفاهيمية للتربية الصوفية ومصادرها

السؤال عن مفهوم التَّصَوُّف وماهيته، شغل الباحثين والسَّالِكِينَ قديمًا وحديثًا، وحاول البعض منهم التعبير عن ذلك وتحديدِه انطلاقًا من تجربته ومسلكه، وما ارتضاه من معانٍ وقِيمٍ وما رآه تمثيلًا وتجسيدًا لهذه الرؤية، لأنَّ المفاهيم والتَّعَرِيفَات قد لا تُحِيط بالتَّعَرِيف وتَصَوُّره تصوّرًا دقيقًا، خاصَّةً إذا ارتبط بحقائق رُوحِيَّة وذوقِيَّة ونَفْسِيَّة، وعدم تصوُّره إلَّا جزءًا من حقيقته الكلِّيَّة المتمثِّلة في الإحسان الوارد في حديث جبريل عليه السَّلام.

كما أنَّ المقصود من هذه المقارنة ليس مُعالِجة "التَّصَوُّف" كمُصْطَلَحٍ أو لَفْظٍ أو مُحاولَة الإتيان بمفهوم مُغاير لما أنتجه الآخرون، ولا تحديد مفهوم جامعٍ دقيقٍ له، وإنَّما هو ربطه بالتَّجربة التَّربويَّة الصُّوفيَّة الرُّوحِيَّة ومعرفة خصائص المنهج التَّربويِّ الصُّوفيِّ ومصادره وأهدافه وأبعاده الوظيفيَّة.

1/- تعريف التَّصَوُّف:

اللافت للانتباه والحيرة، أنَّه لا يوجد علمٌ من العلوم على وجه هذه البسيطة كثرت تعاريفه وتعددت اتِّجاهاته وإِسْتِحَالَ إدراك حدِّه بِدَقَّةٍ مثل التَّصَوُّف، وقد حدَّ التَّصَوُّف، ورسم وفسَّر بِوُجُوهِ تبلغ الألفين، تُرجع كُلُّها لِصَدَقِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وإنَّما هي وُجُوهُ فِيهِ فَكُتِبَ التَّصَوُّفُ تَزَخَّرَ بِكَمٍّ هَائِلٍ مِنَ التَّعَارِيفِ الْخَاصَّةِ بِالتَّصَوُّفِ وَالصُّوفِيَّةِ، بِالتَّعَرِيفَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ وَالْقَشِيرِيِّ فِي رِسَالَتِهِ، وَالسَّرَاجِ فِي لَمَعِهِ، وَالْمَكِّيَّ فِي قُوتِ الْقُلُوبِ وَالْكَلاَبَاذِيِّ فِي التَّعَرُّفِ وَالسَّهْرَوَرْدِيِّ فِي عَوَارِفِ الْمَعَارِفِ... وَغَيْرَهَا عَبَّرَتْ عَنْ وَجْهِ خَاصٍّ مِنْ أَوْجِهٍ كَثِيرَةٍ، قَالَ بِهَا الْمَشَايِخُ وَأَصْحَابُ الْأَحْوَالِ، حَسَبَ تَجَارِبِهِمْ وَأَدْوَاقِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

ولعلّ من أهمّ الأسباب التي حالت دون تحقيق هذا المبتغى راجعٌ إلى:

- استحالة إدراك جوانب التّصوّف كلّها وجمعها في ألفاظٍ قليلةٍ دالّةٍ مُحيطَةٍ بِتلك الجوانب لاختلاف مداركهم، وتفاوت أحوالهم وثقافتهم وعلمهم وأذواقهم¹.
- فردانية ووجدانية التجربة الذّوقية الصّوفية، وإرتباط كلّ تعريفٍ من تعاريفهم بتجربته الرّوحية الخاصّة «فكلُّ يُعبّر عمّا وقع له»² فعبر كلّ عن موقعه خلال رحلته الدّائنية في المجاهدات والمشاهدات في بلوغ المعرفة لذوقية الكشفية.
- خصوصية اللحظة والطّابع النّفسيّ للتعريفات، فكلّ مُتصوّفٍ يُعبّر في تعريفه عن مقامه، الحال فيه والمجسّد له، باختلاف بداياته عن أواسطه، عن نهاياته، لذلك نجد أنّ للصّوفيّ الواحد تعريفاتٍ متعدّدة مُنطلقاً عن إبدائه التعريفات عن الحال النّفسيّ والوجدانيّ والرّوحيّ الذي هو فيه، فنجد مثلاً أنّ للجنيد ثلاث عشرة (13) تعريفاً ولأبي بكر الشّبلي ثمانى تعريفات (08)، ولأبي حسن النّوري سبع (07) تعريفات³.
- رمزية لغة تعاريفهم وتعقيدها، وعدم قدرتها أحياناً مع تمثّل المعاناة الوجودية العميقة وتحمل طبيعة المواقف الرّوحية في قولها، فكّلما اتّسعت الإشارة ضاقت العبارة.
- خُضوع "المصطلح الصّوفي" لعملية التّطوّر التّاريخيّ والنّمو المتواصل والتّغيّر المستمرّ، مُسايرةً للعوامل والمتغيّرات التي أكسبته معانٍ جديدةً، مع كلّ طورٍ من أطواره الزّمكانية التي مرّ بها، وتأثيرها على المعاني الأصلية الأولى التي كانت تُمثّل جزءاً دلالياً مهمّاً في بلورته وتحديدّه.

- وقد حملت هذه الخلافات بعض مشايخ الصّوفية والدّارسين، إلى عدم ربطه بقياسات

لُغوية ولا إلى اشتقاقات لفظية، ولا إلى حمولته في فترات زمنية وأطوار تاريخية بل

¹ - أحمد رزوق، قواعد التّصوّف. تح: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. 2005، ص: 21.

² - أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية. تح: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف. دار المعارف، القاهرة. 1994، ص: 551.

³ - ناجي حسين جودة، التّصوّف عند فلاسفة المغرب ابن خلدون أنموذجاً، دار الهادي، بيروت، لبنان. ط01، 2006. ص:

جعلوه "لقباً" لهم وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كَاللقب¹، كما رفض "لويس ماسينيون، Louis Massignon" كل الاشتقاقات اللغوية في أصل الكلمة عدا الدلالة على لبس الصوف واعتبره لقباً لهذه الطائفة وورد لفظ "الصوفي" لقباً مفرداً لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي². وإلى الفكرة نفسها ذهب "عبد الواحد يحيى" في كتابه (التربية والتحقق الروحي) «ونقول مطمئنين أن لهذه الكلمة الكثير من الاشتقاقات المفترضة وليس بعضها أولى ببعض حتى نطمئن إلى إحداها حقيقة وفي الحقيقة هي الأخرى تسمية رمزية خالصة أي: نمط من "الشفرة" إذا كان شأناً وبالتالي فهي ليست في حاجة لاشتقاق لغوي كما هو مألوف»³.

وقد قام البعض الآخر بعملية استقرائية لتعاريف التصوف وتصنيفها في ثلاث مجالات:

- مجال ربط التصوف بالأخلاق والتربية والسلوك. - مجال ارتباط العبادات والزهديات مركزاً على الجزء العملي الشعائري والديني. - مجال ثالث ربط التصوف بالبعد العرفاني والمشاهدة والكشف.

على وجه الإجمال والاختصار تبقى مجموعات التعاريف الحاصلة مقاربات تُعبر عن حال السالك أو العارف، وذوقه فكلما تحدد السير في الطريق وتعددت المقاسات واختلفت المكاشفات والمشاهدات الحادثة، يتغير التعريف وتختلف العبارة، فالتصوف لا يندرج تحت حقيقة واحدة متفق عليها، تُوجد مسائله وتضع حدوداً فاصلة وفارقة علمية أو فنية تمنع تمازج وتداخل التعاريف ببعضها وقد أكدت "إيفادو فيتراي مياروفيتش، Eva de Vitray-Meyerovitch" أن

¹ - أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية. ج2. مصدر سابق. ص: 464.

² - ماسينيون، مصطفى عبد الرزاق، التصوف. تر: دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان. ط 01، 1984، ص: 25.

³ - عبد الواحد يحيى، التربية والتحقق الروحي تصحيح ومفاهيم. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن. ط01، 2014، ص: 20-21.

«التعريفات المقترحة من شيوخ التصوف الكبار ليست سوى مقاربات فعدد الطرق بعدد السالكين ولا تُترك النفس إلا ما هي مؤهلة لإدراكه»¹.

وسنحاول من خلال هذه المقاربة المفاهيمية أن نستعرض بعض التعريفات للتصوف المرتبطة بجوانبها التربوية والأخلاقية والروحية التي تغطي أحياناً -إن لم نقل غالباً- على التعاريف الصوفية.

يقول "محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب" -رضي الله عنه- «التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف»².

ويقول "أبو حفص الحداد النيسابوري" -رحمه الله تعالى-: «التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب، ولكل حال أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب، فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يظن القبول»³.

وقد قال "سيدي العربي الدرقاوي": «التصوف حفظ شرائع الدين وحسن الخلق مع المسلمين»⁴.

وهو عند "ابن العربي" «الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً وهي الخلق الإلهية»⁵. ويرى "عبد القادر الجيلاني" أن «التصوف هو الصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخلق»⁶.

حاول "التفتازاني" حديثاً أن يقدم تعريفاً جامعاً لما تقدم، بقوله: «التصوف فلسفة حياة تهدف إلى الترقى بالنفس الإنسانية أخلاقياً، وتحقيق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلى

¹ - EVA de vitray – Meyerovitch. Anthologie de soufisme Spiritualites vivantes. Albin Michel. Coll. Spiritualites vivantes, 1995, P :22.

² - أورده أبو الحسن السيد علي بن عثمان بن أبو علي الجلابي الهجويري، كشف المحجوب . تح: إسعاد عن الهادي تنديل. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأثرية، القاهرة. 2007. ص: 234.

³ - المصدر نفسه. ص: 237.

⁴ - حامد إبراهيم محمد صقر نور، التحقيق في صحة أعمال الطريق. مطبعة التأليف، مصر. ط2، 1970. ص: 98.

⁵ - محي الدين بن عربي، رسائل ابن عربي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. (د.ت). ص: 17.

⁶ - عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف . ج2. مكتبة البابلي الحلبي، مصر. 1956. ص: 16.

الشّعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى والعرفان بها ذوقاً لا عقلاً وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية الطابع»¹. ومن خلال النماذج البسيطة لبعض تعريفات التصوف، تتعكس حقيقة جلية وهامة وهي اهتمام المتصوفة بالبعد التربوي الأخلاقي، والحث على التأدب بالآداب المحمودة من خلال التصفية الباطنية والسلوكية، لبلوغ كماله الأخلاقي وإنعاقه الروحي وعرفانه الحقيقي ليحقق معنى أن يكون "صوفياً".

2/- مفهوم التربية الصوفية

التربية لغة:

ترجع في أصلها لدلالات ومعانٍ عديدة منها النماء والتعاهد والزيادة، ربّ الولد ربّاً: وليّه، وتعهده بما يُغذّيه ويُنمّيه ويؤدّبه، وكذلك ربّ الشّيء يربوا ربواً ورباءً: زاد ونما وقد جاء في القرآن²: (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤) سورة الإسراء، الآية 24. التّنشئة، نشأ، ينشأ، نشأ ونُشِئاً ونُشِئاً، ربّاً ونُشِئاً، ونُشِئاً في بني لان نشأ ونُشِئاً: شُيبت فيهم³.

الإصلاح: ربّ: إصلاح الشّيء والقيام عليه⁴ وهذه أشهر التعاريف اللغوية، وللتربية دلالات لغوية أخرى كالتعليم والرعاية والتطهر والتّهذيب.

التربية اصطلاحاً:

¹ - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي . دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة، مصر. 1979، ص: 08.

² - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط. مكتبة الشروق الدولية. ط4، 2004، ص: 321.

³ - ابن منظور، لسان العرب. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. مجلد 01. ط1، 2005، ص: 285.

⁴ - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة. تح: عبد السلام هارون. ج 02. دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت، لبنان. ط 1، 1979. ص: 381.

يقول "الراغب الأصفهاني": «الرَّب في الأصل التَّربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التَّمام»¹.

وجاء في موسوعة لالاند "André Lalande" الفلسفية: «التَّربية مسار يقوم على تطوُّر وظيفة أو عدَّة وظائف تطوُّراً تدريجياً بالدرجة، وعلى تجويدها وإتقانها»².

التَّربية الصَّوفية:

يقول "سعيد حوى" في كتابه (تربيتنا الروحية) أن التَّربية الصَّوفية هي «الانتقال من نفسٍ مُزكاة، ومن عقلٍ غير شرعيٍّ إلى عقلٍ شرعيٍّ، من قلبٍ كافرٍ أو مُنافقٍ أو فاسقٍ أو مريضٍ أو قاسٍ إلى قلبٍ مُطمئنٍّ سليمٍ، ومن روحٍ شاردةٍ عن باب الله غير مُتذكِّرةٍ لعبوديتها وغير مُتحقِّقةٍ بهذه العبودية إلى روحٍ عارفةٍ بالله قائمةٍ بحقوق العبودية لـ هـ وبالجمله من ذاتٍ أقلَّ كمالاً إلى ذاتٍ أكثر كمالاً في صلاحها وفي اقتدائها برسول الله ﷺ وفعلاً وحالاً»³.

فقد حاول سعيد حوى - رغم اعترافه صراحةً بصُعوبة ذلك - إيجاد تعريف لهذه التجربة الصَّوفية الداخليَّة، وأن يقف على جميع أبعادها ومستوياتها ومراحلها وأهدافها، فربط التَّربية الصَّوفية بالمجالات الروحية وبتركيباتها ورُجوعها إلى الله، لتحقيق العبودية وتُلوغ سرِّ المعرفة وتحقيق كمالها، في إطار الشريعة الإسلامية، وقد ركَّز كثيراً على مُصطلح "الانتقال" ولم يُبرز سُبُل ولا طُرُق هذا الانتقال، كما أنه لم يتعرَّض لشروطه وآلياته في هذا التعريف بل ركَّز من خلال تعريفه كثيراً على ثمرات هذه التَّربية الصَّوفية ونتائجها، ونجد تعريفاً آخر أقدم من تعريف "سعيد حوى"، حاول من خلاله الكلاباذي - الباب الحادي والثلاثون - إعطاء تعريف لهذه التَّربية وإن لم يُصرِّح مباشرةً بذلك، عند حديثه "في علوم الصَّوفية علم الأحوال" قائلاً: «علم

¹ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن. ج1. مكتبة نزار مصطفى. مكة المكرمة. السعودية. ص: 245.

² - أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية. ج1. تعريب خليل أحمد خليل. منشورات عويدات. بيروت. لبنان. ط2، 2001. ص: 322.

³ - سعيد حوى، تربيتنا الروحية. دار السلام للطباعة والنشر. القاهرة، مصر. ط6، 1999. ص: 62.

آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها ومكائد العدو وفتنة الدنيا وسبيل الاحتراز منها»¹.

يُحدّد "الشيخ العلاوي الجزائري" حقيقة التربية الصوفية بكلمات موجزة بـ «أن يرقى المرء بروحه إلى ما فوق مستوى ذاته»².

فالمقصود بالتربية الصوفية عنده هو تصفية الذات وتطهيرها من رعوناتها والرقى بروحها إلى مستويات أعلى.

كثير من علماء التصوف لا يفرقون بين علم التصوف والتربية الروحية، لأنّها مسمّيات متقاربة، إن لم نقل تكاد تكون متطابقة مفاهيمياً وضمينياً، نظرياً وإجرائياً، فلا تكاد تفرق بينها، لتداخلهما وتقاطعهما، وكلّ يختار الاسم الذي يراه الأقرب إلى منهجه في السير إلى الله، على الرغم من أنّ البعض يُحبّذ اسم "علم التصوف" لاعتقاده بجمعه لكلّ شتات المسمّيات الأخرى، ولتمييزه عن باقي الفرق والمعتقدات، ولاشتماله على كلّ توجّهات التصوف وتياراته المختلفة.

ويذهب البعض الآخر لاختيار اسم "التزكية" خروجاً من الخلاف، ولذكره مرّات عديدة في آيات القرآن الحكيم «فكان من الأجدر أن نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليلتها الشرعية وتخليتها من الرذائل النفسية والخلقية، ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان، والتخلّق بالأخلاق النبوية، وإتباع الرسول ﷺ صفاته الباطنية وكيفياته الإيمانية، كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يُسمّوه "التزكية" أو "الإحسان" أو "فقه الباطن" ولو فعلوا ذلك لا نحسم الخلاف وزال الشقاق»³.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية تعرّضاً للعلوم المهمة والمواضيع الإسلامية إجمالاً، ولم تتعرّض للمسمّيات والتعريفات الاصطلاحية، وترك أمر جمع حدودها وأصولها وضوابطها وشروطها

¹ - أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرّف لمذهب أهل التصوف. تح: آرثر جوى أربري. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر. ط 02، 1994، ص: 58.

² - أحمد بن مصطفى العلاوي، المنح القدوسية. المطبعة العلاوية، مستغانم، الجزائر. ط02، 1986، ص: 08.

³ - أبو الحسن الندوي، ريانة لا زهبانية. دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. ط01، 1966، ص: 12.

وَتَأْصِلُهَا لِلْعُلَمَاءِ لِيَجْتَهِدُوا فِيهَا عِبْرَ مَرِّ الْعُصُورِ الزَّمَنِيَّةِ وَحَسَبِ الدَّوَرَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْمُسْتَجَدَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ، فَتَخْصَّصَ عُلَمَاءُ الْأَصُولِ فِي عِلْمِ الْعَقِيدَةِ، وَسَمَّوْهُ كَذَلِكَ وَتَخْصَّصَ الْفُقَهَاءُ فِي عِلْمِ الْفَقْهِ وَتَسَمَّوْهُ بِهِ، وَكَذَلِكَ مُصْطَلَحُ التَّصَوُّفِ كَبَاقِي الْعُلُومِ لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ يَشْمَلُ التَّزَكِّيَّةَ وَالصَّوْفِيَّةَ وَالتَّزَكِّيَّةَ وَالْإِحْسَانَ فِي الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الْمُرَادِفُ لِهَذِهِ التَّسْمِيَّاتِ، وَلَا مَشَاحَةَ فِي الْإِصْطِلَاحِ، فَقَدْ عَرَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ مُنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ هَذَا الْمَنْهَجَ وَالْخَطَابَ الدِّينِيَّ التَّرْبَوِيَّ الرُّوحِيَّ بِهَذَا الْمَسْمَى وَاصْطَلَحُوا وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِ، وَأَيًّا كَانَتِ التَّسْمِيَّةُ الْمُخْتَارَةُ فَهِيَ الْمَعْتَبَرَةُ بِرُكْنِ الْإِحْسَانِ الْمَذْكُورِ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «... قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ، قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ"»¹.

يُورِدُ "سعيد حوى" مُؤَلَّفَ كِتَابِ (تَرْبِيَّتِنَا الرُّوحِيَّةَ) مُلَاحَظَةً هَامَةً فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ يَقُولُ فِيهَا: «كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ أَنْ أُخْرِجَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ تَحْتَ عُنْوَانِ (تَصَوُّفِ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ) ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي أَنْ أُخْرِجَهَا تَحْتَ عُنْوَانِ (الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ)، وَلَكِنْ لِمَلَابَسَاتٍ عَدِيدَةٍ جَعَلْتُهَا تَحْتَ عُنْوَانِ "تَرْبِيَّتِنَا الرُّوحِيَّةَ" وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذِهِ الْمُلَاحَظَةَ هُنَا لِأَنَّ مَضْمُونَ الرِّسَالَةِ قَدْ يَكُونُ مُرْتَبِطًا بِالْعُنْوَانِ الْأَصِيلِ لَهَا فَلْيُلَاحِظِ الْقَارِئُ ذَلِكَ»² وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى تَقَارُبٍ وَإِنْ لَمْ نَقُلْ تَرَادُفَ الْمَعَانِي الْمَذْكُورَةَ لِاسْمِ "عِلْمِ التَّصَوُّفِ" مَعَ التَّسْمِيَّاتِ الْأُخْرَى لِلتَّزَكِّيَّةِ الصَّوْفِيَّةِ، انْطِلَاقًا مِنَ الْإِسْمِ الْأَمِّ، الَّذِي هُوَ عِلْمُ التَّصَوُّفِ، مُرُورًا بِفَقْهِ الْبَاطِنِ، وَطَرِيقِ التَّسْلِيكِ وَعِلْمِ الْقُلُوبِ، وَصُولاً إِلَى عِلْمِ تَزَكِّيَّةِ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصْطَلَحَاتِ وَالتَّسْمِيَّاتِ الَّتِي نَجِدُهَا مَبْثُوثَةً فِي كُتُبِ الصَّوْفِيَّةِ وَأَرْبَابِ السَّلُوكِ، أَوْ فِي كُتُبِ التَّزَكِّيَّةِ الرُّوحِيَّةِ، وَسَنُرَكِّزُ هُنَا عَلَى تَعْرِيفِ مُصْطَلَحِيْنِ مُهِمَّيْنِ تُجْمَعُ فِيهِمَا الْمَسْمِيَّاتُ الْأُخْرَى وَهُمَا التَّزَكِّيَّةُ وَالتَّزَكِّيَّةُ الرُّوحِيَّةُ.

3/- التَّزَكِّيَّةُ:

¹ - محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح. تح: هيثم الطَّعيمي. المكتبة العصرية. بيروت، لبنان. 2004، رقم 7124. ص: 1057.

² - سعيد حوى، تربيتنا الروحية. مرجع سابق. ص: 05.

قال "ابن تيمية" - رحمه الله تعالى - في معرض حديثه عن أمراض القلوب وعللها وطرق شفائها: «وَالزَّكَاةُ فِي اللِّغَةِ النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ فِي الصَّلَاحِ، يُقَالُ: زَكَ الشَّيْءُ إِذَا نَمَا فِي الصَّلَاحِ، فَالْقَلْبُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَتَرَبَّى فَيَنُمُوَ وَيَزِيدَ حَتَّى يَكْمَلَ وَيَصْلَحَ، كَمَا يَحْتَاجُ الْبَدَنُ أَنْ يُرَبَّى بِالْأَغْذِيَةِ الْمَصْلُحَةِ لَهُ، وَلَا يَبْدُءُ مَعَ ذَلِكَ مَنْ مَنَعَ مَا يَضُرُّهُ فَلَا يَنُمُو الْبَدَنُ إِلَّا بِإِعْطَائِهِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَنَعَ مَا يَضُرُّهُ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا يَزْكُو فَيَنُمُو وَيَتِمَّ صَلَاحُهُ إِلَّا بِحُصُولِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ»¹.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي مَعْنَى التَّزْكِيَةِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي (الْمَعْجَمِ الصَّغِيرِ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْغَاضِرِيِّ - مِنْ غَاضِرَةِ قَيْسٍ - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ عَبْدَ اللَّهِ وَحَدَهُ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ رَافِدَةً عَلَيْهِ كُلَّ عَامٍ وَلَا يُعْطِي الْهَرَمَةَ وَلَا الدَّرَنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَا الشَّرْطَ اللَّثِيمَةَ وَلَكِنْ مِنْ وَسْطِ أَمْوَالِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ. فَقَالَ رَجُلٌ: مَا تَزْكِيَةُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ؟ قَالَ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»².

هَذَا هُوَ مَقَامُ الْإِحْسَانِ فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ». فَالتَّزْكِيَةُ فِي الْحَقِيقَةِ شَيْءٌ زَائِدٌ عَلَى الْعِلْمِ، فَالْعِلْمُ يُعْطِي الْقَوَاعِدَ وَالْبَيَانَ لِكُلِّ شَيْءٍ، أَمَّا التَّزْكِيَةُ فَهِيَ تَطْبِيقُ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَأَمْرُاضِهَا وَأَغْرَاضِهَا، وَمَعْرِفَةٌ بِالتَّطْبِيبِ وَطَرَفِهِ، وَمَعْرِفَةٌ بِالْكَمَالِ وَكَيْفِيَةِ النَّقْلِ إِلَيْهِ وَأَدَوَاتِ ذَلِكَ وَفِرَاسَةٍ خَاصَّةٍ لِكُلِّ نَفْسٍ لِنَقْلِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ³.

فَحَقِيقَةُ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ هِيَ الْوَعْيُ التَّامُّ وَالْفَعْلِيُّ الْمَلْزَمُ لَهَا وَالْمُمَارَسُ عَلَيْهَا، الَّذِي يَتَجَاوَزُ النَّصْحَ وَالْإِرْشَادَ وَالتَّنْظِيرَ الْقَوْلِيَّ - الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ الْعِلْمُ غَالِبًا - إِلَى تَجْسِيدِهِ فَعْلِيًّا عَلَى مَضْمَارِ النَّفْسِ

¹ - أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى. تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض. السعودية. المجلد 10. ط 01، 2004. ص: 96.

² - محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الرياض. السعودية. ط 02، 1995. ص ص: 37-38.

³ - سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج1، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط06، (دت). ص322.

البشرية بالإحاطة التامة بجميع تمثّلاتها وتحقيقه بوسائط مُمكنة وواقعية وجودياً ومعرفياً، وُصولاً إلى درجة النفس المزكّاة، التي يتجلّى فيها معنى "التحقّق الروحي" و"الانعتاق الفعلي" لهذه النفس.

4/- النفس عند المتصوّفة:

تختلف منهجياً رؤية المتصوّفة للنفس، عن مناهج الفلاسفة، فالفلاسفة يتبنّون الزاوية الأنتولوجية المعرفية القحّة، يبحثون في ماهيتها ووجودها وعلاقتها بالأجساد ومآلاتها، أمّا المتصوّفة فيركّزون أكثر في تعاملهم مع النفس الإنسانية، في سُبُل تطهيرها ومُجاهدتها والسُّموّ بها وإرجاعها لروحانيتها الأزلية، كما يُمكن اعتبار أرباب السُّلوك "نماذج" فعلية لهذه الرياضات فيبدؤون بأنفسهم ويشتغلون بها، ويجتهدون في معرفة الوسائل والسُّبُل لمُعالجتها وإصلاحها، عكس الفيلسوف الذي يعتبر النفس جزءاً مُنفصلاً عنه، وحقلاً للدراسة النظرية العلمية، غير مُرتبطة بعالمه الشّخصي.

"قالغزالي" مثلاً يبيّن أنّ أكثر الأخطاء والأوهام والأغاليط منشؤها الخلط بين المسمّيات الأربعة: النفس، والروح، والعقل والقلب، لاشتراكها وتداخلها وصُعوبة الفصل بينها، ثمّ يُصنّف "النفس الإنسانية" إلى معنيين:

أحدهما: أن يُراد به المعنى الجامع لقوّة الغضب والشّهوة في الإنسان، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التّصوف.

المعنى الثّاني: هي اللّطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته ولكنّها تُوصف بأوصافٍ مُختلفة بحسب اختلاف أحوالها¹.

فالنفس في المعنى الأوّل تقتصر على جانبها السّلبي الشّهواني الغضبيّ، حمالة لِلصّفات المذمومة للإنسان، التي يقصدها المتصوّفة في ذكرهم لها، والتي لا بدّ من مُجاهدتها لتخليصها وتنقيتها، لبلوغ الجانب الروحيّ فيها.

¹ - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين. ج01. دار ابن حزم، بيروت، لبنان. ط01، 2005. ص: 878.

أما بمعناها الثاني: فالنفس واحدة، تتمظهر قُوَّةً وَضَعْفًا وَحُسْنًا وَفُجْحًا، هي نفسها الرُّوح، هي مصدر حياة الفرد، جسمٌ لطيفٌ يُمثِّل ذات الإنسان، تتفاوت من شخصٍ لآخر، إذا أُميتت فيها جوانب الحظوظ الدنيوية الشَّهوانية الحيوانية، فَهِيَ رُوحَانِيَّة، وَإِذَا قَصُرَتْ فِي أَدَاءِ واجباتها الشرعية، وَرَكَنتَ لِلْمَعَاصِيِ الْآثَامِ وَالْأَخْلَاقِ دَنِيَّةً، فَهِيَ شَرٌّ مُحَضَّرٌ.

4-1/ النفس الأتارة بالسوء:

هي النفس التي غلبت عليها طبيعة البشر وأسررتها شهوات الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ سورة يوسف، الآية 53.

يتحكَّم فيها سلوك استقصاء الذات الحسية والمعنوية بأيِّ كلمةٍ كانت، وهي تستولي على القلب وتُسَيِّرُهُ نحو الارتباط بَقِيَمٍ مَادِيَةٍ لِإِشْبَاعِ رَغْبَاتِهَا وَبِالْتَّالِيِ تُسَيِّطِرُ عَلَيْهَا الْأَخْلَاقُ الْمَذْمُومَةُ كَالْحَسَدِ وَالْبُخْلِ وَالرِّيَاءِ وَالشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ وَالتِّي حَبَّتْهَا عَنْ عَالَمِ النُّورِ وَالْحَقِّ وَيُسَمِّيَهَا ابْنُ الْعَرَبِيِّ بِالنَّفْسِ الشَّهْوَانِيَّةِ «وَمَنْ يَكُونُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَقَلُّ حَيَاؤُهُ وَيَكْثُرُ خَرْقُهُ وَيُسْتَوْحِشُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَيَمِيلُ إِلَى الْخُلُوتِ وَيَنْقَبِضُ عَنْ مَجَالِسِ الْحَفَلَةِ وَيَبْغِضُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَيَشْنَأُ أَهْلَ الْوَرَعِ وَالنَّسْكَ وَيُودِّ أَصْحَابَ الْفُجُورِ وَيُحِبُّ الْفَوَاحِشَ وَيَكْثُرُ ذِكْرُهَا... وَقَدْ يَصِيرُ مِنْ هَذِهِ حَالُهُ إِلَى الْفُجُورِ وَارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالتَّعَرُّضِ لِلْمَحْظُورَاتِ»¹. فنقوم هذه العلل والشَّهَوَاتِ بِتَصْدِئَةِ مِرَاةِ قَلْبِهِ وَنَكُوصِ نَفْسِهِ وَطُغْيَانِهَا.

4-2/ النفس اللوامة:

هي تتسم بالتأنيب الدائم لصاحبها على تقصيره في الطاعات ولومه على المخالفات الشرعية والسلوكات اللاأخلاقية، وتوبيخ ضميره الذي لا يهدأ، من أجل تهذيب النفس وإصلاحها، وقد أقسم بها الحق في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۚ﴾ (سورة القيامة، الآية 02)، تعظيمًا لشأنها ورفعتها، والمؤشِّرُ النَّفْسِيَّ لِهَذِهِ النَّفْسِ هُوَ الشَّعُورُ بِالنَّدَمِ عَلَى كُلِّ

¹ - ابن عربي، تهذيب الأخلاق. تح: عبد الرحمن حسن محمود. عالم الفكر، القاهرة. ط1، 01، 1986، ص: 16.

زيغ وقُبْح، وهذا دليلٌ على حياة القلب وَحُرِّيَّتِهِ وَصَفَائِهِ وَزوال الحجب عنه، رغم بقاء بعض آثار الرِّعُونَاتِ وَالْأَهْوَاءِ.

3-4/ النفس المطمئنة:

هي النَّفْسُ الَّتِي اطمأنت بِقُرْبِهَا مِنْ الله تعالى، بعد رفعها وإزالتها الحجب، وإرتقت إلى مرتبة نقاء الرُّوح، وَحُظِيت بِمَقَامَاتِ التَّرْقِيِّ وَمَذَاقَاتِ الْوُصُولِ بعد أنْ تَغَلَّبَتْ على أمراضها وَعِلَلِهَا وَشَهَوَانِيَّتِهَا، فَتَزَيَّنَتْ بِأَنْوَارِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ وَالْعِبَادِيَّةِ، فَبَلَغَتْ مَقَامَ الطَّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ، وَقَدْ أَشار إليها الله تعالى بقوله: (يَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨) سورة الفجر، الآية 27-28، وَبُلُوغِ هَذَا الْمَقَامِ لَا يَتَأَتَّى إِلَّا بِدَعْمِ خَارِجِيٍّ مِنْ شَيْخٍ مُرَبٍّ عَارِفٍ، يسهر عليها رُوحِيًّا لِيَقْطَعَ بها مراحِلَ النَّفْسِ مِنَ الْأَمَارَةِ بِالسَّوِّءِ إِلَى اللَّوَامَةِ، وَوُصُولاً بِهَا إِلَى الْمُطْمَئِنَّةِ، لِأَنَّ خُرُوجَ النَّفْسِ عَنْ أَطْوَارِهَا السَّابِقَةِ وَتَدْرِجِهَا فِي مُسْتَوِيَّاتٍ رَاقِيَةٍ، أَمْرٌ شَاقٌّ، لِصُعُوبَةِ الْإِنْفِكَاحِ مِنَ الْعَادَاتِ وَالسَّلُوكَاتِ الْمُتَأَصِّلَةِ فِي حَيَاتِهِ وَ الْمُتَجَذِّرةِ عِنْدِهِ.

وَهُنَاكَ مَنْ يَذْهَبُ مَذَاهِبَ أُخْرَى فِي تَحْدِيدِ مَقَامَاتِهَا وَأَقْسَامِهَا وَصِفَاتِهَا مِثْلَ مَا بَيَّنَّهُ الْجَدُولُ التَّالِي¹:

الجدول رقم (01) يُبيِّن أنواع النَّفْسِ وَمَقَامَاتِهَا

المقام الأول	المقام الثاني	المقام الثالث	المقام الرابع	المقام الخامس	المقام السادس	المقام السابع
النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ	النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ	النَّفْسُ الْمُلْهَمَةُ	النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ	النَّفْسُ الرَّاضِيَةُ	النَّفْسُ الْمَرْضِيَّةُ	النَّفْسُ الْكَامِلَةُ

¹ - عبد الوهاب الشعراني، موازين القاصرين من شيوخ ومريدين . تح: عاصم إبراهيم الكيالي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط01، 2007. ص: 40.

سيرها إلى الله	سيرها لله	سيرها على الله	سيرها مع الله	سيرها في الله	سيرها عن الله	سيرها بِالله
عالمها الإناسوت	عالمها الملكوت	عالمها الجبروت	عالمها اللاهوت	عالمها العباد	عالمها الأرواح	عالمها في عقل
محلّها الصدر	محلّها القلب	محلّها الروح	محلّها السّرّ	محلّها السّرائر	محلّها الأخفي	محلّها الخفاء
حالتها الميل	حالتها المحبّة	حالتها العشق	حالتها الوصلة	حالتها الفناء	حالتها الحيرة	حالتها اليقاع
واردها الشريعة	واردها الطريقة	واردها المعرفة	واردها الحقيقة	واردها تمييز بالجذب	واردها تمكين بالتلوين	واردها خطاب
نورها أزرق	نورها أصفر	نورها أحمر	نورها أبيض	نورها أخضر	نورها أسود	نورها ليس له لون

هذا الجدول في المقامات جدول النفوس السبع ونوع الصفات التي كلّ واحدة منها حتّى يتبيّن مدى العناية التي أولاها الصّوفية العارفون لنهج الذّوق في درب المعرفة الإلهية¹.

وتبقى الغاية الكبرى من هذه التّفريعات والتّقسيمات هو إخضاعها لسلطان الوعي الرّوحيّ وبلوغ مرتبة الطّهارة والكمال، وإحداث توليفة بين الجسد والعقل والنّفس والروح وتسخيرها لخدمة المجموع.

5/- الروح:

¹ - السيّد إسماعيل بن السيّد محمّد سعيد، الفيوضات الربّانية في المآثر والأوراد القادرية . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر، د.ت، ص: 88.

اختلف مشايخ الصّوفية وعُلماءها وشأنهم شأن العلماء الآخرين في تحديد ماهيتها تحديداً دقيقاً، فمنهم من قال باستحالة الاطلاع على كنهها وقد استأثر الله بعلمها، والبعض الآخر ربطه ربطاً وثيقاً بمقارنتها بالنفس، قال "الجنيد": «الروح شيءٌ استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجود لقوله تعالى: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) سورة الإسراء، الآية 85»، قال "أبو عبد الله النّباجي": «الروح جسمٌ يلطف عن الحسّ ويكبر عن اللمس ولا يُعبر عنه بأكثر من موجود»¹.

فاكتفى بالإقرار بوجودها ولم يتجاوز ذلك الحدّ في محاولة الإحاطة بها وتعريفها، بل توقّف في هذه المسألة خاصّة وأنّ النصوص الواردة في أمرها لم تتحدّث عن ماهيتها.

وقد عبّر عن هذا الاختلاف "ابن العربي" في التّدبيرات الإلهية بقوله: «اختلف العلماء في هذا الروح الذي عبّرنا عنه بالخليفة، فمنهم من قال أنّه جوهر فرد مُتحيّز وزعموا أنّه خلاف الحياة القائمة بالجسم الحيواني، وأنّه حامل الصّفات المعنوية وزعم قومٌ أنّ الإدراكات مُختصّة بمجالها... وزعم قومٌ أنّه جسمٌ لطيفٌ مُتشبّه بأجزاء البدن يتخلّلها تخلّل الماء الصوفة وأنّه ليس له محلٌّ من الجسم يخصّه»².

على الرغم من اتّفاقهم تقريباً على أنّ الروح حادثّة، وسابقةً على البدن، فالأجساد دُنيوية سُفلية والأرواح نُورانية علوية، إلّا أنّهم اختلفوا أيضاً في محلّها من الجسد، فقال بعضهم بالقلب وبعضهم بالروح الحيواني، مع اتّفاقهم على أنّ آخر أجزاء البدن هو القلب والروح الحيواني³. كما أقرّ "ابن العربي" بهذا الاختلاف، لكنّه كان أميل إلى جانب الحضور القلبيّ وعُضد استدلالاته بنصوص حديثيّة يُؤكّد أسبقية القلب وأفضليته في احتواء الروح «وقال قومٌ أنّ

¹ - الكلاباذي، التعرّف لمذهب أهل التّصوّف. مصدر سابق. ص: 40.

² - ابن عربي، التّدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية. تح: مُحمّد عبد الحيّ العدلوني الإدريسي. دار الثقافة، المغرب. ط1، 01، 2015، ص: 101.

³ - عبد الرزاق الفاشاني، آداب الطّريقة وأسرار الحقيقة. تح: عاصم إبراهيم الكيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1، 2005، ص: 167.

موضعه الدماغ، والأظهر عندي من طريق التنبيه والاستقراء لا من جهة البرهان، أنه القلب شرعاً» لقوله عليه صلی اللہ علیہ وسلم خيراً عن ربه: ((مَا وَسِعَنِي لَا سَمَائِي وَلَا أَرْضِي وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ))¹ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَخْرٍ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ))².

ويمكن أن نفرق بين النفس والروح في نظر المتصوفة، بنسبة كل فعل مضموم للنفس وكل فعل محمود هو من نصيب الروح، فالمقام الأعلى للروح، لصفائها وتخلصها من الشوائب، والنفس تسعى لأن تكون روحانية «فهي في حالة خلودها إلى المادة تسمى "نفساً"، ثم إذا صفت قليلاً تسمى "عقلاً" ثم "قلباً" ثم "روحاً" ثم أخيراً تصبح "سراً" كما كانت في البداية، فهذا كان أصلها سرّاً من أسرار الله»³.

فجميع الشرور الأخلاقية تكون من جراء تعلق النفس بأصلها الطيني الأرضي وحُبها للمادة وإرتباطها بالبدن، وتعلقها بالذات والشهوات الدنيوية، فهي تعيش حالة غربة، لا تزول ولا تمحي إلا بعودتها لأصلها الروحاني العلوي، الذي تأثر بفعل التحولات الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية للأفراد والمجتمعات، وأنتج إنساناً مادياً استهلاكياً فاقداً للقيم والأخلاق، تائهاً روحياً ونفسياً فإن «مجرد وجود الإنسان في العالم الهولاني والمادي لا يوجب غيبته لأن لديه علامة من عالمي الخلق والأمر، ولكن الذي يوجب غيبته هو نسيانه لعالم الأمر والوحدة، وضياعه في عالم المادة والكثرة»⁴.

¹ - الحديث القدسي ذكره أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. ج01. دار ابن حزم، بيروت، لبنان. ط01، 2005.

ص:890.

² - رواه مسلم.

³ - عبد المجيد الصغير، التصوف كوعي وممارسة. دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، المغرب. ط01، 1999، ص: 13.

⁴ - غلام حسين الإبراهيمي الديباني، إشراق الفكر والشهود في فلسفة السهروري. دار الهادي، بيروت. ط01، 2005، ص: 399.

تزكية النفس إلى مقام الروح قائم على هذا الأساس، لضياع النفس واشتغالها بعالم المادة والكثرة، وجميع الجواهر والأعراض والعناصر أشباح وحجب عن عالم الخلق والأمر والنفس اطمأنت وركنت لطبائع هذا العالم الدنيوي المادي الحسي وإنشغلت كلياً بمزاجها وابتعدت عن الله تعالى، فالإنسان بدأ رحلته الوجودية من العالم العلوي، العالم الروحاني وتناسى هذا الأصل وغفل عن هدف رحلته، وانغمس في العالم المادي «فإن الروح الإنسانية كما هبطت في سلم مُتداني الدرجات من عالم الروحانيات والمثل المجردة إلى العالم الحسي أو من منبع المعرفة اليقينية المطلقة إلى دنيا المعرفة الظنية الحسية، فإنها كذلك قادرة على العودة ثانية إلى حيث كانت وذلك عملية تطهيرية تتخذ صورة سلم مُتعالى الدرجات»¹.

فروح الإنسان تنشد التحرر من سجنها، وتلوثها بأدران الحياة المادية والرجوع إلى وطنها الأول وهي في أعلى مقاماتها الربانية، فالروح خلقتها عارفة، مُقرة بالوحدانية والعبودية ولكنها تفقد هويتها ومعرفتها بنزولها لمراتب النفس، ومخالطتها لأجساد وتأثرها ببيئتها الاجتماعية، فتغلو وتبتعد عن فطرتها وتقصّر في عبوديتها، ويلزمها لقطع مسافات الرحلة طمس كل الحجب الحسية والمعنوية المانعة لهذا الترقى الروحي، بتصفية النفس ومجاهدتها ومحو كل التعيينات الذاتية المقيّدة له، ورحلة العودة هذه، وإرجاع الروح لأصلها، ليس عملية بسيطة وسهلة، يقدر كل إنسان على قطعها براحة ويسر «فالانحطاط الروحي لم يحدث بضربة واحدة، وإنما حدث عبر مراحل مُتتالية، ومنطقياً لا يتم البعث والإحياء إلا بقطع نفس تلك المراحل في الاتجاه المعاكس، بالاقتراب التدريجي من "الوضع الفطري الأول" الذي ينبغي التحقق به من جديد»².

وما يعوق عملية البحث والإحياء والتقرب التدريجي من الوضع الأول هو الأبدان والنفس الظلمانية الطينية الميالة بطبعها للشهوات الجسمانية مأكلاً ومشرباً وملبساً، وكلما طالت المدة

¹ - عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها. دار الجيل، بيروت، لبنان. ط01، 1993، ص: 157-158.

² - عبد الواحد يحيى، التربية والتحقق الروحي: تصحيح المفاهيم. مرجع سابق. ص: 140.

وَتَرَسَّخَ فِي ذَلِكَ وَتَعَمَّقَ، تَكْنَفَتْ عُنَاصِرَهُ السَّفَلِيَّةَ وَقَوِيَّتْ، فَصَعِبَ الرَّجُوعُ وَالْعُودَةُ وَعَظُمَ حِجَابُ
النَّفْسِ.

وَضَمِنَ الْمَعَانِي الَّتِي رَكَّزَتْ عَلَيْهَا كَثِيرًا التَّربِيَّةَ الصَّوْفِيَّةَ، الْقَلْبَ بِإِعْتِبَارِهِ مَحَلَّ الْفِيوضَاتِ
وَالْأَسْرَارِ وَالْمَعْرِفَةِ الْكَشْفِيَّةِ الدَّوْقِيَّةِ فَـ «هُوَ لَطِيفَةٌ رَبَّانِيَّةٌ رُوحَانِيَّةٌ، لَهَا بِهَذَا الْقَلْبِ الْجِسْمَانِي
تَعْلُقٌ، وَتِلْكَ اللَّطِيفَةُ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ وَهُوَ الْمَدْرَكُ الْعَالَمُ الْعَارِفُ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ الْمَخَاطَبُ
وَالْمَعَاقِبُ وَالْمَعَاتِبُ وَالطَّالِبُ»¹.

6/- مصدرية التصوف:

لَقَدْ سَعَى الْمُسْتَشْرِقُونَ - خَاصَّةً - قَدِيمًا وَحَدِيثًا التَّأْصِيلَ لِمَصْدَرِيَّةِ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ
وَأَسْبَابِ نَشْأَتِهِ وَمَرَاحِلِ تَطَوُّرِهِ، وَمَوْضِعِهِ فِي الْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ضَمِنَ
مَشْرُوعَهُمُ التَّأْوِيلِيَّ لِلْمَجْتَمَعَاتِ عِبْرَ قَرَاءَاتِهِمُ الْفُونُولُوجِيَّةِ وَالتَّرَاثِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ، وَقَدْ اتَّفَقُوا تَقْرِيْبًا عَلَى
إِخْرَاجِ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ مَصْدَرِيَّتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ بِدَوَافِعٍ غَيْرِ مَوْضُوعِيَّةٍ فِي أَغْلِبِهَا
دِينِيَّةٍ عَصَبِيَّةٍ أَوْ جَنْسِيَّةٍ عَرَقِيَّةٍ، جَانِبُوا فِيهِ الدَّقَّةَ وَاسْلَامَةَ الْقَصْدِ، فَحَكَمَتْ عَلَى التَّصَوُّفِ
عُمُومًا بِأَنَّهُ حَرَكَةٌ دَخِيلَةٌ عَلَى الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَنَّهُ نَشَأَ وَتَطَوَّرَ بِفِعْلِ مَصَادِرٍ أَعْجَبِيَّةٍ:
هِنْدِيَّةٍ، فَارْسِيَّةٍ، يُونَانِيَّةٍ، أَفْلُوطِينِيَّةٍ، مَسِيحِيَّةٍ... وَغَالِبُ الْمَدَارِسِ الْإِسْتِشْرَاقِيَّةِ لَمْ تُحَاوِلْ أَصْلًا أَنْ
تَلْتَمِسَ أَصُولَهُ فِي بَيْنَتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَبَعْضُهُمُ الْآخِرُ حَاوَلَ الْإِقْرَارَ بِظُهُورِ الْبُذُورِ الْأُولَى الزَّهْدِيَّةِ
فِي الْوَسْطِ الْإِسْلَامِيِّ، لَكِنَّهُ أَكَّدَ عَلَى تَأَثُّرِهِ فِي مَرَاكِلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمَصَادِرِ الْأَعْجَبِيَّةِ الْآخَرَى،
وَتَبَتَ بَعْدَ ذَلِكَ مُرَاجَعَاتٌ كَثِيرَةٌ لِبَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ لِأَرَائِهِمْ وَأَكَّدُوا عَلَى أَصُولِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مِثْلُ:

¹ - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. مصدر سابق. ص: 877.

رينولد ألين نيكلسون (Reynold Alleyne Nicholson)، لويس ماسينيون (Louis Massignon) و جون سبنسر ترمنجهام (J. Spencer Trimingham)¹.

وَيُمْكِنُ إِجْمَالُ أَهَمِّ اتِّجَاهَاتِهِمْ فِي ذَلِكَ وَدُونُ تَفْصِيلِ أَدْلَتِهِمْ وَتَبَرِيرَاتِهِمْ وَمُنَاقَشَةُ كُلِّ آرَائِهِمْ وَمَوَاقِفِهِمْ:

1 -المنشأ المسيحي: حيث يرى كُلٌّ مِنْ "نيكولسون، Reynold Alleyne Nicholson"

و"اجنتس جولد تسهر ، Ignác Goldziher" و"مكدونالد، George MacDonald" و"مرجريت سميث، Margaret Smith" أَنَّ التَّصَوُّفَ وَالْعُرْفَانَ أُصُولُهَا مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ، لِصِلَاتِ الْعَرَبِ وَالتَّنَاصُريِّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَلِلشَّبْهِ فِي حَيَاةِ الزَّهَادِ وَالصُّوفِيَّةِ وَحَيَاةِ الْمَسِيحِ وَالرَّهْبَانِ وَطُرُقِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ وَالْمَلْبَسِ، كَمَا إِسْتَدْنَدُوا عَلَى مَذْهَبِ الْحَلَاجِ، خَاصَّةً اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ².

2 -الأفلاطونية الحديثة: وَقَدْ عَتَبَهَا "نيكولسون" الْمُؤَثِّرُ الثَّانِي فِي التَّصَوُّفِ، بَيْنَمَا عَتَبَهَا "جولد تسهر" الْمُؤَثِّرُ الْأَسَاسِيُّ فِي مَرَحَلَةِ الْعُرْفَانِ، خَاصَّةً مَعَ التَّصَوُّفِ الْفَلَسْفِيِّ لِلسَّهْرُورِيِّ، ابْنِ سَبْعِينَ، وَابْنِ الْعَرَبِيِّ.

3 -المنشأ الهندي: وَيَرَى "نيكولسون" أَنَّ هَذَا الْمُؤَثِّرَ هُوَ الرَّابِعُ فِي تَرْتِيبِ الْمُؤَثِّرَاتِ الَّتِي نَهَلَ مِنْهَا الْمُتَصَوِّفَةُ الْمُسْلِمُونَ.

وَقَدْ ظَهَرَتْ آرَاءُ أُخْرَى سَعَتْ إِلَى تَوْسِيعِ دَائِرَةِ هَذِهِ الْمُؤَثِّرَاتِ، كَالْمَنْشَأِ الزَّرَادَشْتِيِّ وَالْمَانَوِيِّ....³

7/- مصادر التربية الصوفية:

¹ - يُنْظَرُ: جُون سَبْنِسَر تَرْمَنْجَهَام ، الْفَرْقُ الصُّوفِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ . تَح: عَبْد الْقَادِر الْبَحْرَاوِي. دَار الْمَعْرِفَةِ الْجَامِعِيَّةِ، الْقَاهِرَةُ، مِصْر. 1994، ص: 23-24.

² - رَيْنُولْد آلَن نِيكُولْسُون، فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ وَتَارِيخِهِ. تَح: أَبُو الْعَلَا عَفِيْفِي. مَطْبَعَةُ لَجْنَةِ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالنَّشْرِ، الْقَاهِرَةُ، مِصْر. 1947، ص.ص: 43-69.

³ - عُمَرُ فَرْوْخ، تَارِيْخُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ. مَنَشُورَاتُ الْمَكْتَبِ التِّجَارِيِّ، بِيْرُوت، لُبْنَان. ط01، 1962، ص: 380-381.

تُعتبر التربية الصوفية منهاجاً مُتكاملاً لتجربة ذاتية وجماعية مُركّزة، تجمع بين السلوك والتأمل والفكر، مُرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوحي السماوي الإلهي، فلا يُمكن أن تسمو أيّ تربية رُوحية إلا إذا ارتبطت بالطابع "فوق الفردي"، الإلهي الصادر عن وحي أو إلهام وبإذن رباني «فإن جوهر وغاية التربية الروحية ثابتان لا يتغيران على الدوام في كل مكان، ولا اختلاف إلا في الكيفيات، بمقتضى التكيف مع الأزمنة والأمكنة وحتى لا يلتبس الفهم على أحد، نُضيف على التّو بأنّ التكيف نفسه لكي يكون شرعياً سويّاً، لا يُمكن أن يكون أبداً "ابتداعاً" أي: نتيجة هوى فرديّ، وإنّما مثله مثل الأشكال التّراثية الروحية الأصيلة عموماً لا بدّ أن يكون دائماً صادراً في النهاية من أصل غير بشريّ، أي: وحي أو إلهام أو إذن ربّاني... وبدونه لا يوجد حقاً تراثٌ رُوحى ولا تربية رُوحية»¹.

فالتربية الصوفية مُرتبطة أساساً بمرتبة الإحسان الواردة في حديث جبريل -عليه السّلام- ويُعطي هذا الحديث أبعاداً ووظائف مُتعددة للإسلام، ديناً ومنهجاً وسلوكاً، ويجب أن نستوعب دلالاته الوجودية والمعرفية التّراتبية المتدرّجة والمتنوّعة والمركّبة، لنعي المراتب والمستويات الثلاثة المنضوية تحت (الإسلام، الإيمان، الإحسان) وتتشكّل من خلاله مناحي الإدراك من الظّاهر الشّكليّ إلى الباطن الروحي، الأمر الذي أدّى بأعلام وشيوخ التّصوّف قديماً وحديثاً إلى تدوين هذه الممارسات السلوكية، التي يغلب عليها التّوجّه الأخلاقيّ الرّوحيّ المنظّم الذي يُرسّخ الحياة السلوكية للصّوفيّ الجامع بين الشريعة والحقيقة، الأحوال والمقامات، عن طريق الرياضة المستمرة، وُصُولاً إلى مقام الإحسان، مُراعين دائماً حدود الدّين الإسلاميّ، سواء استدلالاتهم أو استنباطاتهم، أو أدواتهم، وحتى مُصطلحاتهم.

7-1/ القرآن الكريم:

¹ - عبد الواحد يحي، نظرات في التربية الروحية. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن. ط 01، 2014، ص: 04.

فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ لِلتَّحْقِيقِ الصَّوْفِيِّ فِي أَصْلِهِ وَتَطَوُّرِهِ، وَفِي تَدَبُّرِهِ وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ فَقَدْ حَرَصَ الْمُتَصَوِّفَةُ عَلَى تَأْصِيلِ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ مِنْهُ وَرَبَطَهُ بِالنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا فِي الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ «فَالصَّوْفِيَّةُ مُخْصِصُونَ مِنْ أُولَى الْعِلْمِ الْقَائِمِينَ بِالْقِسْطِ بِحُلِّ هَذِهِ الْعَقْدِ وَالْوُقُوفِ عَلَى الْمَشْكِالِ مِنْ ذَلِكَ، وَجَمِيعِ ذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا يُنْكِرُهُ الْعُلَمَاءُ إِذَا اسْتَبَحُّثُوا عَنْ ذَلِكَ»¹.

فَالسَّلُوكُ الصَّوْفِيُّ الْقَائِمُ عَلَى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَطَيِّ مَرَاكِلِ الْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ، وَالتِّي تَنْتَهَجُ فِي سِيرِهَا مَعْرَاجًا رُوحِيًّا قَوَامَهُ فِيمَا يُعْرَفُ عِنْدَ الصَّوْفِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ، مَبْنِيٌّ أَسَاسًا فِي مَبَانِيهِ وَمَعَانِيهِ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بَلْ حَرَصَ الصَّوْفِيَّةُ كَثِيرًا فِي كُتُبِهِمْ عَلَى بَيَانِ أَنَّهَا تَسْتَدْتِدُّ جَمِيعًا إِلَى آيٍ وَشَوَاهِدِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

فَالْقَشِيرِيُّ حِينَمَا يَشْرَحُ مَقَامَاتِ الصَّوْفِيَّةِ، يَبْدَأُ شَرْحَهُ لِكُلِّ مَقَامٍ بِبَيَانِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ فِي ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ آيَةً صَرِيحَةً ذَكَرَ أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً، فَذَكَرَ آيَاتِ لِلْأَبْوَابِ: التَّوْبَةِ، الْمَجَاهِدَةِ، التَّقْوَى الْخَوْفِ، الرَّجَاءِ، الْحُزْنَ، الْجُوعَ، الْخُشُوعَ، مُخَالَفَةَ النَّفْسِ، الْحَسَدَ، الْغِيْبَةَ، الْفَنَاعَةَ، التَّوَكُّلَ الشُّكْرَ، الْيَقِينَ، الصَّبْرَ، الْمُرَاقَبَةَ، الرِّضَا، الْعِبَادِيَّةَ، الْإِرَادَةَ، الْاسْتِقَامَةَ، وَتُشِيرُ بِإِخْتِصَارٍ إِلَى بَعْضِ الْآيَاتِ الَّتِي تَسْتَدْتِدُّ إِلَيْهَا بَعْضُ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ.

- مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ: لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

٦٩) سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ، الْآيَةُ 69.

- التَّقْوَى: لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى) سُورَةُ الْحَجَرَاتِ، الْآيَةُ 13.

- الزَّهْدُ: لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى) سُورَةُ النَّسَاءِ، الْآيَةُ 77.

- التَّوَكُّلُ: لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) سُورَةُ الطَّلَاقِ، الْآيَةُ 03.

- الشُّكْرُ: لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ، الْآيَةُ 09.

¹ - أبو نصر السَّراج الطوسي، اللمع. تح: عبد الحليم محمود، عبد الباقي سرور. دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر. 1960،

وَكَلَامِ الصَّوْفِيَّةِ فِي الْمَعْرِفَةِ الْحَاصِلَةِ عَنِ النَّقْوَى وَالتَّخَلُّقِ وَالْإِلْهَامِ وَالْكَشْفِ، وَالْعِلْمِ اللَّدْنِيِّ يُرَدُّ عَنْهُمْ إِلَى آيَاتِ فُرْأْنِيَّةٍ، مِثْلُ: قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) (سورة البقرة الآية 282)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ٦٥) سورة الكهف، الآية 65، بِالإضافة إلى الاستناد إلى القصص القرآني في ذلك خاصة تعلّم موسى عليه السّلام على يد الخضر.

بالإضافة إلى استنادهم أيضاً على كتاب الله في تسمية مراتب أعلامهم وأصنافهم، فقد أورد الطّوسي في (اللمع) باباً سمّاه باب الرّدّ على مَنْ زعم أنّ الصّوفيّة قومٌ جهلةٌ وليس لِعِلْمِ التّصوّف دَلَالَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالْأَثَرِ... وَيُرَدُّ أَهَمُّ الْمَصْطَلَحَاتِ وَيَدُلُّ عَلَيْهَا مِنَ الْكِتَابِ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، الْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، الْعَابِدِينَ، السَّائِحِينَ، الصَّابِرِينَ، الرَّاظِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ، الْمُخْبِتِينَ، الْأَوْلِيَاءِ، الْمُتَّقِينَ، الْمُصْطَفِينَ، الْأَبْرَارَ، الْمُقَرَّبِينَ¹، بَلْ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَصْبَحَ «الْوَسِيلَةَ الْإِعْلَامِيَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَهَا بِهَا، وَفِي ظَاهِرَةٍ مُّبَكَّرَةٍ مِنْ نَوْعِهَا بَدَأَ الْقُرْآنَ يُؤْخَذُ عَلَى أَنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ وَأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَأَنَّ قِدْمَهُ مِنْ قِدْمِهِ وَكَانَ الْقُرْآنَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَلِلصَّوْفِيِّ خَاصَّةً قَامُوسُهُ الْجَامِعُ بِلَا مُنَازَعٍ، وَمَرْجِعُ كُلِّ عُلُومِهِ وَمِفْتَاحُ تَأْمَلَاتِهِ فِي الْكُونِ»².

بَلْ تَجَاوَزَ الصَّوْفِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ مَرَحَلَةَ الاسْتِدْلَالِ وَاصْطِنَاعِ الْمَصْطَلَحِ إِلَى التَّأْوِيلِ وَالِاسْتِنْبَاطِ وَفَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَاسْتَعْمَلُوا تَفْسِيرًا إِشَارِيًّا، يَنْتَاسِبُ وَرُؤْيَتَهُمْ وَمَنْهَجَهُمْ وَخَطَابَهُمْ، فَتَجَاوَزُوا الظَّاهِرَ وَالْمَعَانِي اللَّغَوِيَّةَ الْبَسِيطَةَ إِلَى التَّأْوِيلِ الرَّمَزِيِّ الْإِشَارِيِّ، وَلَمْ يَعِدِ التَّصَوُّفُ مُجَرَّدَ اسْتِنْتَاجَاتٍ فُرْأْنِيَّةٍ وَقَرَأَاتٍ تَفْسِيرِيَّةٍ ظَاهِرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ، بَلْ سَاهَمُوا مُسَاهِمَةً عَظِيمَةً فِي تَطَوُّرِ الْعُلُومِ الْقُرْأَنِيَّةِ وَإِعْطَاءِ تَفْسِيرَاتٍ بَاطِنِيَّةٍ لِلآيَةِ الْوَاحِدَةِ، مُفْتَتِحِينَ بِأَصَالَةِ حَقِيقَةِ "الباطن" عَلَى الظَّاهِرِ، فَالتَّفْسِيرُ "الرُّوحِي الْحَقِيقِي" لَا يَنْبَنِي فَقَطْ عَلَى مُرَاعَاةِ الْكِرُونُولُوجِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْوَاقِعِيَّةِ، وَأَسْبَابِ النَّزُولِ، وَوَعَاءِ اللَّغَةِ إِلَى الْبَاطِنِ، لِيَتطَابَقَ مَفْهُومُ "الإحسان" مَعَ التَّصَوُّفِ وَيُشَكِّلَ مُرَادِفًا لَهُ،

¹ - أبو نصر السّراج الطوسي، اللمع. مصدر سابق. ص: 34.

² - أنا ماري شميل، الأبعاد الصّوفية في الإسلام وتاريخ التّصوّف . تر: مُحمّد إسماعيل السيّد، رضا حامد قُطب. منشورات الجمل، بغداد، العراق. 2004، ص: 32.

وَعَلَمًا خَاصًّا وَمَخْصُوصًا لِطَبَقَةٍ مُعَيَّنَةٍ هِيَ الصَّوْفِيَّةُ فَ «التَّصَوُّفُ لَيْسَ أَبَدًا شَيْئًا "مُضَافًا" إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، أَيْ: لَيْسَ هُوَ شَيْئًا أَتَى مِنَ الْخَارِجِ فَالْصُّقُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالْعَكْسِ جُزْءٌ جَوْهَرِيٌّ مِنَ الدِّينِ، إِذْ أَنَّ الدِّينَ بِدُونِهِ يَكُونُ غَيْرَ مُكْتَمَلٍ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، بَلْ يَكُونُ حِينَئِذٍ نَاقِصًا مِنْ جِهَتِهِ الْعَلِيَا، أَعْنِي جِهَةَ مَبْدَأِهِ الْأَسَاسِيِّ لِذَلِكَ كَانَتْ افْتِرَاضَاتٌ غَيْرُ مُبَرَّرَةٍ تِلْكَ الَّتِي تَزْعُمُ أَنَّ أَصْلَ التَّصَوُّفِ أَجْنَبِيٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ يُونَانِيٌّ أَوْ فَارِسِيٌّ أَوْ هِنْدِيٌّ، وَمَا يُفْتَدِّهَا بِوُضُوحٍ كَوْنُ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ الْخَاصَّةِ بِالتَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِالتَّرْكِيبِ نَفْسِهِ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ»¹.

هذا لا يعني حتمية -التشابه- أَوْ حَتَّى الْمِمَاتِلَةِ فِي أَدْيَانِ وَمَذَاهِبٍ وَمَلِلٍ أُخْرَى لاعتبارات الوحدة الحقيقية الربّانية الواحدة، ومركزية الوحي الإلهي، فجميع الديانات السماوية متطابقة في جوهرها -التوحيد- مهما اختلفت أشكالها وشرائعها وطقوسها الممارسة، فالواجب ألا ننظر للتربية الصوفية الروحية، كترية مستوردة، أصولها أجنبية عن أصول ديننا الحنيف، وألا نوظفها خارج إطارها التراثي الإسلامي "الظاهر والباطن" أَوْ "الشريعة والحقيقة" وهما ينبعان مباشرة من تعاليم القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ يُعَدُّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ الْمَرْجَعَانِ الْأَصْلِيَانِ، فَالتَّأْوِيلِيَّةُ الصَّوْفِيَّةُ قَدِّمَتْ طَرَحًا جَدِيدًا وَمُمَيِّزًا تُمَارَسُ فِيهِ أَكْثَرُ حُرِيَّةٍ فِي اسْتِبْطَانِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ تَجَاوُزُ حُدُودَ اللُّغَةِ وَالظَّاهِرِ بَحْثًا عَنْ دَلَالَاتٍ وَأَبْعَادٍ أَعْمَقَ لِلنَّصِّ مِنْ خِلَالِ اللُّغَةِ الْعَرَفَانِيَّةِ وَبِالْإِلَهَامِ وَالْكَشْفِ الرَّبَّانِيِّ.

«فَهُمْ يَرُونَ أَنَّ لَهُمْ مِنْهَجًا فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَحَيَاةِ النَّبِيِّ يُمَكِّنُهُمْ مِنْ إِيجَادِ عِلْمٍ جَدِيدٍ غَيْرِ عِلْمِ الْفَقْهِ وَالْكَلَامِ وَسَائِرِ الْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَهُوَ "عِلْمُ الْإِشَارَةِ" الَّذِي يَكْشِفُ لِلصَّوْفِيِّ الْمَعَانِي الْمَذْخُورَةَ وَاللَّطَائِفَ وَالْأَسْرَارَ الْمَخْزُونَةَ وَغَرَائِبَ الْعُلُومِ وَطَرَائِقَ الْحُكْمِ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ وَمَعَانِي أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ أَحْوَالُهُمْ وَأَوْقَاتُهُمْ وَصَفَاءُ أَذْكَارِهِمْ»².

¹ عبد الواحد يحيى، التَّصَوُّفُ الْإِسْلَامِيُّ الْمَقَارَنُ . تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط01، 2013، ص: 21.

² عبد الرحمن بدوي، تاريخ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْبَدَايَةِ حَتَّى نِهَايَةِ الْقَرْنِ الثَّانِي . وكالة المطبوعات، الكويت. ط01، 1975، ص: 60.

على الرغم من أنّ عملية الإيجاد هنا المرتبطة بـ"علم الإشارة" لا يتم اكتسابها بالبحث والاطّلاع، بل هي منحة إلهية ربانية نورانية

«فَمَسَعَى النَّأْوِيلُ عِنْدَ الْمُتَصَوِّفِ هُوَ الْمَعْرِفَةُ الْكُشْفِيَّةُ، مِنْ خِلَالِ الْإِدْرَاكِ الدَّقِيقِ، وَتَأْوِيلَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى خِلَافِ أَنْوَاعِ التَّفَاسِيرِ الْأُخْرَى، وَعَلَى خِلَافِ مَا تُبْرِزُهُ ظَوَاهِرُ النَّصُوصِ بِمُقْتَضَى إِشَارَاتِ خَفِيَّةٍ، لَا تَظْهَرُ إِلَّا لِلْعَارِفِينَ الْكُمَّلِ فَيَرْتَكِزُ عَلَى رِيَاضَةِ رُوحِيَّةٍ يَأْخُذُ بِهَا الصَّوْفِيُّ نَفْسَهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى دَرَجَةٍ تَتَكَشَّفُ لَهُ فِيهَا مِنْ سَجَفِ الْعِبَارَاتِ هَذِهِ الْإِشَارَاتُ الْقُدْسِيَّةُ وَتَنْهَلُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ سَحَبِ الْغَيْبِ مَا تَحْمِلُهُ الْآيَاتُ مِنَ الْمَعَارِفِ السَّبَّاحِيَّةِ»¹.

فهذه التّجليات والتّفسيرات الباطنية المجازية الإشارية للنّص القرآني ترتكز على المجاهدات الروحية، ليحصل بعدها الفتح الرّبانيّ والكشف النّورانيّ للمعاني الباطنية للقرآن، ليصل من خلالها للكشف عن الأغراض الأساسية للوحي وكيفية تمثّله في عملية التّربية الروحية وممارسته في طريق الكمال.

7-2/ السّنة النّبوية:

كانت ولا زالت سنّة نبينا مدار حياتنا بكلّ محاورها المختلفة العقلية والعملية والدّينية كعلم الكلام وأصول الدّين والفقه، فكان لزاماً أن تتبع وتُصاغ الحياة الصّوفية من مصدر الوحي ومنبع الحكمة الإلهية والشّواهد كثيرة على أنّ الممارسات الصّوفية وما تحويه من أشكال زهدية وترقية روحية أخلاقية ورياضات عملية، وما يترتّب عنها من ثمرات روحية مصدرها ومادّتها الأولى مُشتملة عليها أقوال النّبي وأفعاله وأخلاقه وحياته قبل وبعد البعثة «فَالصَّوْفِيَّةُ أَحْيَاوُا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَفُوا فِي بَدَايَاتِهِمْ لِرِعَايَةِ أَقْوَالِهِ وَفِي وَسْطِ حَالِهِمْ اقْتَدَاوُا بِأَعْمَالِهِ، فَأَتَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ فِي نَهَايَاتِهِمْ أَنْ تَحَقَّقُوا بِأَخْلَاقِهِ، وَتَحْسِنِ الْأَخْلَاقَ لَا يَتَأَتَّى إِلَّا بَعْدَ تَرْكِيبَةِ النَّفْسِ، وَطَرِيقِ

¹ - محمد حسين الدّهبي، التفسير والمفسرون. ج2. مكتبة وهبة، القاهرة، مصر. دت. ص: 261.

التزكية بالإذعان لسياسة الشرع»¹.

فالسُّنة النبوية المصدر الثاني للتصوّف، وقد حاول المتصوّفة تأسيس إسلامهم الصّوّفيّ على اتّخاذ النّبّيّ عليه السّلام الأنموذج الكامل للإنسان فتأسّوا به وبأخلاقه الكريمة وسلوكه الأمثل، كما استمدّوا من أحاديثه مفاهيمهم وتعريفهم للمقامات الخاصة بالطريقة الصّوفية وقد اعتبر "مُحمّد مصطفى حلمي" أنّ البذرة الأولى للزّهد، هو تحنّث النّبّيّ ﷺ غار حراء قبل البعثة النبوية «ونستيقن أنّ تحنّث مُحمّد في غار حراء إنّما هو البذرة الأولى التي نبت منها زُهد الزّهاد وعبادة العباد وتصوّف الصّوفية... هُنالك كان يحيا مُحمّد ﷺ رُوحيةً خالصةً، لا تشوبها شائبة من شوائب الحياة المادية، ولا يُفسدها عليه شيء من متاع الدّنيا أو جاهها... حتّى صفت نفسه ودقّ حسّه وصقلت مرآة قلبه، وتهيأ له أن يرى الرّؤيا الصادقة»².

تأسى المتصوّفة بسلوك النّبي في مأكله ومشربه وخلوته وزهده وتحنّثه وفي كل أفعاله وأقواله وحياته، كما مثّلت الإرهاصات الأولى في عملية التّحوّل من البشر السّويّ إلى البشر النّبي، وحيّة التّحنّث والتّأمّل في الغار إحدى أهمّ الصّور التي سيعيشها فيما بعد الزّهاد والصّوفية كضرب من ضروب المجاهدات التربوية في عملية التسليك.

أمّا عن حياته عليه الصّلاة السّلام بعد البعثة، فقد كان يأخذ نفسه بالزّهد والنّقشف في المأكل والملبس مُقبلاً على التّقوى والصّبر والخوف والرّضا والشّكر والعكوف على العبادة.

فالصّوفيون يتّخذون الرّسول ﷺ أصلاً من أصول المعرفة الصّوفية، فوصف القرآن له بـ"النّبّيّ الأمّي" جُعِلت خاصيّة ارتكزت عليها التّعاليم الصّوفية في أمورٍ كثيرةٍ بإقامة حياة رُوحية تتفق مع سُنّة المصطفى كما أصبح عروجه إلى الحضرة الإلهية المسطور نصّاً في سورة الإسراء وتأويله في نظر الصّوفية في سورة النّجم مثلاً يُحتذى في صعود الصّوّفيّ برُوحه

¹ - شهاب الدّين أبي حفص عمر السّهروردي، عوارف المعارف . ج 02. تح: عبد الحليم محمود، محمود بن الشّريف. دار المعارف، القاهرة، مصر، 2000 ص: 56.

² - مُحمّد مصطفى حلمي، الحياة الرّوجية في الإسلام. دار الكتاب اللّبناني، بيروت، لُبنان، 2010، ص: 16.

وترقيته، وأضحى المعراج رمزاً رُوحياً صُوفياً، له دلالاته العظيمة القيّمة باتّخاذهِ أنموذجاً فريداً ومقصداً لكلّ سالكٍ ومريدٍ للطريق الصّوّفيّ، لبلوغ المشاهدة الرّبّانية والحضرة القدسية وإطلاعه على الأسرار الملكوتية الغيبية، فأصبح معراج خير الأنام محمد صلّى الله عليه وسلّم نموذجاً لتجاوز السائر كلّ ما قد يُعيقه ويحول بينه وبين ربّه، فبلوغ المعراج الرّوحيّ مرهونٌ بمُعانقة المجاهدة الرّوحية وخوض معركة شاقّة مع النّفس الإنسانيّة وهذا «المعراج المناميّ الرّوحيّ العرفانيّ إرثٌ يحظى به الوليّ التّابع المحمديّ»¹.

كما أنّ معراج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تحضيرٌ بدنيّ للسلوك والقبول من شق صدر وغسل القلب، وملئه حكمَةً وإيماناً، لأنّ المعراج قُربٌ وإرتقاءٌ إلى مكانٍ طاهرٍ مُطهّرٍ تشريفاً وتكريماً، فكذلك المعراج الصّوّفيّ تسبقه مُجاهدةٌ وتطهّرٌ نفسيّ وقطعٌ للمقامات.

فالمتصوّفة يرون أنّ النّبّي صلّى الله عليه وسلّم مهّد للطريق الصّوّفيّ، بمسلكه الزّهديّ المتسامي عن زخارف الحياة الدّنيا الزّائلة، بل أصبحت مواقفه في أحيانٍ كثيرةٍ مواقف ملهمة في حياة الصّوفية فيما بعد البعثة، كالرّؤيا الصادقة وخُلوته وتحنّته واعتكافه، الدّعوة إلى الزّهد والتّذكير الدّائم بالحياة الآخرة، بالإضافة إلى الدّعم النّظريّ، والتمثّل في تجاوز مرتبتيّ الإسلام والإيمان، إلى درجة الإحسان، وهذا ما يزيد من الحضور الزّهديّ الصّوّفيّ الرّوحيّ خطاباً ومُمارسته في سنّة النّبّي صلّى الله عليه وسلّم

بالإضافة إلى تبني بعضهم فكرة "الإنسان الكامل" أو "النور المحمديّ" التي تظهر جليّاً مدى ارتباطهم بشخصية رسولنا الكريم عليه الصّلاة والسّلام وإعتمادها كـشخصيةٍ مثاليةٍ نموذجيةٍ يُقتدى بها في كلّ الأحوال «فَالرّسول أوّل الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً، وكان نبياً وآدم بين الماء والطّين، وهُو أوّل الفقراء والمفتخر بالفقر وقد وضع الله تعالى علماً خاصاً في قلبه وعَلّمه الحقائق الأزليّة، وهُو الغرض من خلق الإنسان وبه يتمّ خلقه، وهُو المختصّ برُتبة "قَاب

¹ - ابن عربي، الإسرا إلى المقام الأسرى. تح: سعاد الحكيم. دندرة للطباعة والنّشر، بيروت، لبنان. ط01، 1988، ص: 33.

قوسين"»¹.

كما استمدت التربية الصوفية مصطلحاتها وأسماء مقاماتها وأحوالها من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أهم الأحاديث تأصيلاً في هذا الباب، والتي تدور عليه ممارسات الصوفية الحديث ع ن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا. فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ: وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ))².

الحديث الثاني حديث جبريل - عليه السلام - وسؤاله عن حقيقة الإسلام والإيمان والإحسان، فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «... قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ"»³.

كما امتلأت كتب الصوفية بأحاديث النفس والروح، والقلب، والمحبة، والمجاهدة، فلقد أحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم غنوا به في حكمهم ونثرهم وشعرهم، وذكرهم، ووضعوا نظريات صوفية خاصة في حبه.

7-3/ حياة الصحابة وأحوالهم:

لم تقتصر القدوة على الرسول صلى الله عليه وسلم، بل تجاوزوه إلى صحابته، لما انطوت عليه حياتهم من منازع روحية وأذواق قلبية، فسلوك الصحابة وأقوالهم الدالة على التقشف والزهد والإقبال على الله والإعراض عن الدنيا، معيناً يغترفون منه ويتمثلونه في تجاربهم، وكلّ

¹ - إبراهيم الدسوقي شتاً، التصوف عند الفرس. دار المعارف، القاهرة، مصر، 1978، ص: 19.

² - محمد إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح. بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض، السعودية، 1958م/1334هـ، ص: 6982.

³ - المصدر نفسه. رقم 7124. ص: 1057.

صحابي يُجسّد قيمةً من قيم الصّوفية، فَهُم العارفون الواصلون، لإدراكهم وإغترافهم من مشكاة ونُور النّبوة، فَلَا نجد طريقة صُوفية إِلَّا وَسندَها مُتّصِلٌ بِأحد الصّحابة -رضوان الله عليهم- «فقد امتازوا بِسُلوِك حياة الزّهد، وَحياة التّقوى الشّديدة، وَكانوا يُكثّرون التّأمّل والفكر وَالاعتبار وَيدعون إِلَى الزّهد فِي الدّنيا وَالانصراف عن ملاذها وَنِعمها، وَيُؤكّدون جانب العبادة على جانب الفعل وَالشاركة فِي الدّولة وَالشّؤون السّياسية وَبِهذا كانوا النّواة الأولى لِحركة الزّهد فِي الإسلام»¹.

فَالصّحابة وَإِنْ لم يتسمّوا بِاسم الصّوفية -لَشَرَفٌ مُسمّى صُحبة رسول الله- إِلَّا أَنَّهُم كانوا صُوفيين فعلاً، إيماناً بِاللّهِ وَإِقْتداءً تامّاً بِرسوله، فَمُصطلح التّصوّف وَإِنْ كان حادثاً فَأُحواله كانت مرسومةً وَموجودةً، فَقاموا بِالْفرائض وَاسْتَشعروها اسْتِشعاراً حَقِيقاً، وَانْشغلوا بِالنّوافل وَذاقوا حلاوتها وَازدادوا بِها قُرْباً وَمَحَبَّةً، فَاسْتتارت قرائِحهم وَتَفَجّرت بِنايِيع الحكمة مِنْ أَفواههم وَقُلُوبهم، وَقَدْ خَصّصَتْ جُلّ مَصادر التّصوّف أرباباً فِي ذِكر أئمّتهم مِنَ الصّحابة وَالتّابعين وَتابعي التّابعين -رضي الله عنهم أَجمعين- وَطَبقاتهم، الَّذِينَ كانوا هُداةً مُهتدين وَقُدوةً بعد الأنبياء مِنَ السّابقين الأولى «منهم شيخ الإسلام وَبعد الأنبياء خَيْرٌ وَأفضلُ الأنام خليفة النَّبِيِّ، وإمامٌ وَسَيِّدُ أَهل التّجريد وَهادي أرباب التّفريد، وَالبعيد عن الآفات النّفسية "أبو بكر عبد الله بن عُثمان الصّديق" -رضي الله عنه-، صاحب الكرامات المشهورة، وَالآيات وَالدّلائل الظّاهرة فِي المعاملات وَالحقائق، وَبعده المشايخ مُقدم أرباب المشاهدة لِقلّة حكاياته وَرواياته، وَيعدّون "عُمر" -رضي الله عنه- مُقدّم أرباب المجاهدة لِصلابته وَمُعاملته»².

وَواصلوا تعداد لِطائفتهم وَأقوالهم، مِنْ أَهل البيت وَالتّابعين وَالأمصار وَتابعي التّابعين وَوصولاً إِلَى المتأخرين وَمِنْ أَهمّ طبقات الصّحابة الَّذِينَ ورثوا تعميق الجوانب الرّوحية طائفة القراء وَأهل الصّفة، فَأَمّا الطائفة الأولى، وَهي طائفةُ القراء، يقول عنهم "أبو نعيم" صاحب الحلية: إِنَّ

¹ - عبد الرّحمان بدوي، تاريخ التّصوّف. مرجع سابق. ص: 133.

² - الهجویری، كشف المحجوب. مصدر سابق. ص: 267.

مُعظم هؤلاء كانوا من الأنصار، وَكانوا يدعون القراء، يحتطبون بالنهار وَيُصَلُّون بالليل أَوْ كما قال عنهم "ابن سعد": يُلازمون الأعمدة ليلاً يتهجدون¹، وَقَدْ أَرَسَ الرَّسُول ﷺ رجلاً منهم لِبَعْضِ الْقَبَائِلِ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ، فَقَتَلُوا بِبُئْرِ مَعُونَةٍ وَيَصِفُهُمْ صَاحِبُ الْحَلِيَةِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا الطَّبَقَةَ الْأُولَى مِنَ النَّسَاكِ وَالْعَارِفِينَ وَالْعِبَادِ الَّذِينَ انْقَرَضَ مُعَظَمُهُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهَمَّ شَخْصِيَّاتِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَلَهُمْ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ فِي التَّقَلُّلِ وَالتَّزَهُدِ وَفِي إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ وَتَرْكِیَةِ النَّفُوسِ، وَذَمِّ الدُّنْيَا وَالِاشْتِغَالِ بِهَا².

الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي مَثَلَتْ حَيَاةَ الزُّهْدِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَصَرُهُ "أَهْلُ الصِّفَةِ" وَالَّذِي يَنْسَبُ إِلَيْهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ سَبَبُ تَسْمِيَةِ التَّصَوُّفِ بِهَا، اِشْتِقَاقًا مِنْ تَسْمِيَتِهَا، وَأَهْلُ الصِّفَةِ هُمْ فُقَرَاءُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، عَاشُوا فِي ظِلَالِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، عَيْشَةً تَقَشَّفَ وَزُهُدٍ وَعِبَادَةٍ، وَذِكْرٍ وَفَكْرٍ، يَقُولُ "السَّهْرُورِيُّ" وَقِيلَ سَمَوْا: صُوفِيَّةً نَسَبَةً إِلَى الصِّفَةِ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَقِيمُ مِنْ حَيْثُ الْاِشْتِقَاقُ اللَّغَوِيُّ، وَلَكِنَّهُ صَحِيحٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، لِأَنَّ الصُّوفِيَّةَ يُشَاكِلُ صِفَةَ أَوْلَئِكَ، لِكُونِهِمْ مُجْتَمِعِينَ مُتَأَلِّفِينَ، مُتَصَاحِبِينَ لِلَّهِ، وَفِي اللَّهِ كَأَصْحَابِ الصِّفَةِ³.

وَقَدْ مَثَّلَ هَذِهِ الطَّائِفَةَ الصَّحَابِيُّ "أَبَا ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ" الَّذِي كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ"سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ" الَّذِي وَصَّاهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حُبًّا وَكَرَامَةً لَهُ.

دُونَ أَنْ نَنْسِيَ فِي هَذَا الْمَقَامِ اسْمَ آخَرَ لِمَعَ بِطَرِيقَةٍ عَجِيبَةٍ فِي ارْتِبَاطِهِ بِاسْمِ النَّبِيِّ الْأَوْ هُوَ

¹ ابن سعد، الطبقات الكبير. ج3. تح: علي محمد عمر. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2001، ص: 36

² أبو نعم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. ج 01. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ص.ص: 123-130.

³ السهروردي، عوارف المعارف. مصدر سابق، ص: 84.

"أويس القرني" فإنه أصبح مثالاً للصوفية في أنه لم يكن يصدر إلا عن رحمة الله وفي أنه عرف النبي دُون اتّصالٍ ظاهريٍّ و"أويس" أو كما يقول الأتراك "Ulysi Meshreb" هو كُلٌّ من وصل إلى النورانية "Erleuchtung" من خارج الطّريقة المعتادة وبلا واسطةٍ وبلا إرشادٍ مُرشدٍ بشريٍّ¹.

شكّلت حياة الصّحابة والتّابعين بعدهم مصدرًا أساسيًا من مصادر التّربية الصّوفيّة قولاً وفِعلاً، لا تتّصلّاهم بِمشكاة النّبوة، فتأثّروا به واقتدوا بِسيرته صلى الله عليه وسلم، وانتهج سالكو الطّريق الصّوفيّ نهج هؤلاء الصّحابة والتّابعين في الاقتداء بالنهج النبويّ في حياتهم وفي آدابهم وسلوكاتهم وحاولوا تورّثها وتوريثها.

¹ - أنا ماري شيمل، الأبعاد الصّوفيّة في الإسلام وتاريخ التّصوّف. مرجع سابق. ص: 37.

المبحث الثاني: أصول التربية الصوفية وشروطها

من الطبيعي اختلاف المناهج التربوية من فلسفةٍ لأخرى ومن فكرٍ لآخر، لاختلاف فلسفة التربية ذاتها ومصادر كل واحدة منها وطرقها وأساليبها وغاياتها وأبعادها، وتمايز المبادئ التي تؤمن بها وتتخذها وسيلة لتنظيم نشاطها الفكري التربوي والقيم والأهداف التي تسعى لتحقيقها. فمبدؤ هذه التربية الصوفية ومصدرها الوحي (الكتاب والسنة) لبلوغ الحقيقة من خلال إعداد المرید السالك لتحقيق مبدأ الخلافة في الأرض وإعادة روابطه بالحق، واستغلال كل طاقاته وإمكاناته لقطع المقامات وبلوغ الكمال والتحلّي بالفضائل، للوصول إلى السيادة الروحية وتذكير الفرد بسُمُو رسالته الروحية والعمل على استعادة الفرد لحالته الروحانية الأولى ورفع الانفصال الحاصل عن أصوله الروحية والسعي المستمر نحو المقام الإلهي وبث الوعي بضرورة تحرره من سجن الأنا والدنيا الزائلة.

1/ شروط التربية الصوفية:

تستلزم التربية الصوفية شروطاً كثيرة للسير في طريقها وسلوكها، وقد حاول الشيخ "عبد الواحد يحي" جمعها في ثلاث شروط متناسبة ومتتالية، في ثلاث كلمات هي: "كمون" ثم "تهيو" ثم "جهد نحو التحقق"¹.

1-1/ الكمون:

والذي لخصه في "الكمون" ويمكننا تسميته أيضاً بمسميات أخرى لازمة ومكملة له وهي "الأهلية" أو "النّية..." القصد والتّوجّه والإخلاص وغيرها. فسِرُّ بداية الطريق إلى التربية والسير إلى الله، هي توجّه الإرادة وإعادة بعث الهمة وتحرير النّية وتصحيحها وقطع الصّوارف والقواطع الملّية عن الطريق والتحرّر منها، فأما تصحيح النّية فعلى المرید ألا يجعل السير إلى الله وسيلةً يبتغي من خلالها اكتساب خوارق العادات وتحصيل الكرامات بل على المریدين أن يجمعوا همهم ونياتهم وإراداتهم نحو الله وحده مرضاةً لله تعالى،

¹ - عبد الواحد يحي، نظرات في التربية الروحية. مرجع سابق. ص: 24.

وَتَحْقِيقًا لِمَقَامِ الْعِبُودِيَّةِ، فَهَمُّ الْأَفْرَادِ وَأَحْوَالِهِمْ تَتَفَاوَتُ وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نُفُوسِهِمْ وَمَدَارِكِهِمْ وَفَهْمِهِمْ وَطِبَائِعِهِمْ وَبَيِّنَاتِهِمْ وَعُصُورِهِمْ وَإِسْتِعْدَادَاتِهِمْ لِلطَّاعَةِ.

فَالسَّالِكُ الْمُرِيدُ يَتَوَقَّرُ عَلَى إِمْكَانِيَّاتٍ طَبِيعِيَّةٍ فَطَرِيَّةٍ، تَسْمَحُ لَهُ بِسُلُوكِ طَرِيقِ التَّربِيَةِ الصُّوفِيَّةِ، وَأَيُّ غِيَابٍ أَوْ انْعِدَامٍ لِهَذِهِ الْإِسْتِعْدَادَاتِ الْفَطَرِيَّةِ الْكَامِنَةِ دَاخِلِيًّا قَدْ يُشَكِّلُ عَائِقًا وَحَاجِزًا لِمُمَارَسَةِ هَذِهِ التَّربِيَةِ وَالتَّرَقِّيِّ فِي مَقَامَاتِهَا وَبُلُوغِ ثَمَرَاتِهَا، فَنِيَّةُ الْفَرْدِ الْإِنْخِرَاطُ فِي التَّربِيَةِ قَدْ لَا تَكْفِي وَحْدَهَا لِقَطْعِ الطَّرِيقِ «وَمِنَ الْبَدِيهِيِّ أَنَّ التَّأَمُّلَ الْجَوْهَرِيَّ، الْمَهِيْمْنَ عَلَى الْمُؤَهَّلَاتِ الْأُخْرَى كُلِّهَا يَتَعَلَّقُ بِ"الْأَفَقِ الْعِرْفَانِيِّ" الْإِسْتِعْدَادِ الرُّوحِيِّ، الَّذِي يَزِيدُ اتِّسَاعَهُ أَوْ يَنْقُصُ، لَكِنْ قَدْ يَتَّفَقُ أَنَّ تُمْنَعَ قُدْرَاتُ هَذَا الْأَفَقِ مِنَ التَّطَوُّرَاتِ رَغْمَ وُجُودِهَا كَامِنَةً فِي الْفَرْدِيَّةِ، إِمَّا مِنْهَا مُؤَقَّتًا، أَوْ نَهَائِيًّا، بِفِعْلِ الْعُنَاصِرِ السُّفْلِيِّ لِهَذِهِ الْأَخِيرَةِ»¹.

فَهَذِهِ الْقُدْرَاتُ الْكَامِنَةُ وَالْمَحْصُورَةُ فِي مِيدَانِ التَّأْهِيلِ الْفَرْدِيِّ، هِيَ جَوْهَرُ نَجَاحِ عَمَلِيَّةِ بُلُوغِ الْأَفَقِ الْعِرْفَانِيِّ لِلْحَرِيَّةِ وَرَفْعِ مُسْتَوِيَّاتِ الْإِسْتِعْدَادِ الرُّوحِيِّ لِدَرَجَاتِهِ الْعُلْيَا، رَغْمَ اخْتِلَافِ مُسْتَوِيَّاتِهَا بَيْنَ الْمُرِيدِينَ لِمُوَاجَهَةِ انْجَذَابَاتِ الْعُنَاصِرِ النَّفْسِيَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ السُّفْلِيَّةِ، الَّتِي تَقِفُ حَاجِزًا مَنِعًا فِي أَفَقِ تَطَوُّرِهَا وَعُلُوهَا وَتَخْلَصُهَا مِنْ جَازِبِيَّتِهَا وَفُيُودِهَا وَتَحْقِيقِ الْإِنْعِتَاقِ الرُّوحِيِّ الْكَامِلِ. فَالْكَثِيرُ مِنَ السَّالِكِينَ أَوْ غَيْرِهِمْ يَتَوَهَّمُ خَطَأً، أَنَّ سُلُوكَ طَرِيقِ التَّربِيَةِ رَهْبَنَةً وَتَشَدِّدًا، وَخُرُوجًا عَنِ غَرَائِزِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، بِقَطْعِ حَاجَاتِهَا وَكَبْحِ طَاقَاتِهَا وَتَعْطِيلِ قُدْرَاتِهَا، بَيْنَمَا هَدَفُ السَّيْرِ وَالتَّربِيَةِ الْحَقِيقِيِّ هُوَ إِعَادَةُ الْأُمُورِ إِلَى مُوَازِينِهَا الْأَصْلِيَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَإِرْجَاعُهَا إِلَى مَعْدِنِهَا النُّورَانِيِّ الْمَعْتَدِلِ، فَتَصِيرُ أَعْمَالُ السَّالِكِ حَكِيمَةً وَمُسْتَقِيمَةً، وَأَقْوَالُهُ وَسُلُوكَاتُهُ وَتَصَرُّفَاتُهُ فِي مَوَاضِعِهَا الْأَصْلِيَّةِ لَتَنْفَجِرَ طَاقَاتُهُ مِنْ جَدِيدٍ بِشَكْلِ إِيْجَابِيٍّ وَفِي إِطَارِهَا الشَّرْعِيِّ الْمَعْتَدِلِ فَاصْطِفَاءُ اللَّهِ لَكَ لِلْسَّيْرِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ مَنَحَةً، فَالْمَجَاهِدَةُ كَسْبُ الْإِنْسَانِ، وَالْهَدَايَةُ هِبَةُ اللَّهِ لَهُ وَكِلَاهُمَا تَوْفِيقٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ «لَأَنَّ الْمُبَادَرَةَ فِي التَّجَرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ تَأْتِي مِنَ اللَّهِ لَا مِنَ الْإِنْسَانِ وَكُلُّنَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمُرِيدَ

¹ - عبد الواحد يحيى، نظرات في التربية الروحية. مرجع سابق. ص: 89.

مراد قبل أن يكون مريدًا، والمحَبَّ محبوبٌ قبل أن يكون مُحَبًّا بل إنَّ الذَّاكرَ مذكورٌ قبل أن يكون ذاكرًا، في التَّجربة الصَّوفية المبادرة تأتي دائمًا من الله»¹.

اجتباؤك مريدًا سالكا مُحَبًّا ذاكرًا، دليل قبولك وقابليتك لخوض هذه التجربة الإنسانية الرَبَّانية، ودليلٌ على كُمونِ مُوهلات وِصفات تُؤهلك لِسلوك هذا الطَّرِيق، وهُنا يلزم قُبُولُكَ مُبادرتك وتوجَّهك نحو "التَّحَقُّق" بِإثبات أهلية هذا الاختيار منك فاختيارك مريدًا هي نُقطة بداية الرِّحلة، ولا تعني يقينًا وُصولك لِآخر طريق التَّربية، أو بُلُوغ درجات الكُمل مِمَّن حازوا شرف بُلُوغ السير في الطريق اللامتناهي، كما أنَّ السَّائرين درجات مُختلفة مُتفاوتة حسب المجاهدات والرِّياضات «والسَّائرون بعد ذلك درجات: فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَأْهِلُ أَنْ يَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ نَقِيبٍ قَدْ يَكُونُ بِمِثَابَةِ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ الشَّيْخِ وَبَقِيَّةِ الْمُرِيدِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ هِمَّتُهُ التَّلَقِّيَ وَالتَّنْفِيزَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى فَلَكَ الْجَمِيعُ سَائِرًا، التَّزَامُهُ قَلِيلٌ، وَمَحَبَّتُهُ كَثِيرَةٌ، وَلِكُلِّ مَحَلَّةٍ فِي السَّيْرِ»².

فَرغم اجتهادهم في السَّيْرِ، اختلفوا في قطع المسافات والبعد عن مركز الوصول بين مُبتدئٍ ومُتَبَرِّكٍ، ودائر في فلك الشَّيْخ، وسائرٌ لم يصل، وواصلٌ، و يُساهِم الشَّيْخ المربي في رحلة السَّيْرِ هذه، بتفجير كوامن المبتدئ والسَّالِك، لِمعرفته بِخبايا الطَّرِيق وأسرارها «ذلك على أنَّ وظيفة الشَّيْخ أَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ الْمُرِيدَ مَا هُوَ كَامِنٌ فِيهِ لَا غَيْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَثَّ فِي كُلِّ رُوحٍ جَمِيعَ مَا يَتَعَلَّقُ بِصَاحِبِهَا مِنَ الْمَحَامِدِ وَالْمَذَامِ، فَمَا أَمْرُهُ شَيْخُهُ أَوْ نَهَاةٌ عَنْهُ إِلَّا وَهُوَ كَامِنٌ فِي رُوحِهِ، وَلَيْسَ مَعَ الشَّيْخِ شَيْءٌ يُعْطِيهِ لِلْمُرِيدِ خَارِجًا عَنْهُ، فَإِنَّ حُكْمَ الْمُرِيدِ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ حُكْمُ النَّوَاةِ الْكَامِنِ فِيهَا النَّخْلَةُ الَّتِي هِيَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الصِّدْقِ فِي الطَّرِيقِ أَوْ الْكَذِبِ فِيهَا»³.

فَأحيانًا يعسر على المريد معرفة كُنه ذاته وما تحمله مِنْ مواهب ومكاسب وقُدَّراتٍ وكفاءاتٍ كما يقصر عليه إحداث التَّفَجُّر والتَّحَرُّر الذَّاتِي بِاعتماده على نفسه فقط، وبِوسائله الشَّخصية

¹ - نهاد خياطة، دراسة في التَّجربة الصَّوفية. دار المعرفة، دمشق، سوريا، ط01، 1994، ص: 61.

² - سعيد حوى، تربيته الرُّوحية. مرجع سابق. ص: 133.

³ - عبد الوهاب الشَّعراني، الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصَّوفية. ج01. تح: طه عبد الباقي سرور، السيّد مُحَمَّد عبد الشَّافي. مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، 1998، ص: 51.

الخاصة والمحدودة، لجهله أو فقدانه الثقة اللازمة، أو قلة معرفته بآليات وطرق تكريسها واقعيًا فَيَتَدَخَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ شَيْخًا وَوَثِقَ بِهِ، بِإِخْرَاجِ هَذِهِ الْمَكَامِنِ، فَيُثَمِّنُ جَوَانِبَهَا الْإِيجَابِيَّةَ وَيُبَيِّنُ وَيُحَدِّرُ وَيُهَدِّبُ جَوَانِبَهَا السَّلْبِيَّةَ، فَيَعْمَلُ الشَّيْخُ مُرْشِدًا لِهَذَا السَّائِرِ، دَاعِمًا وَسَنَدًا مُوجِّهًا لِمَكَامِنِ هَذَا السَّالِكِ، لَكِنْ بِشَرَطِ تَوْفَرِهِ عَلَى نَوَاةٍ وَسَرٍّ نَجَاحِ هَذَا السَّيْرِ، وَهُوَ صَدَقَ التَّوَجُّهُ كَنُقْطَةِ انْطِلَاقٍ مُحَوِّرَةٍ تُسَاعِدُهُ لَاحِقًا بِمَعِيَةِ مُرْشَدِهِ، -فِي مَرَاكِلِ مُعَيَّنَةٍ- عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ وَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ عَلَى كُلِّ أَنْوَاعِ الرِّيَاضَاتِ وَالْمَجَاهِدَاتِ الْحَاصِلَةِ أَثْنَاءَ رَحْلَةِ السَّفَرِ الطَّوِيلَةِ وَالشَّاقَّةِ.

كما يُمكن اعتبار وُلُوجِ التَّربِيَةِ الصَّوْفِيَّةِ، مَرَحَلَةً انْتِقَالِيَّةً مِنْ عَالَمِ الْحَسِّ الظَّاهِرِيِّ إِلَى عَالَمِ الْمَعْرِفَةِ الْبَاطِنِيَّةِ، رَحْلَةً دَاخِلِيَّةً تُوجِبُ حَالَةَ "الانكسار" تَدْفَعُ بِهَا مَقَامَاتُ التَّوْبَةِ إِلَى اجْتِيَازِ عَتَبَاتِ الطَّرِيقِ الرُّوحِيِّ، وَإِحْدَاثِ حَوَافِزِ انْتِبَاهِ الْقَلْبِ مِنْ رَقَدَاتِ الْغَفْلَةِ وَالْإِغْتِرَابِ، بِوصفها شُرُوطَ لَازِمَةٍ، وَفُرُوضِ عَيْنِ لِلتَّسْلِيكِ وَالتَّزْكِيَةِ وَبِمَا أَنَّ دُخُولَ التَّربِيَةِ الصَّوْفِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ فِي جَوْهَرِهِ سُلُوكٌ اخْتِيَارِيٌّ فَرْدِيٌّ طَوْعِيٌّ، فَإِنَّ إِظْهَارَ "الانكسار" مُؤَشِّرٌ بِدَايَةِ نَاجِحَةٍ فِي الانْخِرَاطِ فِي "طَرِيقِ اللَّهِ" وَتَجَاوُزِ اللَّوْهِمِ النَّفْسِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ الْمَصْطَنَعِ وَتَحَوُّلِ بَوْعِيٍّ نَحْوِ رَحْلَةٍ لَا مُتَنَاهِيَةَ فِي أَحْوَالِهَا وَمَقَامَاتِهَا وَإِشْرَاقَاتِهَا، وَتَأَثِيرَاتِهَا.

فَالْانْتِقَالُ بِالْإِرَادَةِ الْوَاعِيَةِ رَمْزِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ لِنَجَاحِ بَاطِنِيٍّ فَعْلِيٍّ وَدَلَالَةٌ عَلَى اجْتِيَازِ أَوَّلِ امْتِحَانَاتِ "الطَّرِيقِ إِلَى الدَّخْلِ" «وَمَوْضُوعُ الْانْكَسَارِ مِنْ أَجْلِ الْبِنَاءِ يُنَاسِبُ تَمَامًا عَمَلِيَةَ الزَّهْدِ كَمَرَحَلَةٍ إِعْدَادِيَّةٍ لِأَحْوَالِ الصَّوْفِيَّةِ»¹.

لهذا ارتبطت مباشرةً بأول مقامات الرحلة، وهو مقام "التوبة" فلا توبة دون إقلاع وندم، وهي حالة وجدانية نفسية إرادية، تتوجب على صاحبها قدرة كامنة موجبة هائلة، لأنها محطة انتقال من حالٍ إلى حالٍ جديدةٍ مُغَايِرَةٍ، تَتَطَلَّبُ صَبْرًا وَمُجَاهَدَةً كَبِيرَيْنِ، لِتَغْيِيرِ النَّمُوزِ الْحَيَاتِيِّ الْجَدِيدِ تَغْيِيرًا تَامًا، فَعَمَلِيَةُ التَّحْضِيرِ الدَّاخِلِيِّ وَالْإِسْتِعْدَادِ النَّفْسِيِّ ضَرُورِيَّةٌ لِتَشْكِيلِ وَحُصُولِ التَّهَيُّؤِ

¹ - أنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف. مرجع سابق. ص: 219-220.

وَالصَّلَاحِيَّةُ وَالْقَابِلِيَّةُ «فَهُوَ مُسْتَلْزَمٌ ظُهُورُ صُورَةِ النَّاطِرِ فِي الْمَنْظُورِ فِيهِ وَهِيَ لَا تَحْصُلُ لِلْمَظْهَرِ إِلَّا بِالْفَيْضِ الدَّائِي الَّذِي قَبْلَهُ قَبْلَ التَّسْوِيَةِ الْقَابِلَةِ لِظُهُورِ صُورَةِ الْحَقِّ فِيهِ»¹.

وَلَيْتَمَكَّنَ الْقَلْبَ مَحَلَّ الاسْتِعْدَادَاتِ مِنَ الصَّفَاءِ مِنْ كُلِّ الْحَبِّبِ الْحَائِلَةِ دُونَ تَتَوَرُّهِ وَالْمَانِعَةِ لِلْفَيْضَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَتَجَلِّيَاتِ الْحَقَائِقِ الرَّبَّانِيَّةِ، أَحْجَبَةَ النَّفْسِ وَالْعَقْلِ، وَالشَّهَوَاتِ وَالذَّاتِ وَكُلِّ الْاِعْتِبَارَاتِ السَّلْبِيَّةِ الْمَشْتَتَةِ لِاسْتِكْمَالِ الطَّرِيقِ وَتَبَعْتِهِ لِإِلْاِنْحِرَافٍ عَنِ الْهَمَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَتَمِيلُ بِهَا عَنْ صَدَقِ التَّوَجُّهِ.

1-2/ التَّجْرِيدُ وَالتَّبْلِيغُ وَالتَّهْيُؤُ:

التَّجْرِيدُ وَالزَّهْدُ وَالتَّخَلِّيُّ وَالْفَقْرُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى السَّلُوكِ وَعَلَى الْمَقَامَاتِ²، فَهِيَ كُلُّهَا - تَقْرِيبًا - مَعَانٍ وَاحِدَةٍ بِمُسَمِّيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلزَّهْدِ، يَتَبَنَّاها الْمُرِيدُ فِي قَطْعِ الْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ، وَأَغْلَبُ مُؤَرِّخِي التَّصَوُّفِ يَذْهَبُونَ لِأَسْبَقِيَّةِ الزَّهْدِ مَرَحَلِيًّا عَنِ التَّصَوُّفِ، وَيَرْبِطُونَهُ خُصُوصًا بِالْمَرَاكِحِ الْجَنِينِيَّةِ لِلتَّصَوُّفِ فِي قُرُونِهِ الْأُولَى، الَّتِي يُسَمُّونَهَا بِ"الزَّهْدِيَّةِ" فَ «الزَّهْدُ مَقَامٌ شَرِيفٌ، وَهُوَ أَسَاسُ الْأَحْوَالِ الرَّضِيَّةِ، وَالْمَرَاتِبِ السَّنِّيَّةِ، وَهُوَ أَوَّلُ قَدَمِ الْقَاصِدِينَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ وَالرَّاضِينَ عَنِ اللَّهِ وَالْمَتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ أَسَاسُهُ فِي الزَّهْدِ لَمْ يَصِحْ لَهُ شَيْءٌ مِمَّا بَعْدَهُ؛ لِأَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسَ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَالزَّهْدُ فِي الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ وَطَاعَةٍ»³.

فَالزَّهْدُ يَقْتَرِنُ بِالْمُجَاهَدَةِ، وَهُوَ يُعَدُّ خُطْوَةً هَامَّةً فِيهَا، لِأَنَّهُ يَهْدَفُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ إِلَى الْاِبْتِعَادِ عَنِ الدُّنْيَا وَمِلْدَاتِهَا وَمَفَاتِنِهَا وَعَنِ الْغَيْرِ، وَتَهْيِئَةَ النَّفْسِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَالْمَعْرِفَةِ الْإِلَهَامِيَّةِ الْكُشْفِيَّةِ، وَهُوَ جَامِعٌ لِكُلِّ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ وَ «الزَّهْدُ يَكُونُ بِمَعْنَيْنِ: إِنْ كَانَ الشَّيْءُ مُوجُودًا، فَالزَّهْدُ فِيهِ إِخْرَاجُهُ وَخُرُوجُ الْقَلْبِ مِنْهُ وَلَا يَصِحُّ الزَّهْدُ فِيهِ مَعَ تَبَقُّيَّتِهِ لِلنَّفْسِ، لِأَنَّ

¹ - ابن عربي، فُصُوصُ الْحَكَم. شرح الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الْقَاشَانِيِّ. آفَاقٌ لِلنَّشْرِ وَالتَّوَزُّعِ، الْقَاهِرَةُ، مِصْر. ط 01، 2016، ص: 49.

² - أَبُو الْحَسَنِ الشَّشْتَرِيُّ، الرِّسَالَةُ الشَّشْتَرِيَّة. تَح: مُحَمَّدُ الْعَدْلُونِي الْإِدْرِيْسِي. دَارُ الثَّقَافَةِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوَزُّعِ، الدَّارُ الْبَيْضَاءُ، الْمَغْرِب. ط 01، 2004، ص: 55.

³ - أَبُو نَصْرِ السَّرَاجِ الطُّوسِي، اللَّمْع. مِصْر. ط 72، ص: 72.

ذلك دليل الرّغبة فيه، وهذا زُهد الأغنياء، وإن لم يكن الشّيء موجوداً وكان العدم هو الحال، فالزّهد هو الغبطة به، والرّضا بالفقد وهذا هو زُهد الفقراء»¹.

فالزّهد إعراضٌ وتسليمٌ؛ إعراضٌ عن الدّنيا وإخراجها من حُبِّ التّمكّن والإبقاء في اليد وتسليم ورّضا ويأس بما في أيدي الخلائق، وإن كان معدوماً فقير الحال، فالزّهد الحقيقي محلّه القلب لا الجوارح الظّاهرة، بترك ما يُشغل القلب عن الله وإنكار الدّات والنّفس ورغباتها بالتّوكّل والرّضا، والتّجرّد عن كلّ إرادة وفعلٍ، وإسناد الأمر كلّهُ لله سبحانه وكذلك حال الزّهد في ترك المعاصي والدّنوب، لا يتحقّق فعلياً إلاّ بالامتحانات والابتلاءات، فمتى نجا وقدر عليه، وصبر على ذلك وقطعه ودافعه ما استطاع فذلك زُهد، أمّا زُهد النّيّات والهَمّ بالتّرك، دُون تجسيدها إلى أفعال ومُمارسة، ودُون مُرورٍ بالصّدّات، فذلك ليس بزُهدٍ صافٍ «وخالص الزّهد إخراج الموجود من الدّنيا من القلب، ثمّ إخراج ما خرج من القلب من اليد، وهو عدم الموجود على الاستصغار له والاحتقار، والتّقالل لهوان الدّنيا عنده وصغرُها في عينيه، فبهذا يتمّ الزّهد، ثمّ ينسى زُهده في زُهده، فيكون حينئذٍ زاهداً في زُهده لِرغبته في مزهده، وبهذا يُكمل الزّهد، وهذا لبه وحقيقته وهو أعزّ الأحوال في مقامات اليقين، وهو الزّهد في النّفس، لا الزّهد لأجل النّفس»².

فالسّالك يُعلّق قلبه بالله سبحانه وتعالى وحده، ولا يلتفت ولا يتأثّر بفقرٍ ولا غنى، ولا بما يملك هو أو غيره، مهما تعاضم هذا الملك من مال أو جاهٍ أو منصبٍ أو سُلطةٍ أو شهرةٍ، فلا يجتمع قلب المرید على حُبّين: حُبّ الله تعالى وحُبّ الدّنيا، فكُلّما زاد السّالك زُهداً في الحياة الدّنيا ومفانيتها، زاد صفاء وتركيزاً في مقامات الطّريق، وإنجذبت نفسه ورُوحه واشتاقَت لمولاهَا واستحضرت واستغرقت وتشوّقت للتّرقّي لمقامات أخرى أعلى حتّى يصل لمقام العبودية، وكمال المشاهدة "أن تعبد الله كأنك تراه".

¹ - أبو طالب المكيّ، قُوت القلوب. ج 02. تح: محمود إبراهيم محمّد الرّضواني. دار العلوم، القاهرة، مصر. ط 01، 2001، ص: 713.

² - نفس المصدر. ص: 719.

لا يجب أن تفهم هذه الدعوة الزهدية في التربية الصوفية الروحية فهمًا خاطئًا وسطحيًا، فهي ليست دعوة للفقر وعدم التملك، فالزهد أن تطرد وتترك الدنيا من قلبك، وإن كانت في يدك، فكم من غني زاهد وكم من فقير غاوٍ مُحِبٌّ لها، متمسك بها، ولذلك ليس من شروط الزهد الصوفي أن يكون مُقترنًا بالفقر بل قد يتوافق الزهد والغنى، والنماذج التاريخية الإسلامية غنية بذلك.

كما لا يجب أن نفهم الزهد على أنه رهبانية وانقطاعًا عن الدنيا وانعزال عن الناس أو ردُّ فعلٍ وانقلابٍ، نتيجة المفارقات الاجتماعية والطبقية، فيُصبح الزهد وكأنه نتيجة لعوامل خارجية عن ذات الإنسان وكردُّ فعلٍ للبيئة الاجتماعية، بل الزهد خُلُو اليد من الملك والتقلُّ الماديِّ الحسيِّ من المتاع الدنيويِّ الزائل، وخُلُو القلب من غير الله، وإنصرافه لله وحده، فيرتفع عن الانغماس في الشهوات والغرائز المألوفة، ويأنس بما تشاهده روحه في عالم الملكوت «أقسم لكم أنه لا يدخل عالم الملكوت من في قلبه علاقة»¹.

ثمَّ الانتقال إلى "التَّهَيُّؤ" أو "التَّبْلِيغ" لهذه الفعالية الروحية من خلال الانتساب والارتباط بتنظيم تربويٍّ نظاميٍّ سويٍّ، وقد يكون الشيخ أحد أسس هذا الشرط، لتبليغ هذه التربية الروحية، فلا يمكن للمرء مهما بلغ من قدرات وطاقات واستعدادات، ومهما حاز من مستويات علمية، أن يُربي نفسه بنفسه، ولهذا يُشترط على القابل للطريق والمقبل عليه أن ينخرط في التربية لتحقيق الولادة الثانية، لافتقاد منابع الروحية النورانية والابتعاد عن زمن الوحي النبويِّ الفطري «ففي القرون الأولى للإسلام، لم تُوجب وظيفة المعلم المربي، لأن المسلمين كانوا ما يزالون تحت غمرة "الحضور النبوي" بعد ذلك أصبح حضور المعلم ضروريًا»².

فالشَّيْخ هو الذي يقوم بدور القيادة الروحية، وحفظ أمانة المعرفة الباطنية وتبليغها والتي كانت على عاتق الأنبياء في مجتمعاتهم، فالشيوخ في الحقيقة ليسوا إلا وكلاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم

¹ - ابن عربي، الفتوحات المكية. ج03، قدّم له محمود مطرجي. دار الفكر، بيروت، لبنان. 1994، ص: 48.

² - بوعتو بشير، التصوف في الجزائر. دار السبيل، الجزائر. ط03، 2013، ص: 311.

يستشعرون الميراث النبوي الكامل، ويُقدِّرون أمانة نقل وحمل هذا التراث النبوي قُدوةً، وتعليمًا، وتحققًا كاملاً بالأنموذج الأكمل صلّى الله عليه وسلم

فالتأثير الحقيقي للتربية الروحية، هو إعداد المريد لتلقّي هذا الميراث النبوي والأثر الروحاني، وهذا التلقّي لا يتم إلا بواسطة مراكز نظامية ومنظمة متوارثة ومتواصلة عبر سلسلة مترابطة الأصول والفروع ولا يتم أي إعداد أو تلقٍّ أو نقل لهذا التراث إلا عبر هذه السلسلة، وهذا التنظيم التربوي، ويستبعد كلّ انخراط خارج تجليات هذه الدائرة الروحية القدسية، وهذا الالتفاف حول هذه التنظيمات والمراكز التكوينية تلغي عمل كلّ تربية تتم على يد تنظيمات زائفة ومزعومة ولا تستند فعليًا على ميراث روحي أصيل وصادق.

فالارتباط بالتراث الروحي "السلسلة النظامية" ومن خلاله بمراكزه الروحية، يعني الاستناد إلى الشرعية الإلهية، من أصل غير بشري لتأمين استمرارية تبليغ الفعاليات الروحية المقدسة النبوية، حتّى لو أصبح أحيانًا وفي عصور زمنية متباينة ومتذبذبة شكليًا فقط، وفاقدًا أحيانًا أخرى للوعي والتأثير الروحي المباشر، فالتواصل مستمر، والتبليغ باقٍ والسّير الإلهي مُمتدٌ وهذا الامتداد الأفقي والعمودي كفيلاً لبعض الأعضاء المنخرطين والمنتسبين والمريدين للنهل منه بما يحوزونه ويمتلكونه من مؤهلات واستعدادات فردية وجماعية.

«لأبد من حضور عنصر "غير بشري" "أي رباني" في كلّ تربية روحية أصيلة، وهذا هو بالتأكيد طابع الفعالية الروحية التي يُمثّل تبليغها بحصر المعنى، الانخراط في طريق السلوك»¹.

لا يكتفي أن يرغب الفرد في الانخراط في طريق التربية، وإنما عليه أن يكون مقبولاً من طرف تنظيم تربوي نظامي سوي، مخوّل لأن يُوفّر له التربية، أي: يُبلّغه الفعالية الروحية التي هي من دون الاستناد إليها يستحيل عليه رغم كلّ جهوده، الوصول يومًا إلى الانعتاق من قيود وعوائق

¹ - عبد الواحد يحي، هيمنة الكمّ وعلامات آخر الزمان . تح: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن. ط 01، 2013، ص: 213.

عالم العوام الظاهري، وَلَعَلَّه انعدام "الأهلية" عنده، يقع ألاّ تحصل أيّ استجابة لما يقصده، مهما كان صدقه في الطلب، لأنّ المسألة هنا لا تكمن في صدقه، والمقصود في كلّ هذا لا يكتسي بتاتاً طابعاً "أخلاقياً" وإنّما فقط قواعد «تقنية» ترجع إلى قوانين واقعية إيجابية¹، فَصَدَقَ التَّوَجُّهَ وَأَهْلِيَّتَكَ لِسُلُوكِ طَرِيقِ التَّربِيَةِ لَا يَكْفِي وَحْدَهُ لِبُلُوغِ مَقَامَاتٍ وَمَقَاصِدِ التَّربِيَةِ، دُونَ مُمَارَسَةِ هَذِهِ التَّربِيَةِ تَحْتَ سُلْطَةِ شَرْعِيَّةٍ مَضْمُونَةٍ لِتَبْلِيغِ هَذِهِ الْفَعَالِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، هَذِهِ الْفَعَالِيَةِ الَّتِي هِيَ السِّرُّ الْأَكْبَرُ الْمَتَضَمِّنُ فِي كُلِّ تَرْبِيَةٍ ثَرَاثِيَّةٍ أَصِيلَةٍ غَيْرِ مُبْتَدَعَةٍ وَالَّتِي تَتَشَكَّلُ مِنْ مَصَادِرٍ رَبَّانِيَّةٍ، وَلَيْسَتْ وَلِيدَةً صِنَاعَةٍ بَشَرِيَّةٍ فَرْدِيَّةٍ، وَلَا صَنِيْعَةً اجْتِمَاعٍ بَشَرِيٍّ أَوْ طَائِفَةٍ، أَوْ فِرْقَةٍ أَوْ هَيْئَةٍ عُمُومِيَّةٍ أَوْ خَاصَّةٍ، وَلَيْسَتْ كُلُّ مُؤَسَّسَةٍ دِينِيَّةٍ مُخَوَّلَةٌ شَرْعًا، وَقَادِرَةٌ عَلَى تَفْعِيلِ هَذِهِ التَّربِيَةِ الصَّوْفِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ، وَالَّتِي تُمَارَسُ تَأْثِيرَاتُهَا عِبْرَ طُقُوسِهَا وَشَعَائِرِهَا الْخَاصَّةِ، الْمَنْقُولَةِ بِالْأَسَانِيدِ وَالتَّوَاتُرِ دُونَ انْقِطَاعٍ.

وَالشَّيْخُ لَا يَتَصَرَّفُ مُنْفَرِدًا مُجْتَهِدًا مُطْلَقًا، وَخَارِجَ هَذَا التَّنْظِيمِ، بَلْ هُوَ فِي الْأَصْلِ نَاقِلٌ وَحَامِلٌ لِهَذَا التَّأْثِيرِ، كَحَلَقَةٍ مُتَنَازِعَةٍ مَعَ حَلَقَاتٍ مُتَكَامِلَةٍ ضَمَّنَ التَّنْظِيمِ التَّرَاثِيَّ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ وَيَبْلُغُ طُقُوسَهُ وَيَقُومُ عَلَى مُرَافَقَةٍ وَإِشْرَافٍ الْمُنْتَمِينَ إِلَيْهِ، وَهُنَا تَفْقَدُ كُلُّ تَرْبِيَةٍ ذَاتِيَّةٍ عَصَامِيَّةٍ أَيْ قِيَمَةٍ حَقِيقِيَّةٍ وَأَيُّ تَأْثِيرٍ رُوحِيٍّ لِمُجَرَّدِ دَرَاةٍ لِتَأْثِيرَاتٍ مَنَعَزَلَةٍ أَوْ لِشَخْصِيَّاتٍ دِينِيَّةٍ مُؤَثَّرَةٍ أَوْ مِنْ خِلَالِ مُطَالَعَةِ الْكُتُبِ الصَّوْفِيَّةِ أَوْ الدِّينِيَّةِ، فَهَذِهِ كُلُّهَا مَصَادِرُ غَيْرِ قَادِرَةٍ لَوَحْدِهَا عَلَى أَنْ تَحُلَّ مَحَلَّ النُّقْلِ الْمُبَاشَرِ، مِنْ خِلَالِ الْإِنْتِسَابِ الْحَقِيقِيِّ وَالْفَعَالِ لِهَذِهِ التَّنْظِيمَاتِ وَمَرَكَزِ الْإِشْعَاعِ وَالتَّعَالِيمِ الْمَوْرُوثَةِ.

الهدف الأسمى من التركيز على هذا الشرط، هو خصوصية التربية الصوفية باعتبارها منهاجا إعداديا مباشرا، لا يمكن نقلها وتوظيفها بصورة ظاهرية وتلقينية، كالتعلم البسيط في الفصول الدراسية العادية، فالأمر هنا يختلف كلياً وجذرياً، لارتباط التبليغ بحالات ومقامات باطنية داخلية وبإشراقات رمزية إلهامية كشفية وذوقية، كما أنّ وجوب هذا الشرط لا يلغي أو يُنقص من جوهرية الانتماء المقصود الذي عليه أن يكون انتساباً حقيقياً وفعالاً وليس مجرد

¹ - المصدر نفسه. ص: 28.

انتماءً شكلياً، وقد يُصعّب ويُعقّد من عملية تواصل النّقل ومن عملية إتمام عملية التربية ويُلَوِّغ مراميها وأهدافها.

لأنّ طريقة التربية ميراثٌ نبويٌّ من عهدٍ إلى عهدٍ ومن شيخٍ إلى شيخٍ، ومن وارثٍ إلى وارثٍ وهي مُستمرةٌ إلى يوم الدين، وقد يُعبّر المتصوّفة أحياناً عن هذا الارتباط بالسلسلة التراثية الروحية بـ"السند" وهو لا يُمثّل فقط الرّمزية الشرعية لممارسة الطّقوس والشرائع الصّوفية لسالك طريق التربية، بل يُؤكّد على ضرورة ارتباط المنخرط بأحد رُؤاد هذه السلسلة النّورانية، التي تقتبس أحكامها وآدابها وقواعدها بصلتها المباشرة، وإن طال العهد بالتراث النبوي الشريف، وبأنوار سيّد الخلق مُحَمَّد ﷺ يعتبره أصحاب الطّرق المصدر الأوّل لتعاليم هذه التربية فيرى الصّوفيّة أنّه «يصل سلسلة شيوخهم بالنّبيّ كما هو الشأن في الحديث، وأقدم أسانيدهم المعروفة (الفهرست، ص 183) إسناد الخدي المتوفى عام 348هـ الموافق لـ 959م، وهو يرفعه إلى النّبيّ على الوجه الآتي الجنيّد، السّقطي معروف الكرخي فرقد الحسن البصري ثمّ أنس بن مالك»¹ وقد ذكرت أسانيد أخرى في كُتبٍ مُختلفة وبِطبقاتٍ مُختلفة، تصل كلّها سنداً بالرّسول

صلى الله عليه وسلم

1-3/ المجاهدة:

اختلفت التّجارب الدّاتية بالمتصوّفة، وتعددت طرق السّلوك والتّسلّيك عندهم، قصد الارتقاء الرّوحيّ، وتصفية النّفس من كلّ العوائق والانشغالات، ويُلَوِّغ درجات الكمال الإنسانيّ، وهذا لن يتحقّق إلّا بضرورة "جهاد ومُجاهدة" النّفس من أجل تخليصها من صفاتها الدّنيئة السّلبية، وترويضها على التّوجّه إلى الله وحده والابتعاد على النّقائص والرّذائل «ومهما كان المطلوب محجوباً والدّليل مفقوداً والهوى غالباً والطّالب غافلاً امتنع الوصول وتعطلت الطّرق لا محالة، وله حصن لا بدّ من التّحصّن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه»².

¹ - ماسينيون، مصطفى عبد الرزاق، التّصوّف. مرجع سابق. ص: 44.

² - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين. مصدر سابق. ص: 958.

فالمجاهدة هي الحصن الذي يحمي المتحصّن به من كثرة قطاع الطّريق، الذين يقفون حائلاً دون إتمام رحلة السّفر ويُلَوِّغ الغايات والمشاهدات والمعرفة، فالمجاهدة مُسْتَقْلِلَةٌ ولاشتغال بها صعبٌ، لنزاعها الدّائم مع العوائد والعوائق التي جبلت عليها النفوس الإنسانية وعلى محبة الدّنيا وسكونها إليها.

ف«كيف تستمدّ لطائف المعارف ووجه قلبك مُتَوَجِّهٌ إلى كثائف المآلف؟ وكيف ترحل إلى أوج المواهب والعوارف، وأنت مُثابِر على حضيض العوائد والمتآلف؟ وكيف تجول في ميدان السّرائر، وفكرك محصورٌ في سجن الظّواهر»¹.

لهذا اعتبرت "المجاهدة" شرطاً أساسياً وجوهرياً في تحقّق التربية الصّوفية، من أجل تحقيق جميع الأبعاد الوجدانية والسلوكية والنفسية، فالمرور بالتّربية الإحسانية ترسمه فلسفة "المجاهدة" أو "التّطهّر الدّاخلي" لذا اعتبرها الصّوفية بمثابة "الجهاد الأكبر" والجهاد المستمرّ الأزليّ والسّرمدِيّ ف«مَنْ ظَنَّ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، أَوْ تُكْشَفَ لَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا بِلُزُومِ الْمَجَاهِدَةِ فَهُوَ غَلُطٌ»².

فكلّ معراجٍ رُوحِيٍّ وتدرّجٍ في المقامات والأحوال، هو ثمرة مُجاهدة طريقٍ وجاهدٍ للأبدان والنفوس، بدايةً من مقام التّوبة ووصولاً لمقام المشاهدة فحسب المجاهدة تكون المشاهدة، وإذا كانت التّربية الصّوفية تقوم أساساً على المجاهدة، فكان من الضّروريّ من معرفة تامّة وشاملةٍ بعلل النفوس وكيفية تخلّيها وسبل تحليتها، فأول منازل المجاهدة علمٌ بالنفوس ونوازعها وعيوبها وطرق علاجها وإصلاحها وتخليصها من الأكدار والأدران والشّوائب استناداً لقوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ٦٩) سورة العنكبوت، الآية 69، و حديث فضالة بن عبيد³.

¹ ابن عربي، الرسالة الوجدية. ج3. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1، 01، 2004، ص: 56.

² أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية. مصدر سابق. ص: 188.

³ قَالَ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَجَّةُ الْوَدَاعِ: ((... وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ...)). ((قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ غَزَاةً لَهُ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ، قَالُوا وَمَا

فَابْتَعَدْنَا عَنْ الْأَصُولِ الْمُقَدَّسَةِ وَالثَّوَابِ وَالتَّأَثُّرِ بِهَا وَالنَّفَازِ إِلَيْهَا وَتَفْعِيلِهَا، نَتَجَّ عَنْهُ افْتِقَارُنَا إِلَى اتِّصَالِ الْمَعَارِفِ الْأَصْلِيَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَاحْتِجْنَا بِذَلِكَ لِإِعَادَةِ تَرْمِيمِ وَتَجْدِيدِ وَتَطْهِيرِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ وَمُحَاوَلَةِ بَعْثِ هَذِهِ الرِّوَابِطِ الرُّوحِيَّةِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا وَإِحْيَائِهَا «التَّخْلِيقُ يَسْتَنْدُ إِلَى عَمَلِيَّتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا "التَّطْهِيرُ" وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ تَجْدِيدِ التَّربِيَةِ، وَتَتَوَسَّلُ بِالْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ، وَتَنْتُجُ التَّكَامُلَ الْمَعْنَوِيَّ الْمَادِّيَّ الْمُؤَدِّيَّ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَعَانِي الْأَصْلِيَّةِ لِلنَّصُوصِ، وَثَانِيهَا "التَّرْسِيخُ" وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ "تَأْيِيدِ التَّجَرِبَةِ" وَتَتَوَسَّلُ بِاتِّحَادِ النَّظَرِ وَالْعَمَلِ وَتَنْتُجُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّجْدِيدِ الْمُؤَدِّيَّ إِلَى التَّكَيِّفِ مَعَ تَقَلُّبِ الظُّرُوفِ الزَّمَانِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ»¹.

فَبُلُوغُ الْمَخَالَقَةِ -حَسَبَ طَه عَبْدِ الرَّحْمَنِ- فِي الْأَمَّةِ يَمُرُّ مِنْ خِلَالِ عَمَلِيَّتَيْ التَّطْهِيرِ وَالتَّرْسِيخِ، تَطَهَّرَ بِالْأَعْمَالِ وَتَجْدِيدِ التَّربِيَةِ، مِنْ خِلَالِ كَشْفِ الْمَعَانِي وَالْفَعَالِيَّاتِ الرُّوحِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ لِلنَّصُوصِ، وَالتَّرْسِيخِ مِنْ خِلَالِ تَجْسِيدِ التَّطْهِيرِ وَاقْعِيًّا وَعَمَلِيًّا مَعَ الظُّرُوفِ الرَّاهِنَةِ وَالْمُعَاوَرَةِ لِلْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ.

مَعَ وُجُوبِ مُرَاعَاةِ التَّدْرَجِ -أَحْيَانًا- فِي عَمَلِيَّةِ التَّجْدِيدِ هَذِهِ، لِاخْتِلَافِ النَّفُوسِ وَتَفَاوُثِهَا وَتَبَايُنِ مُسْتَوِيَاتِهَا، حَتَّى تَتِمَّكَنَ فِي الطَّرِيقِ وَتُثَبَّتَ بِهَا، فَالنَّفُوسُ وَالْمَيُولُ لَيْسَتْ وَاحِدَةً عِنْدَ جَمِيعِ الْمُرِيدِينَ، وَلَا يَأْخُذُ الْكُلُّ بِمَنْهَجِ تَرْبِيَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ يُلْزَمُ مُرَاعَاةُ الْفُرُوقِ الْفَرْدِيَّةِ "الْفَارَقِيَّةِ" «وَمِنْ لَطَائِفِ الرِّيَاضَةِ: إِذَا كَانَ الْمُرِيدُ لَا يَسْخُو بِتِلْكَ الرَّعُونَةِ رَأْسًا أَوْ يَتْرَكَ صِفَةً أُخْرَى وَلَمْ يَسْمَحْ بِضِدِّهَا دُفْعَةً، فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْقُلَهُ مِنَ الْخَلْقِ الْمَذْمُومِ إِلَى خَلْقٍ مَذْمُومٍ آخَرَ أَخَفَّ مِنْهُ... فَكَذَلِكَ مِنْ لَمْ تَسْمَحْ نَفْسُهُ بِتَرْكِ الْجَاهِ دُفْعَةً فَلْيَنْتَقِلْ إِلَى جَاهٍ أَخَفَّ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصِّفَاتِ»².

آليات المجاهدة:

الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: مُجَاهِدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ. يُنْظَرُ: الْهَجَوِيرِي، كَشَفُ الْمَحْجُوبِ. ج 02. مَصْدَرُ سَابِقٍ. ص: 431.

¹ - طَه عَبْدِ الرَّحْمَنِ، الْعَمَلُ الدِّينِيُّ وَتَحْدِيدُ الْعَقْلِ. الْمَرْكَزُ الثَّقَافِيُّ الْعَرَبِيُّ، الدَّارُ الْبَيْضَاءُ، الْمَغْرِبُ. ط 01، 1997، ص: 191.

² - أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ، إِحْيَاءُ غُلُومِ الدِّينِ. مَصْدَرُ سَابِقٍ. ص: 944.

معركة المجاهدة التي يخوضها المريد، بواعثها تحقيق العبودية لله وحده، من خلال الارتقاء من عوالم المادّة إلى الأنوار الملكوتية والأسرار الربّانية والكشوفات والفيوضات الرّحمانية، وُصولاً وتحقيقاً للفتح الكبير وانعتاق الرّوح الكلّي... فالنّفس بحُكم طبيعتها وخلقتها مُحتاجة ومُفتقرة للتّقويم والتّأديب، وهذا يقتضي أولاً الإحاطة والمعرفة بها ظاهراً وباطناً، ف«التّصوّف هو العلم الذي اختصّ من بين العلوم الشرّعية بترتيب مُراقبة السّلوك»¹.

أ - المراقبة:

فلا تتمّ المجاهدة إلّا بالمراقبة، لأنّ المراقب يستشعر اطلاع الله على ظواهر وأسرار الأعمال، فهي أهمّ آلية من آليات المجاهدة للتغلّب على آفات النّفس وبلوغ كمال المجاهدات تُمثّل حديث جبريل -عليه السّلام-، وتحقيق مرتبة الإحسان ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) مُراقبة مُستمرة دائمة، لِعلمه بأنّ الله يطلّع على الظّواهر والأسرار والبواطن، وما في القلوب والضّمائر، كما قال أبو سُلَيْمان الدّاراني رحمه الله تعالى: «كيف يخفى عليه ما في القلوب؟ ولا يكون في القلوب إلّا ما يلقي فيها، أفيخفى عليه ما هو منه؟»².

ب - وجوب حفظ الجوارح:

فمن آفات النّفس رُكونها إلى استجلاب واستحباب المدح والذّكر الطيّب والثّناء والشّكر ويستولي عليها الرّياء والنّفاق والكبر، وعلامة ذلك رُجوعها إلى الكسل والفشل عند انقطاع ذلك وذمّ النّاس لها فالأصل لأيّ مُجاهدة هو مُخالفة هوى النّفس وفطمها عن المألوفات والشّهوات واللذات، ويحملها على خلاف ما تهوى في عُموم الأوقات والحالات ثمّ اعلم أنّك لا تصل إلى منازل القربات حتّى تقطع ستّ عقبات.

العقبة الأولى:

¹ - طه عبد الرّحمان، العمل الدّينيّ وتحديد العقل. مرجع سابق. ص: 192.

² - أبو نصر السّراج الطوسي، اللّمع. مصدر سابق. ص: 82.

- فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية.

- فطم النفس عن المألوفات العادية.

- فطم القلب عن الرعونات البشرية.

- فطم النفس عن الكدورات الطبيعية.

- فطم الروح عن البخورات الحسية.

- فطم العقل عن الخيالات الوهمية¹.

فَعَلَى الْمُرِيدِ تَجَاوُزُ هَذِهِ الْعُقَبَاتِ وَالْحَوَاجِزِ وَحَفَظَ الْجَوَارِحَ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْعِلَلِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، حَتَّى يَحْصَلَ عَلَى عَقَّةِ اللِّسَانِ بِالصِّدْقِ وَالْعَقْلِ، وَتَظْهَرَ الْعَيْنُ مِنَ النَّظَرِ بِشُكٍّ وَسُوءِ نِيَّةٍ وَالْيَدُ مِنَ الظَّلَمِ وَالْعَدْوَانِ وَالْبَطْشِ، وَالْبَطْنُ مِنَ الْمَحَرَّمَاتِ وَالْفَرْجُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ وَطَهَارَةُ الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ مَرَضٍ دَاخِلِيٍّ مِنْ حَسَدٍ وَغِلٍّ وَحَقْدٍ.

2- المجاهدات ومراقبتها:

الانخراط في السلوك الصوفي يتضمن تلقائياً، حياة جديدة، تتجاوز الأمور الشكلية والإجراءات الظاهرية تهدف أساساً إلى الارتقاء بالمرید السالك إلى هيئات مختلفة وتأثيرات مغايرة، ويبلغ مستويات ودرجات «تتماشى وفعاليات التربية المقدمة والمقامات والأحوال المكتسبة، من خلال الامتحانات والمجاهدات التي يفرضها منهج التسليك في التربية الصوفية، تتجاوز مجرد الخلافات والمشاكل ومحن الحياة البسيطة، إلى تحقق فعلي وتغيير داخلي باطني، لأن الابتلاءات والإغراءات، دليل على حب الله وقربه، وارتبطت كلمة "بلاء" ارتباطاً روحياً بكلمة "بلى"، التي قالتها الأرواح في يوم الميثاق الأول فـ"البلاء هو ذاته" كما قال الحلاج»².

2-1/ مجاهدة التقوى:

¹ - عبد الله أحمد ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم. تح: محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، القاهرة، مصر، دت، دط. ص: 28-29.

² - أنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف. مرجع سابق. ص: 157.

وهي رعاية حق الآداب الظاهرة والباطنة مع الله تعالى بالالتزام حُده وشريعته، أمرًا ونهيًا وتُسمى بمُجاهدة "التَّقوى" والباعث على هذه المُجاهدة طلب النِّجاة، اتِّقاءً وتحرُّزًا من غضب الله وعُقوبته وحقيقتها الورع، وهي فرض عينٍ على كُلِّ فردٍ.

2-2/ مُجاهدة الاستقامة:

وهي تتلو المُجاهدة الأولى، وَ لا تتحقَّق إلا بعد تحقيق مُجاهدة "التَّقوى" وتقوم هذه المُجاهدة على تهذيب النَّفس وتقويمها وترويضها والسَّموُّ بها إلى مراتب الكمال الرُّوحِي والخلقي والارتقاء بها إلى عوالم الفضيلة بإلزامها فنونا من الوظائف والمجاهدات تداركًا لما فات وجبرًا على الإفراط والتَّضييع، حتَّى تعتدل في جميع أخلاقها، وتصير لها الآداب القرآنية والنبوية خُلُقًا جبليًا فطريًا تطبُّعًا، مُتَحَقِّقَةً به، والباعث على هذه المُجاهدة طلب الفوز بِمنازل النَّبيين ودرجات الصِّديقين، قال الشَّيخ "أبو القاسم الجنيد": «اعلم أنَّ الاستقامة لا يُطبقها إلاَّ الأكابر، لأنَّها خُروج عن المعهودات، ومُفارقة الرِّسوم والعادات والقيام بين يدي الله على حقيقة النَّصوِّ»¹.

وحُكم هذه المُجاهدة أنَّها مشروعةٌ، وجائزةٌ في حقِّ الأُمَّة وليست فرضًا عينًا، ويشترط "ابن خلدون" للقائم على هذه المُجاهدة الإرادة أولاً، ثُمَّ الرِّياضة ثانيًا، وثمرتها صفاء القلب والتَّخلُّق بِخُلُق القرآن والتَّادَّب بِآدابه.

2-3/ مُجاهدة الكشف والاطِّلاع:

وهي لُبَّاب هذه المُجاهدات ولُزوم الرِّياضات، بإخماد النَّفوس الشَّهوانية الغضبية، ورفع كُلِّ الحجب لينكشف لِلصَّوْفِي حقائق ربَّانية وأنوارًا عرفانية، من جهة الفتح لِإلهيِّ والوَهَب الرَّحمانِي، نتيجة مُلازمتهم أصول الطَّريق والتَّزامهم بِقواعدها وآدابها وأخلاقها وأسفارها الرُّوحية والبدنية الشَّاقة، وتحصيلها يتمُّ بعد مُجاهدتي "التَّقوى" و"الاستقامة" وقد اشترط "ابن خلدون" في كتابه (شفاء السَّائل وتهذيب المسائل) شروطًا لِتحقُّق هذه المُجاهدة:

¹ - ابن خلدون، شفاء السَّائل وتهذيب المسائل. تح: مُحَمَّد مُطيع الحافظ. دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان. ط 01، 1996، ص: 77.

- الشرط الأول: حصول التقوى.

- والشرط الثاني: الاستقامة

- والشرط الثالث: الاقتداء بشيخ سالك عالم مُربي، سلك الطريق وخبر المجاهدات وارتفع له الحجاب وتجلّت له الأنوار¹.

- الشرط الرابع: قطع العلائق كلّها عن النفس زهدًا وخلوةً ثم الصمت بترك الكلام جملةً، ثم الجوع بمواصلة الصيام والسهر بقيام الليل.

- الشرط الخامس: الإخلاص وصدق الإرادة، وهنا لا يُقصد إرادة "النّية" بل إرادة الزّهد والمحبة، وإستيلاء حبّ الله بالكلّية على قلب المريد حتّى «يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلّا همٌّ واحدٌ»².

كما تتمّ هذه المجاهدات من خلال سلّم مُتدرّج، يتضمّن قطع المقامات والأحوال عمليًا، فيركّز في أحواله على المراقبة والمحبة والخوف والرجاء والأنس والمشاهدة واليقين، فالحال هبة إلهية غير مُستقرّة، لها أشكال وألوان متعدّدة، لهذا يصعب إخضاعها لتربية ومنهجية وتدابير مُعيّنة، أمّا المقامات فهي تتّصف بالاستقرار والتّبوّت على المريد قطعها بخطوات ثابتة، وفق معالم كبرى واضحة على امتداد طريقه التّربوي وهي التّوبة والورع والزّهد والفقر والصّبر والتّوكل والرّضا، وتتوقّف نهاياته على همّة المريد السّالك وقدرته وصبره.

3/- الشّيخ:

تتفق الطّرق الصّوفية جميعها على أنّه لا بدّ للمسافر من شيخ تربيةٍ واصل يسلكه الطّريق، يرشده ويؤيّد، عارفٌ بأحوال ومقامات الطّريق، نال إجازة الطّريق عن شيخٍ آخر وهكذا عبر سلسلة مشايخ متواصلة إلى الرّسول ﷺ بين الشريعة والحقيقة، فوجود الشّيخ ضروريّ لبُلوغ المريد مقام الإحسان، فلا يصل إليه إلّا بالسّلك على الشّيخ، ولا تُغني قراءة وحفظ الكتب المتعدّدة عن تربية الشّيخ، فالشّيخ صاحب تجربة، ومُدرِك إدراكًا تامًّا للخطوات التّربوية التي

¹ - المصدر نفسه. ص: 84.

² - المصدر نفسه. ص: 85.

عليه مُراعاتها ليسلك بِمريدِهِ مُختلف مُنَعرجات الطَّرِيق، حتَّى يُوصلهم إلى إِتِمَام الطَّرِيق. ولقد أفرَد الصَّوْفِيَّة كَلامًا طَوِيلًا عن شُيوخ الطَّرِيق، وَعَن عُلُوِّ مقاماتهم وأهمَّيتهم ودورهم وَقَد عبَّر عن هذه الأهمَّية جلال الدِّين الرُّومِيَّ شعْرًا، تعبِيرًا رائقًا ففِي إحدى قصائده المثنوية الرِّمزية قال: «إِنَّ الشُّيُوخ... هُم هَؤُلاءِ الَّذِينَ -قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ هَذَا الْعَالَم- كَانَتْ أَرْوَاحُهُمْ غَرَقَى فِي بَحْرِ الْجُودِ، إِنَّ الشُّيُوخَ قَدْ أَبْصَرُوا الشِّتَاءَ إِبَّانَ الصَّيْفِ اللَّاهِبِ وَشَاهَدُوا الظَّلَالَ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ، فَالَسَّمَاءُ نَشَوَى بِمَا يُدَارُ فِي كَأْسِهِمْ مِنْ شَرَابٍ، وَالشَّمْسُ مِنْ جُودِهِمْ تَرْفُلُ وَفِي وَشَى الذَّهَبِ»¹. وَقَد حرص المنهج التَّربويُّ الصَّوْفِيُّ على إثبات حياة تعبُّدية خاصَّة، أساسها السَّمْع والطَّاعة وَالْأَخْذُ بِبَيْدِ شَيْخٍ مُرْشِدٍ، مُوجِّهِ وَنَاصِحٍ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ قَامَتِ مَدَارِسُ تَرْبِيَةِ رُوحِيَّة، رُوحِهَا الْإِعْتِقَادُ التَّامُّ وَالتَّصَدِيقُ الْكَامِلُ بِهِؤُلاءِ الْمُرْشِدِينَ الْوَاصِلِينَ لِحَضْرَتِهِ الْقُدُّوسِيَّةِ تَأْسِيًّا بِالرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَبَعَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهَؤُلاءِ هُم خُلَفَاءُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُوَاصَلَةِ الْإِرْشَادِ وَالتَّبْلِيغِ «فَالْمَرْءُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ "يُسَافِرَ" نَحْوَ اللَّهِ فَقَطْ كَفَرِدَ فِي "أُمَّةٍ طَاهِرَةٍ" أَوْ كَمَا فِي تَعْبِيرِ اللَّاهُوتِ الْمَسِيحِيِّ فِي "جَمَاعَةٍ مِنَ الْقَدِّيسِينَ" أَنْشَأَهَا اللَّهُ وَطَهَّرَهَا بِوَحْيٍ مِنْهُ»². فَالطَّرِيقُ الْعَمَلِيُّ الْمَوْصِلُ لِلتَّزْكِيَةِ وَكَمَالِ الْأَخْلَاقِ يَسْتَوْجِبُ صُحْبَةَ الْوَارِثِ الْمَحْمَدِيِّ وَالْمُرْشِدِ الصَّادِقِ وَالْأَنْمُودَجِ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ، فَيَزِدَادُ الْمُرِيدُ إِيْمَانًا وَأَخْلَاقًا، وَلَا يُمَكِّنُ لِلْمَرْءِ مُنْفَرَدًا اسْتِكْشَافَ تَفَاصِيلِ الطَّرِيقِ وَعَثَرَاتِهِ وَآلِيَاتِ انْبِعَاثِهِ الرُّوحِيِّ بِجُهِودِهِ الْخَاصَّةِ، يَقُولُ الْفَقِيهُ الْمَالِكِيُّ "عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنِ عَاشِرٍ" فِي مَنْظُومَةِ (الْمُرْشِدِ الْمَعِينِ) مُبْرَزًا أَهْمِيَّةَ صُحْبَةِ الشَّيْخِ الْمَجْرَّبِ وَأَثَرِهَا الطَّيِّبَةِ فِي ذَلِكَ:

يَصْحَبُ شَيْخًا عَارِفَ الْمَسَالِكِ يَبْقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكِ
يَذْكُرُهُ اللَّهُ إِذَا رَأَاهُ وَيُوصِلُ الْعَبْدَ إِلَى مَوْلَاهُ³

¹ - جلال الدِّين الرُّومِي، المثنوي. ج2. تح: مُحَمَّد عبد السَّلام كِنَانِي. المكتبة العصرية، بيروت، لُبْنَان. 1967، ص: 34.

² - سَيِّدُ حُسَيْنِ نَصْر، الصَّوْفِيَّةُ بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ. تر: كَمَالُ خَلِيلِ الْيَازْجِي. الدَّارُ الْمُتَّحِدَةُ لِلنَّشْرِ، بَيْرُوت، لُبْنَان. 1975، ص: 20.

³ - مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عَاشِرٍ، الْمُرْشِدُ الْمَعِينُ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنَ عُلُومِ الدِّينِ. دارُ الْفَقْهِ الْمَالِكِيِّ، ط3، 2012، ص:

فَالشَّيْخُ أَصْلٌ ثَابِتٌ فِي أَصُولِ التَّربِيَةِ عِنْدَ الْمُتَصَوِّفَةِ، وَلَا عِمَادَ سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَا غِنَى لِأَيِّ سَالِكٍ عَنْهُ، فَقَدْ أَجْمَعَ الصَّوْفِيَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ (يُقْصَدُ الشَّيْخُ) فَهُوَ لَقِيطٌ، لَا نَسَبَ لَهُ وَلَا أَبَ لَهُ فِي الطَّرِيقِ، وَمَنْ لَا شَيْخَ لَهُ فَالشَّيْطَانُ شَيْخُهُ، وَمَنْ مَاتَ دُونَ بَيْعَةِ شَيْخٍ، مَاتَ جَاهِلًا.

«وَبِالْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ الْأَخْلَاقِ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِأَحَدِ الطَّرِيقَيْنِ، إِمَّا بِالْجَذْبِ الْإِلَهِيِّ، وَإِمَّا بِالسُّلُوكِ عَلَى يَدِ شَيْخٍ صَادِقٍ، وَلَوْ أَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ يُوصَلُ إِلَيْهَا بِالْفَهْمِ مِنْ غَيْرِ شَيْخٍ يَسِيرُ الطَّالِبُ فِيهَا، لَمَا احتَاجَ مِثْلَ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ الْإِمَامِ "الْغَزَالِي"، وَالشَّيْخِ "عَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ" أَخَذَ أُدْبَهُمَا عَنْ شَيْخٍ»¹.

فَعَلَى الْمُرِيدِ وَجُوبُ اتِّخَاذِ شَيْخٍ يَدُلُّهُ وَيُرْشِدُهُ إِلَى طَرِيقِ قَهْرِ النَّفْسِ وَتَرْكِتِهَا وَتَطْهِيرِ الْقَلْبِ وَإِزَالَةِ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، وَيُعَلِّمُهُ مَا يَنْفَعُهُ وَيُلْقِنُهُ الْأَذْكَارَ وَالْأُورَادَ، وَيُوصِلُهُ إِلَى مُبْتَغَاهِ. فَالشَّيْخُ دَالٌّ عَلَى اللَّهِ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، مُتَبَحَّرٌ فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ عَارِفٌ بِآفَاتِ النَّفُوسِ وَأَدْوَانِهَا، سَبَقَ لَهُ أَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ وَجَرَّبَهُ وَمَارَسَهُ فَعَلًا وَذَوْقًا وَحَالًا وَعَرَفَ مَخَاطِرَهُ وَمَزَالِقَهُ وَلِهَذَا فَهُوَ يَقُومُ بِدَوْرِ الْمُسَبِّبِ الْمَوْجِبِ، حَيْثُ يَعْرِفُ كَيْفَ يُوظَّفُ كُلُّ الْفُرْصِ الْمَوَاتِيَةِ لِتَرْقِيَةِ مُرِيدِهِ وَفَقِ الْإِسْتِعْدَادَاتِ وَالْقَابِلِيَّاتِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ «فَالشَّيْخُ الْمُرِيدِي مَا هُوَ فِي الصَّمِيمِ سِوَى التَّمَثِيلِ الْخَارِجِيِّ أَوْ كَـ"الْمَجَسَّدِ" لـ"الْمُرِيدِ الدَّاخِلِيِّ" الْحَقِيقِيِّ وَضُرُورَتِهِ تَكُونُ لِلْمُرِيدِ، مَا دَامَ لَمْ يَبْلُغْ إِلَى دَرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ التَّرْقِيِ الرُّوحِيِّ تُنْجِيهِ لَهُ الْإِتِّصَالَ الْوَاعِي الْمُبَاشِرَ بِالْمُرِيدِ الدَّاخِلِيِّ»².

فَعَمَلُ الشَّيْخِ إِذَا تَوَجَّهَ الْمُرِيدُ إِلَى اسْتِغْلَالِ كَافَّةِ إِمْكَانَاتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ وَتَحْفِيزِهَا عَلَى الْبُرُوزِ وَالظُّهُورِ، وَصُولاً إِلَى دَرَجَةِ الْإِسْتِقْلَالِ الذَّاتِيِّ تَدْرِيجِيًّا وَالْإِنْفِصَالِ عَنْهُ فِي أَقْرَبِ الْأَوْقَاتِ الْمُمْكِنَةِ وَاعْتِمَادِهِ تَلْقَائِيًّا بَعْدَهَا عَلَى حُضُورِهِ الْبَاطِنِيِّ.

¹ - عبد الوهاب الشَّعْرَانِي، لَطَائِفُ الْمَنَنِ وَالْأَخْلَاقِ الْمَنَنِ الْكُبْرَى. تَح: أَحْمَدُ عَزْوُ عَنَايَةِ. دَارُ النَّفُوسِ، الْقَاهِرَةُ، مِصْرَ. ط 01، 2004، ص: 51.

² - عبد الواحد بَحْي، التَّربِيَّةُ وَالتَّحَقُّقُ الرُّوحِيُّ تَصْحِيحٌ وَمَفَاهِيمٌ. مَرْجِعٌ سَابِقٌ. ص: 113-115.

كما تبرز أهمية الشيخ أيضا في مسألة مهمة جدا، حيث يعمل على إقامة الموازنة بين حالين تمكّن المريد من الرّسوخ في الطّريق وتلافي عنصر المفاجأة الوارد، الذي قد يُبعده من حيث يظنّ القرب والسّداد «لقد عملت تربية المريدين السّالّكين على أيدي مشايخ الطّرق على تهيئة الأوّلين لتقبّل صفة البطون أو القرب تدريجيّا، فكان ذلك وقاء لهم من عنصر المفاجأة التي قد تذهب بعقول من يتعرّضون لآلوهة بدون دليل مُرشّد يهديهم إلى سواء السّبيل وقد قلنا إنّ غرس قيمة البطون في نفس السالّك من شأنه أن يوازن بين القيمتين فلا تُرجح إحداها على الأخرى»¹.

فالشيخ عارفٌ ماهرٌ بالطّريق، عالمٌ ببدايته ونهايته، قادرٌ على وصف كفايات المجاهدات المناسبة لكلّ مريدٍ، لأنّه أدرك بالعلل الطّائفة في مراحل السّلوّك المختلفة وفي المحطّات المتقدّمة، في نفس المريد وقلبه، وأقدر على تمييز أنواع ومراتب الإلقاءات القلبية، إنّ كانت ربّانية أو شيطانية، وكذا تخفيف صدمات الواردات والمواجد، وتصفية صدقها من كذبها من باطلها، بخبرته النّامة بمكانها وأوصافها وحالاتها وزمنها.

«فأكثرت الباطنية، والحلولية، والزّنادقة، والإباحية، والتّناسخية، والجبرية، وسائر ما يُذكر من الفرق في هذا النّمط، إنّما أصل هلاكهم السّلوّك في هذا الطّريق من غير شيخ مُحقّق عارفٍ، أو الخروج عن نظره فيه، فالاحتياج فيه إليه كاحتياج الجسد إلى الغذاء»².

لأنّ الشيخ المحقّق أُميرٌ للمداخل والمخارج، وجميع المكامن والمواطن التي وجب الاحتراز منها، الوقوف عندها أو الابتعاد والفرار منها، لأنّها فواصلٌ دقيقةٌ جليّةٌ قد تكون سببا في إخراج صاحبها من الإيمان إلى الكفر ومن التّوحيد إلى الشّرك، ومن الحرية إلى استعباد الأغيار، ومن حال الكرامة إلى حال المهانة لصُعوبة معرفتها وتمييزها وحصرها وضبطها.

على الرّغم من اتّحاد غاية المشايخ في كلّ تربية واتّفاقهم في جوهرها، إلّا أنّ الطّرق الموصلة إليها تتعدّد، فيقوم كلّ شيخٍ بتكييفها حسب النّمودج الفرديّ لكلّ سالّكٍ مريدٍ، وحالاته وإمكاناته

¹ - نهاد خياطة، دراسة في التّجربة الصّوفية. مرجع سابق. ص: 79.

² - ابن خلدون، شفاء السّائل وتهذيب المسائل. مصدر سابق. ص: 142.

التي تتغيّر على الدوام، تبعاً لاختلاف الأفراد، فمن مهام الشيخ تنويع طرق التربية باختلاف المريدين وتنويعهم، فتارةً يرى تحرير نفس المريد في الجوع فيجوعه، وتارةً في الشبع فيشبعه، وتارةً في الصمت فيسكته، وتارةً أخرى في السهر وتارةً أخرى في تمكينه من الخلوة واعتزاله الناس وفراره منهم، وتارةً في الاجتماع بهم والاستئناس إليهم.

«فإنّ هذا الطريق لما كان في غاية الشرف والعزة حفّت به الآفات والقواطع والأمر

المهلكة من كلّ جانب، فلا يسلكه إلا شجاع مقدام ويكون معه دليلٌ علام، وحينئذٍ تقع الفائدة فعلى الشيخ أن يوفّ حقّ مرتبته، وعلى المريد أن يوفّ حقّ طريقه»¹.

فالممد النبويّ متواصلٌ ومُستمرٌّ في خلقه في كلّ عصرٍ، يجري مع الخاصة ممّن اصطفاهم الله لأداء هذه الرسالة، فمنّ صاحبهم واقتدى بهم واستمدّ منهم فاز بعطاء المدد الفاضل من الله، ومنّ أعرض عنهم مُستغنياً عنهم طبع عليه بالحرمان والابتعاد.

وهناك ثلاث طرقٍ للتربية، تختلف باختلاف نوع شيخها، طريق التبرّك، الإرشاد، والتربية والترقية فشيوخ التبرّك يدلّ على مقام الإسلام وغايته علم اليقين والإشراف على النفس المطمئنة، يبلغ أورد لمن يطلبها، بإذن مُسنّدٍ صحيح، ويقف دوره عند هذا التبليغ، وينال الآخذ عنه بركة النسبة لسلسلة الشيوخ الصالحين المتصلة برسول الله ﷺ ينال ثواب وأنوار الأذكار التي يلتزم بها.

أمّا شيخ الإرشاد يُرشد إلى مقام الإيمان وغايته عين اليقين والإشراف على مقامات القلب المستتير بدوام الذكر، فزيادة على تبليغ الأورد كشيخ التبرّك يسعى لإرشاد تلاميذه إلى مكارم الأخلاق ودوام الذكر وصفاء الباطن وينفث في قلوب أهل الاستعداد منهم عوارف معارف وأنوار ومقامات وأمّا شيخ التربية والترقية فيُرفع إلى مقام الإحسان مُشاهدة في مقام أن تعبد الله كأنك تراه وللصادقين من مريديه حقّ اليقين وحقيقته المعرفة والتّمكّن في قام القرب².

¹ - الشيخ الحداد، التقيد المحلّ للتقيد في التصوف. تح: عمار طالبي وآخرون. البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر. ط 01، 2014، ص: 308.

² - عبد الباقي مفتاح، منهاج التزكية وسبله . الملتقى الأول لسلسلة الدروس المحمدية ضمن محور الحضارة الإسلامية . رمضان 1427هـ أكتوبر 2006 م. المُحاضرة الرابعة عشر.

وَالْإِشْكَال لَا يَتِمُّ فِي عَدَمِ وُجُودِ شُيُوخِ التَّربِيَةِ فِي زَمَنِ الْحَدِيثِ وَالْمَعَاوِرِ، بَلِ الْإِشْكَالُ الْحَقِيقِيُّ فِي صَدَقِ طَلَبِ الطَّالِبِ، لَا بِوُجُودِ الْمَطْلُوبِ فَهُمْ مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

4- المريد:

إذا كان الشَّيْخُ يُمَثِّلُ أَسَاسَ الطَّرِيقِ الصَّوْفِيِّ، فَإِنَّهُ دُونَ وُجُودِ مَرِيدَيْنِ سَالِكَيْنِ لِهَذِهِ الطَّرِيقِ، مَا كَانَتْ لَتَكُونَ هُنَاكَ طُرُقٌ وَتَرْبِيَةٌ وَزَوَايَا، وَقَدْ عَجَّتْ كُتُبُ التَّصَوُّفِ بِالتَّأْصِيلِ لِآدَابِ الْمَرِيدِينَ وَشُرُوطِ التَّحَاقُّقِهِمْ، وَوَضَعُوا الْقَوَاعِدَ الْمَحْدَدَةَ لِمُعَامَلَاتِهِمْ مَعَ شُيُوخِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ، وَأَوْجَبُوا عَلَيْهِمُ التَّزَامُهَا فِي سُلُوكَاتِهِمْ وَأَثْنَاءَ سَيْرِهِمْ.

وَأَسْمَ الْمَرِيدِ عِنْدَ الصَّوْفِيَّةِ مَأْخُذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) سورة الكهف، الآية 28، فَالْمَرِيدُ حَقِيقَةُ مَرِيدِ اللَّهِ، وَالْمَرِيدُ مَرَادُ فِي الْحَقِيقَةِ وَالْمَرَادُ مَرِيدٌ لِأَنَّ الْمَرِيدَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُرِيدُ إِلَّا بِإِرَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... فَكَانَتْ إِرَادَتُهُ لَهُمْ سَبَبُ إِرَادَتِهِمْ لَهُ، إِذْ عِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ وَلَا عِلَّةُ لِصُنْعِهِ وَمَنْ أَرَادَهُ الْحَقُّ فَمَحَالٌ أَنْ لَا يُرِيدَهُ الْعَبْدُ فَجَعَلَ الْمَرِيدَ مُرَادًا وَالْمَرَادَ مَرِيدًا غَيْرَ أَنَّ الْمَرِيدَ هُوَ الَّذِي سَبَقَ اجْتِهَادُهُ كَشُوفَهُ¹. حَقِيقَةُ الْمَرِيدِ فَعْلًا وَإِنْ اشْتَقَّتْ مِنَ الْإِرَادَةِ، هِيَ تُجَرِّدُهُ تَرْبِيًّا عَنْهَا، فَالْمَرِيدُ الْحَقِيقِيُّ مَنْ لَا إِرَادَةَ لَهُ، فَكُلُّ شَخْصٍ انْخَرَطَ فِي طَرِيقِ التَّربِيَةِ الصَّوْفِيَّةِ مَهْمَا كَانَتْ صِفَتُهُ وَمَكَانَتُهُ وَدَرَجَتُهُ الَّتِي أَدْرَكَهَا، يَنْسَلِخُ عَنْ جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَعُلُومِهِ وَمَعَارِفِهِ وَجَاهِهِ، وَسُلْطَتِهِ، لِتَعَلُّقِهِ بِشَيْخِهِ، الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ وَيَتَّبِعُهُ إِلَيْهِ بِكَامِلِهِ، لِيَكُونَ تَعَلُّقُهُ بِهِ تَعَلُّقَ الْمَرِيدِ الْحَقِيقِيِّ، الَّذِي يُمَكِّنُهُ مِنَ تَحْقِيقِ الْوَصُولِ الْفَعْلِيِّ، فَيَصِيرُ الْمَرِيدُ بِذَلِكَ جُزْءًا مِنَ الشَّيْخِ وَيُولَدُ الْمَرِيدُ وَلَادَةً جَدِيدَةً مَعْنَوِيَّةً بَعْدَ وَلَادَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ الْأُولَى.

وَقَدْ فَرَضَ شُيُوخُ التَّربِيَةِ الصَّوْفِيَّةِ عَلَى "الْمَرِيدِ" آدَابًا يَجِبُ عَلَيْهِ التَّقَيُّدُ بِهَا وَالتَّزَامُهَا، حَتَّى اتَّهَمُوا فِيهَا أَحْيَانًا بِالْقَسْوَةِ وَالْمَبَالِغَةِ وَالتَّشَدُّدِ، وَقَدْ نَمِيلُ إِلَى طَرَحِ الدَّكْتُورِ "عَبْدِ الْمَجِيدِ الصَّغِيرِ" وَتَبْرِيرِهِ لِهَذِهِ الْكَثْرَةِ وَالْحَزْمِ فِي هَذِهِ الشَّرُوطِ وَالْآدَابِ الَّتِي وَضَعَهَا الصَّوْفِيَّةُ لِمَرِيدِهِمْ «وَمِنْ ثَمَّ نَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ أَنَّ غَرَضَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَهُمْ طُلَّابُ كِمَالٍ وَعُشَّاقُ نَمَازِجٍ، إِنَّمَا هُوَ تَصَوُّرُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ

¹ - السَّهْرُورِيُّ، عَوَارِفُ الْمَعَارِفِ. مَصْدَرُ سَابِقٍ، ص: 107.

أَوْ تَصَوَّرَ الْأَحْسَنَ وَالْأَمْتَل، مِنْ حَيْثُ أَنَّهُمْ طَلَّابٌ مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ، لَا الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ فَحَسَبُ¹.

لهذا نجد الشيوخ يؤكدون في تربيتهم لمريديهم على هذه الآداب التي تُساعدهم على التخلّص من رُعونات أنفسهم ودسائسها الخفية وأمراضها الظاهرية والباطنية وإسقاط جميع آفات الدنيّة، فيركّزون على مبدأ "التذلّل والانكسار" الذي يُورث الخدمة والصدق والمحبة والصبر، لتحقيق هذه الآداب في أنفسهم ومع غيرهم.

4-1/ من آداب المريد مع شيخه:

ومن أهم هذه الآداب:

- إمتثال أمره واجتناب نهيه، والسكينة والوقار في الجلوس بين يديه، والمبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان.
- دوام حضور مجالسه.
- اعتقاد كماله، وأنه أهلٌ للشيخوخة والتربية، وتعظيمه، وحفظ حرمة غائبًا وحاضرًا.
- عدم الجلوس بين يدي الشيخ على غير طهارة.
- عدم إيصال الكلام القبيح للشيخ².

4-2/ من آداب المريد مع إخوانه:

- حفظ حرمتهم غائبين وحاضرين، فلا يغتاب أحدًا ولا يُنقص أحدًا.
- نصيحتهم، بتعليم جاهلهم، وإرشاد ضالّهم وتقوية ضعيفهم.
- التواضع لهم، والاستتصاف من نفسك معهم وخدمتهم بقدر الإمكان.
- شهود الصفا فيهم واعتقاد كمالهم³.

4-3/ من آداب المريد في السلوك:

¹ - عبد المجيد الصغير، التصوّف كوعيٍّ وممارسةٍ. مرجع سابق. ص: 154.

² - محمّد بن أحمد البوزيدي، الآداب المرضية لسالك طريق الصّوفيّة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط 01، 2006، ص: 117-118.

³ - ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم. مصدر سابق. ص: 178.

-نفي الغفلة عن قلبه ومُكابدة خواطره.

-المحافظة على آداب الشريعة وتتبّع ظاهرها والأخذ بالأحوط في دينه ولا يتجاوز حدوده

في الاجتهاد والإفتاء إن لم يكن عالمًا، وإنما مرجعه أهل العلم.

-أن يكون زاهدًا في الدنيا، قصير الأجل، جادًا في الطاعات¹.

5/- الذكر:

الذكر مجمع كُلِّ الممارسات والشعائر الروحية فهو وحده الذي يُكرّس "المجاهدة الفعلية والحقيقة" ضدّ النسيان والغفلة، التي يُصاب بها الفرد النّاكر والغافل عن أصوله الإلهية ولميثاقه الأول الأزلّي، والقرآن نفسه "ذكر" لقوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) (سورة الحجر، الآية 90)، والسالك يستشعر فعليًا عملية المrapطة على الحضور معه، بجميع الأشكال والأساليب، ومُختلف الوضعيات لقوله تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) سورة آل عمران، الآية 191، فممارسة الذكر أفضل أشكال العبادات المنصوص عليها مُطلقًا، لا وقت يحدها ولا وسيلة تُقيدها ولا مكان يخصصها، مقارنةً مع باقي العبادات الأخرى. فالذكر في مفهومه الشّامل يجمع كُلّ ما يصدر عن المريد من أقوال وأفعال وأحوال، تجعله في علاقة مُستمرة مع الله، ويتمّ ذلك بالتسبيح والتحميد والتّهليل وتلاوة القرآن الكريم، وترديد أسمائه الحسنى وصفاته العلا والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

فالذكر ضد النسيان، وحقيقته من الشّرع هي «قيام معنى التّوحيد في النّفس حتّى يصير صفةً لها لا تغفل عنه»².

فهو من أهمّ الوسائل التربوية المؤدية للوصول إلى الحقّ سبحانه وتعالى، بل هو عمدة الطّريق إلى تحقيق العبودية والتّوجيه الكامل، فالذكر يُزيل الظّلمات البشرية ويدخل الحضرة الرّبّانية، فيصير الذاكر مُستغرقًا بكليته في الله، فلا يشتغل بغيره، ويمحي من قلبه كُلّ أثرٍ لأيّ علاقةٍ غريبة، وتتفصل الذات عن كُلّ كثرة ومادة حسّية، وعن كُلّ ما هو خارجيّ وعن القلق والرّغبات

¹ - محمّد باسم دهمان، الآداب السلوكية لطالبي المراتب العلية. دار العصماء، دمشق، سوريا. ط01، 2010، ص: 83.

² - الشّيخ الحداد، التقييد المحلّ للتّعقيد في التّصوّف. مرجع سابق. ص: 227.

الدنيوية، ويتخلّى القلب عن كلّ همٍّ وحُزنٍ دُنْيَوِيٍّ فيصير بذلك الذكر عونًا له على مُكابدة النفس ومُجاهدتها ويُيسّر له طريق التربية ومُواجهة الشهوات والشبهات.

فالتربية الصوفيّة تعتمد على الذكر بجميع أنواعه وأشكاله وصُوره وكيفياته في تحرّر المريد عن كلّ شيءٍ، غير الله تعالى، وكلّ ما يفصله عنه، حتّى يتمّ له التّوحيد المنشود، لأنّ الذكر ينتهي به مُداومة ذكره بأنّ يُصبح حقيقةً مُتأصّلةً فيه، لا يغفل عنه أبدًا فيُقترن فيها "الذكر" بـ"الفكر" و"الفناء" بـ"البقاء" و"الغياب" بـ"الحضور الكلّي الدائم" لأنّ الحجاب الذي يستر الأنوار الرّبّانية الباطنية الدّاخلية قد تلاشى وأزيل منه.

طرق التّركية وإنْ كثرت، فطريق الذكر أسرع نفعًا وأقرب مرامًا، وعليه درج أكثر مشايخ التربية لقيامه بـ «عمارة الباطن بالله تعالى في كلّ زمانٍ ومع كلّ حالٍ، لأنّ الذكر يدلُّ على المذكور لا محالة، فذكره ديدنا يُوجب المحبّة له والمعرفة به، والذكر وإنْ اختلفت ألفاظه ومعانيه فلكلّ معنى من معانيه اختصاص بنوع من التّحلية والتّخلية والتّركية»¹.

والوسائل التي تستمدّ منها هذه الحقيقة تختلف، فمنها الباطن، ومنها الظاهر، ومنها القريب ومنها البعيد، أمّا الباطنة؛ فإعمال الفكر والتأمّل، بما يُصَفّي النفس ويحرّكها لالتّصاف بالحقائق، وأمّا الظّاهرة فبذكر الجوارح، كحركة اللسان بأسماء الله وصفاته وسائر الجوارح بالصّلاة وغيرها.

كما أنّ الذكر ينقسم إلى قسمين بحسب السّالّكين والواصلين العامّة والخاصّة، فالعامّة وهم أهل البداية، فهم الذين ما زالوا يُحاولون تخليص أنفسهم من الأهواء وتطهيرها من الشهوات، فهم يحتاجون الذكر للثبات على الطّريق والتّدرّج في التّركية ومعرفة الله تعالى، فيؤمّر الذكر في هذه المرحلة بأنواعٍ مُختلفةٍ وبأسماءٍ مخصوصةٍ وأدعيةٍ موجّهةٍ لكلّ علّةٍ نفسيةٍ، حتّى يترسّخ ويثبت عنده، لأنّ النفس في بداية الطّريق تحتاج محوًا تدريجيًا لكثرة ما علق بها من عالم الحسّ وتشعب عليها من المقتضيات، فأما أهل النّهاية أهل التّمكن، فهم الذين توغّل سرّ التّوحيد في قلوبهم وترسّخ في بواطنهم، فجميع وسائل الأذكار عندهم سواء لاستيلاء المذكور

¹ - الشّيخ الحداد، التّقييد المحلّ للتّعقيد في التّصوّف. مرجع سابق. ص: 259.

على قلوبهم حتى «يمنتج بلحمه ودمه وتسري أنواره في كلياته وجزيئاته فيتحد الذّكر والمذكور فينتقل الذّكر إلى القلب ثمّ الرّوح ثمّ إلى السّرّ، فحينئذٍ يخرس اللّسان ويحصل على محلّ الشّهود والعيان فيصير ذكر اللّسان ذنباً من الذّنوب عند مُشاهدة علام الغيوب حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»¹.

لهذا جعل الذّكر محبوباً في جميع الأحوال، ولو مع غياب حضور القلب والتفكّر ولو خُصّ باللّسان فقط، فإنّ شرّ البلايا وأخطرها على المريد تعطّله عن مُمارسة الذّكر والغفلة عنه، الّذي يُورث الرّان والقسوة، لأنّ غفلة الإنسان من الذّكر إعراض عن الله بالكلّية، وفي وجود الذّكر -ولو دون حضور قلبيّ- إقبالٌ بوجهٍ ما، يقول "ابن عطاء الله السّكندري": لا تترك الذّكر لِعدم حضور قلبك مع الله تعالى فيه، لأنّ غفلتك عن وجود ذكره أشدّ من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك الله من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع حضور ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عمّا سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز².

فالذّكر أساس النّقدّم في التّطهير والتّربية، حتّى وإنّ ثقل عليه، أو لم يلتزم بقواعده، وآدابه كاملة، أو أن يكون ذاكرةً فاقداً للتركيز، غير مُستغرقٍ بالفاظه ومعانيه شكلياً دون أن تصل إشراقاته إلى قلبه، اشتغالٌ لسانيّ لا قلبيّ، لأنّه تدريجيّاً وبمُواظبته سيفتح الله عليه ويتمكّن في قلبه، فالذّكر مع الغفلة بداية، أفضل من غيابه تماماً، لأنّ الذّكر له مقاماته ومراحلها الّتي وجب قطعها مرحليّاً وتدرجيّاً، لينتقل من حال الذّكر مع الغفلة إلى حال الحضور التّام إلى ذكر ينسى فيه ذكره، وهذه الحالة الّتي يُعبّر عنها العارفون بالفناء «فهذه ثمرة لباب الذّكر وإنّما مبدؤها ذكر اللّسان، ثمّ ذكر القلب تكلفاً، ثمّ ذكر القلب طبعاً، ثمّ استيلاء المذكور وإنمحاء

¹ عبد القادر الكوهيني، خلاصة شرح ابن عجيبة على متن الأجرومية في التّصوّف. مكتبة النّجاح، طرابلس، ليبيا. دت، ص: 17.

² ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم. ج 01. مرجع سابق. ص: 79.

الذكر¹.

نقلت "أنا ماري شيمل" في تخريجها وإستشعارها لعظمة الذكر باعتباره رياضة رُوحية وشكلاً من العبادة الخاص بأولئك الذين يجتهدون في سلوك الطريق إلى الله، ووقع النتائج الرائعة في رُوحانيات المريد، بأنّ الذكر يعود إلى الميثاق الأول، والمبادرة جاءت من فعل الله، والإنسان يُجيب بالذكر عن تلك الكلمات الأزلية التي جعلته بشراً بحق، «وهكذا يعود به الذكر الذي يُقال الآن في الزمان والمكان إلى لحظة الخطاب الإلهي عندما أنعم عليه بالغذاء الروحي في وليمة "ألست"².

كما لا يجب أن ننسى نوعاً آخر من الذكر عند الصّوفيّة، وهو "السّماع" وعلاقته التّربوية بتزكية النّفس، وتجاوز مرحلة الذكر الشّفويّ اللّسانيّ، اللّغويّ إلى الذكر القلبّي الوجدانيّ، والتّنتقل كلّياً من الألفاظ والعبارات إلى مُستوى الإشارات، فالسّماع له قُدرةٌ عجيبةٌ وعاليةٌ على التّبلغ والتّأثير، ولهذا السّبب نجد الصّوفية أصحاب البدايات «يتواجدون عند السّماع ويتحرّكون وتطّيب أوقاتهم وتهيم أرواحهم أكثر ممّا يتواجدون عند الذكر اللّغويّ المجرّد، لأنّ الإشارة تهيج أكثر من العبارة»³.

6/- العهد والتلقين:

ذكرنا آنفاً ضرورة ارتباط الطّريقة الصّوفية ومنهجها التّربويّ بأصل، أو سلسلة رُوحية، تضمن رياضة سلوكية انضباطية شرعيّة وحقيقيّة، يسهر عليها "شيخ" أو "مُرشد" منتم لهذه السلسلة التّراثية التّورانية تُصاحبه في مراحل سيره وسلوكه، ويوجّهه لاجتياز هذا السّفر والتّرقّي في المقامات، ويُسّترط قبل ذلك عقد بيعة تلحق هذا القاصد بشيخه وبسائر الطّريق وأفراد مريدي السّلك الرّوحيّ، فالعهد ميثاقٌ غليظٌ يلتزم الطّرفان بمُراعاته وهو يُمثّل شكلاً يُربط فيه بين المعلّم وطريقته وهو تأصيل وإعادة تجديد دائم للعهد الأزليّ المبرم بين الله والإنسان لقوله

¹ - أبو حامد الغزالي، الأربعين في أصول الدّين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق. تح: عبد الله عبد الحميد عرواني،

مُحمّد بشير الشّقفة. دار القلم، دمشق، سوريا. 2003. ص: 52.

² - أنا ماري شيمل، الأبعاد الصّوفية في الإسلام وتاريخ التّصوّف. مرجع سابق. ص: 197.

³ - ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم. ج1. مصدر سابق. ص: 79.

تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غْفِلِينَ (١٧٢) سورة الأعراف، الآية 172.

كما جدّده الصّحابة -رضوان الله عليهم- بمُبايعتهم الرّسول ﷺ الصّوفيّة اعتماد هذا العقد والعهد في سيرهم وهذا التّجديد الدّائم لهذا العهد الرّبّاني، ما هو إلّا رمزٌ لدوام النّهج التّربويّ الصّوفيّ واستمرار الرّابطة بالفيض والرّحمة الإلهية، والسّعي الدّائم نحو المطلق، نحو مركز وجوده، فيلتزم بممارسة نشاطه الإيمانيّ وتجديده ويربطه بالنور المحمّديّ السّاري. وقد تناقل هذا الإذن منذ عهد رسولنا ﷺ يومنا هذا رجالٌ عن رجالٍ، فوصل إلينا مُحَقّقًا مُسلسلاً، «والصّوفيّة يُسمّون البيعة والإذن والتّلقين باسم "القبضة" تلقّاها واحد عن واحد يقبض كلّ منهما يد الآخر، فكأنّما التقى السّالب بالموجب فارتبط التّيّار واتّصل السّند، ونفذ التّأثير الرّوحيّ المحسوس المجرب»¹.

يلتحق المريد من خلاله إلى عهد أبوة جديد، يتعهّده فيه شيخه بالتّربية والتّحقّق برُكن الإحسان، فالتّلقين وسيلة هامة تربط القلوب ببعضها، وتمكّن ضمناً من ربط المريد بسلسلة رُوحية، يصير فيها أحد حلقاتها ويتعهّد المريد من خلالها على السّمع والطّاعة، وعلى التّوبة والاستقامة والوقوف عند حدود الله تعالى ظاهراً وباطناً، والتّزام التّقرب إلى الله تعالى بالأوراد والأذكار والأحزاب التي لقّنها له شيخه، كما يلتزم من خلالها أيضاً بإتباع الأوامر واجتناب النّواهي الشرعيّة، وطاعة الشّيخ وإتباع منهجه وطريقته والتّأدب بقواعد الطّريق داخلياً وخارجياً، والمشاركة في شعائر الطّريقة، فالعهد رباطٌ مقدّس، على المريد احترامه والتّحرّز من التّحلّل منه أو مخالفته.

7/- لبس الخرقة:

من بين المناسك الأخرى التي تتّخذها بعض الطّرق الصّوفية الجزائرية في منهجها التّسليكي التّربويّ، تقليد "لبس الخرقة" أو "المرقعة" فيلبس الشّيخ المريد "خرقة" أو قطعة أخرى

¹ - عبد القادر عيسى، حقائق عن التّصوّف. منشورات دار العرفان، حلب، سوريا. ط6، 2007. ص: 81.

من القماش، وتكون هيئته في شكل ثوب أو عمامة أو طاقية، وارتدائها علامة على الزهد في الدنيا وإذلال النفس والتواضع، كما أنها رمز على الصّحة في الطريق وصفتها تختلف من طريقة إلى أخرى، وهي أيضاً نوع من أخذ العهد أو أخذ المبايعة لشيخ التربية في الطريق «فبعض الشيوخ يلبسون مريدهم العمامة كالتّريقة الشاذلية الدرقاوية حيث يلبس الشيخ بعد أخذ العهد مريده عمامة بيضاء فيها حاشية صفراء، واختار الرّفاعية لبس العمامة السوداء مرسلّة الطرف، واختارها بعض بغير إرسال»¹.

على الرّغم من تحذير مشايخ الصّوفيّة من الاهتمام الرّائد للشكل الظاهريّ، وإعطاء أهميّة أكبر وتركيزاً أكثر على الصّفاء الباطنيّ، إلّا أنّ الخرقه في طريق التربية الصّوفية لها دلالاتها الروحية والرّمزية وانتقالها من الشيخ إلى المريد، عنواناً لانتقال التّعليم الرّوحيّ والبركة الخاصّة، كقوّة ثورانيّة دافعة ومُحفّزة للمريد للتّمسك بالطّريق والصّبر على المجاهدات، وتمثّل واستشعار حضور مُرشدّه وشيخه، كما أنّها «تمكّن المريد من أن يتجاوز وعيه اليوميّ، فهو بفضل تسلّمه للخرقة أو الحجاب -بالاعتبار الرّمزيّ- يتمكّن من أن يهتّك الحجاب الدّاخليّ الذي يقوم فاصلاً بينه وبين العزّة الإلهيّة»².

فصارت مظاهر الملابس الصّوفيّة الشّكلية الخارجيّة، علامة هامّة في الانخراط في الطّريق الصّوفيّ، كما أضحت رموزاً مادّيّة وحسيّة، تُضفي انعكاسات إيجابيّة وقوّة داخلية للتّغلب على الدّات وتجاوز عقبات النّفس الكؤودة، التي تأبى كسر حواجز المجتمع وخرق عاداته والتّشبّث بالواقع العاديّ والمألوف، كما أنّها تُعتبر أسلوباً تقويمياً، له وظيفة مُراقبة المريد لأفعاله وسلوكه، من مُجتمع الصّوفيّ، وحتّى من خارجه، يقول الهجويري: «وقد أمر مشايخ هذه الطّريقة المريدين بأن يتحلّوا بالمرقعات ويتزيّنوا بها، وفعلوا هم أيضاً ذلك لئلا يكون لهم علامة بين الخلق، ويكون الخلق رُقباء عليهم، فإذا خطوا خطوة على خلاف، فإنّهم يُطلقون فيهم لسان الملامة،

¹ عبد المنعم القاسمي الحسيني، الطّريقة الرّحمانية الأصول والآثار. دار الخليل للنّشر والتّوزيع، بوسعادة، الجزائر. ط 01، 2013. ص: 162.

² سيّد حسين نصر، الصّوفية بين الأمس واليوم. مرجع سابق. ص: 129.

وَإِذَا أَرَادُوا إِيَّانَ الْمَعْصِيَةِ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ النِّجَاةَ مِنَ الْخَلْقِ»¹.

كما يرتبط لباس الخرقة كذلك برمزية إحداث التغيير الروحي بين أحوال المريدين وكأنهم يرثون عن الشيخ كل أحواله وشرف صُحبته وآداب طريقته، كما كان ارتداء الخرقة أحياناً أخرى تنويعاً للعمل التعبدية الذي تدرج فيه المريد السالك تحت إشراف شيخه.

«فقد كان "إبراهيم التازي" ² يلبس الخرقة للخواص من المريدين، وعندها يُلقنهم التوحيد، فإذا شرع في ذلك انتابه حالة من القبض فيتغير لونه إلى الاصفرار ويعلوه الهيبة والوقار، والتي تفعل في المريد لطائف الأسرار وتكشف له عن الفتوحات الإلهية التي اكتسبها في خلواته واستفاد منها في مناجاته»³.

فلبس المرقعة أو "الخرقة" لها دلالاتها المعنوية بالقبول في الطريق الصوفي، وعنواناً للخضوع لنظام تربوي روحي، وتؤكد على قابلية هذا المريد لصحبة الصوفية بل أصبحت الخرقة دليل بعد ذلك على شخصية المتصوف، حين يسأل عن مَنْ ألبسه الخرقة، ودليلاً على نسبه الحقيقي في الطريق الصوفي، أو على يد مَنْ استلمها، فصارت بذلك إثباتاً على متانة علاقته بالمجتمع الصوفي.

8/- الخلوّة:

¹ - الهجويري، كشف المحجوب. مصدر سابق. ص: 245.

² - إبراهيم التازي: هو إبراهيم بن محمد بن علي اللّنتي التّازي نزلي وهران، كان من الأولياء الزاهدين، وعباد الله الصّالحين، إماماً في علوم القرآن مقدماً في علم اللسان حافظاً للحديث، بصيراً بالفقه وأصوله، من أهل المعرفة التامة بأصول الدين، إماماً من أئمة المسلمين، واشتهر في الآفاق ذكر فضله وعلمه، وترك قصائد كثيرة وبديعة، توفي يوم الأحد التاسع من شعبان سنة 866هـ، أول ماي 1462م بوهران ودفن بها، ثم نقله تلاميذه إلى قلعة بني راشد بعد الاحتلال الإسباني لوهران بصورة سرية. ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. المطبعة الثعالبية، الجزائر. 1908. ص: 58-59، عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى. دار الخليل القاسمي، المسيلة، الجزائر. ط1. 2005. ص: 52.

³ - الطاهر بوناني، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14/13م. رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر. 2009. ص: 558.

الخلوة في اصطلاح الصّوفيّة «مُحادثة السرّ مع الحقّ، حيث لا مُلك ولا أحد سواه»¹. وهي وسيلة تربوية هامة في الطّريق الصّوفيّ، أصولها مُستمدة من الاعتكافات العديدة التي كان يقوم بها الرّسول ﷺ غار حراء قبل البعثّة، والتي كانت بمثابة إرهاصات تُساعد على التّرقّي من البشر السّويّ إلى البشر النّبّيّ، كما فرضت قبل هذا على النّبّيّ موسى -عليه السّلام- مُدّتها أربعين ليلةً، قبل تكليمه، ومارس المسلمون الأوائل "الخلوة" من خلال الاعتكاف في المساجد في العشر الأواخر من شهر رمضان، وواصل المرابطون والعلماء الرّبانيون والشيوخ العارفون ممارسة "الخلوة" وخصّصوا لها أمكنة خاصّة، للتأمّل والتّفكّر والتّجَرّد، ومُحادثة الحقّ، بحيث لا يرى غيره سُبْحانه وتعالى، فالخلوة ضرورةٌ تربويّةٌ ونفسيةٌ وأخلاقيةٌ، متضمّنةٌ في أنواع الرّياضات، فهي انقطاعٌ لِفترَةٍ مُحدّدة وقصيرة عن الحياة العادية، واجتناب التعاطي مع الأعمال الدنيوية لتمكين المريد من الابتعاد عن مشاكل الحياة ومشاغها وهُمومها والتفرّغ لعبادة الله وذكره والتّفكّر في ملكوته.

وهي تُعدّ فضاءً لإعداد وتأهيل المريد وتطهيره من جميع شواغل الحياة وزحمتها ومفاتها، وتُربّي في المريد التّحمّل والصّبر والحرص على مُواجهة عقبات النّفس وقهر سُلطانها وإيقاظها من إلفها وعاداتها السيّئة، ودفع كلّ الآثار السّلبية للمناخ الاجتماعيّ والواقع الماديّ الحسيّ وعوامل الغواية والانحراف.

«فأول ما يهيج من حُبّ الخلوة طلبه العبد للإخلاص، والصّدق في جميع قوله وفعله فيما بينه وبين ربّه، فورثه حُبّ الخلوة وراحة القلب من عُموم الدّنيا»².

ليتهيأ للمواجهة والأحوال والمعرفة والواردات الثّورانية، بِمُلازمة معها المجاهدات الشّاقة كالسّهر والجوع والعطش والصّمت، مع لزوم الذّكر، لتصفو النّفس، ويُفرغ السّالك ذهنه وقلبه من التّفكير والتّعلّق بالعالم الخارجيّ، ويعيش لفكرة واحدة هي الفناء في الله ولذلك ينصح شيوخ

¹ ابن عطاء الله السّكندري، مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ص: 37.

² الحارث المحاسبي، كتاب الخلوة والتّنفّل في العبادة ودرجات العابدين. تح: أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان. 1955. ص: 800.

الصَّوْفِيَّة كَثِيرًا أَصْحَابُ الْخُلُوةِ بِالتَّركِيزِ كَثِيرًا عَلَى تَرْديدِ اسمِ "الله" تَرْديدًا مُستمرًّا وَمُفْرَدًا. فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسمِهَا الْخُلُوةِ، إِلَّا أَنَّهَا أَسَاسُ نِجَاحِ الْمُرِيدِ، وَهُوَ الْمَنْزِلُ الَّذِي يَمْلَأُهُ الْمُرِيدُ وَيَعْمُرُهُ بِذَاتِهِ، فَلَا يَنْوِبُ عَنْهُ غَيْرُهُ فِيهِ، وَأَصْلُ الْخُلُوةِ الْخَلَاءُ¹ الَّذِي وَجَدَ فِي الْعَالَمِ أَصْلَ الْخَلْقِ وَوُجُودَهُ، لَا أَحَدَ إِلَّا اللَّهَ، وَكَانَ الْمُرِيدُ يُحَاوِلُ دَوْمًا إِعَادَةَ رَوَابِطِهِ وَأُصُولِهِ الْإِلَهِيَّةِ الْأُولَى لِبَعْثِهَا وَالْحَيَاةِ فِيهَا وَالتَّنْعَمِ وَالتَّلَذُّذِ بِهَا، وَتُرَكِّزُ الْخُلُوةُ الصَّوْفِيَّةُ عَلَى عَكْسِ الْخُلُواتِ الْمَطْلُوقَةِ الْآخَرَى عَلَى الذَّكْرِ، وَكَأَنَّهُ النُّورُ الَّذِي حَلَّ مَحَلَّ ظُلْمَةِ الْخَلَاءِ، وَ مَلَأَ الْعَالَمَ، وَالَّذِي يَسْمَحُ بِوُلُوجِ حَضْرَةِ الْحَقِّ، وَالْأَنْسِ بِهِ، وَالَّذِي يَرْفَعُ جَمِيعَ الْأَوْهَامِ وَالْوَسَائِطِ وَالْمَلَابِسَاتِ فَمَا دُمْتَ تَابِعًا لَهَا مُحْكومًا بِهَا فَلَا قُرْبَ وَلَا أَنْسَ، إِلَّا لِلْقُلُوبِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُعَمَّورَةِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، النَّافِيَةِ لِكُلِّ شَرِيكَ مَعَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَقَدْ قَسَمْتُ الْخُلُوةَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

1. **خُلُوةٌ سَالِكٍ:** وَهِيَ الْخُلُوةُ الْمُقَيَّدَةُ، وَهِيَ مِنْ جُمْلَةِ مُجَاهَدَةِ الْمُرِيدِ لِنَفْسِهِ وَضَرُورَتِهَا

أَنَّهَا تُوصِلُ إِلَى الْخُلُوتَيْنِ الْآخِرَتَيْنِ.

2. **خُلُوةٌ عَارِفٍ:** وَهِيَ الْخُلُوةُ الْمَطْلُوقَةُ، وَهِيَ الْحُضُورُ الدَّائِمُ مَعَ الْحَقِّ فِي كُلِّ نَفْسٍ

وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْخُلُوةِ يَخْصُّ الَّذِي جَمَعَ وَفَرَّقَ حَتَّى شَهِدَ الْكَثْرَةَ فِي الْوَصْفِ وَالْوَحْدَةَ فِي الْكَثْرَةِ.

3. **خُلُوةٌ مُحَقِّقٍ:** وَهُوَ الْمُحَقِّقُ الْكَامِلُ، حَيْثُ الْخُلُوةُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَكُونُ لِلْقُطْبِ الْغَوْثِ

فِي كُلِّ زَمَانٍ وَلَا يَشْعُرُ بِهَذِهِ الْخُلُوةِ إِلَّا أَهْلُ اللَّهِ².

فَالْخُلُوةُ الْخَاصَّةُ بِالْمُبْتَدئينِ وَالْمُرِيدِينَ السَّالِكِينَ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ، هِيَ بِالْأَجْسَامِ عَنْ

مُخَالَطَةِ الْأَغْيَارِ، بِنِيَّةِ اتِّقَاءِ شَرِّ النَّاسِ وَمَخَافَةِ تَعْطِيلِهِ عَنْ مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ وَبُلُوغِ الْمَقَاصِدِ، وَأَمَّا

خُلُوةُ الْوَاصِلِينَ الْمُحَقِّقِينَ، فَهِيَ بِالْقُلُوبِ لِمَزِيدِ صَفَاءِ الْفِكْرِ وَلَا سْتِعْلَاءِ مَا يَجِدُهُ فِيهَا مِنَ الْإِلْتِذَاذِ،

الَّذِي لَمْ يَتَذَوَّقْهُ بَعْدَ مِنْ لَهُ أَنْسَ بِالْبَشَرِ وَبَقِيَّةُ أَثَرٍ مِنَ الْعَلَائِقِ.

¹ - ابن عربي، الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط 01،

2004. ص: 84.

² - البكري، هدية الأحباب فيما للخُلُوة من الشُّروط والآداب. مخطوط خاص ورقة 2 نُقِلَ عَنْ عَتُو بِشِير. ص: 159.

«فَالْخُلُوةُ مِنَ الْمَقَامَاتِ الْمُسْتَصْحَبَةِ دُنْيَا وَآخِرَةً إِلَى الْأَبَدِ، مِنْ حَصَلَتْ لَهُ لَا تَزُولُ فَإِنَّهُ لَا أَثَرَ بَعْدَ عَيْنٍ، وَأَمَّا الْخُلُوةُ الْمَعْرُوفَةُ الْمَعْهُودَةُ فَلَيْسَتْ مَقَامًا وَلَا تَصَحُّ إِلَّا لِمَحْبُوبٍ، وَأَمَّا أَهْلُ الْكَشْفِ فَلَا تَصَحُّ لَهُمْ خُلُوةٌ أَبَدًا فَإِنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ الْأَرْوَاحَ الْعُلُوبِيَّةَ وَالْأَرْوَاحَ النَّارِيَّةَ وَيَرَوْنَ الْكَائِنَاتِ نَاطِقَةً أَكْوَانُ ذَاتِهِ وَأَكْوَانُ بَيْنِ خُلُوتِهِ»¹.

فَالْخُلُوةُ خُلُوتَاتٌ، وَهِيَ لَيْسَتْ لَهَا بَدَايَةٌ وَلَا نِهَآيَةٌ، كَمَا أَنَّهَا لَيْسَتْ خَاتِمَةُ السَّيْرِ، بَلْ هِيَ أَوَّلَى الْخَطَوَاتِ تَتْلُوهَا خُلُوتَاتٌ وَمُجَاهَدَاتٌ، وَالْخُلُوةُ الَّتِي نَعْنِيهَا أَكْثَرُ هُنَا هِيَ خُلُوةُ الْمَبْتَدِئِ السَّالِكِ، الْخُلُوةُ الْمُقَيَّدَةُ وَالَّتِي هِيَ نَوْعٌ مِنَ الْمَجَاهِدَاتِ يَلْتَزِمُ بِهَا الْمُرِيدُ وَفَقِ شُرُوطُهَا وَآدَابُهَا وَتَحْتَ إِشْرَافِ شَيْخٍ مُرَبٍّ، لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى نَسَقٍ عَالٍ مِنَ التَّرَقِّيِ الرُّوحِيِّ وَبِمَجَانِبَةِ مُمَارَسَةِ التَّفَاعُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، تَمَثُّلَاتِهِ السَّلْبِيَّةِ وَالْانْحِرَافِيَّةِ وَالْاِكْتِفَاءِ فَقَطْ بِمُسْتَوِيَاتِ دُنْيَا مِنَ الْمَخَالَطَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّوَاصُلِ الْإِيجَابِيِّ لِأَهَمِّ الْقَضَايَا الْحَيَاتِيَّةِ الضَّرُورِيَّةِ لِبُلُوغِ الْخُلُوتَاتِ الْمَطْلُوقَةِ الْآخَرَى، الَّتِي يُقْصَدُ مِنْهَا مُضَاعَفَةُ الشَّخْصِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَبُلُوغُ مَرَاتِبِ الْقُرْبِ وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الْيَقِينِ فِي عِلَاقَتِهِ بِاللَّهِ، فَتَصِيرُ خُلُوتُهُ، وَغِيَابُهُ حُضُورٌ دَائِمٌ، لَا يَحْجِبُهُ الْخَلْقُ عَنِ الْحَقِّ، وَلَمْ يَتَغَيَّبْ بِالْحَقِّ عَنِ الْخَلْقِ (جَمْعُ الْجَمْعِ) وَقَدْ اشْتَرَطُوا لِهَذِهِ الْخُلُوةِ شُرُوطًا أُسَاسِيَّةً وَجِبَ النَّقْيَةُ بِهَا:

- أَنْ تَكُونَ نِيَّتُكَ بِدُخُولِ الْخُلُوةِ خَالِصَةً لِرُوحِ اللَّهِ تَعَالَى بَعِيدَةً عَنِ كُلِّ غَايَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَوْ دِينِيَّةٍ، وَاحْذَرِ أَنْ تَدْخُلَ خُلُوتَكَ بِنِيَّةِ اسْتِمْلَاكِ الْخَادِمِ الرُّوحَانِيِّ، أَوْ بِنِيَّةِ الْفَتْحِ أَوْ بِنِيَّةِ الْمَشَاهِدَاتِ وَالْمَكَاشِفَاتِ أَوْ الْحَصُولِ عَلَى الْكَرَامَاتِ.
- الْحَصُولِ عَلَى الْإِذْنِ بِدُخُولِ الْخُلُوةِ مِنْ شَيْخِهِ.
- أَنْ يُفَرِّغَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَشْغَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ.
- أَنْ يَدْخُلَ الْخُلُوةَ بِدُونِ تَحْدِيدٍ وَتَعْيِينٍ وَقْتُ خُرُوجِهِ مِنْهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ سَيَجْعَلُ النَّفْسَ تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْمَدَّةِ وَتَشْتَاقُ لَانْتِهَائِهَا.
- أَلَّا يَدْخُلَهَا وَهُوَ عَاقٍ لِرُوحَانِيَّتِهِ أَوْ قَاطِعٍ لِأَرْحَامِهِ.
- أَنْ يَرُدَّ الْحَقُوقَ لِأَصْحَابِهَا، وَيُسَدِّدَ دِينَهُ.

¹ - ابن عربي، الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار. مصدر سابق. ص: 86.

-تأمين كُلِّ ما يحتاجه أهله أثناء غيابه عن خلوته.

-العودة على طهارة وإستقبال القبلة دائماً، وَمِنْ شروط هذه الخلوة، إنْ قدرت أنْ لا

يعرف أحدٌ أنْكَ في خلوةٍ أصلاً¹.

أهداف الخلوة:

تُعتبر الخلوة مرحلةً أساسيةً ومُهمّةً في المنهج التربويّ الصّوّفيّ، فالتّبتل إلى الله والانعزال عن غيره والانقطاع عن النّاس وشواغلهم، تُساعد على صفاء القلب وجماله من كلّ أشكال الغفلة والوسوسة، فبواسطة الخلوة والذكر تزيد قُرْباً من الله، ومن حضرة الحقّ، وبالتّالي تُشفي النّفس من أمراضها وعللها، وتقدر على مُحاسبتها ومُخالفتها وقمعها «فأعلى أهداف الخلوة رفع الحجاب عن القلب»².

فالحقّ تعالى مُحالٌ عليه أنْ يُحجب، فلا حاجب له، وإنّما المحجوب هو المريد الغافل المتعلّق بالأمر الحسيّة والكثرة الماديّة، وكلّما رجعت إلى الحقّ وتعلّقت به حقّاً، صار ما كان محجوباً عنك، في حكم المشاهدة والعيان، كما يُتيح اتّخاذ الخلوة والتّأدّب بِآدابها قطع كلّ العلائق والانشغالات بما سوى الله.

وبالتّالي تعود مرآة القلب، التي هي أساس المكاشفات إلى الصّقل من جديد إلى صفائها المعهود، الذي يسمح بتلقّي الفيوضات الرّحمانية والهبات العرفانية.

كما تُساهم "الخلوة" في تحصيل أغلى شيء يسعى إليه الصّوّفيّ السّالك وأسمى كرامة يجتهد في تحقيقها وهي "الاستقامة" لأنّ الخلوة أصلُ كلّ المجاهدات والرّياضات، لما تقوم به الخلوة من عملية المحافظة وتطهير اللّسان من آفاته وتُبْعده من الوقوع في أعراض النّاس والغيبة والنّميمة، التي من شأنها إعاقة الوصول أو تأخيرها، وتعوّده على الانشغال الدائم بذكر الله.

¹ - مخلف يحيى القادري الحسيني، العقد الفريد في بيان خلوة التّوحيد على منهج الطّريقة القادرية العلية. دار النور العلمية، الإسكندرية، مصر. ط01، 2017. ص ص: 39-40.

² - بوعتو بشير، التّصوّف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 158.

«فَإِذَا اعْتَزَلَ الْإِنْسَانُ عَنِ الْخَلْقِ وَعَنِ نَفْسِهِ وَصَمَتَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ بِذِكْرِ رَبِّهِ إِيَّاهُ وَأَعْرَضَ عَنِ
الْغِذَاءِ الْجَسْمَانِيِّ وَسَهَرَ عَنِ مُرَافَقَةِ نَوْمِ النَّائِمِينَ، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ الْأَرْبَعَةُ بَدَلَتْ
بِشْرِيَّتِهِ مُلْكًا، وَعُبُودِيَّتِهِ سِيَادَةً وَعَقْلَهُ حَسًّا وَغَيْبِهِ شَهَادَةً وَبَاطِنَهُ ظَاهِرًا»¹.

فهذه هي ثمار وأسرار اعتزال النَّاسِ وممارسة الخلوة بإذن الشيخ المربي، والتعلُّق بذكر الله،
مع التزام الصمت والتقليل من الأكل والنوم، فتورث عند السَّالِكِ تغييرًا جذريًا في نفسه وترفع من
مقامه وتزيل هواجسه وتبدل أخلاقه، وتسمح بتلقي الأنوار الإلهية والفيوضات الرَّحْمَانِيَّةِ.

المبحث الثالث: البعد العرفاني للتربية الصوفية

تتباين نظريات المعرفة في اتجاهاتٍ وتياراتٍ مُختلفةٍ يُمكن حصرها في المذهب العقليّ
الذي يجعل من العقل مصدر المعرفة الحقيقيّة، بينما يذهب الطَّرفُ الثَّانِي وهذا المذهب
التَّجْرِبِيُّ على حصر حُدُود المعرفة في الجوانب الإدراكية الحسيّة، ويجمع الاتجاه الثالث بين

¹ - ابن عربي، الرسائل. تح: محمّد شهاب الدّين العربي. دار صادر، بيروت، لبنان. 1997. ص: 512.

الطرفين، فيرى بإعمال العقل والحس للمصدر المعرفي، فالرؤية الصوفية لا تلغي هذه النظريات المعرفية، لكنها ترى بقصورها ومحدوديتها في بلوغ الجوانب الغيبية، وتؤكد على يقينية مصدرها المتمثل في الحدس الصوفي.

لقد احتلت نظرية المعرفة مكانة هامة عند المتصوفة، إذ أنها ترتبط أساساً بـ"علم الحقائق" والسبل التي يسلكها المتصوفة لمعرفة الله وارتباطها بمقام "الولاية" و"القطبية" والمقياس الحقيقي لبلوغ السالك للفتوحات الربانية والانعقاقات الكبرى.

ولقد كان "معروف الكرخي" و"أبو سليمان الداراني" (ت 205هـ) و"الحارث المحاسبي" (ت 243هـ) و"ذو النون المصري" (ت 245هـ) هم أول من تكلم في المعرفة، حتى قيل أن تصوف "الكرخي" كان في جوهره وسيلة للمعرفة¹.

ويختلف تناولهم لنظرية المعرفة عن الطرح الفلسفي والكلامي، ليس من حيث أدوات وآليات الإدراك فقط وكيفيات الاستدلال، بل من حيث الهدف من المعرفة نفسها وهو الله تعالى، كما يركز المنهج الصوفي على تجاوز التأمل النظري الفكري العقلي المجرد إلى الممارسات والمجاهدات وتجاوز المقامات للتعرض للواردات والطوابع والمشاهدات الكشفية وقد نبه "الغزالي" إلى هذه الممايزة والمجاهدات النفسية والسلوكية «وظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالدوق والحال وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلت...»².

فالصوفي يرى بعُمق قصور قواه المعرفية ومحدوديتها، استناداً على هذه النظرة التي تتكون لديه تدريجياً عبر مراحل السلوكية، وتولد عنده رغبة جامحة في الانعتاق والتحرر من هذا القصور البشري الإنساني والانطلاق نحو حقيقة المعرفة وأصلها وكليتها ولا نهائيتها، الأمر الذي يستوجب الاعتماد على مرجعية غيبية ومطلقة وهذا بالذات هو "العرفان الصوفي" أو

¹ - رينولد. إ. نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه. مرجع سابق. ص: 100.

² - أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، مصدر سابق، ص: 132.

"المعرفة الصوفية".

وَمِنْ هَذَا الْمَنْطَلَقِ، أَصْبَحَتِ الْمَعْرِفَةُ مِنْ أَهَمِّ الْمَبَاحِثِ الَّتِي تَبْنَاهَا الْفِكْرُ الصَّوْفِيُّ وَخَصَّصُوا لَهَا حِيزًا بَحْثِيًّا هَامًّا مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِمْ، فَدَرَسُوهَا دَرَسَةً مُسْتَفِيضَةً مِنْ حَيْثُ حَدُوثُهَا وَتَعْرِيفُهَا وَمَوْضُوعُهَا وَمَصَادِرُهَا وَمَنْهَجُهَا وَالْهَدَفُ مِنْهَا وَطَرَائِقُ الْوُصُولِ إِلَيْهَا وَالْاِخْتِلَافُ فِيهَا وَمَرَاتِبُهَا، بَلْ وَصَارَتْ لَدَيْهِمْ مَقُولَاتٌ مَشْهُورَةٌ فِيهَا، مُنْذُ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ 02 وَ03 هـ، مِثْلَ "شَقِيقِ الْبَلْخِي" (ت 194 هـ) وَ"ذِي النَّوْنِ الْمَصْرِيِّ" (ت 245 هـ) وَ"سَهْلَ التَّسْتَرِيِّ" (ت 283 هـ) وَ"أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ" (ت 281 هـ) وَ"أَبِي قَاسِمِ الْجَنِيدِ" (ت 297 هـ) وَغَيْرِهِمْ¹، ثُمَّ أَخَذَتْ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ تَتَطَوَّرُ وَتَتَفَرَّعُ، تَبَعًا لِتَطَوُّرِ الْفِكْرِ الصَّوْفِيِّ كَكُلِّ وَظَهَرَتْ فِي أَشْكَالٍ جَدِيدَةٍ وَأَلْوَانٍ مُغَايِرَةٍ مَعَ "أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ"، وَ"مَحْيٍ الدِّينِ بْنِ الْعَرَبِيِّ" وَ"ابْنِ سَبْعِينَ"، وَانْتَقَلَ بِذَلِكَ التَّصَوُّفُ مِنْ مَرَاكِلِهِ الزَّهْدِيَّةِ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى، الَّذِي كَانَ يَتَّجِهُ نَحْوَ غَايَاتٍ عَمَلِيَّةٍ فِي الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ وَالنَّجَاةِ بِالنَّفْسِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، إِلَى تَصَوُّفٍ جَوْهَرِهِ وَسِيلَةٌ لِلْمَعْرِفَةِ وَالْكَشْفِ الْبَاطِنِيِّ وَصَارَ يُعْرَفُ التَّصَوُّفُ بِأَنَّهُ الْمَذْهَبُ الْقَائِلُ لِلْمَعْرِفَةِ بِالْإِلَهَامِ وَبِالْبَصِيرَةِ وَالْعِلْمِ اللَّدْنِيِّ²، كَعَقِيدَةٍ رَاسِخَةٍ لِلْمَعْرِفَةِ الْيَقِينِيَّةِ، الَّذِي لَا شَكَّ فِيهَا، فَتَصْفِيَّةِ الرُّوحِ لَيْسَ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ التَّصَوُّفِ، بَلْ هِيَ وَسِيلَةٌ تُمَهِّدُ لِتَلَقِّي الْمَعْرِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ مَصْدَرِهَا الْمُبَاشَرِ.

1/- مفهوم المعرفة "العرفان"

1-1/ العرفان لغةً:

العرفان في اللغة العربية مصدر "عرف" فهو "المعرفة" بمعنى واحدٍ، يقول في (لسان العرب) «العرفان، العلم، عرفه يعرفه عرفة وعرفانًا ومعرفةً»³.

فَالْمَعْرِفَةُ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مُرَادِفَةٌ لِلْعِلْمِ، فَكُلُّ عِلْمٍ مَعْرِفَةٌ، وَكُلُّ مَعْرِفَةٍ عِلْمٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ

¹ - أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية. مصدر سابق. ج 2. ص ص: 477 - 478.

² - ينظر محيي الدين عزّوز. اللا معقول وفلسفة الغزالي، الدار العربية للكتاب. تونس. ط 1، 1983، ص: 146.

³ - ابن منظور، لسان العرب. ج 9، نشر أب الحوزة قم، إيران. مادة عرف، ط 2، 1985، ص: 236.

بِالله عارف، وَكُلُّ عارف عالم.

قال "مُحمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي": عرفه يعرفه معرفة وَعَرَفَانًا وَعِرْفَة - بِالكسر - وَعَرَفَانًا، علمه فَهُوَ عارف وَعَرِيف وعروفة، ثُمَّ ذَكَرَ معاني أُخْرَى لِلْفِعْلِ "عرف" كَالْمَجَازَةِ والإِقْرَارِ¹ فَعَلَى هَذَا الرَّأْيِ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ مُتْرَادِفَانِ فِي الإِطْلَاقِ اللَّغَوِيِّ وَهُمَا يُعْبَرَانِ عَنْ حَالَةِ سُكُونِ الْعَارِفِ إِلَى الشَّيْءِ الْمَعْرُوفِ وَطَمَأْنِينَتِهِ بِهِ، خِلَافًا لِابْنِ فَارِسٍ وَالْجَوْهَرِيِّ اللَّذَانِ يَجْعَلَانِ الْعَرَفَ ضِدَّ النِّكَرِ².

فَبَيَانُ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَهُمَا بَيَانٌ ضِدِّهَا وَهُوَ الْإِنْكَارُ، أَوْ بَيَانٌ مَظْهَرُهَا النَّاتِجُ عَنْهَا، وَهُوَ السُّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ مِنْ قَبْلِ الْعَارِفِ إِلَى الْمَعْرُوفِ وَهَذِهِ نَتِيجَةُ تَعَقُّبِ الْمَعْرِفَةِ وَلَيْسَتْ الْمَعْرِفَةُ ذَاتَهَا، وَقَدْ أَخَذَتِ الْمَعْرِفَةُ لَدَى أَسَاطِينِ الصَّوْفِيَّةِ أبعادًا حَسَّاسَةً، لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِمَعْرُوفٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (سُورَةُ الشُّورَى، آيَةُ 11)، لِذَلِكَ وَضَعَ الصَّوْفِيَّةُ فُرُوقًا بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ، وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْقَوْلَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَصْطَلَحَيْنِ، فَ"الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِي" أَشَارَ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا، مُوضِّحًا أَنَّ الْمَعْرِفَةَ أَخْصَّ مِنَ الْعِلْمِ، يُقَالُ فُلَانٌ يَعْرِفُ اللَّهَ، وَلَا يُقَالُ يَعْلَمُ اللَّهُ مُتَعَدِّيًا إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ لَمَّا كَانَتْ مَعْرِفَةُ الْبَشَرِ هِيَ بِتَدَبُّرِ آثَارِهِ دُونَ إِدْرَاكِ ذَاتِهِ وَيُقَالُ اللَّهُ يَعْلَمُ، وَلَا يُقَالُ يَعْرِفُ «لَمَّا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ تُسْتَعْمَلُ فِي الْعِلْمِ الْقَاصِرِ الْمَتَوَصِّلِ بِهِ بِتَفَكُّرٍ»³.

كَمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمَا آخَرُونَ، فَجَعَلُوا نِهَايَةَ الْعِلْمِ بَدَايَةَ الْمَعْرِفَةِ وَرَبَطُوا صِحَّةَ الْحَالِ بِاللَّهِ بِالْمَعْرِفَةِ وَلِذَلِكَ فَضَلُوا الْمَعْرِفَةَ عَلَى الْعِلْمِ لِأَنَّ صِحَّةَ الْحَالِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِصِحَّةِ الْعِلْمِ، وَصِحَّةُ الْعِلْمِ لَيْسَتْ صِحَّةَ الْحَالِ⁴.

¹ - الفيروز آبادي، القاموس المحيط. تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة. بيروت، لبنان. ط 08، 2005، ص ص: 835 - 836.

² - إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح. تح: محمد محمد تامر. دار الحديث، القاهرة، مصر. ط 01، 2009، ص ص: 758 - 759.

³ - أبي القاسم الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِي، المفردات في غريب القرآن. دار المعرفة. بيروت، لبنان. ص: 331.

⁴ - الهجويري، كشف المحجوب. مصدر سابق. ص: 509.

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨) سورة يوسف، الآية 58 خالف تُعرف [مثل]: يُضْرَبُ فِي التَّفَرُّدِ بِالْفِعْلِ حَتَّى تَعْرِفَ -عرف حق المعرفة: عرف دُون شك- عرف غور المسألة: عرف حقيقتها ظهر قلب: يقينًا. عرف الشيء لفلان: سمّاه وعيّنهُ له لقوله تَعَالَى: (وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَهُمْ ٦) سورة محمد، الآية 1.06¹

1-2/ العرفان اصطلاحًا:

العرفان في الاصطلاح عبارة عن المعرفة الحاصلة عن طريق المشاهدة القلبية، لا بواسطة العقل ولا التجربة الحسية... وهذا اللون من المعرفة يحصل في ظلّ العمل المخلص بأحكام الدين، وهو الثمرة الرفيعة والنّهائية للدين الحقيقي. وعلى هذا الأساس قدّم أصحاب الاختصاص تعاريف مُتعدّدة للعرفان، من أبرزها ما جاء على لسان "القيصري"²: «هو العلم بالله سبحانه، من حيث أسماؤه وصفاته ومظاهره وأحوال المبدأ والمعاد والعلم بحقائق العالم وبكيفية رجوعها إلى حقيقة واحدة، هي الذات الأحدية ومعرفة طريق السلوك والمجاهدة لتخليص النفس عن مضايق القيود الجزئية واتّصاله إلى مبدئها واتّصافها بنعت الإطلاق والكلية»³.

الملاحظ من تعريف "القيصري" أمورٌ عدّة:

أشار إلى أنّ العرفان يبحث عن عدّة عواملٍ مُختلفةٍ من حيث الشّكل ومُتقاربةٍ من ناحية الهدف وهي الوصول إلى الله تعالى.

¹ - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط. مرجع سابق. ص: 595.

² - شرف الدّين داود بن محمود بن محمد القيصري : هو أديبٌ ومُتصوِّفٌ من أهل قيصريّة. تعلّم بالقيصريّة وأقام بضع سنوات في مصر، ثمّ عاد إلى بلده. من آثاره: «مطلع خُصوص الكلم في معاني فُصوص الحكم» والذي يُسمّى أيضًا «مُقدّمة شرح الفصوص» و«شرح الخمرية لابن الفارض» و«رسالة في أحوال الخضر» نُسخة منها في مكتبة النّور = العثمانية و«نهاية البيان ودارية الزّمان» في مكتبة يحيى أفندي أخذًا عن الزركلي، خير الدين ، (1980) القيصري، موسوعة الأعلام، ج 5، ط07، 1986، ص: 162.

³ - شرف الدّين القيصري، رسائل القيصري، دار الصّفدي. القاهرة، مصر. 1996، ص: 07.

العامل الأول للوصول هو معرفة أسماء الله وصفاته ، ومظاهره، وه ذه المعرفة لا تتأتى من خلال دراسة العقيدة دراسةً فلسفيةً وعقليةً...

أمّا مظاهر الله تعالى (الآيات الآفاقية والأنفسية) فهذا يتطلب درايةً كبيرةً للتعرف على الكون والإنسان.

«وَإِخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي مَقَامِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَارِفِ وَمَقَامِ الْعِلْمِ وَالْعَالِمِ، بِطَائِفَةٍ قَالَتْ مَقَامُ الْمَعْرِفَةِ رَبَّانِيٌّ وَمَقَامُ الْعِلْمِ إِلَهِيٌّ فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا بِالْعِلْمِ مَا أَرَدْنَاهُ بِالْمَعْرِفَةِ ، وَأَرَادُوا بِالْمَعْرِفَةِ مَا أَرَدْنَاهُ بِالْعِلْمِ، فَالْخِلَافُ فِيهِ لَفْظِيٌّ ، وَعُمْدَتُنَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ط) سورة المائدة، الآية 83. سمّاهم عارفين وما سمّاهم علماء»¹.

فإن ابن العربي" رغم إقراره باختلافهم من ضبط الاختلاف الحاصل وإعترافه بالتشارك اللفظي والمعنوي بين المصطلحين إلا أنه أميل إلى تفضّل خصوصية المعرفة على العلم بينما "الهجويري" يفصل مباشرةً في أفضلية المعرفة بقوله «فالناس من علماء وفقهاء وغيرهم سمّوا صحّة العلم بالله: المعرفة، ومشايخ هذه الطائفة سمّوا صحّة الحال بالله: المعرفة، ولذلك قالوا إنّ المعرفة أفضل من العلم، لأنّ صحّة الحال لا تكون إلا بصحة العلم وصحة العلم ليست صحّة الحال، أي: لا يكون عارفًا من لا يكون عالمًا بالحق، ولكن يكون عالمًا من لا يكون عارفًا»²، كما أنّ الأممي يجوز أن يكون عارفًا، فيقال عنه عارفًا لا يقال عنه عالم، على الرغم من أنّ معرفته تشمل العلم.

2/- هدف المعرفة الصوفية:

الواقع أنّ الصوفية والصوفيين يؤكّدون دومًا على أنّ هدف التّصوّف عُمومًا والمعرفة خصوصًا، ليس حيازة كرامات وفضائل مخصوصة، ولا تميّز ببلوغ أحوال ظاهرة خاصّة وإنّما

¹ - ابن عربي، الفتوحات المكيّة. مصدر سابق. ص: 478.

² - الهجويري، كشف المحجوب. مصدر سابق. ص: 509.

هُوَ الوصول¹ إلى الله في ما وراء كُلِّ الأحوال والمقامات والفضائل، وفناء كُلِّ الرُّسوم والأشكال، هذا الوصول الذي يتجاوز المظاهر إلى الحقائق الغيبية، يمرُّ أولاً بنيل هذه الفضائل أولاً ويتجاوز أحوال ومقامات في طريق المعرفة الصَّوْفِيَّة لِيَبْلُغ مقام الفناء والبقاء بالله «كذلك، لِمَا كان هدف التَّصَوُّفِ اللهُ، وليس عالم العمل، ولا أيَّ كسب إنسانيٍّ، لم تكن الفضائل مُجَرَّد أفعال فاضلة، بل أحوال داخلية، لا تفترق مُطلقاً عن سائر الصَّلَات الهامّة العقلية منها والروحانية، التي تربطها بعالم النَّفس، فَالْحَقَائِقُ تجعل الفضائل في مُتناولها وتُعطيها معناها الكونيَّ الشَّامِلَ وَفاعليتها الروحية التَّامّة، أمّا الفضائل نفسها، فإنّها تقودنا إلى الحقائق، وَتجعلها بالنَّسبة إلينا وقائع محسوسة ومرئية ومُعاشة»².

فَالذَّلَالَات الحية لأبعاد المعرفة الصَّوْفِيَّة، وَوظيفتها الحقيقية، لا تتحصر على التَّأَمُّل الذاتيِّ المجرّد، وَالْإغْتِرَاب والعزلة عن الحياة وعن "الأنا" وعن الواقع والعالم، بل يكمن في السُّلُوك الإيجابيِّ والعمل والدَّعوة إلى تقوية الأخلاق وتثبيتها، عن طريق التَّدْرَج في مراتب الكمال والتَّقَرُّب مِنَ الحُضرة الإلهية، ليس مِنْ أَجْلِ مُشاهدة الحقِّ فَحَسْب، بل أَنْ تُصِير الذَّات، وَجُوداً حَقِيقِيّاً مُؤَثِّراً وَفَعَالاً، تجسيدا لمقام الجمع بعد الفرق «إِنَّ الرُّؤية العرفانية بِطابع الاتِّساع حيثُ الخطاب مفتوحٌ على الإنسان وفق منهجية معرفية كشفية تروم طرح البديل، لا كنمط تنظيري - كما هي فلسفة دُعاة ما بعد الحداثة اليوم - وَإِنَّمَا كَوَاقِعٍ وَجُودِيٍّ أَنْطولوجيٍّ يروم تفعيل الذَّات بما يستحيي جوهر كينونتها حيث التَّعَبُّد / التَّوْحِيد أصل الأصول التي وجدت له بِتخصيب النَّوَّة الحية، نواة لأخلاق التي تبعت الإنسان خلقاً جديداً حيث يأنس سلماً/ سَكِينَةً مع الذَّات وَالْكَون حوله كثرة أنسه بالله وَسُكونه إلى الله»³.

¹ - الوصول إلى الله عبارة عن تحقُّق العلم بِوُجُوده، وَغيبية العبد مِنْ وُجُوده في وُجُود معبوده حتَّى لا يُشاهد إلى عظمته في كُلِّ شيء، أبو الحسن الشَّشْتَرِي، الرِّسَالَةُ الشَّشْتَرِيَّة. تح: محمد العدلوني الإدريسي. دار الثقافة. الدار البيضاء، المغرب.

ط1. 2004. ص: 80.

² - سيّد حُسين نصر، الصَّوْفِيَّة بين الأمس واليوم. مرجع سابق. ص: 86.

³ - طه عبد الرَّحمان، العمل الدِّينيّ وَتجديد العقل. مرجع سابق. ص: 253.

فَالنَّظَرَةُ العُرفَانِيَّةُ تَهْدَفُ إِلَى تَحْقِيقِ "الْوِلَادَةِ الثَّانِيَّةِ" مِنْ خِلَالِ اسْتِغْلَالِ كِفَاءَاتِ وَقُدْرَاتِ الْإِنْسَانِ وَتَفْعِيلِهَا فِي تَجْسِيدِ خُصُوصِيَّاتِ الْاسْتِخْلَافِ الْكُونِيِّ وَتَحْقِيقِ مَعَانِي الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ، الَّتِي مَا زَالَ الْإِنْسَانُ يَنْحَرِفُ عَنْ مَرْكَزِيَّتِهَا وَجَوْهَرِهَا إِلَى هَوَاجِسِ وَأَوْهَامِ وَهَوَاشِ ثَانَوِيَّةٍ أَزَاحَتْهُ عَنْ أَدَاءِ مَهَامِهِ كَخَلِيفَةٍ، وَأَبْعَدَتْهُ عَنْ أَدْوَارِهِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْأَزَلِيَّةِ، وَبِالتَّالِي نَأَتْ بِهِ عَنْ امْتِلَاكِ الْحَقَائِقِ الْعُرفَانِيَّةِ وَالْإِحَاطَةِ بِهَا وَاسْتِثْمَارِهَا «إِنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْعُرفَانِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ ثَمَرَةُ مَشْرُوعِ تَرْبِيٍّ قَاعِدَتُهُ الْأَخْلَاقُ وَأَعَمَدَتُهُ التَّجَرِبَةُ الرُّوحِيَّةُ وَسَقْفُهُ وَحْدَةُ الشَّهُودِ أَوْ مَا يُعْرَفُ بِمَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، يَتِمُّ الْعَمَلُ فِيهَا بِاللَّهِ وَلِلَّهِ وَمَعَ اللَّهِ، حَيْثُ تَتَحَقَّقُ الْأَسَاسَاتُ الْقَاعِدِيَّةُ وَالرَّكَائِزُ التَّفْعِيلِيَّةُ فِي ظِلِّ الرِّقَابَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ مَعَالِمُ السَّيْرِ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ إِلَى الشَّهُودِ، إِنَّهُ مَشْرُوعُ بِنَاءِ رُؤْيَا جَدِيدَةٍ لَا يَكُونُ السَّلْطَانُ فِيهَا "الْوُغُوسُ" (العقل) وَإِنَّمَا يَكُونُ فِيهَا لِـ"الْإِتْوَسِ" (الخلق) بِحَيْثُ تَتَعَدَّدُ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ، لَا بِعَقْلِهِ أَوْ بِقَوْلِهِ وَإِنَّمَا بِخَلْقِهِ أَوْ فِعْلِهِ»¹.

فَالْبَعْدُ الْعُرفَانِيَّ يَنْسَجُمُ أَفْقِيًّا وَعَمُودِيًّا مَعَ "التَّحْلِيَّةِ وَالْتَّخْلِيَّةِ" بِجَوَانِبِهَا الْإِجْرَائِيَّةِ النَّسْلِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ أَسَاسًا بِـ"فِعْلِ التَّرَكِّيَّةِ وَالتَّطْهِيرِ" حَيْثُ تَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ النَّظْطِيرِيَّةَ، لِتَبْلُغَ آفَاقًا مَا وَرَائِيَّةَ، وَالْإِهْتِمَامُ بِالْإِرْتِقَاءِ الْفِعْلِيِّ الْمُؤَثِّرِ مِنَ الْأَقْوَالِ إِلَى الْأَفْعَالِ، وَمِنْ الْعَقْلِ إِلَى الْأَخْلَاقِ وَمِنْ الْأَنَا إِلَى الْآخَرِ، وَبِالتَّالِي تُحَقِّقُ دَرَجَاتِ الْوَعْيِ اللَّازِمَةِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْحَقَائِقِ الْعُرفَانِيَّةِ وَبُلُوغِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ.

لَيْسَ غَرِيبًا أَنْ يَشْتَرِطَ الصَّوْفِيَّةُ لِحُصُولِ الْمَعْرِفَةِ، النَّصْفِيَّةِ، وَذَلِكَ بِسُلُوكِ طَرِيقِ الْمَجَاهِدَاتِ، وَقَطْعِ الْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ، لِتَرْتَفِعَ الْحُجُبُ الْمَانِعَةُ لَهَا، وَعِنْدَ حُصُولِ لَذَّةِ الطَّاعَاتِ، تَحْدُثُ الْمَكَاشِفَاتُ وَتَقَعُ الْمَشَاهِدَاتُ، الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ سَعَادَةٍ تَتَجَلَّى لِلْعَارِفِ الْوَاصِلِ فَالْإِسْتِقَامَةِ شَرْطٌ لِأَزْمِ مُفْضٍ لَا كِتْسَابِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ الْإِلَهَامِيِّ، الَّذِي تَتَجَلَّى فِيهَا الْحَقَائِقُ عَلَى الْقَلْبِ الطَّاهِرِ النَّقِيِّ النَّقِيِّ «وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ الْقَلْبَ عِنْدَ تَطْهِيرِهِ وَتَرْكِيبِهِ مِنْ صِفَاتِهِ الْمَذْمُومَةِ ثُمَّ إِخْمَادِ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ، وَمُحَازَاةِ جَانِبِ الْحَقِّ بِهِ يَرْتَفِعُ عَنْهُ الْحِجَابُ، وَيَتَجَلَّى فِيهِ النُّورُ الْإِلَهِيُّ فَتَتَكَشَّفُ

¹ - طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ط02، 2005، ص: 146.

له بذلك أسرار الوجود علوه وسفله، وملكوت السموات والأرض، وتتضح له معاني العلوم والصنائع وتتحل جميع الشكوك والشبه، ويطلع على ضمائر القلوب وأسرار الوجود، وتتكشف له معاني المشتبهات الواردة في الشرع، حتى تحصل المعرفة بحقائق الوجود كله على ما هي عليه»¹.

فلا علم ولا معرفة ربّانية، ولا وصول لعلوم الحقائق وبلوغ درجات الكشف الصحيح إلا إذا كان منشأ كل هذا من الاستقامة، لأن الطريق الصوفي طريق مجاهدة وذكر ومقامات تجعل سالكها يرفع الحجب الحسية المانعة لإدراك أمور العوالم الأخرى وتجلياتها الكشفية فإذا تغلبت الروح المنتسبة لهذه العوالم، وغلب سلطانها وارتفعت أحوالها، وصفت بواطنها تجدد الميثاق الأزلي مع أصلها العلوي، وباشرت استقبال الفيوض الرحمانية والفتوحات الكشفية الربّانية، لزوال الحجب والإنية «فيتعرض حينئذ للمواهب الربّانية والعلوم اللّدية والفتح الإلهي، وتقرّب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى، أفق الملائكة»².

فلما اختصوا بالزهد والإقبال على العبادة والتّقاني في مجاهدة النفوس ورياضتها وكبح جوامحها، خصهم الله بإدراكات ومواجيد، تنشأ لهم من كل ارتقاء مقامي فلا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التّوحيد والمعرفة التي هي مطلب كل سائر وسعادة كل واصل «فالمريد الذي فني في الاسم وذاق حلاوة العمل والذكر إذا أرادت همته أن تقف مع هذا المقام، نادته هواتف حقائق الفناء في الذات الذي تطلبه أمامك، فإذا ترقى في مقام الفناء في الذات وذاق حلاوته ولم يتمكن وقنع بذلك وأرادت همته أن تقف مع ذلك نادته هواتف حقائق التّمكّن: الذي تطلب أمامك، وإذا تمكّن ولم يطلب زيادة التّرقى نادته هواتف التّرقى، الذي تطلب أمامك وهكذا كل مقام يُنادي على ما قبله»³.

¹ - ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل. مصدر سابق. ص: 100.

² - ابن خلدون، المقدمة. ج02. تح: عبد الله محمد الدرويش. دار يعرب، دمشق، سوريا. ط01، 2004، ص: 227.

³ - ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم. ج01، مصدر سابق. ص: 68.

فالمعرفة الصوفية معرفة هرمية سلمية، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبقاء والفناء الصوفيين ففناء في الأفعال ثم فناء في الصفات ثم فناء في الذات، والعودة بعدها إلى التمكن "فناء الفناء" كما أنها معرفة لا حدود لها، متجددة في كل مقام، وتتطور مع كل ممارسة للمريد تبني معرفتها على التجربة السابقة، تثبتها وتدمجها في التجربة الجديدة، وترتكز عليها لبناء علاقات أخرى، في مقامات أعلى، كما أن المعرفة الصوفية معرفة لا نهائية، لاعتبار موضوعها، الذي ليس له حدود «فالواجب على العارف أن تكون له عينان، عين تنظر لعالم الجمع، وهو مقام الفناء، فلا يرى إلا الحق متجلياً باسمه الظاهر، وهذا هو الحق في عين الحقيقة، وعين تنظر لعالم الفرق وهو نتيجة سعيه الباطن فيثبت الفرق في عين الجمع والشرعية في عين الحقيقة، فيثبت الحكمة والأحكام ويسمى هذا المقام مقام البقاء، فيكون كاملاً مجموعاً في فرقه مفروقاً في جمعه، يُعطي كل ذي حق حقه ويوفي كل ذي قسط قسطه»¹.

فالفناء الصوفي التي تقوم عليه المعرفة، ينطلق أساساً من فناءين، تحرير النفس وتحويلها من الناحية الأخلاقية وقطع عقباتها بفناء الصفات والأفعال المذمومة وبقاء أصدادها من الصفات والأفعال الحميدة، حتى يصبح القلب محلاً صالحاً وقادراً على تلقي المعرفة بالإلهام المباشر، كما كان عليه حال أصله ونشأته الأولى، والفناء الثاني هو فناء عن كل المدارك الحسية والعقلية وعن كل الأفعال والأحاسيس وتركيزه على الصفات الإلهية «وأعني بالجانب الإيجابي من الفناء ما يسميه الصوفية "بالبقاء" فكأن الغاية الصوفية عندهم ليس الفناء عن النفس وأوصافها، بل البقاء بالله وأوصافه»².

فالهدف من الطريق الصوفي هو البقاء لا الفناء، والصحو بعد السكر، والعودة لمخالطة ومخالقة الناس بالأخلاق الحسنة، وإبراز حقائق الطريق وإقامة الشريعة على وجهها الأكمل.

¹ - المصدر نفسه. ص: 86.

² - نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه. مرجع سابق. ص: 119.

فَأَصْلُ الْمَعْرِفَةِ، مَعْرِفَةُ النَّفْسِ، وَمَعْرِفَةُ النَّفْسِ طَرِيقٌ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَهَذَا الْجَانِبُ لَا يَتَأَصَّلُ فَقَطْ كَنْظَرِيَّةً فِي الْمَعْرِفَةِ، بَلْ كَنْظَرِيَّةً فِي الْوُجُودِ، لِذَلِكَ وَسَمَّاهُ "ابن العربي" رسالته (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ قَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) بِالرَّسَالَةِ الْوُجُودِيَّةِ "فَافْهَمْ هَذَا لَثَلَا تَقَعُ فِي غَلْطِ الْحُلُولِيَّةِ، لَا هُوَ فِي شَيْءٍ وَشَيْءٌ فِيهِ لَا دَاخِلًا وَلَا خَارِجًا يَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَا بِالْقَلَمِ وَلَا بِالْعَقْلِ، وَلَا بِالْفَهْمِ وَلَا بِالْوَهْمِ وَبِالْعَيْنِ وَلَا بِالْحَسِّ الظَّاهِرِ وَلَا بِالْعَيْنِ الْبَاطِنِ وَلَا بِالْإِدْرَاكِ، لَا يَرَاهُ إِلَّا هُوَ وَلَا يُدْرِكُهُ إِلَّا هُوَ وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، بِنَفْسِهِ وَبِنَفْسِهِ يَعْرِفُ نَفْسَهُ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ¹.

فَالْمَعْرِفَةُ صَعْبَةٌ عَنْ طَرِيقِ الْكَسْبِ وَالتَّحَرِّيِ، وَبِاسْتِخْدَامِ الْاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ وَالْمُنْطَقِيِّ وَالْحَسِيِّ، لَا اسْتِحَالَةَ إِحَاطَةِ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ بِخَالِقِهِ، إِذَا لَمْ يَتَوَلَّ هُوَ وَحْدَهُ تَعْرِيفَكَ بِنَفْسِهِ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا تُوظَّفُ الْمَقُولَةُ الشَّهِيرَةُ عَنْهُمْ وَالَّتِي تُنسَبُ لِلْخَلِيفَةِ "أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ" -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْمَعْرِفَةِ، بِمَاذَا عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «عَرَفْتُ رَبِّي بِرَبِّي وَلَوْلَا رَبِّي مَا عَرَفْتُ رَبِّي»²، فَلَا تَكُونُ الْمَعْرِفَةُ مُمَكِّنَةً إِلَّا بِتَعَرُّفِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْعَارِفِ، وَعَلَى قَدْرِ تَحَقُّقِكَ مَعْرِفَتَكَ بِنَفْسِكَ، تَتَحَقَّقُ مَعْرِفَتَكَ بِرَبِّكَ، فَالتَّدَرُّجُ مَطْلُوبٌ بِدَايَةِ مَعْرِفَةِ الْمُرِيدِ نَفْسَهُ وَابْحَثْ فِي كُنْهَاتِهَا وَطَبِيعَتِهَا وَمَحَاطَةِ تَخْلِيصِهَا مِنْ سَجْنِهَا الْبَدَنِيِّ، فَالتَّحَقُّقُ مِنْ أَوْصَافِ عُبودِيَّتِكَ لَهُ أَوَّلًا، فَمَعْرِفَةُ أَنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ صِفَاتَ كَمَالِيَّةٍ، جَمَالِيَّةٍ وَجَلَالِيَّةٍ، وَهِيَ التَّوَرَاتِيَّةُ وَالْمَعْصُومِيَّةُ عَنْ كُلِّ خَطَا وَسْهْوٍ وَنَسْيَانٍ وَالْمَحْفُوظَةُ مِنْ كُلِّ زَلَلٍ أَوْ نُقْصٍ «فَعِنْدَمَا يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي الْجَوْهَرِ الْعَمِيقِ لِحَقِيقَةِ ذَاتِهِ، أَيْ: فِي مَرْكَزِ ذَاتِهِ، عِنْدَئِذٍ يَعْرِفُ رَبَّهُ، وَبِمَعْرِفَةِ رَبِّهِ يَعْرِفُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهُ تَصْدُرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ، إِنَّهُ يَعْرِفُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ فِي الْوَحْدَةِ الْعُلْيَا لِلْمَبْدَأِ الْحَقِّ الَّذِي لَا يُوجَدُ شَيْءٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ خَارِجٌ مِنْهُ»³.

فَنُصَبِّحُ بِمَعْرِفَتِنَا عَيْنَ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ، وَنُصِيرُ إِلَى مَصْدَرِ الْمَعْرِفَةِ وَتَجَلِّيَاتِهِ الْكَشْفِيَّةِ بِإِزَالَةِ الْعَوَاقِقِ وَالْحُجُبِ الْمَانِعَةِ، لِأَنَّهُ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ وَنُقْصَهَا، يَعْرِفُ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَةَ جَلَالِهِ لِأَنَّ

¹ - ابن عربي، الفتوحات المكية. مصدر سابق. ص: 478.

² - أبو عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف. تح: يوسف زيدان. دار الجيل، بيروت، لبنان. ط01، 1999. ص: 31.

³ - عبد الواحد يحيى، التصوف الإسلامي المقارن. مرجع سابق. ص: 124.

كمال الصَّنْع والتَّدْبِير يدلّ على كمال الصَّانِع وَجَماله يدلّ على جمال صانعه، وَيَتَبَيَّن أَنَّهُ مُتَأَثِّر بِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ رَبَّهُ لَيْسَ مُتَأَثِّرًا عَنْ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِي الْكُلِّ «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَرَفَنَا نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَدَلَّنَا عَلَى مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ فَقَامَ شَاهِدَ الْمَعْرِفَةِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بَعْدَ تَعْرِيفِ الْمَعْرِفِ بِهَا، مَعْنَاهُ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ لَمْ يَكُنْ لَهَا سَبَبٌ غَيْرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَرَفَ الْعَارِفَ فَعَرَفَ بِتَعْرِيفِهِ»¹.

فَمَا تَعْرِفُهُ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِكَ عَلَى الضَّدِّ مِنْ صِفَاتِ رَبِّكَ فَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالْفَنَاءِ وَالزُّوَالِ عَرَفَ رَبَّهُ بِالْبَقَاءِ وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالْفَقْرِ عَرَفَ رَبَّهُ بِالْغِنَى، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالذَّلِّ عَرَفَ رَبَّهُ بِالْعِزَّةِ، كَمَا أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَكُونُ مِنْهُ لِعِبَادِهِ السَّائِرِينَ السَّالِكِينَ، فَبِمَعْرِفَتِنَا بِهِ مِنْهُ، فَقَدْ عَرَفْنَا نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ وَدَلَّنَا إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِهِ فَإِذَا نَحْنُ لَمْ نَقْدِرْ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِأَنْفُسِنَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَكَمِّيَّاتِهَا فَإِنَّا لَا نَطِيقُ أَنْ نَعْرِفَهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَا عَرَفْنَا مِنْهُ.

«إِنَّ النَّفْسَ جَامِعَةً لِحَقَائِقِ الْعَالَمِ كُلِّهِ»²، فَهِيَ النَّمُودَجُ الْأَصْلِيُّ وَالْمُطَابِقُ لِلْعَالَمِ وَالْإِنْسَانِ، وَلَا حَتَوَائِهَا جَمِيعَ إِمْكَانِيَّاتِ الْعَالَمِ، بِاعْتِبَارِهَا رُوحًا عُلُويَّةً، وَقَبْسَةً رَحْمَانِيَّةً أَصِيلَةً تَجَلَّتْ فِيهَا الصُّورُ وَالْحَقَائِقُ الْكَامِنَةُ فِي كُلِّ الْعَالَمِ، وَكُلَّمَا عَرَفْنَا هَذِهِ النَّفْسَ حَقِيقَةً بِفِعْلِ التَّطَهِيرِ وَالتَّنْصِيفِ، تَجَلَّتْ حَقَائِقُهَا وَبَلَّغْنَا مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَوَصَلْنَا إِلَى حَضْرَةِ الْأَنْوَارِ، فَمَنْ رَتَّى نَفْسَهُ وَخَلَقَ جَوَارِحَهُ وَطَهَّرَ قَلْبَهُ، عَرَفَ نَفْسَهُ، فَعَرَفَ رَبَّهُ.

«وَلَا بَدَّ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ وَيُشَاهِدَ أَنْوَارَ رَبِّهِ أَنْ يُجَرِّدَ نَفْسَهُ مِنَ التَّلَوُّقِ بِالْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ وَالتَّقَيُّدِ بِالْحَوَاسِ الْجِسْمَانِيَّةِ أَنْ يُلَطِّفَ نَفْسَهُ بِالْعِبَادَاتِ وَيُخَفِّفَ جِسْمَهُ بِالرِّيَاضَاتِ وَيُلَازِمَ الْوَرَعَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ»³.

فَتَلَطِّيفُ النَّفْسِ بِإِقَامَةِ الشَّرَائِعِ التَّعَبُّدِيَّةِ وَمُمَارَسَةِ الْمَجَاهِدَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ يُثْمِرُ عِلْمًا بِاللَّهِ وَمَعْرِفَةً بِصِفَاتِهِ وَالتِّي بِدَوْرِهَا تُوجِبُ أَحْوَالًا عَلَى الْمُرِيدِ السَّالِكِ، وَيَنْشَأُ عَنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَرَعًا

¹ - الهجويري، كشف المحجوب. مصدر سابق. ص: 517.

² - عبد الوهاب الشعراني، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر. دار إحياء التراث العربي، بيروت. لبنان. ص: 84.

³ - أحمد النقشبندي الخالدي، جامع الأصول في الأولياء الطرق الصوفية. مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان. ط 01، 1997، ص: 153.

كاملاً وترقياً أخلاقياً شاملاً، فَمَعْرِفَةُ بطش الله وَشِدَّةُ انتقامه وعقابه، تُوجب شِدَّةَ الخوف منه، وَيُثْمِرُ الخوف الكَفُّ عن الظُّلم وَالْعِصْيَانِ وَسُوءِ الأخلاق مع التَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ وَالْحَيْرَةِ وَالْوَرَعِ، وَمَعْرِفَةُ رحمة الله وَمَغْفِرَتِهِ وَصَبْرِهِ وَأَنَّ جميع النِّعم منه، تُثمر مَحَبَّتَهُ وَهَكَذَا فَكُلُّ مَعْرِفَةٍ لِصِفَاتِ الله الجمالية أَوْ الجَلالية تُورِثُ طِبَائِعَ وَصِفَاتٍ يَتَخَلَّقُ بِهَا وَيَتَمَثَّلُهَا المريد، السَّالِكُ وَفِي خِضَمِّ هذه المعرفة يتردّد على الصَّوْفِيِّ العارف مقام "الحيرة" في معرفة الحقِّ وَمَعْرِفَةِ الحقيقة بين إثبات الوجدانية وإبراز الصِّفَاتِ وَالْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَيْهَا لِامْتِنَاعِ الإِحَاطَةِ بِهَا «وَقَدْ سَأَلَ الجَنِيدُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ فَقَالَ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا تَصَوَّرَ فِي قَلْبِكَ فَالْحَقُّ بِخِلَافِهِ، فَيَا لَهَا مِنْ حَيْرَةٍ لَا لَهُ حِظٌّ مِنْ أَحَدٍ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْهُ حِظٌّ وَإِنَّمَا هُوَ وَجُودٌ يَتَرَدَّدُ فِي الْعَدَمِ لَا تَنْتَهِي الْعِبَارَةُ عَنْهُ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ مَسْبُوقٌ وَالْمَسْبُوقُ غَيْرُ مُحِيطٍ بِالسَّابِقِ»¹.

مقام الحيرة مقام يُعَبِّرُ الصَّوْفِيُّ السَّالِكُ عَنْ قَلْقِهِ الْحَادِ بِصَدْدِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ كُشُوفَاتٍ وَفُتُوحَاتٍ وَمَعَارِفٍ، اِكْتَسَبَهَا بِفِعْلِ حَدْسِهِ الصَّوْفِيِّ الْكَشْفِيِّ، فَالْحَيْرَةُ هُنَا مَعْرِفَةٌ مَمْزُوجَةٌ بِالْدَّهْشَةِ مِنْ هَذِهِ النِّتَائِجِ الْكَشْفِيَّةِ، تَدْفَعُهُ مِنْ جَدِيدٍ لِمُحَاوَلَةِ اسْتِكْشَافِ وَتَجَاوُزِ الْمَقَامَاتِ وَعَدَمِ التَّوَقُّفِ عِنْدَهَا لِيَنْزِعَ السَّالِكُ مِنْ جَدِيدٍ نَحْوَ تَجْرِبَةٍ أُخْرَى «وَهُنَا تَبْرُزُ حَقِيقَةُ الْمَعْرِفَةِ وَمَعْنَاهُ أَنْ يَشَاهِدَ السِّرَّ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ وَتَعْظُمِ حَقُّهُ وَإِجْلَالُ قَدْرِهِ مَا تَعَجَزَ عَنْهُ الْعِبَارَةُ، سَأَلَ الْجَنِيدُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ فَقَالَ: هِيَ تَرَدُّدُ السِّرِّ بَيْنَ تَعْظِيمِ الْحَقِّ مِنَ الْإِحَاطَةِ وَإِجْلَالِ عَنِ الدَّرِكِ»² فَيَمْتَرِجُ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ الْحُبَّ وَالْبَقَاءَ بِالْفَنَاءِ وَهَذِهِ مِيزَةُ مَقَامِ الْحَيْرَةِ، هِيَ أَنَّهَا عَتَبَةٌ بَيْنَ الْوُقُوفِ عِنْدَهَا وَالرَّضَى بِهَا، أَوْ أَنْ تُوَاصِلَ سِيرَكَ، لِتَنْتَقِلَ مِنْهَا إِلَى تَجْرِبَةٍ أُخْرَى، وَهَذَا مَا يَرِيطُ كَثِيرًا مَا بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ الصَّوْفِيَّةِ وَمَقَامِ الْحَيْرَةِ، لِأَنَّ الدَّهْشَةَ وَالْحَيْرَةَ مُصَاحِبَةٌ لَهَا مِنْ بَدَايَاتِهَا وَخُصُوصًا عِنْدَ نَهَايَاتِهَا أَوْ عِنْدَ تَحَقُّقِ غَايَاتِهَا، فَحَلَاوَةُ الْمَشَاهِدَاتِ وَأَنْوَارِ الْحَضَرَاتِ تَفْرِضُ عُنَاصِرَ الْحَيْرَةِ وَالصَّدْمَةَ

¹ - الكلاباذي، التَّعَرُّفُ لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ. مصدر سابق. ص: 101.

² - الكلاباذي، التَّعَرُّفُ لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ. مصدر سابق. ص: 101.

وَالسَّكْر، بَلْ هُنَاكَ مَنْ عَرَفَ الْمَعْرِفَةَ بِالْحَيْرَةِ يَقُولُ "الشَّبْلِي" رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعرفة: دوام الحيرة، وَيَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صِفَةِ الْعَارِفِ: "مَنْ عَرَفَ اللَّهَ قَلَّ كَلَامُهُ وَدَامَ تَحْيَرُهُ"¹.

الحيرة هنا هي منتهى توحيد الخاصة «ولعلّ هذا هو مقام الحيرة الذي قال به "ذو النون المصري" حين سئل عن أول درجة يرقاها العارف فقال: "التحير، ثم الافتقار ثم الاتصال، ثم التحير" قال "الكلاباذي": الحيرة الأخيرة: أن يتحير في متاهات التوحيد² «² فالمريد يقطع كلّ المقامات، فينكشف له في قطعها، في كلّ مقام نور ذاتي، يعرف به ربه وهكذا مع كلّ مقام تسطع أنوار أخرى، فإذا سلكها جميعاً، وجزم أن قد تمت معرفته بالله يصل إلى مقام يتحقق فيه باستحالة إدراك الذات وأنها شيء من خاصيته «العجز عن درك الإدراك إدراك، فيُدرك العارف حينها أنّ الذات لا تعرف وهذا أعلى مقامات المعرفة وفي هذا المقام يستزيد طالبه فيقول: "يا دليل المتحيرين زدني تحيراً"³، حيرة المعرفة، التي تكثر فيها وتتوَّع التجليات الأسمائية والصفائية، لا الحيرة السلبية المذمومة الحاصلة في بدايات الطريق، فهذه الحيرة الحقيقية العارفة المستندة بثمرات النهايات، يرى التجليات لا حيرة الجهل والشك والتخيلات.

كما أنّ الصوفيّ في رحلته الباحثة عن سعادته الأبدية وعن مصدره الروحيّ المطلق من خلال معرفة الله معرفةً حقيقيةً خالصةً، مُنْزَهَةً عن التشبيه والتعطيل، ولهذا ألقى في نظريته المعرفية اليقينية سبق العقل والحواس والنظر والاستدلال في الإدراك المعرفيّ المطلق، واعتبرهما وسيلة ثانوية مُساعدة للمعرفة، فالمتصوّفة سلكوا مسلكاً آخر يتمثل في السلوك الروحيّ عن طريق التّصفية والتّطهير، الموصل للكشف والحدس والإلهام والدّوق، وتتجاوز حُدود المعرفة العقلية إلى المعرفة الباطنية.

فَالْحَوَاسُ وَالْعَقْلُ قَاصِرَانِ عَلَى إِدْرَاكِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَطْلُوقِ «قِيلَ لِأَبِي الْحَسَنِ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ

¹ - الهجويري، كشف المحجوب. مصدر سابق. ص: 517.

² - الكلاباذي، التعرّف لمذهب أهل التّصوّف. نفس المصدر السابق. ص: 105.

³ - الكلاباذي، التعرّف لمذهب أهل التّصوّف. مصدر سابق. ص: 516.

الله- بِمِ عَرَفْتَ اللهُ تَعَالَى؟ فَقَالَ: بِالله، قِيلَ: فَمَا بِالِ الْعَقْلِ؟ قَالَ: عَاجِزٌ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى عَاجِزٍ مِثْلِهِ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: مَنْ أَنَا؟ فَسَكَتَ فَكَحَلَهُ بِثُورِ الْوَحْدَانِيَّةِ، فَقَالَ: أَنْتَ اللهُ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْعَقْلِ أَنْ يَعْرِفَ اللهُ إِلَّا بِالله»¹.

فَالْعَقْلُ وَحْدَهُ عَاجِزٌ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ، لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ بِنَفْسِهِ النِّقَازُ إِلَى مَا وَرَاءَ الْعَالَمِ وَالْأَفْلَاكِ، فَهُوَ قَاصِرٌ عَلَى الْمِيَادِينَ الْمِيْتَاْفِيْزِيْقِيَّةِ، شَأْنُهُ شَأْنُ حُدُودِ الْحَوَاسِ الَّتِي لَا تَتَعَدَّى فِي مَجَالِهَا عَلَى الْاِسْتِدْلَالِ بِالْمَوْجُودَاتِ وَالْمَحْسُوسَاتِ، أَمَّا أَسْرَارُ الْمَعَانِي فَهِيَ خَارِجَةٌ عَنْ دَائِرَةِ الْعُقُولِ، فَلَا عَمْتَادَ عَلَيْهِمَا فِي مَعْرِفَةِ الْوَاحِدِ الْمَطْلُوقِ لَا يُؤَدِّي إِلَّا لِلتَّيْهَانِ وَالْبَلْبَلَةِ وَالْخُرُوجِ عَنْ الشَّرِيعَةِ، فَاسْتِخْدَامُ الْعَقْلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ هُوَ الَّذِي كَانَ «سَبَبُ هَلَاكِ الْمَعْتَزِلَةِ وَالْقَدْرِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الطَّرَائِقِ الضَّالَّةِ الْاِثْنَيْنِ وَالسَّبْعِينَ الْمَفْتَرَقَةِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمِنْ قَبْلِهِمْ الْفَلَاسِفَةُ وَالطَّبَّائِعِيْنَ وَأَضْرَابُهُمْ»².

فَالدَّلِيلُ الْمَوْصِلُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ وَلَا سَبِيلَ لِلْعَقْلِ لِذَلِكَ، لِأَنَّهُ مَحْدُودٌ وَالْغَيْبُ لَا حُدُودَ لَهُ، فَ"الْمَحْدُوثُ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى مِثْلِهِ... الْعَقْلُ عَاجِزٌ وَالْعَاجِزُ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى عَاجِزٍ مِثْلِهِ، قَالَ "ابْنُ عَطَاءِ اللهِ" «الْعَقْلُ آلَةٌ لِلْعِبُودِيَّةِ لَا لِلْإِشْرَافِ عَلَى الرَّبُّوبِيَّةِ»³، وَهَكَذَا اتَّخَذَتِ الصَّوْفِيَّةُ قُوَّةَ إِدْرَاكِ أُخْرَى لِبُلُوغِ الْيَقِينِ، وَهِيَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهَا فِي الْفِكْرِ الصَّوْفِيِّ "الْحَدْسُ" أَوْ "الْبَصِيرَةُ" أَوْ مُسَمَّيَاتٍ أُخْرَى تَتَقَارَبُ مَفَاهِيمًا وَتَجْتَمِعُ فِي "الْكَشْفِ" أَوْ "الذَّوقِ" فَالْحَدْسُ الْقَلْبِيُّ وَالَّذِي هُوَ نَتَاجُ وَحْيٍ بَاطِنِيٍّ صَرَفٍ، هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَصِلُ بِهِ السَّالِكُ أَوْ الْعَارِفُ لِمَعْرِفَةِ رَبِّهِ، وَهِيَ مِيزَةٌ يَخْصُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ وَالْأَصْفِيَاءَ وَالْأَتْقِيَاءَ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْمُبَاشِرَةِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدْلَةَ لِبُلُوغِ نَهَايَاتِهَا، فَيَتَكَامَلُ فِيهَا الْعَارِفُ "الْمُرِيدُ" مَعَ مَوْضُوعِهِ "مَوْضُوعِ الْمَعْرِفَةِ" وَالْمَعْرِفَةُ الَّتِي يَصِلُ إِلَيْهَا الصَّوْفِيُّ هِيَ إِذَنْ مَعْرِفَةٌ مُبَاشِرَةٌ بِغَيْرِ وَسَائِطٍ وَلَا مُقَدِّمَاتٍ وَلَا بَرَاهِينَ فَوْقَ

¹ - أبو نصر السَّراج الطوسي، اللَّمع. مصدر سابق. ص: 63.

² - ابن عَجِيْبَةِ الْحَسَنِ، شَرْحُ نَوْنِيَّةِ الشَّشْتَرِيِّ. تَح: مُحَمَّدُ الْعَدْلُونِي الْإِدْرِيْسِي. دَارُ الثَّقَافَةِ، الدَّارُ الْبَيْضَاءُ، الْمَغْرِب. ط 01،

2013. ص: 95.

³ - الْكَلَابَاذِي، التَّعَرُّفُ لِمَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ. مصدر سابق. ص: 37.

عقلية، لا يحوزها إلا مَنْ سلك سُبُلَ التَّربية الصَّوفية، وألهمها كشفًا، لأنَّه صار مِنَ الْمُقَرَّبِينَ والأولياء الصَّديقين «وَهِيَ مِنَ مَوَاهِبِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ، وَلَا تَأْتِي إِلَّا بَعْدَ طَهَارَةِ الْقَلْبِ وَتَزَكِيَّتِهِ هُنَالِكَ تَقْيِضُ عَلَيْهِ الْأَنْوَارَ مِنْ قَبْلِ الْوَاحِدِ الْحَقِّ، وَإِذَا وَصَلَ الْمَرْءُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ سُمِّيَ عَارِفًا»¹.

فَبِالإِخْلَاصِ وَالطَّاعَةِ وَالْمَجَاهِدَةِ، يَتَرَقَّى الْمُرِيدُ، وَتَتَفَتَّحُ لَهُ أَبْوَابُ الْغَيْبِ وَتَتَدَقَّقُ عَلَيْهِ الْأَنْوَارُ الْكَشْفِيَّةُ، بَعْدَمَا أزالَ عَنْ نَفْسِهِ كُلَّ الْحِجَابِ الْحَسِّيَّةِ، فَصارَ الْعَقْلُ قَلْبًا يَقْطَعُهُ لِمَقَامَاتِ التَّوْبَةِ وَالزَّهْدِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَمُسْتَوْدِعَ الْأَسْرَارِ تَتَصَقَّلُ فِيهِ حَقَائِقُ الْغَيْبِ وَهُوَ وَحْدَهُ مَحَلُّ الثِّقَةِ وَمَوْطِنُ الْإِيمَانِ.

الصَّوْفِيَّةُ يَجْمَعُونَ عَلَى تَوَاصُلِ وَإِرْتِبَاطِ الْأَدَوَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَتَكَامُلِهَا، وَلَا يَفْصِلُونَ وَلَا يُلْغُونَ أَدْوَارَهَا وَأَهْمِيَّتَهَا بَلِ التَّفَاوُتُ بَيْنَهَا تَفَاوُتًا فِي دَرَجَاتِهَا انْطِلَاقًا مِنْ مُعَالَجَةِ النَّفْسِ وَتَرْوِيضِهَا، مُرُورًا "بِالْعَقْلِ، وَالْقَلْبِ، وَصُورًا إِلَى الرُّوحِ وَالسِّرِّ وَسِرِّ السِّرِّ"²، فَإِذَا عَرَفَ الْعَارِفُ عَلَى رُوحِهِ الْأَزَلِيَّةِ، وَحَصَلَ عَلَى حَقِيقَةِ نَفْسِهِ بِالْكَلِّيَّةِ حَصَلَ عَلَى تَمَكُّينِ الْمَشَاهِدَةِ وَأَسْرَارِهَا، وَإِنْ أَغْفَلَ حَقِيقَةَ ذَلِكَ وَعَجَزَ عَنْ مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ وَإِدْرَاكِ حَقِيقَةِ رُوحِهِ، فَلَا يَكْمُلُ لَهُ أَسْرَارُ الْمَشَاهِدَةِ وَلَا غَايَاتِ الْمَعْرِفَةِ، وَلَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ.

«اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ اللَّطِيفَةَ الرَّيَّانِيَّةَ الَّتِي فِينَا إِذَا حَصَلَ لَهَا بِالتَّصْفِيَّةِ وَالْمَجَاهِدَةِ الْعِلْمُ الْإِلَهَامِيُّ، وَيُسَمَّى كَشْفًا وَإِطْلَاعًا، فَهُوَ دُوْرُ مَرَاتِبٍ تَخْتَلِفُ وَتَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ الصِّفَاءِ وَالتَّخَلُّصِ مِنَ الْكَدُورَاتِ، فَمَبْدُؤُهَا الْمَحَاضِرَةُ، وَهِيَ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحِجَابِ وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ الْكَشْفِ ثُمَّ بَعْدَهَا الْمَكَاشِفَةُ ثُمَّ بَعْدَهَا الْمَشَاهِدَةُ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا إِذَا امَّحَتْ آثَارَ الْإِنِّيَّةِ»³.

فَالْكَشْفُ نُورٌ يَحْصُلُ لِلسَّالِكِينَ فِي سَيْرِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، يَكْشِفُ لَهُمْ حِجَابَ الْحَسِّ وَوَهْمِ

¹ - عبد الرَّحْمَنِ بَدَوِي، تَارِيخُ التَّصَوُّفِ. مَرْجِعٌ سَابِقٌ. ص: 21.

² - ابْنُ عَجِيبَةَ، إِيقَاطُ الْهَمِّ فِي شَرْحِ الْحُكْمِ. مَصْدَرٌ سَابِقٌ. ص: 67.

³ - ابْنُ خُلْدُونٍ، شِفَاءُ السَّائِلِ وَتَهْذِيبُ الْمَسَائِلِ. مَصْدَرٌ سَابِقٌ. ص: 69.

المادة نتيجة مُجاهدة أنفسهم بالرياضات والمقامات والخلوات والذكر والانقطاع عن الدنيا وملذاتها، فتعكس إيجاباً على نور بصائرهم، فيرون بنور الله وتمحي أمامهم المقاييس الزمانية والمكانية، فيطَّلعون على عوالم غائبة على من هو منغمس في الشهوات والشبهات والوساوس الشيطانية وأصل هذه الكشوفات أن المريد انصرف عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن، فترقت رُوحه على نفسه الشهوانية الحيوانية وتغلّبت عليهما، يقول "ابن خلدون": «ثم إن المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم، وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن، ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانها وتجدد نشوءه وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم - على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ، لكن لم يقع لهم به عناية»¹.

3/- حقائق المعرفة:

وقد نقف على معانٍ مختلفةٍ لكونه هذه الحقيقية المعرفية الكشفية الدوقية، فلا نقف على حدٍّ واحدٍ متفقٍ عليه عندهم فكل واحدٍ يُلونها بالمقام والحال الذي هو عليه، وهناك من يجسدها في حقيقة واحدة هي حقيقة العبودية وهناك من يفصلها إلى حقائق سُلَمِيَّةٍ مُتدرِّجَةٍ كالمقامات وبعضهم الآخر يُلبسها لبوس أحد ألوانها أو بعض جوانبها وينأى بأن يبلغها أحد مهما وصل، فماله إلا وصول.

ف"ابن العربي" مثلاً يربط بين أبعاد السلوك والمعرفة الدوقية، فيشترط لحصولها الاستقامة الشرعية، وقطع المقامات والأحوال وتحقيقها: الإسلام، الإيمان، الإصلاح الإحسان، المحبة الصديقية، فالقربة أي: الولاية الكبرى، إذا حقق هذه الأبعاد تامة كاملة تحقق بالمعرفة الدوقية، التي خصص لها باباً كاملاً (الباب السابع والسبعون ومائة في معرفة مقام المعرفة) التي يُحدد

¹ - ابن خلدون، المقدمة. مصدر سابق. ص: 329.

فيه سبعة أقسام للحصول على مقام المعرفة «فلنقل إنّ المعرفة في طريقنا عندنا لما نظرنا في ذلك فوجدناها منحصرة في العلم بسبعة أشياء، وهو الطريق الذي سلكت عليه الخاصة من عباد الله: الواحد: علم الحقائق وهو العلم بالأسماء الإلهية. الثاني: العلم بتجلي الحق في الأشياء. الثالث: العلم بخطاب الحق عباده المكلفين بالسنة الشرائع، الرابع: علم الكمال والنقص في الوجود، الخامس: علم الإنسان بنفسه من جهة حقائقه السادس: علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل، السابع: علم الأدوية والعلل، فمن عرف هذه السبع المسائل فقد حصل المسمى معرفة»¹.

فالتجربة الصوفية، في غايتها السامية "المعرفة" باعتبارها ثمرة وتتويج لهذه الرحلة السلوكية الطويلة، فالمعرفة غاية من غايات كل صوفي، فأسباب الوجود عندهم هي نفسها أسباب المعرفة، فما خلق الخلق إلا للوصول والتحقق من هذا الوجود المطلق والكنز المكنون فتجلت الإرادتان، إرادة الخلق لإرادة المعرفة، معرفة الله تعالى وحقيقته، ولا يهتدي إليها إلا الذين خصهم الله بأنوار كرامته وهدايته من عباده العارفين فيفنى السالك عن نفسه ويبقى بمعرفة ربه.

¹ - ابن عربي، الفتوحات المكية. ج 03، تح: أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط 01، 1999، ص:

الفصل الثَّاني: الطَّرق الصَّوفِيَّة بالجزائر التَّأصيل وَالخصوصية

المبحث الأول: الطريقة وعلاقتها بالشرعية والحقيقة

- 1/- تعريف الطريقة.
- 2/- الطريقة طرق.
- 3/- الشرعية والحقيقة.
- 4/- العلاقة بين الشرعية والحقيقة.
- 5/- الطريقة وعلاقتها بالشرعية والحقيقة.

المبحث الثاني: تأصيل الطريقة الصوفية في الجزائر تاريخياً

- 1/- إرهابات صوفية.
- 2/- الحركة الصوفية في المغرب الأوسط وأسباب انتشاره.
- 3/- التصوف النخبوي النظري.
- 4/- التصوف الشعبي.

المبحث الثالث: خصوصية الطرق بالجزائر ومناهجها التربوية

- 1/- الخصوصيات العامة.
- 2/- الطرق الصوفية في الجزائر وخصوصيتها.

المبحث الأول: الطّريقة وعلاقتها بالشرّيعَة والحقيّة

1/- تعريف الطّريقة:

لُغةً: جمع طريق أيّ السّبيل الذي يطرق بالأرجل، أو ما يُمكن التّوصّل بصحيح النّظر فيه إلى المطلوب¹.

ويُقال الطّريق والطّريقة على سبيل التّرادف على الرّغم من أنّ جمع الطّريق طرق وجمع الطّريقة طرائق، وتُطلق على السّيرة والمذهب والحال².

أمّا اصطلاحاً: عرفت الطّريقة الصّوفيّة تعاريف مُتنوّعة تبعاً لأصولها المكوّنة لها ولوسائلها التّربويّة، وأحياناً أخرى لغاياتها التي تبتغي الوصول إليها، فقد حصر "الشعراني" حقيقة التّصوّف في معرفة الطّريق بقوله: "فليس علم التّصوّف إلّا معرفة طريق الوصول إلى العمل بالإخلاص لا غير"³.

فالطّريق الصّوفي هو طريق التّربية والسّلوّك والتركّيّة، يلتزم فيها السّالك والمريد تقفي أخلاق وآداب الرّسول عليه وسلّم لاقتداء بهديه عبادة وأخلاقاً ومعاملة والإخلاص فيها إخلاصاً تاماً، وقد عرّفها صاحب كتاب (كشاف اصطلاحات الفنون) بقوله «والحاصل أنّها سيرة مختصة بالسّالّكين إلى الله تعالى، مشتملة على الأعمال والرياضات والعقائد المخصوصة بها، وعلى الأحكام والشرّيعَة كليهما»⁴. وقد ربط هذا التعريف الطّريقة بالأحكام التّشريعيّة التّكليفيّة، فهي ليست بدعا منهم ولا أمراً مغايراً لهذه الأحكام والتكاليف الشرعيّة الإلهيّة والنّبويّة، بل هو منهج

¹ - علي بن محمّد الجرجاني، التّعريفات. ج01، تح: إبراهيم الأعيادي. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. ط 01، ص: 183.

² - ابن منظور، لسان العرب. ج10، مادة طرق 2221.

³ - عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسيّة في معرفة قواعد الصّوفيّة. مكتبة المعارف، بيروت، لبنان. ط 01، 1993، ص: 195.

⁴ - محمد علي التّهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. تح: علي دحروج. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان. ط 01، 1996، ج2، ص: 1133.

شرعي سلوكي وأخلاقي وتربويّ، متضمن لمبادئ تعليمية ومجاهدات عمليّة، يعمل المريد على تحقيق مقاماتها، سيرا إلى الله تعالى.

كما عرّف "سبنسر ترمينجهام" الطّريقة على أنّها «أسلوب عمليّ يُطلق عليها أيضًا: المذهب والرّعاية والسّلك لإرشاد المريد عن طريق اقتفاء أثر طريقة تفكير وشعور وعمل تُؤدّي من خلال تعاقب مراحل المقامات في ارتباطٍ مُتكامِلٍ مع التّجارب السيّكولوجية أو النّفسية المسمّاة حالات أو أحوال إلى مُعايشة تجربة الحقيقة المقدّسة»¹.

فَالطّريقة، أو الطّريق هو السّبيل الّذي يسلكه المريد وُصولاً إلى المراد، وهذا ما كان معروفاً في المراحل الأولى لِلتّصوّف الزّهديّ الفرديّ... "الطّريق" ليترسّم بعد ذلك في القرون التّالية، لبصير السّيرة المختصّة بالصّوفيّة السّالّكين إلى الله تعالى، فهي سفرٌ معنويٌّ على السّالك أو المريد، أو المسافر، أن يسلك طريق القوم وأن يجتازها مرحلةً بعد مرحلة لبلوغ الغايات المنشودة.

فَالطّريق هي تجسيدٌ للمنهج الصّوفيّ التّربويّ، على شكل تنظيمٍ هرميٍّ، تحت إشراف وتوجيه شيخ، مُربٍّ يدين له مريدوه ومُحبّوه وأتباعه بالتّبعة الرّوحية، تربط بينهم أحزاباً وأوراداً وأذكاراً وعُهوداً وقواعد سلوكيّة، يرتقي من خلاله المريد السّالك المقامات والأحوال «هي الأسلوب التّربويّ الّذي يتّبعه الشّيخ في تربية المريدين، وهم طُلابٌ»².

فَالطّريقة الصّوفية منهجٌ تربويّ رُوحِيٌّ، اختصّ به المتصوّفة من أجل تطهير القلوب وتصفية النفوس من كلّ الأغيار والحظوظ والمؤثرات الّتي تشغلها عن الله تعالى، وهو منهجٌ يعتمد أساساً على المجاهدات والرياضات، وهي تُنسب إلى شيخٍ مُربٍّ من الكمل يُرشد مُريديه إلى أنسب الطّرق للوصول إلى الحضرة الإلهية.

وأحياناً يستخدم بعضهم مُصطلح "مدرسة" للدّلالة على مُسمّى "الطّريقة" كما فعل "الشّيخ عبد

¹ - سبنستر منجهام، الفرق الصّوفية في الإسلام. مرجع سابق. ص: 26.

² - مُحمّد عبد الرّحمان بن حسين، الفتوحات الإلهية في نُصرة التّصوّف الحقّ الخالي من الشّوائب البدعية. دار المعارف، بيروت، لبنان. ط01، 2012، ص: 39.

الحليم محمود" في كتابه (قضية التصوف المدرسة الشاذلية) وكتاب "عبد الغني قاسم" المعنون بـ(المذاهب الصوفية ومدارسها) ¹ باعتبارها منهجاً خاصاً ومنظومةً فريدةً استطاعت أن تُثَمِّي التصوف من جوانبه الفلسفية التثويرية، فقد جسدت هذه الطرق الصوفية الجوانب العملية التطبيقية للخطاب التربوي الصوفي، من خلال دعوة مشايخه وعلمهم على تربية المريدين وتسليكمهم وتشجيع الانتساب لهذه الطرق، وظهورهم كقوةٍ ونماذجٍ عمليةٍ وعلميةٍ في مجتمعاتهم، تُحفّز الآخر على الانخراط في دعوتهم والتشبع بأفكارهم وتبني أطروحاتهم والتأدب بآدابهم والسير معهم، فاستحالت الطرق الصوفية فلسفة حياة بالنسبة لهم، لها قواعدها ورؤسومها الخاصة التي يتسمون بها، بعدما ظلت لسنوات -خاصةً في بداياتها- مُرتبطةً بفئات مُحددة، وحكراً على طبقةٍ مُميّزةٍ نخبويةٍ، ثم تحوّل تدريجياً إلى مدارسٍ مُمنهجةٍ، وممارساتٍ تربويةٍ مُنظمةٍ، وأساليب حياةٍ فاعلةٍ، لها تعاليمها وأنماطها السلوكية ونظامها المعرفي ومبادئها التكوينية.

2/- الطريقة طرق:

السبيل إلى الله واحدٌ، لا تعدّد فيه ولا كثرة، وإنّما الكثرة والتّنوّع في الطرق وفي القدرات الإنسانية والاستعدادات الخاصة بكلّ مريدٍ، ليستطيع كلّ واحدٍ أن يسلك طريقاً يقتضيها استعداداه وقوّته ودرجة تحمّله وصبره على ابتلاءات الطريق وامتحانات الرياضات والمجاهدات، وهذا لا يُنافي قولهم المشهور "الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق" «فَاعْلَمْ أَيُّهَا الْأَخ الْكَرِيم أَنَّ الطَّرِيقَ شَتَّى وَالطَّرِيقَ إِلَى الْحَقِّ مُفْرَدٌ، وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ أَفْرَادٌ، وَمَعَ أَنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ وَاحِدٌ، فَإِنَّهُ تَخْتَلِفُ وُجُوهُهُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ سَالِكِيهِ مِنْ اعْتِدَالِ الْمَزَاجِ وَإِنْحِرَافِهِ، وَمُلَازِمَةِ الْبَاعِثِ وَمَغْيِبِهِ وَقُوَّةِ رُوحَانِيَّتِهِ وَضَعْفِهَا، وَإِسْتِقَامَةِ هِمَّتِهِ وَمِيلِهَا وَصَحَّةِ تَوَجُّهِهِ وَسَقَمِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ

¹ - عبد الحليم محمود، قضية التصوف المنقذ من الضلال. دار المعارف، القاهرة، مصر. ط 05، 2007، عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها. مكتبة المدبولي، القاهرة، مصر. ط 02، 1999.

تُجمع له، ومَنهم مَن يكون له بعض هذه الأوصاف»¹.

فَعَلَى السَّالِك، السَّائِر عَلَى هَذَا الْمَنْهَج، وَالْمُتَّبِع لِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا، أَنْ لَا يَسْلُك كُلَّ هَذِهِ الطَّرِيقِ أَتْنَاءَ سِيرِهِ، وَإِنَّمَا يَلْتَزِم بِطَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، فَاتَّبَاعُ جَمِيعِ الطَّرِيقِ مُتَعَذِّرٌ وَمُسْتَحِيلٌ «مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْخُذَ كُلَّ هَذِهِ الطَّرِيقِ؟ لَا يُوجَدُ، لِذَلِكَ يَأْخُذُ كُلَّ وَاحِدِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي رَاقَتْ لِنَفْسِهِ، وَوَجَدَ فِيهَا سُرْعَةَ الصَّفَاءِ، وَتُنْزَلَ الْفَضْلُ وَالنُّورُ وَالضِّيَاءُ، فَهُنَاكَ مَنْ أَخَذَ قِيَامَ اللَّيْلِ وَهُنَاكَ مَنْ أَخَذَ الصَّلَاةَ عَلَى حَضْرَةِ النَّبِيِّ، وَهُنَاكَ مَنْ أَخَذَ الذِّكْرَ، وَهُنَاكَ مَنْ أَخَذَ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ، وَهُنَاكَ مَنْ أَخَذَ خِدْمَةَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَهُنَاكَ مَنْ أَخَذَ الصَّلَاحَ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ وَهُنَاكَ مَنْ أَخَذَ قَضَاءَ مَصَالِحِ الْعِبَادِ مِنَ الْفُقَرَاءِ...»².

فَالْغَايَةُ الْقَصْوَى لِكُلِّ تَرْبِيَةٍ صُوفِيَّةٍ رُوحِيَّةٍ، وَلِكُلِّ طَرِيقَةٍ رَبَّانِيَّةٍ، هِيَ فِي جَوْهَرِهَا وَاحِدَةٌ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَعَدُّدِ الطَّرِيقِ الْمَوْصَلَةِ إِلَيْهَا، لِتَتِمَّكَنَ هَذِهِ الطَّرِيقُ مِنْ تَحْقِيقِ نَوْعٍ مِنَ التَّكْيِيفِ مَعَ الْفُرُوقَاتِ الْفَرْدِيَّةِ لِلْسَّالِكِينَ، وَأَنْ تُسَيِّرَ لَهُمْ إِمْكَانِيَّةً وَلَوْجَهُ وَمُوَاصِلَةَ السَّيْرِ فِيهِ وَالْوَصُولَ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَالتَّوْحِيدِ، فَالْمَقْصَدُ وَاحِدٌ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ طَرِيقُهُ «فَالطَّرِيقَةُ تُثَمِّلُ بِالشَّعَاعِ الذَّاهِبِ مِنْ مُحِيطِهَا إِلَى مَرْكَزِهَا، وَنَرَى حِينَئِذٍ أَنَّ لِكُلِّ نَقْطَةٍ مِنَ الْمَحِيطِ شُعَاعَهَا، وَأَنَّ كُلَّ الْأَشْعَةِ الَّتِي لَا يُحْصَى عَدْدُهَا تَنْتَهِي إِلَى الْمَرْكَزِ عَلَى السَّوَاءِ، وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْعَةَ هِيَ عَدَدُ الطَّرِيقِ الْمَكِيْفَةِ حَسَبِ الْأَشْخَاصِ "الْمَتَمَوِّقِينَ" عَلَى مُخْتَلَفِ نَقَاطِ الْمَحِيطِ، وَفَقِ اخْتِلَافِ طِبَائِعِهِمُ الْفَرْدِيَّةِ، وَلِهَذَا يُقَالُ "الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ كَنُفُوسُ بَنِي آدَمَ"، وَبِالتَّالِي "الطَّرِيقُ" مُتَعَدِّدَةٌ وَاخْتِلَافُهَا عَنْ بَعْضِهَا الْبَعْضُ يَزْدَادُ بِالِاقْتِرَابِ مِنْ نَقْطَةِ انْطِلَاقِهَا عَلَى الْمَحِيطِ، بَيِّدَ أَنَّ هَدَفَهَا وَاحِدٌ، لِأَنَّهُ لَا وُجُودَ إِلَّا لِمَرْكَزٍ وَاحِدٍ وَلِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَعِنْدَ التَّحْقِيقِ فَإِنَّ اخْتِلَافَ الْبَدَايَاتِ تَنْمَحِي بِزَوَالِ "الْإِنِّيَّةِ" أَيَّ عِنْدَ بُلُوغِ الْمَقَامَاتِ الْعُلْيَا لِلْكَائِنِ»³.

¹ ابن قَيِّمِ الْجُوزِيَّةِ، طَرِيقُ الْهَجْرَتَيْنِ وَبَابُ السَّعَادَتَيْنِ. تَح: مُحَمَّدٌ أَجْمَلُ الْإِصْلَاحِيِّ. دَارُ عَالَمِ الْفَوَائِدِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، الرَّيَاضِ، السَّعُودِيَّة. ط01، 2008، ص: 385.

² فوزي مُحَمَّدٌ أَبُو زَيْدٍ، الْأُجُوبَةُ الرَّبَّانِيَّةُ فِي الْأَسْئَلَةِ الصُّوفِيَّةِ. دَارُ الْإِيمَانِ، الْقَاهِرَةُ، مِصْر. ط01، 1108، ص: 18.

³ عبد الواحد يحيى، التَّصَوُّفُ الْإِسْلَامِيُّ الْمَقَارَن. مَرْجِعٌ سَابِقٌ. ص: 20.

الطرق وإن اختلفت واحدة في حقيقتها، وإن تعددت مُسمياتها واختلفت وتتوَّعت مناهجها العملية، وتمايزت أساليب السير والسلوك، تبعاً لاجتهادات وتبدل الأمكنة والأزمنة فسر هذا التنوع، هو رحمة الله بالسالكين، لتتوافق واختلاف الاستعدادات وقوابلهم، فلو جعلها نوعاً واحداً مع تباين الأذهان والنفوس والعقول، وقُوَّة المؤهلات لم يسلكها واحد، قال تعالى: (وَالَّذِينَ جُهِدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا) سورة العنكبوت، الآية 69، فالطرق كثيرة ومتعددة لكنها كلها صحيحة وقويمة، ومهما اختلفت الوسائل والأدوات تتجه وتصب في حقيقة واحدة ثابتة لا تعدد فيها، ومنهج القوم وسبيلهم في سلوكهم وسفرهم إلى حضرة الله، هو اقتفاء لآثار السلف الصالح، شعوراً وتفكيراً وتنظيماً وعملاً، بالالتزام بالأوامر التعبدية والانتقال بما يقرب إلى الله ظاهراً وباطناً، بالانقطاع عن كل الحظوظ النفسية، الحاجبة والمانعة من إدراك الحقائق العلية والكشوفات الإلهية.

يقول ابن خلدون: «وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها»¹.

وقد لخص الشيخ "عبد الوهاب الشعراني" بعبارة مختصرة رائعة، عند حديثه عن حقيقة الصوفي، في كتابه (الأنوار القدسية) فقال: «حقيقة الصوفي عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير»².

فحال الصوفي الحقيقي، كالطريق الصوفي، علم بالأحكام الشرعية المنزلّة، أوامرها ونواهيها، فرائضها وسُننها ومُستحبّاتها، ثمّ تقيّد تامّ بهذه الأحكام والعمل على تطبيق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، بإخلاص كامل لوجهه سبحانه وتعالى، فحقيقة الطريق الصوفي كمنهج علمي، يتدرّج بصاحبه للكمال الروحي والنفسي، ليصير من خلالها وحدة ذاتية جديدة متكاملة

¹ - ابن خلدون، المقدمة. مصدر سابق. ص: 386.

² - عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية. مرجع سابق. ص: 97.

ومتّزنة، تطلب وجه الله تعالى.

«الطّريق الصّوفيّ هو أن يطلق الإنسان من سجن الكثرة، وأن يُشفيه من داء النّفاق، وأن يجعله كلّاً كاملاً: فعن طريق الكمال وحده يستطيع الإنسان أن يغدو طاهراً نقيّاً، إنّ النّاس يُعلنون الإيمان بإله واحد، لكنّهم يعيشون ويتصرّفون عمليّاً كأنّ في حياتهم آلهة كثيرة وعلى ذلك فهم يُعانون من داء الشّرك، داء النّفاق، فهم على الصّعيد الواحد يُعلنون الإيمان بشيء ويتصرّفون على صعيد آخر وكأنّهم يؤمنون بشيء آخر»¹.

الطّريق الصّوفيّ التّربويّ يسعى من خلال ما تقدّم أن يُزيح هذا الشّرك والنّفاق، والتّلون المزاجيّ السّلبيّ، يشفي الإنسان السّالك من عبادة هذه الأصنام الكثيرة في حياته، التي أدمن على حبّها والتّعلّق بها وجعلها هدفاً أساسياً مُطلقاً يسعى لِنيله بشتّى الطرق والأساليب فالطّريق الصّوفيّ وحده، بمنهجه السّلوكيّ التّربويّ الرّوحيّ، قادرٌ على تحقيق عملية إعادة اتّصاله بالوحي النّبويّ، فالإنسان العاديّ -غير المنتمي لأيّ طريق صوفيّ- غالباً ما يسير بعيداً عن محور وحقيقة وجوده، مُشتتاً ذاتيّاً وخارجيّاً في زحمة واقعه المتكثّر والانشغالات الحياتيّة اليوميّة الواهمة والخادعة والانخراط في الطّريق الصّوفيّ قد يُتيح له فرصة النّجاة والعودة إلى عالمه الرّبانيّ الأصيل.

«والطّريق هو ما يصل الإنسان بالله، أي: المنهج الذي يولّد الفضائل الرّوحيّة في نفس الإنسان، والتّعلم الذي يرسم الخطوط الكونية التي يترتّب على السّالك أو الصّوفيّ أن يتتبّعها ليصل إلى الحضرة الإلهيّة، ويحظى بالخلود الحقيقيّ»².

وأساساً هذا الطّريق، الموصل إلى الله تعالى هو سلوك تلك المقامات القلبية، كالنّوبة والمحاسبة والخوف والرّجاء... ومن خلالها التّحلّي بالصفّات الأخلاقيّة كالإخلاص والصّدق والصّبر، ليصل إلى مقام الإحسان الذي لا حدّ لمراتبه، وقد ركّز "الغزالي" في مباني الطّريق الصّوفيّ

¹ - سيّد حسين نصر، الصّوفيّة بين الأمس واليوم. مرجع سابق. ص: 53.

² - المرجع نفسه. ص: 41.

على أنّه «اجتهادٌ وسلوكٌ وسيرٌ وطيرٌ»¹.

لا يتحقّق ذلك إلّا بالاجتهاد بالقيام بالتكاليف الشرعيّة المطلوبة والمفروضة ثمّ تحقيق معاني السلوك، بقطع جميع مراحل الطّريق الصّوفيّ بالتّركي في المقامات والأحوال بالمجاهدات والرياضات، سيراً، لتحقيق المعاني الكبرى للسلوك.

3- الشّريعة والحقيقة:

يُعتبر حديث "الإحسان" أو حديث جبريل عليه السّلام، مدار سلسلة المراتب الموجودة في الإسلام عند الصّوفيّة، وتفاضلهم وتفاوتهم حسب درجات معرفتهم بالحقائق، والتي يُصنّف النّاس من خلالها إلى عوامٍ وخواصٍ، وخواص الخواص، كما أقاموا بموجب هذا الحديث تقسيماً للدين لثلاث أركان أساسية:

-الإسلام: وهو مرحلةٌ تشمل المسلمين جميعاً، اكتفاءً بالحدّ الأدنى منه، وهو تُنطق

الشّهادتين، فهذا الرّكن يُمثّل الجانب العمليّ الشعائريّ، من عبادات ومُعاملات وأُمورٍ تعبديّة، محلّه الظّاهر، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشّريعة.

-الإيمان: ويرتبط بالجوانب الاعتقادية القلبية الغيبية من إيمانٍ بالله وملائكته وكتبه ورُسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره.

-الإحسان: وهو الجانب الرّوحيّ، أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ بين المشاهدة والمراقبة، وما نتج عن ذلك من أذواقٍ وأحوالٍ وجدانيّةٍ ومقاماتٍ عرفانيّةٍ وعُلومٍ لدنيّةٍ وهبيّة، وقد اصطلح على تسميته بعلم الحقيقة.

وَارْتَبَطَت هذه الأركان الثلاثة بِمُصْطَلَحَاتٍ تَرَاتِبِيَّةٍ الشّريعة، الطّريقة، والحقيقة «الأعمال

عند أهل الفن ثلاثة أقسام: عمل الشّريعة، وعمل الطّريقة وعمل الحقيقة، أو تقول عمل

¹ - أبو حامد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السّالّكين. دار التّهضة الحديثة، بيروت، لبنان. ط01، ص: 37.

الإسلام، وعمل الإيمان، وعمل الإحسان، أو تقول عمل العبادة وعمل العبوديّة وعمل العبادة¹، أي: الحرّية أو تقول عمل أهل البداية وعمل أهل الوسط وعمل أهل النّهاية² «فالشّريعة اسمٌ ووصفٌ للأحكام الشّريعية التّكليفية الظّاهرة المتعبّد بها ظاهراً وباطناً من أحكام ومُعاملات وعقائد وغير ذلك من الأحكام التي قرّرها الشّارع الحكيم والتي يشترك فيها الجميع. ولما انتشر الكلام عن علم الحقيقة والباطن باعتباره تصوّفاً صارت الشّريعة تترادف مُصطلح "الفقه" إيماءً بمُقابلة بين الظّاهر والباطن، أو الشّريعة والحقيقة والتي كانت مُتضمّنة في القرون الأولى، وخاصّة في الصّدر الأوّل عند السّلف الصّالح، فالشّريعة مُوجبةٌ للحقيقة والحقيقة ثمرتها.

لم يجد هذا التّصنيف الصّوفيّ قُبُولاً تامّاً، قديماً وحديثاً خاصّةً عند الفقهاء وعُلماء الشّريعة، وبعض المفكرين المعاصرين، الذين رأوا فيه مُحاولةً لِشُرْعنة هذا التّأصيل الجديد والذي يُحاول أن يخلق توجّهًا جديدًا لِلدين الإسلاميّ يفصل بين الشّريعة والحقيقة ويُعطي أبعاداً أخرى لمسألة الظّاهر والباطن، كُمُحاولةٍ لِلمُجمع بينهما وَكَردّة فعلٍ على الأوضاع الصّعبة والقاسية التي عانى منها المتصوّفة في النّقافة العربيّة الإسلاميّة والسّلطة الزّمنية والدينيّة لِفتراتٍ طويلةٍ، فاتّجهوا لمُحاولة تأسيس شرعية على المستوى التّنظيري³.

¹ - هناك فرقٌ بين العبادة والعبوديّة والعبودة، **فَالْعِبَادَةُ** هي غاية التّذلّ وهي لِلعامّة، **وَالْعِبُودِيَّةُ** تكون لِلخاصّة الذين صحّوا النّسبة إلى الله والصّدق إليه في سلوك طريقه، **وَالْعِبُودَةُ** لِخاصّة الخاصّة الذين شهدوا نفوسهم قائمةً به في عبوديته، فهم يعبدونه به في مقام أحدى الفرق والجمع. أحمد بن مُصطفى الكمشخاني، **جامع الأصول في الأولياء**. تح: أحمد فريد. دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان. ط01، 2002، ص: 140.

ويقول "عبد الكريم الجيلي" (ت 805 هـ): «إنّ العبادة هي صُذور أعمال البرّ من العبد بطلب الجزاء، والعبوديّة صُذور أعمال البرّ من العبد لله تعالى عارياً من طلب الجزاء بل عملاً خالصاً لله تعالى، والعبودة هي عبارةٌ عن العمل بالله، ولذلك كانت الهيمنة لمقام العبودة على جميع المقامات». عبد الكريم الجيلي، **الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر**. تح: عاصم الكيالي. دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان. ط02، 2005، ص: 314.

² - ابن عجيبة، **إيقاظ الهمم في شرح الحكم**. مصدر سابق. ص: 05.

³ - يقول حسين مروة: فعملية الدّخول في ثنائية الظّاهر والباطن، أي ثنائية الحقيقة والشّريعة، لم تكن إلّا طريقاً هم محكومون به موضوعياً، لرفض هذه الثنائية، فليست المسألة، إذن - عند الصّوفيّة - هي الحاجة أو عدم الحاجة إلى الظّاهر، أي الشّريعة، بل المسألة بجوهرها، مسألة رفض للأساس الذي قام عليه مفهوم الوحدانية في الإسلام الرّسمي نفسه. حسين مروة،

فأضحت هذه المسألة التّفصيليّة عندهم للمراتب الثلاثة الشّريعة، والطّريقة والحقيقة، تجاوزا لضغط هذه السّلطة، ولتفادي تهمّة "الباطنية"، وكلّ التّهم العقديّة الأخرى، التي قد تصطبغ بصبغة دينيّة تأويليّة، قد تُخرجهم من حكم أهل السّنة والجماعة برأي مخالفيهم، تتأى بهم عن كلّ شبه الخروج عن الأحكام الشّريعة.

«وبطبيعة الحال، كان لابدّ أن تُثير هذه الأقوال ردود فعلٍ عنيفةٍ من جانب الفقهاء، فكانت تهمّة "الباطني" تعني العداء الصّريح للدين، وبالتالي للدّولة ونظام المجتمع، الشّيء الذي يعرض من تُلصق به هذه التّهمّة، إن حقّاً أو باطلاً، لفتك السّلطة به، سلّطة الدّولة والفقهاء وأيضاً سلّطة الجمهور والشارع، ومن هنا حرص "أصحاب الحقيقة" من المتصوّفة وأهل "الباطن" من الشّيعة على شجب مثل تلك الدّعاوي وتأكيد القول - تقيّةً أو اعتقاداً - بضرورة الأخذ بالجانبين معاً، الظّاهر والباطن، أو الشّريعة والحقيقة، باعتبار أنّ كلا منهما يؤسّس الآخر ويكمّله»¹.

ف"الجابري" هنا يفترض افتراضات على أنّها حقيقة واقعة، وهو أنّ هذا التّأصيل الصّوفيّ ما هو إلّا توظيفٌ إيديولوجيّ ومُحاولة الجمع بينهما وإحداث التّكامل، ما كان ليكون لولا هذه السّلطات الثلاثة الضّاغطة والمانعة للقول بالحقيقة فقط.

لكنّا إذا تأملنا آيات القرآن الكريم، وجدنا فيه ما يُشير إلى هذه المعاني التي تدلّ على ضرورات هذا التّرتيب بدايةً من الشّريعة ووصولاً إلى الحقيقة «إذ أنّ الرّسول ﷺ بُعث قيل له أولاً قال تعالى: (قُمْ فَأَنْذِرْ ٢) سورة المدثر، الآية 02، فلما أُنذر وبُشّر أنزل الله على أمّته قوله تعالى: (ما ضلّ صاحبُكم وما غوى ٢ وما ينطق عن الهوى ٣) إنّ هو إلّا وحيٌ يوحي ٤؛ علّمةً شديداً ألفوى ٥) سورة النّجم، الآية 02-05، فلما تمكّن الدّين أنزل قوله تعالى: (ثمّ دنا فتدلىٰ ٨ فكان قاب قوسين أو أدنىٰ ٩) سورة النّجم، الآية 08-09، فلما رسخ اليقين وصحّ

النزعات الماديّة في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة ، ج03. دار الفارابي، بيروت، لبنان. ط02، 2008. = ص: 127. والصّوفيّة في الحقيقة لا يفصلون بين الشّريعة والحقيقة، ولم يؤسّسوا لشريعة، بل اعتبروا شرعية التّصوّف هي نفسها شرعية الإحسان.

¹ - مُحمّد عابد الجابري، بُنية العقل العربيّ. مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان. ط09، 2009. ص: 278.

الإيمان أنزل قوله تعالى: (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧) سورة النّجم، الآية 17»¹.

بالإضافة إلى حديث جبريل الذي تقدّم، فهذا التقسيم ليس بدعاً من الصّوفيّة وليس خُروجاً عن النّصوص الدّينيّة أو تليفاً ونقضاً للشّريعة، بل هي تعني الشّريعة والإيمان واعتبار الحقيقة باطن الشّريعة، فكما أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، كذلك للشّريعة ظاهر وباطن، وأنّ هذه الحقائق والأسرار مخفية في رُوح الشّريعة، تتال بالسّير في الطّريق وقطع المراحل والمنازل.

نُكران هذا التقسيم هو فصل ونُكران للجانب الرّوحيّ للدّين الإسلاميّ وهدم لركن ثابت وهام من أركان الدّين، الذي هو ركن "الإحسان"، فعدم الاهتمام بالحقائق المبطنة في الشّريعة والمكنونة في جوارها الذي هو قصد علم التّصوّف، يترتّب عليه تحوّل الدّين إلى مُجرّد طُقوس وشعائر جافة، دون أن تتمثّل في سلوكيات النّاس وأخلاقهم، كما يتحوّل الدّين إلى تماه في أداء الواجبات الدّينيّة والشّعائر الطّقوسيّة دون التّركيز على الثّمرات الخاصّة لكلّ شعيرة.

«ويمكن القول بأنّ الشّريعة هي قبل كلّ شيء قاعدة للعمل القويم، بينما الحقيقة هي معرفة خالصة، لكن يجب أن نعلم بأنّ هذه المعرفة هي التي تُعطي للشّريعة نفسها معناها السّامي والعميق، بل هي التي تُبرز حقاً وجود الشّريعة، بحيث أنّها هي المبدأ المركزيّ للشّريعة مثلها في هذا مثل مركز الدّائرة بالنّسبة لمُحيطها، وإنّ لم يشعر بذلك عامّة المتديّنين»².

وقد تجاوز الصّوفيّة ظاهر الشّريعة وحُدودها واعتباراتها في تقسيم التّكاليف إلى حرام وحلال ومُباح ومكروه، ولم يعتمدوه بينهم، وأبقوا فيه الأحكام تابعة لمُجرّد الاقتضاء بوجهه اقتضاء الفعل، واقتضاء التّرك، وعَلّل الإمام "الشّاطبي" ذلك في مُوافقاته بقوله: «وهذا الاعتبار جرى عليه أرباب الأحوال من الصّوفيّة، ومَن هذا حذوهم ممّن طرح مطالب الدّنيا جُملةً، وأخذ بالحزم والعزم في سلوك طريق الآخرة، إذ لم يُفرّقوا بين واجبٍ ومندوبٍ في العمل بهما، ولا بين مكروهٍ ومُحرّمٍ في ترك العمل بهما، بل رُبّما أطلق بعضهم على المندوب أنّه واجبٌ على

¹ - عبد القادر أحمد عطا، التّصوّف الإسلاميّ بين الأصالة والاقتباس. دار الجيل، بيروت، لبنان. ط 01، 1987. ص: 261.

² - عبد الواحد يحيى، نظرات في التّربية الرّوحيّة. مرجع سابق. ص: 19.

السالك وعلى المكروه أنه مُحَرَّم»¹.

فالسائر في الطريق، وطالب القرب من الحق، لا يُفَرِّق بين الواجب والمندوب، ولا بين المحرم والمكروه، بل تصير عندهم النوافل أعلى سُلَّم الامتثال، بل جعل المتصوفة حديث "قرب النوافل" من أهم الأحاديث القدسية التي جمعت أصول الطريق الصوفي وأوضحت معالم التجربة الروحية التربوية الصوفية، التي تجلّت في صورة النوافل وعلاقتها بـ"المحبة" وآثارها على المحب المتقّل².

فصارت من قواعدهم وأصولهم التربوية التعبدية عدم الركون إلى الرخص، لأنها بالنسبة إليهم مدعاة للوقوع في الشبهات وإتباع الشهوات ومبدأ الزلات وسبباً لانحطاط الفقير السالك عن بلوغ دُرج الحقيقة «وأما العباد الآخرون فعندهم من غليان الشغف، ووجود الحب ما ليس تكفيهم الواجبات بل قلوبهم مُلتقّة إلى الله من عوائق هذه الدار، فلو لم يُحجز عليهم التفتّل بالصلاة في أوقات النهي لسرمدوا الأوقات بها»³.

لقد تميّزت الطرق الصوفية تميّزاً واضحاً ومُغايراً لفهم الآخر للخطاب الشرعي التكليفي، فإذا كان الفقهاء والأصوليون يتعاملون مع هذا الخطاب موقوفاً على الأوامر والنواهي المرتبطة بالمكلف شرعاً، ومدى تحقق وانتفاء الشروط والموانع المحققة أو المانعة لامتثال للفعل، والتركيز على هذه الجوانب المادية الظاهرية، فإن أئمة أهل التصوف والسلوك، تجاوزوا هذه العملية المحصورة بين الامتثال والتّرك إلى الجوانب الجوهرية والروحية وتحقيق المقاصد الباطنية الحقيقية لهذه الأمور الشرعية وإحداث التّكامل بين الظاهر والباطن، بين الفعل وثمره الفعل، فلم يُقصرُوا نظرهم على تعاليم الشرع في حدودها التي نظرها الفقهاء ولم يُقسّموها إلى

¹ - أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة. ج 03. تح: عبد الله دراز. دار المعرفة، بيروت، لبنان. ط 01، 1992. ص: 239.

² - هذا الحديث هو: ((من عادى لي ولياً. فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه: وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه)). رواه البخاري وخرجه في كتاب الرقاق رقم 6502 باب التواضع، 11، ص: 341.

³ - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن. تح: عبد الحليم محمود. دار الكتاب المعرفي، القاهرة، مصر. ص: 67.

فُروضٍ وسُننٍ، بل أطلقوا الأمر إطلاقاً، حين تجدهم يضعون النّوافل في مرتبةٍ أعلى، لأنّها وسيلةٌ للتّقرب من الله ومحبّته.

كما يكمن الاختلاف بينهما أيضاً في طبيعتهما ومقاصد كلّ واحدٍ منهما، فالشّريعة تُوصلها القواعد الدّينية، التّعبدية الشعائرية، وترتسم ضمن حدود وتصورات مؤسّساتية سلطوية دينية وسياسية تُكرّس لأحكامها وتقف على تداولها، وتُعاقب من يخرج عنها ويرفض أطرها. أمّا الحقيقة فتتماهى في التجربة وتخرق حدودها ويبتعد العارف فيها ليحصل على قبسٍ إلهيٍّ لا مُتناه «وإنما وقعت النّفرة بينهما للغلبة في حال العابد والعارف ولَمّا كان العابد يغلب عليه الوقوف مع الأعمال وإتقانها وإخلاصها سَمّيَ صاحب شريعة، ولَمّا كان العارف يغلب عليه حال الحقّ ويرى أنّ جميع ما هو فيه من فضله سَمّيَ صاحب حقيقة، فقد تبيّن أنّ بينهما اجتماعاً وافتراقاً بالاعتبار»¹.

فكُلٌّ من الشّريعة والحقيقة في مسار واحدٍ للسّالك، يُتقن الشّريعة ويتشربها ويُحقّقها، ليعبر لحقيقة أخرى، غير مألوفةٍ، وليست عاديةً، مُحْتَجَبَةٌ وخَفِيَّةٌ لا تُسَلَم ولا تستسلم للتقليد الممارساتي الدّينيّ الجاف الظّاهريّ، السّاكن في المكان والزّمان المرتبط بمنظومة الجزاء والعقاب، والحلال والحرام والجَنّة والنّار، المقبول والمرفوض «وما فعلت الصّوفيّة غير أنّ أخذت نُصوص العقيدة ورسمتها بأحرفٍ من نارٍ، ووظيفة الصّوفيين إذن ما هي إلّا إذكاءٌ للدّين بما يضطرم في نفوسهم من أوار»².

فكُلّ التقاطبات القائمة على أساس الشّريعة والطّريقة والحقيقة، والعرفان والتّجربة الصّوفيّة الرّوحية، من ظاهرٍ وباطنٍ، وخاصٍ وعامٍ وخاصّ الخاصّ وغيرها، تُحاول فيها الشّريعة ومن خلالها تنظيم الخلافة البشرية في الأرض وتطبيق أحكامها، وتوجيه العلاقات بين النّاس أفقياً، ومع الخالق عمودياً خلاف المتصوّفة، الذين يركزون على هذه العلاقة أفقياً وعمودياً، ضمن

¹ - أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية. مصدر سابق. ص: 15.

² - هنري برغسون، منبع الأخلاق والدّين. تح: سامي الدّروبي، عبد الله عبد الدائم. الهيئة المصرية العامة للتّأليف والنّشر، مصر. ط01، 1971، ص: 253.

تجربة عميقة، يستولي عليهم فيها سلطان الحقيقة، فيعيشون حالات من الدّهش والحيرة والقلق والاعتراب، والانصهار والفناء ليحصلوا على المحبة والقرب والحضور، ما لا يطيق مضامينها سوى الخواص، الذين لا ينبغي معاملتهم بمقاييس العموم وليس ثمة ما يُعبّر عنه لغير الذائق والسالك للطريق، المتلبّس بالتّجربة، من خلال مراحلها ومقاماتها، ولا ما يُباح به لغير المخترق بنفسه أسرار الحقيقة العرفانية المدهشة.

ففي الفقه لا يوجد قرب ولا بُعد، ولا حضور ولا غياب ولا ذوق ولا حال ولا فناء ولا تخلية ولا تخلية ولا وجد ولا حياة ولا موت، ولهذا وجدت الطّريقة لقلب الرّؤية ومجال المعرفة والتّحوّل من الفهم إلى الكشف والتّحوّل بالشّعائر من المكان إلى الزّمان ومن الطّقس إلى النّفس ومن أفعال الحواس إلى أفعال الشّعور والوجدان واللّذة عند مباشرتها، فإذا كان الإسلام هو الظّاهر، فالإيمان هو الباطن والإحسان هو باطن الباطن.

قال الإمام "الغزالي": «اعلم أنّ سالك سبيل الله تعالى قليل والمدّعي فيه كثير، ونحن نعرف له علامتان: العلامة الأولى: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشّرع»¹. كما تتجلّى أكثر حقيقة الحقيقة، في خطاب الرّسول ﷺ الحارث بن مالك الأنصاري، أنّه مرّ برسول الله ﷺ له: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ: أَنْظُرْ مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟ فَقَالَ: قَدْ عَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِدَلِكْ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغُونَ فِيهَا. فَقَالَ: يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ ثَلَاثًا².

فإنّ إيمانه بالغيب حقّ وشريعة، وكشفه ووُجْدانه الجنّة والنّار وحقيقة أهلها ورؤية العرش حقيقة وزُهده في الدّنيا وعمله الذي استحقّ به هذه المرتبة والدرجة طريقة، وجمع هذه المراتب

¹ - أبو حامد الغزالي، ميزان العمل. تح: سليمان دنيا. دار المعارف، مصر. ط1964، 01. ص: 399.

² - ابن حجر العسقلاني، مختصر زوائد مسند البزار. ج 01. تح: صبري بن عبد الخالق أبو ذر. مؤسسة الكتب النّقاوية، بيروت، لبنان. ط1992، 01، ص: 75.

جُملةٌ من الشّرع، لأنّ الشّريعة طريقٌ واسعٌ ووصفٌ شاملٌ، يحوي الجميع.

ما سمّى الصّوفيّة علمهم بـ (علم الحقيقة والحقائق)، إلّا تأسياً من لفظ الحقيقة في هذا الحديث «وقد ظهر لي أنّ نسبة علم الحقيقة إلى علم الشّريعة كنسبة علم المعاني والبيان إلى علم النّحو فهو سرّه ومبنيّ عليه، فمن أراد الخوض في علم الحقيقة من غير أن يعلم الشّريعة فهو من الجاهلين ولا يحصل على شيء... والحقيقة سرّ الشّريعة ولبّها الخالص والتّصوّف فقه بلا شك»¹.

فالشّريعة مرتبةٌ أولى، بها يُبنى عليها غيرها، والطّريقة مرتبةٌ وسطى جامعةٌ بينهما والحقيقة ثمرتهما ومرتبة نهائية، فالأصل هي الشّريعة والتي لا تصحّ دون الطّريقة ولا تصحّ الطّريقة بغير الشّريعة، وتصحّ الطّريقة من غير الحقيقة، ولا تصحّ الحقيقة دون الطّريقة فالثلاثة يُكَمّل بعضهم بعضاً، والكمّل الواصلون من استطاعوا جمع هذه المراتب مع بعضها وتحقّقوا منها جميعها، صُعوداً ونُزولاً.

4/- العلاقة بين الشّريعة والحقيقة:

عمد الصّوفيّة إلى الجمع بين الشّريعة والطّريقة كعمل تربويٍّ سلوكيّ أخلاقيٍّ، في إطارٍ مُتكاملٍ ومُتناغمٍ يُكَمّل بعضه البعض، لبناء الفرد والوصول إلى المعاني الحقيقية السّامية للإيمان، والتركيز على الإخلاص الباطنيّ خلف الممارسات التّعبدية، فالفقه يشمل الأحكام التكاليفية العملية والقلبية (فقه الظّاهر والباطن)، فأعمال الجوارح الظّاهرة ليست مقصودة لذاتها بل المعاني الباطنية هي الهدف من هذه الأعمال «اتّحدت المادّة والمعنى والنتيجة واختلّفت اللفظة لا غير، فمن حجه من الصّوفيّة حجاب اللفظة عن أخذ ثمره المادّة والمعنى والنتيجة فهو جاهلٌ، ما اتّخذ الله وليّاً جاهلاً ومن حجه من الفقهاء حجاب اللفظة عن أخذ ثمره ما ذكرناه فهو محرومٌ»².

¹ - جلال الدّين السيوطي، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطّريقة الشاذلية. تح: عبد الله بن مُحمّد الصّدّيق الغماري. المطبعة الإسلاميّة، مصر. 1934، ص: 21.

² - أحمد الرّفاعي الحسيني، البرهان المؤيّد. ج1. تح: عبد الغني نكه مي. دار كتاب النّفيس، بيروت، لبنان. ط01، 1987، ص: 50.

فَلَا مَشَاحَة فِي الْأَلْفَاظِ، وَلَا اخْتِلَافَ عَلَى مُسَمِّيَاتِهَا، بِقَدَرِ نَيْلِ الثَّمَرَةِ الْمَقْصُودَةِ مِنْ التَّحَقُّقِ الْفَعْلِيِّ بَيْنَ الْفَقْهَيْنِ الظَّاهِرِيِّ وَالْبَاطِنِيِّ، بَيْنَ الْمَرْسُومِ مِنَ الْهَيْئَاتِ الظَّاهِرَةِ لِلشَّرْعِ وَالْمَقْصُودِ مِنْهَا عِنْدَ التَّحَقُّقِ بِالْمَعْرِفَةِ، فَالطَّرِيقُ الصَّوْفِيّ هُوَ التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ لِلشَّرِيعَةِ بِشَقِّيْهَا وَآثَرُوا الْعَمَلَ بِالْعَزَائِمِ عَلَى الرَّخْصِ، خَوْفًا وَتَحَرُّزًا مِنَ التَّوَسُّعِ فِيهَا وَاهْتِمَامًا أَكْثَرَ بِالْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، مِنْ صَبْرِ وَتَوَاضُعٍ وَمُرَاقَبَةٍ وَخَوْفٍ وَمَحَبَّةٍ، وَحَادَ تَرْكِيزَهُمْ عَنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ مِنْ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ وَزَوَاجٍ، إِذْ تَكْفُلُ بِمُرَاعَاتِهَا وَالتَّأْصِيلِ لَهَا وَتَبْوِيبِهَا وَمَعْرِفَتِهَا الْفَقْهَاءُ «فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرِيعَةَ عَلَى مَا قِيلَ: اسْمُ مَوْضُوعٍ لِلْسَّبَلِ الْإِلَهِيَّةِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أُصُولِهَا وَقُرُوعِهَا، وَرُخْصِهَا وَعَزَائِمِهَا، حَسَنُهَا وَأَحْسَنُهَا، وَالطَّرِيقَةُ عَلَى الْأَخْذِ بِأَحْوَطِهَا وَأَحْسَنِهَا وَأَقْوَمِهَا، وَكُلُّ مَسْلُوكٍ يَسْلُكُ الْإِنْسَانُ أَحْسَنَهُ وَأَقْوَمَهُ يُسَمَّى طَرِيقَةً، قَوْلًا كَانَ أَوْ فِعْلًا، صِفَةً كَانَ أَوْ حَالًا وَأَمَّا الْحَقِيقَةُ فَاثْبَاتٌ وَجُودِ الشَّيْءِ كَشْفًا وَعَيَانًا أَوْ حَالَةً وَوُجْدَانًا»¹.

الصّوْفِيَّةُ يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمُ الْقَائِمُونَ عَلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْحِمَاةَ لَهُ، بِمَعْنَاهِ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يَتَجَاوَزُ مُرَاعَاةَ الْمَظَاهِرِ الْخَارِجِيَّةِ (الشَّعَائِرِ) وَالْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ، فَوَضَعُوا حُدُودَ أَحْكَامِ الْبَاطِنِ وَأَصْلَحُوا لِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَعَدَّوْا ذَلِكَ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، بَلْ جَوْهَرُهُ وَأَسَاسُ الْفَقْهِ الْحَقِيقِيِّ، فَكُلُّ شَرِيعَةٍ وَشَعِيرَةٍ غَيْرِ مُشْبَعَةٍ بِرُوحِ الْحَقِيقَةِ فَلَا قِيَمَةَ لَهَا «فَعَيْنُ الشَّرِيعَةِ عَيْنُ الْحَقِيقَةِ، وَالشَّرِيعَةُ حَقٌّ وَلِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةٌ، فَحَقُّ الشَّرِيعَةِ وَجُودُ عَيْنِهَا، وَحَقِيقَتُهَا مَا تَنْزِلُ فِي الشُّهُودِ مَنْزِلَةً شُهُودَ عَيْنِهَا فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ فَتَكُونُ فِي الْبَاطِنِ كَمَا هِيَ فِي الظَّاهِرِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ»².

فَحَقِيقَةُ الشَّرِيعَةِ اسْتَوَاءُ ظَاهِرِ الْمَرْءِ وَبَاطِنِهِ، عِلَانِيَتُهُ وَسِرِّيَّتُهُ، مِنْ خِلَالِ التَّجَلِّيَّاتِ الْقَلْبِيَّةِ وَتَأَثِيرَاتِهَا عَلَى الْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ وَالسَّلُوكَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَإِعَادَةِ قِرَاءَةِ وَبَعَثِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعَثًا رُوحِيًّا أَخْلَاقِيًّا، تَنْجَسِدُ فِي وَاقِعِ الْإِنْسَانِ وَذَاتِهِ، بِالتَّركِيزِ عَلَى الدَّخْلِ بَدَلَ الْخَارِجِ وَالْبَاطِنِ بَدَلَ

¹ - حيدر الأملي، أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة. دار الحجة البيضاء، بيروت، لبنان. ط 01، 2012، ص:

² - ابن عربي، الفتوحات المكية. ج4. مصدر سابق. ص: 287.

الظّاهر وأعمال القلوب على أعمال الجوارح والأخلاق على الفقه.

لقد وَحَّد الصّوفيّة بين الالتزام بالأحكام الشرعيّة والتّقيد بها والعمل بمقتضاها وبين الجوانب السلوكيّة المعتمدة في عمليّات المجاهدات والرياضات الممارسة في التّربية الصّوفيّة، بِمُختلف طُرُقها، في إطار تكامليٍّ واحدٍ فَعُلُوم الحقيقة تشمل الرّسوم والأوضاع الّتي تُعبّر عن ظاهر الأحكام وتجرى على الجوارح، لِتُساعد على أن يتحوّل من مُؤمنٍ إلى مُحسنٍ مُوقنٍ ينظر بِنُور الله، فَمَنْ عَمِلَ بما علم ورثه الله عِلْمَ ما لم يكن يعلم وَمِنْ أكبر المغالطات الّتي ذاعت تزيفاً، دعوى الفصل بين الشّريعة والحقيقة، أو دعوى التّملّص من التّكاليف الشرعيّة ورفّعها عمّن وصل إلى مقام رفع التّكاليف عنه، وَقَدْ حذّر الصّوفيّة من هذه الانحرافات، وبَيَّنوا زيفها وبُطلان أصحاب دعاويها «وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَامَّةَ مِنْ عُلَمَاءِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَالْمَشِيرِينَ إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ النِّهَايَاتِ لَا تَصَحُّ إِلَّا بِتَصْحِيحِ الْبَدَايَاتِ كَمَا أَنَّ الْأَبْنِيَةَ لَا تَقُومُ إِلَى عَلَى الْأَسَاسِ، وَتَصْحِيحُ الْبَدَايَاتِ هُوَ إِقَامَةُ الْأَمْرِ عَلَى مُشَاهَدَةِ الْإِخْلَاصِ وَمُتَابَعَةِ السَّنَةِ»¹.

صلى الله عليه وسلم

فَالْأَصَحُّ الَّذِي لَا يُنَاقَشُ وَلَا يُرَدُّ، هُوَ الشّريعة المتمثّلة في كتاب الله وسُنّة رسوله

وَإِسْتِنَادًا إِلَيْهِ يُفَرَّقُ بَيْنَ صَحِيحِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ مِنْ زَيْفِهَا، وَكُلِّ تَجْرِبَةٍ وَمَعْرِفَةٍ وَتَرْبِيَةٍ خَالَفت في مضمونها أو مدلولها قواعد الشّريعة فَهِيَ باطلةٌ مردودةٌ على صاحبها، وَهَذَا الَّذِي أَقَرَّ بِهِ مَشَايخُ وَأَكَابِرُ الصّوفيّة في مُؤلّفاتهم كـ"أبي القاسم القشيري" في رسالته، و"أبي طالب المكي" في (فُوت القلوب) و"الطّوسي" في (اللمع) و"الكلاباذي" في (التّعريف)...، قد أجمعوا على أنّه «لَا بَدَّ فِي الْاِقْتِدَاءِ بِالصّوْفِيِّ مِنْ عَرْضِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ عَلَى حَاكِمٍ يَحْكُمُ عَلَيْهَا: هَلْ هِيَ جُمْلَةٌ مَا يُتَّخَذُ دِينًا أَمْ لَا؟ وَالْحَاكِمُ هُوَ الشَّرْعُ وَأَقْوَالُ الْعَالَمِ تَعْرُضُ عَلَى الشَّرْعِ أَيْضًا. وَلَمْ يَنْتَبِ فِي طَرِيقِهِمْ اتِّبَاعُ الرِّجَالِ عَلَى انْحِرَافٍ، وَحَاشَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ»². وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي قِصَصِ كَثِيرَةٍ مَرْبُوبَةٍ عَنْ مَشَايخِ

¹ - عبد الله الأنصاري الهروي، منازل السائرين. دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان. 1988، ص: 06.

² - أبو إسحاق الشّاطبي، الاعتصام. ج02. تح: مُحَمَّد رشيد رضا. المكتبة التّجارية الكبرى، القاهرة، مصر. دت. ص: 349-

الصوفية¹.

قال "الجنيد": الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ عليه وآله وسلم: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في مثل هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة².

فلا صحة للطريق الصوفي دون التقيد بهذين الأصلين، ولا استغناء لهم بعلمهم ولا بعملهم عن الكتاب والسنة، بل إن علماء الصوفية على مر العصور والأزمنة امتازوا بنظرتهم ثلاثية الأبعاد معرفياً، بجمعهم بين الفقه والحديث والتصوف، كـ"الجيلي" و"الهروي" و"العز بن عبد السلام" و"الشعراني" و"السيوطي" و"المغيلي" و"الثعالبي"³... بل اشتراطوا العلم بالفقه والحديث قبل سلوك الطريق، وما أحلى قول "البسطامي طيفور بن عيسى أبو زيد" حين قال: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنتظروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ حدود الشريعة»⁴.

فالتمسك بمرسوم الشريعة وأحكامها فرض لازم للمريد والسالك، ومن أخل به هلك من حيث يطلب النجاة فالشريعة شعار كل حقيقة، بل هي الوسيلة الأساسية لإدراك الحقائق الإلهية

¹ قال "أبو يزيد البسطامي" (ت 261هـ) لأحد جلسائه: فم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مشهوراً بالزهد، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب الرسول ﷺ يكون مأموناً على ما يدعيه. ينظر: جلال الدين السيوطي، مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة. تح: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1، 1987، ص: 90.

² المصدر نفسه. ص: 89.

³ عبد الرحمن الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، أبو زيد: صوفي، من كبار المفسرين واعيان الجزائر وعلمائها، ولد ونشأ بناحية يسر بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر، وتعلم في بجاية وتونس ومصر، ودخل تركيا، ثم حج، وعاد إلى تونس سنة 819 هـ، ومنها إلى الجزائر، وولي القضاء على غير رضى منه، ثم خلع نفسه، له أكثر من تسعين كتاباً منها: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" في التفسير، و"روضة الأنوار ونزهة الأخيار" في الفقه، و"جامع الهمم في أخبار الأمم"، و"جامع الأمهات في أحكام العبادات"، و"رياض الصالحين"، و"الإرشاد في مصالح العباد"، و"إرشاد السالك"، وغير ذلك، توفي في 23 رمضان المبارك سنة 875 هـ ودفن بجبانة الطلبة في مدينة الجزائر. وعادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. مؤسسة نويهض الثقافية. بيروت، لبنان. ط2، 1980. ص: 90 - 91.

⁴ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء. ج13. تح: شبيب الأرنؤوط علي أبو زيد. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. ط11، 1998، ص: 88.

والمعرفة اللّدنيّة الباطنيّة الحقيقيّة، فالشّريعة طاعةٌ والحقيقة معرفةٌ والحقيقة هي لبّ الشّريعة وجوهرها، وهي كالروح بالنّسبة للجسد، فالشّريعة بلا حقيقة جسد بلا روح والحقيقة بلا شريعة روح بلا جسد، وقيام الواحد دون الآخر محال، فظاهر الحقيقة بلا باطن نفاق، فشرف الغاية يقتضي شرف الوسيلة، ولا غاية أشرف من معرفة الله حقّ معرفته وتتبوير القلب والزّهد في الدّنيا وبلوغ التّوحيد التّام والعبوديّة الحقّة، ولا وسيلة أشرف وأتمّ لبلوغ هذه المقامات ممّا شرّعه الله ووضّحه رسوله، ولا يصحّ ذلك إلّا بانتهاج الطّريق الصّوفيّ "المعراج الرّوحي"، الذي لا يستقرّ فيه على مقام أو درجة في سلوك التّربية، تجيز لصاحبها التحلّل منها، بدواعي أنّ من وصل إليها صار حرّاً.

«فأمّا المستقيمون من السّالّكين كجُمهور مشائخ السّلف، مثل الفضيل بن عياض (187هـ)، وإبراهيم بن أدهم (166هـ)، وأبي سليمان الدّاراني (205هـ)، ومُعرف الكرخي (201هـ)، والسّري السّقطي (251هـ)، والجنيد بن مُحمّد (298هـ) وغيرهم من المتقدّمين، ومثل الشّيخ عبد القادر (561هـ)، والشّيخ حمّاد (525هـ)، والشّيخ أبي البيان (ت 551هـ) وغيرهم من المتأخّرين فهُم لا يسوغون للسّالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنّهي الشّرعيّين بل عليه أن يفعل المأمور، ويَدع المحظور إلى أن يموت»¹.

5- الطّريقة وعلاقتها بالشّريعة والحقيقة:

لا يُمكن أن نتحدّث عن الشّريعة والحقيقة دون ذكر مفهوم مُرافقٍ ومُكمّلٍ لهما، وهُو الطّريقة الّتي يتّخذ معنى سلوكيّاً وإجرائيّاً أكثر منه مفهوميّاً، فالطّريقة هي السّيرة المختصرة بالسّالّكين إلى الله من قطع المنازل والتّرقّي في المقامات، فالطّريقة هي البرزخ الفاصل بين الشّريعة والحقيقة، وهي الوسيلة والسّبيل الذي ينتهجه السّالك قصد بلوغ مراتب الحقيقة من خلال إصلاح السّرائر الباطنيّة «فالشّريعة لإصلاح الظّواهر والطّريقة لإصلاح الضّمائر

¹ - ابن تيمية، مجموع الفتاوى. ج10. دار الوفاء المنصورة، القاهرة، مصر. مج 05، ط01، 1997، ص: 293.

والحقيقة لتزيين السرائر»¹.

فشرط بلوغ الحقيقة معقوداً على الوقوف على الأحكام الشرعية ثم التمسك بالطريقة المؤدية للوصول إلى هذه الحقائق عبر السير من الشريعة إلى الحقيقة، أي: طريق الوصول إلى الله هو هدف سفر المتصوفة كلهم، ولا يتم ذلك إلا بقطع المعراج الروحي والتربوي واجتياز مختلف المراحل والمقامات والمنازل التي وضع معالمها شيوخ الطرق الصوفية والتي تتضمن جميع الممارسات والسلوكات العملية والأخلاقية الكفيلة بتحقيق التطهير الظاهري والباطني من آداب وأذكار ومجاهدات وتأمل وتفكير، تساعد المريد السالك على النفاذ إلى حقائق الشريعة الظاهرية وأسرار الشعائر التعبدية.

وعلى هذا يجب على كل سالك أن يستوعب «بأن الشريعة في الحقيقة، بعيداً أن تطرح جانباً، ينبغي بالعكس أن تتجوهراً بمقدار مناسب للدرجة التي يبلغها السالك، لأنه يصبح مؤهلاً أكثر فأكثر لفهم أصولها وعللها العميقة، وبالتالي فإن تقريراتها وأحكامها وشعائرها تكشف له عن دلالات أكثر أهمية وعمفاً عن تلك التي يفهمها مجرد عالم بظاهرها دون أن تكون له قدم في طريق التصوف»².

فالحقيقة كامنة في الشريعة، والطريق الصوفي وحده القادر على بلوغها بما يمتلكه من أساليب تربوية ومناهج تخلقية قادرة على تحقيق السمو الروحي والكمال الإنساني والتحقق الكامل ظاهراً وباطناً، والتدرج من مقام الإسلام إلى مقام التصوف والإحسان، كما أنها تراعي استعدادات السالكين وتتكيف حسب تموقعات كل مريد ووفق تنوع طبائعهم الفردية لتسليكمهم والبلوغ بهم إلى التوحيد التام والعبودية الحقّة، وما الطريقة في الحقيقة إلا علم عملي يرتكز على المجاهدات والرياضات والترقي في الأحوال والمقامات، لخلق روح جديدة سامية في هذه الشعائر والطقوس التعبدية والأحكام الفقهية، والاتجاه بها من قوالبها الظاهرة المرتبطة بأفعال

¹ عبد الله أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف. تح: عبد المجيد خيالي. مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب. (د.ط)، (د.ت). ص: 72.

² عبد الواحد يحي، التربية والتحقق الروحي: تصحيح المفاهيم. مرجع سابق. ص: 51.

الجوارح إلى معانيها القلبية الباطنية فالشّريعة إطارٌ حامٍ ومُوجّه والطّريقة نواةٌ ومركز الشّريعة. «وعلم الباطن لا يشتمل على الحقيقة فقط، وإنّما يشمل أيضًا السّبل الموصلة إليها، وجُملة هذه السّبل هي المسمّاة بـ"الطّريقة" أي "المسار" أو "المسلك" الذي يقوده من الشّريعة إلى الحقيقة، وإذا رجعنا إلى الصّورة الرّمزية للدّائرة، فالطّريقة تُمثّل بالشّعاع الذّاهب من مُحيطها إلى مركزها، وسنرى حينئذٍ أنّ لكلّ نقطةٍ من المحيط شعاعها وأنّ كلّ الأشعة التي لا يُحصى عددها تنتهي إلى المركز على السّواء»¹.

وبقاء المريد السّالك على مُحيط الدّائرة وقناعاته بذلك وتوقّفه عند هذه الحياة الظّاهرية وبَقائه في هذا النّطاق وحده خيانة وتُكوس لطبيعة الفرد ذاته، لأنّ مُبررات وحُكم خلقه الأسمى هو (السّفر) من مُحيط الدّائرة (الشّريعة) و(الظّاهر) إلى مركزها (الحقيقة) و(الباطن) وعودة الرّوح إلى أصلها الحقيقيّ العلويّ التّورانيّ، وانعتاقها وتحرّرها الكامل.

فالتّزمت الشّريعة بتحديد وتأصيل أُسس الأعمال الظّاهرة وإحكامها، وتحمّلت الطّرق الصّوفيّة ما يرتبط بالأعمال الباطنة بانتهاج مسلك خاصّ ودقيق في التّربية، يتولّد فيه صفاء وإنجلاء القلب وقُبُولٌ وصَلاحُ العمل، وتكشف للحقائق الكونية والإلهية.

فليس كلّ عالمٍ بفقهِ الأحكام الشّرعية وأصول التّكاليف التّعبديّة، مُوقّفٌ في توظيفها على الوجه المطلوب حقيقةً وإخلاصًا وقُبُولًا، فعُلماء الشّريعة يُوجّهون علمهم لضبط وتصحيح صُور الأعمال، بينما عُلماء الطّريقة يُنشدون تصحيح وسائل قُبُولها وتحقيق الإخلاص فيما عند الله تعالى.

وهذا يجعل من عالم الطّريقة الدّالّ عليها، عالمًا بأحكام الشّريعة أولًا، ليصحّ عنده تعلّم وتعليم كفايات إقامتها على أوجهها الشّرعية الصّحيحة، وبلوغ مقاصدها الباطنية «فالواجب على العارف أن تكون له عينان: عينٌ تنتظر لعالم الجمع، وهو مقام الفناء فلا يرى إلّا الحقّ مُتجليًا باسمه الظّاهر، وهذا هو الحقّ في عين الحقيقة، وعينٌ تنتظر لعالم الفرق وهو نتيجة سعيه الباطن، فيثبت الفرق في عين الجمع والشّريعة في عين الحقيقة، فيثبت الحكمة والأحكام

¹ - عبد الواحد يحيى، التّصوّف الإسلاميّ المقارن. مرجع سابق. ص: 19.

ويُسمّى هذا المقام مقام البقاء، فيكون كاملاً مجموعاً في فرقه مفروقاً في جمعه يُعطي كلّ ذي حقّ حقه ويوفي كلّ ذي قسطٍ قسطه»¹.

فما الطريق الصوفيّ إلاّ شريعة بذوقٍ، أو إتّحاد الظاهر بالباطن، وإتّباع العلم بالعمل الواعي الممنهج بالسير والسلوك نحو المعرفة الربّانية، وفق خطة واضحة تعتمد على إقامة ناموس العبودية عبر السفر من عالم الخلق إلى عالم الحقّ، ومن عالم الأحكام المجردة إلى عالم الحقيقة الثابتة، ومن عالم التّخيّلات إلى عالم التّجليات.

ومن هذه كلّه تأتي قيمة الطريقة، فإذا كانت الشريعة مخصوصة بالعبادة والحقيقة بالمشاهدة فالطريق هو القصد بينهما، والقصد هنا قصدان: الأوّل كما ذكرنا هو السفر من الظاهر إلى الباطن، من الشريعة إلى الحقيقة، من الحسّ إلى الله والثاني هو القصد التربويّ الأخلاقيّ المعرفي، من خلال تغيير الصّفات البشرية وتحويلها داخلياً بعد تحليلتها وتخليتها، وإعادة خلقها من جديد خلقاً يهيئ لها تلقّي المعارف والكشوفات والفيوضات الرّحمانية، ويحقّق نموذج الإنسان الكامل الرّبانيّ، يتمثّل فيه أسمى معاني "الاستخلاف" ولبلوغ هذا المقام الرّفع، والإيمان التّام والإنسان الكامل ونموذج الاستخلاف الحقّ، وجب سلوك الطريق الصوفيّ والتّركي التّام للمقامات، بصُحبة الشيوخ المرشدين الموجهين، فهم الجسر الموصل من الشريعة إلى الحقيقة.

المبحث الثاني: تأصيل الطريقة الصوفية تاريخياً

ركّز الباحثون على طبيعة التجربة الصوفية وتكوّنها وطرق تبلورها وخصوصياتها ومدى تأثيرها وتأثيرها في الأفراد وتجسّد كسلوكات اجتماعية في مجتمعاتهم وأهم المراحل التي مرّت بها والأطوار التاريخية التي اجتازتها، فمن الصّعب إحداث فواصل زمنية صارمة ومحدّدة بين حركتي الزهد والتّصوّف في الإسلام، فتداخل التّطوّرات الفكرية وتقاطعها، لا يساعد على إجراء

¹ - ابن عجيبة الحسني، شرح نونية الششتري. تح: محمّد العدلوني الإدريسي. دار الثقافة، الدّار البيضاء، المغرب. ط 01، 2013. ص: 68.

تحددات قاطعة يُمكن من خلالها فكّ الارتباطات وتحديد الأصول «فالزّهّاد والعبّاد والمقرّبين، والصّوفيّة هي أسماء وصفات لمسمّى واحد وموصوف واحد فتعدد الأسماء لا يعني تعدد المسميات ما دامت توصيفاتها هي هي، وإنّما اختلفت التسميات تبعاً للظرفيّة التاريخيّة التي عاش فيها هؤلاء المتحقّقون بهذه التّوصيفات»¹، وما كان لهم أن يفاضلوا هذه التسميات عن فضيلة الصّحبة أو التابعين وتابعي التابعين في الصدر الأوّل من الإسلام، وما ظهر هذا المصطلح إلّا بعد ظهور الفرق واختلافها، واتّخاذ كل واحدة منها لمنهج وخطاب يميّزها عن غيرها من الفرق، فالسلوك الزّهدي الصوفي موجود على مستويات الممارسة منذ البدايات الأولى للإسلام ونزول الوحي «في هذه المرحلة كان أغلب المسلمين أهل دين وزهد، بحيث لم تكن هناك حاجة إلى أن يطلقوا عليهم اسماً خاصاً لتمييزهم عن الآخرين... وبعد عهد الخلفاء الأربعة ولا سيما في أواخر القرن الأوّل حيث كان أغلب النّاس منشغلين بشؤون الدّنيا، سمّوا طائفة من الخواص الذين كانوا يعنون بأمر الدين: الزّهّاد والعبّاد»². واختصّ هؤلاء الزّهّاد والعبّاد بعد ذلك باسم الصّوفيّة، والذي كان متضمناً في معاني ومسميات قرآنيّة بصيغ ودلالات أخرى، كالصادقين والقانتين والخاشعين والمخبتين والأبرار والمقرّبين... وقد أقرّ السهروردي صاحب عوارف المعارف بأنّ سماتهم وصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم هي أحوال الصّوفيّة «واعلم أنّ كلّ حال شريف نعزوه إلى الصّوفيّة في هذا الكتاب هو حال المقرّب، والصّوفي هو المقرّب... فمشايخ الصّوفيّة الذين أسماؤهم في الطبقات وغير ذلك من الكتب كلّهم كانوا في طريق المقرّبين وعلومهم علوم أحوال المقرّبين... فإذا تحقّق بحالهم صار صوفيّاً»³.

بدأت حركة التّصوّف وجودها الجنينيّ، ببدء حركة الزّهد خلال القرن الهجريّ الأوّل (السّابع الميلاديّ)، فقد ظهر في هذه المرحلة شخصيات مرموقة في المجتمع العربيّ الإسلاميّ، سلكت

¹ - محمد حفيان، الأُمالي المطبوعة لمقياس التّصوّف الإسلامي . كلية العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، جامعة سعيدة . 2014/2015. ص: 34.

² - قاسم غني، تاريخ التّصوّف الإسلامي. تر: صادق نشأت. دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا. ط 01، 2017، ص: 31.

³ - شهاب الدّين أبي حفص عمر السهروردي، عوارف المعارف. مصدر سابق. ص: 24.

مسلك الزّهد، وَحَصَرَتْ طاقاتها في نشاط العبادة لله، على الرّغم من تفسير البعض لها بأنّها نتاج أحداث مُعيّنة في تلك الفترة الزّمنية، وبأنّها مثّلت ظاهرةً اجتماعيّةً تجلّت بهذا الشّكل المعين تعبيرًا عن موقفٍ سياسيٍّ سلبيٍّ حيال مُجمل الأحداث التي كانت تَهزُّ المجتمع العربي¹. فَبَذَرِ التّصوّف الأولى التي سادت العالم الإسلاميّ، ترجع أساسًا لحالات الشّعور بِالخبيّة والميل عن الأصول الشرعيّة النّبويّة التي كانت في عصر الوحي والقرون الخيرة بعده، وإحساسهم بِعقاب الله وَخوفهم من عذابه وإنتقادهم للنّاس لاهتمامهم الرّائد بِالْحَيَاةِ الدّنيا وَمَتاعها المادّيّ، خاصّةً بعد امتداد خريطة العالم الإسلاميّ وَتوسّع الحضارة العربيّة الإسلاميّة وإزدياد الفتوحات، على حساب الحياة الأخرى، وَلَمْ تَنشَأْ هذه الحركة الزّهدية فقط حسب رأي "حسين مروة" كمواقفٍ وَرَدَاتٍ فعلٍ سياسيّةٍ واجتماعيّةٍ، رافضةً لِلِسُلْطَةِ الأمويّة والأحداث التي نتجت عنها فيما بعد، بل تأسّست «كَنَظَامٍ مِنَ النّظَم: تشكّلت في الحياة العمليّة على هيئة طرق وَطرائق يعمل أفرادها على غرس التّصوّرات الصّوفيّة لِلدّين والدّنيا، وقد ارتبط أفرادها شيئًا فشيئًا في جماعاتٍ مُنذ زمن بعيدٍ حوالي سنة 150 هـ»².

بدأ النّاس يسمّي هؤلاء النّسّاك والعبّاد بِمُسمّيات عديدة كـ"القرّاء" و"البكّائين"...، ثُمَّ أُطلقَ لفظ "الصّوفيّ" بادئ الأمر مُرادفًا لمُصطلحات الزّاهد والعابد والفقير، التي كانت في مُجملها تدلّ على اهتمام أصحابها وَشِدّة عنايتهم بِأُمُور الدّين وَمُراعاة أحكام الشّريعة وَزُهدهم في الدّنيا بِالْكَلِيّةِ وَابْتِعَادهم عن ملذّاتها وشهواتها وَتفويض أمرهم لله.

وبدايةً من مُنتصف القرن الثّالث الهجريّ بدأ المتصوّفة يعملون على تنظيم أنفسهم في طوائف وَطُرُق مُحاولَةً كُلّ واحدةٍ منها خلق نظامها الخاصّ بها، تفرضه على أتباعها والأفراد المريدين لديها، وَكَانَ قِوام هذه التّشكيلات الجديدة، شيخٌ وَعالمٌ وَعاملٌ مُرشدٌ مُوجّهٌ لِمُجموعةٍ من المريدين الذين اجتباهم وَخَيّرهم يُحاول تعليمهم وَتبصرتهم بِأُمُور أخراهم وَجاءت تسميات هذه

¹ - حسين مروة، النّزعات الماديّة في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة. ج3. مرجع سابق. ص: 49. ومُحمّد عابد الجابري، العقل الأخلاقيّ العربيّ. مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان. ط1، 2001. ص: 430.

² - جولد تسيهر، العقيدة والشّريعة في الإسلام. تر: مُحمّد يوسف ومُوسى وآخرون. الهيئة العامّة لِشُؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، مصر. 2013، ص: 163.

الطرق الأولى بأسماء شيوخها و «يعود ظهور الطريقة الصوفية بالمشرق الإسلامي إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع ميلادي، حيث نجح الصوفية بالعراق ومصر توفير مناخ رُوحِيّ جذب إليهم المريدين الذين أخذوا مبادئ الطريقة ومسالكها عن شيوخها، ومن الطرق التي ظهرت مبكراً السقراطية نسبة لـ"سري السقراطي" (ت 251هـ - 865م)، والبسطامية نسبة لـ"أبي يزيد طيفور البسطامي" (ت 261هـ - 874م)، والقصارية أو الملاماتية لـ"أبي حمدون القصار" (ت 271هـ - 880م) والخرازية إلى "أبي سعيد الخراز" (ت 279هـ - 892م) والنورية لـ"أبي الحسين أحمد النوري" (ت 295هـ - 907م)، والجنيدية إلى "أبي قاسم الجنيد" (ت 297هـ - 909م)»¹.

لكن هذه الطرق كانت محدودة الأتباع، مُقتصرة على الشيخ وبعض مريديه الخاصين كما أنها كانت تفتقر لهيكلية مُحددة وإلى تنظيم مؤسسي، كما بلغت الطرق الصوفية بعد ذلك ثم دخلت الطرق الصوفية منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي مرحلة جديدة من التطور الفكري والتنظيمي بفضل المصنفات الصوفية وآراء أصحاب النظرية والتنظيمية وأبرزها أفكار "أبي طالب المكي" (ت 386هـ - 978م) في قوت القلوب، ثم "أبو القاسم القشيري" (ت 465هـ - 1076م)، في رسالته في علوم التصوف ورجال الطريقة، فوضع قواعد السلوك الصوفي ومراحل التربية الصوفية، وفصل في المقامات والأحوال، ليأتي الدور بعد ذلك "على أبي حامد الغزالي" (ت 505هـ - 1111م) مع إحياء علوم الدين وغيرها، ليفصل منهجاً علمياً مُحكماً أضحى النموذج المحتذى به لدى كل المتصوفة.

فكان التصوف في هذين القرنين خاصة، أي الثالث والرابع الهجريين، التاسع والعاشر الهجريين، أقرب إلى المنهج التربوي الزهدي الأخلاقي، يميل أكثر إلى أنواع التصوف السلوكي الفردي، ولم يتبلور في مؤسسات منظمة اجتماعياً، وإنما تمثلت في تعليم وآداب وتمثلات يتخذها الشيخ الصوفي القدوة، تجسيداً لنظريته وإعتقاداته في سلوكات ذاتية شخصية، وتطور بعدها بين أقطاب التصوف المذكورين كالسقراطي والخراز والجنيد وغيرهم في تجمعات للمريدين حولهم، من أجل تربيتهم وتركيتهم، فشكّلت بذلك البوادر الأولى والنواة الأساسية لتكون الطرق

¹ - الهجويري، كشف المحجوب. ج2. مصدر سابق. ص: 403.

الصّوفيّة في الإسلام.

1/- إرهابات صوفيّة:

من السيّاقات المختلفة التي صاحبت التّطوّر الاصطلاحيّ والفكريّ للمناحي الرّهديّة إلى التّصوّف، التّحوّل التّدرجيّ للمصطلحات والتّسميات من الرّهد إلى التّصوّف، فتاريخياً أكّدت مصادر كثيرة على إطلاق كلمة "صوفي" على كثيرين من الرّهّاد، كما سمّى بعضهم حركة الرّهد بـ"التّصوّف" قبل أن يصير الرّهد بمفهومه التّقليديّ الأوّل، تصوّفًا بشكله النّظريّ الفلسفيّ، والبعد العرفانيّ، أو بشكله الطّرقيّ، فلم يبق الرّهد مُقتصرًا ومُتسمًا بالطّابع السلوكيّ العمليّ، بل استغرق بعدها جوانب كثيرة ومتشعبة ومتعلّقة بالمعرفة والحديث عن المقامات والأحوال ووحدّة الشّهود وعلوم الحقائق والمكاشفات فتشكّل طورٌ آخر ومرحلة أخرى من مراحل التّصوّف انتقل فيها من العبادة الخالصة والخوف من الله إلى المعرفة الذّوقية الكشفية و«اتّجهوا إلى الكلام عن معانٍ لم تكن معروفة من قبل، فتكلّموا عن الأخلاق والنّفس والسلوك مُحدّدين طريقًا إلى الله يترقّى السّالك له فيما يعرف بالمقامات والأحوال وعن المعرفة ومناهجها والتّوحيد والفناء والاتّحاد والحلول ووضعوا القواعد النّظرية لهذا كلّ، كما حدّدوا رسومًا عمليةً مُعيّنة لطريقتهم وأصبحت لهم لغة رمزية خاصّة لا يُشاركهم فيها سواهم»¹.

وشهد القرن الخامس الهجريّ نشأة عدّة طرقٍ صوفيّة لا تزال امتداداتها وفروعها قائمة إلى يومنا هذا في كلّ بقاع العالم العربيّ والإسلاميّ، كالطّريقة القادرية أو الجيلانية والرّفاعية والأحمدية والشاذلية وقد تشكّلت هذه الطّرق من خلال اتّخاذ شيخ الطّريقة المؤسّس لها بعض المريدين، الذين يخضعون لنظامٍ منهجيّ دقيقٍ في التّسليك والمجاهدات والتّرقّي في قطع المقامات والأحوال كما يحيون حياة جماعية، يعقدون خلالها مجالس للعلم والذّكر بصورة دورية مُنظمة، فالنّصق مفهوم "طريقة".

فالتّجربة الصّوفيّة في الجزائر وتجليّاتها وامتداداتها التّاريخيّة، مُرتبطة كثيرًا بتاريخ التّصوّف ونشأته عُمومًا، مشرقًا ومغربًا، رغم ارتباطها أكثر بالمغرب العربيّ تاريخيًا وجُغرافيًا، فكيف

¹ - أبو الوفا الغنيمي التّقازاني، مدخل إلى التّصوّف الإسلاميّ، مرجع سابق. ص: 95.

تشكل تاريخياً ودينياً، وإستطاع أن يتعايش مع تعابير التدين في مجتمعاتها -الدين الرسمي- أو الخاضع للمؤسسات الرسمية، فالسؤال الذي يفرض ذاته هنا، ونحن بصدد تحديد تطورات ظهور هذا الموروث في الجزائر وانتشاره، وترسخه، متى وكيف ولماذا استطاع أن يؤطر نفسه دينياً واجتماعياً وحتى سياسياً في ظل الخطابات القديمة وأشكال التدين التي كانت متجذرة أفقياً وعمودياً في مجتمعاتها، وما هي أهم المراحل التي مرت بها هذه التجربة، ووصولاً إلى التصوف الطرقي المؤسس والمهيكل كما هو عليه الآن.

2/- الحركة الصوفية في المغرب الأوسط وأسباب انتشاره:

تشير أهم المؤلفات التي أرخت للتصوف في مغربنا الأوسط، أن بداية تحقيقه ترجع إلى بدايات القرن السادس الهجري/ 12م، في أواخر الدولة الحمادية (500-547هـ / 1006-1152م) فـ"الغبريني" (ت 704هـ / 1306م) استهل مؤلفه الكبير "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" عن أعلام وأقطاب الصوفية الذين عاشوا في القرن 6هـ/ 12م، وهم: "أبو مدين شعيب" (ت 594هـ / 1197م)¹ و"أبو الحسن علي المسيلي" أواخر القرن 5هـ/ 12م و"عبد الحق الإشيلي" (ت 581هـ / 1185م) والأمر نفسه مع "ابن فنفذ القسنطيني" (ت 810هـ / 1407م) في (أنس الفقير وعز الحقير) وصدر لكتابه "بأبي مدين شعيب"².

وقد استحکمت الطرق الصوفية وتجدرت في المجتمع الجزائري وأصبح يُطلق عليه (تصوف

¹ - الشيخ سيدي أبو مدين شعيب : هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الإشيلي، وكُنِيته "أبو مدين" تَكَنى بابنه "مدين" دفين مصر، وُلد في مصر "قطنانة" شكال شرق مدينة "إشبيلية" سنة 509هـ/ 1116م، وتُوفي سنة 594هـ عن نحو 85 سنة، اتجه إلى المغرب وسكن مدينة "فاس" وأخذ العلم عن كبار علمائها عن أمثال "ابن حوازم" و"أبي الحسن علي بن غالب"، رحل إلى المشرق والتقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني، ثم عاد إلى "بجاية" ومكث بها مدة طويلة، إلى أن وُشي به عند السلطان يعقوب المنصور الموحدي، فبعث إليه كي يختبره، فلما أوتي به إلى تلمسان تُوفي بها سنة 594هـ/ 1198م. أنظر: أبو يعقوب يوسف بن يحيى التّالي، التّشوّف إلى رجال التّصوّف. تح: أحمد توفيق. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء، المغرب. ط02، 1997. ص: 139.

² - الطاهر بوناني، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14/13م. مرجع سابق. ص: 18.

الزّوايا والطّرق الصّوفيّة) وظلّ هذا التّصوّف العمليّ سائدًا في مُجتمعنا ليومنا هذا، ولعلّ التّحوّل المحوريّ في الفكر الصّوفيّ هو ما أسّسته بِصورةٍ جليّةٍ ومُمنهجةٍ وفق تربية مبنية على الأذكار والأوراد، ووفق تراتبية هرمية مُحدّدة، مركزها شيخ الطّريقة، فصارت الطّريقة ومن خلالها الزّاوية مؤسّسة دينية ثقافية اجتماعية، مغايرة للتصوف النخبوي المقتصر على فئات محدّدة في المجتمع من ناحية، ومن خصوصيات الخطاب الرسميّ الفقهيّ من ناحية أخرى، وذلك لانتصافه بالشروط المعرفية والسوسيولوجية وإنسجامه مع الظروف التّاريخية والسياسية لهذه المنطقة الجغرافية، والتي أتاحَت له بناء نفسه باستمرارٍ وإحداث التّوافقات الضّرورية لمُسايرة كلّ التّحدّيات والعوامل المهدّدة والمعارضة لنظامه الفكريّ وخطابه المغاير، ويُمكّن حصر أسباب انتشار التّصوّف في الجزائر إلى ما يلي:

2-1/ عوامل فكرية:

تواجد أقطاب وأعلام صوفية تمكّنوا من نشر هذه الطّرق، وأثّروا تأثيرًا كبيرًا وواضحًا في ذلك، بعلمهم وأخلاقهم وسلوكهم، وبمؤلفاتهم في شتّى الميادين فكانوا مُتصوّفة مُلمّين بعلوم الفقه والحديث والتّفسير والعلوم النّقلية والعقلية الأخرى، فجمعوا بذلك بين علم الظّاهر وعلم الباطن، ممّا جعلهم محلّ تقديرٍ واحترامٍ وتبجيلٍ، من أمثال: الشّيخ "أبو مدين شُعيب" والشّيخ "الملياني"¹ والشّيخ "عبد الرّحمان الثّعالبي" فـ «رحّب النّاس بِمُمثليّ المذهب القادريّ ليس بِاعتبارهم كُهانًا بارعين أو سحرة مُحنّكين أو "عالم الغيب" نادرين، وإنّما بِاعتبارهم رجالُ علمٍ مُتضلّعين في شتّى العلوم الإسلاميّة التي كانت مُتداولة بين المسلمين حتّى هذا التّاريخ وفُقهاء لامعين

¹ - الملياني: أحمد بن يوسف الملياني (ت 931هـ - 1524م)، أبو العباس سيدي أحمد بن يوسف الراشدي نسبا الملياني ديارا، من أعيان مشايخ المغرب العربي وعظماء العارفين وأحد أوتاد التصوف الإسلامي، ولد بقلعة بني راشد التي تقع بين غليزان ومعسكر، تنتمي أسرته إلى بني مرين، أخذ عن علماء تلمسان ووهران، ثم انتقل إلى بجاية أين تتلمذ للشيخ زروق، أسّس زاويته برأس الماء "بوادي شلف"، اتّصل بعلماء عصره مثل الخزّوبي والخياط وغيرهما، انتشرت طريقته اليوسفية الشاذلية واشتهرت، توفي الشيخ أحمد بن يوسف سنة 931هـ - 1524م بمدينة مليانة. عبد المنعم القاسمي الحسني، علماء التصوف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 123 - 124.

وَمُعَلِّمِينَ بَارِعِينَ»¹.

لهذه الأسباب اتسمت العلاقة بين المتصوفة والفقهاء -عموماً- بالتعايش والتقارب رغم حدوث معارضات أحياناً، التي كانت سلمية في أغلبها، ولم تتجاوز الحدود التي بلغت في المشرق كالقتل والسجن والبطش والتتكيل، لاعتبارات عديدة أهمها أن الطرق الصوفية السنّية في المغرب الأوسط، استمدت نظرياتها من مصادر تمثل أصلاً ثورة في إصلاح الفكر الصوفي كالرسالة القشيرية وإحياء علوم الدين، حيث دعا كلّ واحدٍ منهما إلى التوفيق بين الشريعة والحقيقة لتفادي كلّ الانحرافات، فكان من نتيجة ذلك أن جمّع صوفية المغرب الأوسط بين الشريعة والتصوّف².

فقد جمعت التجربة الصوفية الجزائرية بين ثنائية الحقيقة والطريقة، في قالب الأحكام الشرعية، ورسّخت هذه العقيدة في منظومتها التربوية منذ ميلادها تقريباً مع الطريقة الدينية في القرن السادس الهجري 12 ميلادي، فتكامل علماء الفقه والتصوّف فنجد شيوخ الحقيقة والشريعة فقهاء علم وشيوخ طريقة ومرّبي مقامات وتسليك، لا فرق بينهما رغم اختلاف وظائفهما. «فالتصوّف في المغرب العربي وبخاصّة في الجزائر لم يشهد نفس الصراع الذي عاشه المشرق، إذ أن المغرب العربي عرف خلال القرن 07 و 08 و 09 هـ متصوّفين متمسكين بالكتاب والسنة، ومبتعدين عن التصوّف الفلسفي الذي أسسه "ابن مسرة الأندلسي" (ت 269هـ/ 781م) وتزعمه "ابن العريف" (ت 536هـ) عصر المرابطين و"ابن العربي" (ت 638هـ) عصر الموحّدين، فتعايشت الحياة الروحية مع الحياة العقلية في تكامل، والعلوم الشرعية مع علوم الحقيقة في تواصل وعلوم الظاهر مع علوم الباطن في توافق»³.

مما مكّن الطرق الصوفية من إعطاء نظرة جديدة لعلاقة الإنسان برّبه، ومنح المريد في

¹ - عمار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء. مطبوعات وزارة الثقافة، الجزائر. 2007، ص: 112.

² - الطاهر بوناني، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14/13م. مرجع سابق. ص: 216-217.

³ - عميراي احميدة، رسالة الطريقة القادرية في الجزائر. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر. 2003، ص: 14-15.

هذه البلاد إمكانية ممارسة الشعائر بأشكال مختلفة وحيوية ترمي إلى الاتصاف بالأنس بالله وتلقي فيوضاته وإلهاماته، كل هذا شكل مظهرًا من مظاهر اجتذاب الطبقات على اختلاف مستوياتها لهذه الطرق الصوفية.

هذا ما سعت الطرق الصوفية إلى تكريسه فكريًا ونظريًا وتطبيقيًا، وقد نجحت بامتياز في إنتاج خطاب تعبدية، نابع من الشريعة ومؤسس عليها، منظم ودوري، يُشارك فيه الجميع، فأعادت بذلك صياغة وضبط العلاقات داخل المنظومة الثقافية والفكرية والاجتماعية للمجتمع الجزائري بفسح المجال للمهمشين والأُميين والفقراء لالانتساب للطريق الصوفي وإثبات ذواتهم وقدراتهم وكفاءاتهم، وإمكانية تفجير الطاقات الداخلية عندهم، وتجسيد الثقة للترقّي والصعود وبلوغ درجات العلم والمعرفة والتقوى «وفي وقت قصير من نوعه في بداية القرن الثاني عشر، نشأت الجماعات الصوفية فضمت إليها مريدين من طبقات مختلفة، إنه من الصعب توضيح كيف سارت عملية البلورة تلك بالتفصيل، إلا أنها لم تكن إلا تلبية لحاجة داخلية في الجماعة لم تستطع أن تسدها فلسفة الكلام التي مارسها المتكلمون من أهل السنة»¹.

كما أنه من أهم المراحل الفكرية المساهمة في انتشار التصوف بالجزائر واستقراره، نزوعه من التصوف النخبوي النظري إلى التصوف الشعبي، وعدم مجاراة العلماء للمستويات الفكرية والعلمية للطبقات الشعبية المختلفة، واستبعاد وإقصاء هذه الطبقة من كل المظاهر الفكرية والعلمية والثقافية للأمة، واعتبارها نقطة ظل وضعف، قد تؤثر سلبًا في ذلك، بينما نظرت إليها الطرق الصوفية بمنظر معاكس ومختلف تمامًا، كعنصر "حامل" و"حاضن" رئيسي ومكمل، يُساهم في الحياة الفكرية والثقافية للمجتمع الصوفي «وعلى أي حال، فسواد الشعب في نفسه، إجمالاً ليس سوى كتلة "مطاوعة" للغاية متناسبة مع المظهر "الهيولاني" بحصر المعنى، فسواد الشعب يحمل في ذاته إمكانيات لا وجود لها في الطبقة الوسطى وهي بلا شك إمكانيات خفية غير متميزة، أو كامنة إن شئنا، وإنما هو الخزان الذي يمكن أن يستخرج منه كل شيء، سواءً الأحسن أو الأسوأ، تبعًا لطبيعة المؤشرات التي يخضع لها وأما الطبقة الوسطى فمن السهل

¹ - أنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف. مرجع سابق. ص: 262.

التنبّه إلى ما يُمكن أن يُنتظر منها إذا فكّرنا في طابعها الأساسي الضيق المنحصر فيما يُسمّى بـ"العقل الراشد" المزعوم»¹.

وَصَارَ التَّصَوُّفُ مَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ، تِيَّارًا جَارِفًا ضَمَّ إِلَيْهِ جُمُوعًا كَبِيرَةً مِنْ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اسْتَقْبَلْتَهُمُ الطَّرِيقُ الصَّوْفِيَّةُ وَالزَّوَايَا، وَرَحَّبَتْ بِهِمْ، دُونَ تَمْيِيزِ لِمُسْتَوِيَّاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ وَلَا الثَّقَافِيَّةِ وَلَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ضَاقُوا ذُرْعًا بِمُنَاكَفَاتِ الْفُقَهَاءِ وَسَجَالَاتِ الْمُتَكَلِّمِينَ خُصُوصًا وَإِنَّ الْإِمْبَرَاتُورِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ أَصْبَحَتْ تَغْصُّ بِغَالِبِيَّةٍ مُسْلِمَةٍ، لَا تَمْلِكُ الْقُدْرَاتُ الْمَعْرِفِيَّةَ الَّتِي تُكَمِّنُهَا مِنْ مُوََاكِبَةِ تِلْكَ الْمُنَاقَشَاتِ وَالْمُنَازَرَاتِ وَالْمُنَاكَفَاتِ «فِي هَذَا الْجَوِّ الشَّعْبِيِّ الرَّافِضِ تَحْوِيلَ الْإِسْلَامِ إِلَى فَقْهِ وَكَلَامٍ وَفَلَسَفَةٍ، شَرَعَ الْمُتَصَوِّفَةُ يَسْتَقْطِبُونَ إِلَيْهِمْ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَدَأَتْ صَغِيرَةً وَازْدَادَتْ اتِّسَاعًا مَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ»².

فَتَمَكَّنَتْ هَذِهِ الطَّرِيقُ الصَّوْفِيَّةُ مِنْ تَطْوِيرِ أَنْفُسِهَا وَتَوْسِيعِ حُضُورِهَا، وَبَاتَتْ تَحُوزُ أَعْدَادًا هَائِلَةً مِنَ الْمُرِيدِينَ وَالسَّالِكِ وَالْمُحِبِّينَ، كَمَا حَازَتْ أَوْقَافًا وَزَوَايَا وَأَمْلَاكًا، جَعَلَهَا أَكْثَرَ نَشَاطًا وَحَرَكِيَّةً.

2-2/ عوامل سياسية:

يُظْهِرُ جَلِيًّا أَنَّ حَسْنَ التَّعَامُلِ السِّيَاسِيِّ لِلطَّرِيقِ الصَّوْفِيَّةِ مَعَ السَّلْطَةِ الزَّمْنِيَّةِ وَالطَّبَقَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَاكِمَةِ الْمُتَعَاقِبَةِ عُمُومًا، سَاهَمَ فِي اسْتِقْرَارِ هَذِهِ الطَّرِيقِ وَنَجَاحِهَا فِي التَّوَسُّعِ وَالتَّمَرُّكِ فَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّ عِلَاقَةَ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ بِالسَّلْطَةِ الزَّمْنِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَاكِمَةِ، انْتَسَمَتْ عُمُومًا بِالسَّلَامِيَّةِ وَالْمَعَايِشَةِ، وَلَا نَكَادُ نَعْثُرُ عَلَى مَا بَيَّنَّ اضْطِهَادَ هَذِهِ السَّلْطَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ لَهُمْ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ شَكْلَ تَقَرُّبِ السَّاسَةِ مِنْهُمْ، هَدَفًا وَوَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَضَمَانِ بَقَائِهِمْ عَلَى هَرَمِ السَّلْطَةِ وَالْحُكْمِ، وَضَمَانِ وِلَايَةِ الْعَامَّةِ لَهُمْ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، وَنِيلِ بَرَكَتِهِمْ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، فَكَانُوا لَا يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْعَامَّةِ فِي فِكْرَةِ الْإِعْتِقَادِ الْحَسَنِ بِهِمْ وَمُحِبَّتِهِمْ،

¹ - عبد الواحد يحيى، التَّزْيِينُ وَالتَّحْقِيقُ الرَّوْحِي: تَصْحِيحُ الْمَفَاهِيمِ. مرجع سابق. ص: 157.

² - ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم. تر: عبد الرحمان بدوي. دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان. ط03، 1987، ص: 209.

وَمِنْ جَانِبٍ هَؤُلَاءِ الطَّرِيقِ الصَّوْفِيَّةِ حَاولُوا جَاهِدِينَ تَحَاشَى هَذِهِ السَّلْطَةَ وَعَدِمَ النِّقَرَبِ مِنْهُمْ وَمِنْ أُعْطِيَاتِهِمْ وَهَبَاتِهِمْ، وَالْإِبْقَاءَ دَوْمًا عَلَى الْحَذَرِ اللَّازِمِ مِنْهُمْ خَوْفًا مِنْ كُلِّ مَا يَرْمِزُ إِلَى الدُّنْيَا وَمَشَاغِلِهَا وَزِينَتِهَا.

مِنْ الْأَسْبَابِ السِّيَاسِيَةِ الْمَهْمَةِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى ذُبُوعِ هَذِهِ الطَّرِيقِ فِي الْفَتَرَاتِ التَّارِيخِيَةِ الْمُتَلَحِّقَةِ لِتَارِيخِ الْجَزَائِرِ هُوَ تَشْكِيلُ مُنَاحٍ مُلَائِمٍ وَمُنَاسِبٍ لِلتَّوَاصُلِ وَخَلْقِ الْأَفْقِ الرَّحْبِ لِلْإِسْتِمْرَارِيَّةِ وَالْإِنْتِشَارِ، فَالْمُرَابِطُونَ مَثَلًا كَانُوا قَبْلَ بَدَايَةِ دَعْوَتِهِمْ وَفِي أَثْنَائِهَا أَهْلَ رِبْطٍ مُلتَزِمِينَ بِالسَّنَةِ عَلَى الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ حَيْثُ لَتَزِمَ "يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينٍ" (465هـ-500هـ / 1060م-1105م) طَرِيقَةً فِي الْعِبَادَةِ، وَكَذَلِكَ ابْنُهُ "عَلِي" (500هـ-537هـ / 1105م-1142م)، وَهَذَا الزَّهْدُ تَحَلَّى بِهِ مُمَثِّلُو السَّلْطَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ، وَأَمْرَاءُ الدَّوْلَةِ بِحَوَاضِرِ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ، فَمَثَلًا فِي تَلْمِيسَانِ زُهْدِ الْأَمِيرِ "أَبُو زَكْرِيَا يَحْيَى بْنُ يُوغَانَ" (ت 537هـ-1142م)¹ وَأَقْبَلَ عَلَى التَّصَوُّفِ مُقْتَدِيًا بِشَيْخِهِ "عَبْدَ السَّلَامِ التُّونِسِيِّ" (ت 512هـ-1118م)² وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَمَّادِيُّونَ يَحْتَرِمُونَ أَهْلَ الرِّبْطِ وَلَا يَتَدَخَّلُونَ فِي شُؤْنِهِمْ، فَوُجِدَ الصَّوْفِيَّةُ فِي كُلِّ هَذَا غَطَاءٍ سِيَاسِيًّا يُبَيِّرُ سُلُوكَاتِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ يُسَاعِدُ نَسَبِيًّا عَلَى حُرِّيَّةِ نَشَاطِهِمْ، فَكَانَ بِمِثَابَةِ حِصَانَةٍ سِيَاسِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ لَهُمْ مِنْ اضْطِهَادِ الْفُقَهَاءِ وَالسَّلْطَةِ³.

فِي عَهْدِ السَّلْطَةِ الزَّيَّانِيَّةِ كَانَ "يَغْمَرِاسَنُ" يَكْثُرُ الزِّيَارَةُ لَهُمْ طَلَبًا لِلْبَرَكَةِ وَالْدَّعَاءِ، مِثْلَمَا كَانَ يَفْعَلُ مَعَ الْوَلِيِّ "مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ" بَلْ أَوْصَى بِدَفْنِ الْوَلِيِّ "مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ أَبِي بَكْرٍ بِنِ مَرْزُوقٍ" (629هـ-689هـ) بِقَصْرِهِ، وَأَوْصَى بِدَفْنِهِ إِلَى جَوَارِهِ حِينَ يَمُوتُ، وَقَدْ كَانَ الْوَلِيُّ "أَبُو إِسْحَاقَ الْخِيَّاطُ" كَثِيرَ الدَّخُولِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ "يَحْيَى بْنِ زِيَادٍ" لِقَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ وَرُيَّمَا

¹ - أَبُو زَكْرِيَا بْنُ يُوغَانَ الصَّنَهَاجِي: تَلْمِيزُ أَبِي عَبْدِ السَّلَامِ التُّونِسِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَمْرَاءِ صَنْهَاجَةَ، مَاتَ بِتَلْمِيسَانَ عَامَ سَبْعَةِ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، قَالَ عَنْهُ شَيْخُهُ: "فَإِنَّهُ مَلِكٌ زَهْدٌ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا كُنْتُ فَقِيرًا وَيَقِيتُ فَقِيرًا وَمَا زِدْتُ شَيْئًا". يُنْظَرُ: ابْنُ الزِّيَّاتِ،

التَّشَوُّفُ إِلَى رِجَالِ التَّصَوُّفِ، تَح: أَحْمَدُ التَّوْفِيقِ. مَطْبَعَةُ النِّجَاحِ الْجَدِيدَةِ، الدَّارُ الْبَيْضَاءُ. الْمَغْرِبُ. ط2، 1997. ص: 123.

² - عَبْدُ السَّلَامِ التُّونِسِيُّ: الَّذِي دَفَنَ الشَّيْخَ سَيِّدِي أَبُو مَدِينٍ بِجَوَارِهِ فِي رَوْضَتِهِ قَرَأَ عَلَى عَمِّهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَنَزَلَ تَلْمِيسَانَ فِي الرِّهْبَانِ كَانَ عَالِمًا زَاهِدًا مِنْ أَكْبَارِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ يَلْبِسُ الصَّوْفَ وَيَأْكُلُ الشَّعِيرَ مِنْ حَرْثِ يَدِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَبْرُهُ بِالْعَبَادِ. ابْنُ مَرْيَمَ التَّلْمِيسَانِي، الْبَسْتَانُ فِي ذِكْرِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ بِتَلْمِيسَانَ. مَصْدَرُ سَابِقٍ. ص: 122.

³ - الطَّاهِرُ بُونَانِي، الْحَرَكَةُ الصَّوْفِيَّةُ فِي الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ خِلَالِ الْقَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَالْتَّاسِعِ الْهَجْرِيَّيْنِ 14/13م. مَرْجِعُ سَابِقٍ. ص: 85-89.

دخل عليه في اليوم الواحد سبعين مرّة، فقليل لأمر المؤمنين في ذلك فقال: «دعوه فهو رحمة للمسلمين وما قضاء الله تعالى يقضيه والله لا أمنعه من قصده»¹.

كما تظهر المصادر التّاريخيّة عمق علاقة المتصوّفة ببجاية بالسلطة، فقد أظهر الأمراء والولاة الحفصيين احترامًا كبيرًا لصوفيّة بجاية، فقد كان الأمير "أبو زكرياء الأوّل" (628هـ-649هـ/ 1228م-1249م) مُعجّبًا بهم ساعيًا لخدمتهم، إذ كان يستدعيهم إلى حضرته بثونس²، وكان ابنه "يحي زكرياء أوّل" وال حفصيّ علي بجاية" من (633هـ- 644هـ/ 1236م-1248م) عالمًا مُتديّنًا، يعرض خدماته على صوفيّة بجاية، ولَمّا وُلّي "مُحمّد الأوّل المستنصر" (647هـ- 675هـ/ 1249م-1277م) زاد في تبجيل الصّوفيّة ولفرط إعجاب المستنصر بالصّوفيّة أنّه عزل قاضي بجاية عندما أساء مُعاملة الصّوفيّ "أبي عبد الله مُحمّد القصري"³.

الأمر الثّاني تمثّل أساسًا في سُقوط الأندلس وهجرة الكثير من الصّوفيّة إلى الجزائر صف إلى ذلك سُقوط الدّولة الموحديّة التي شكّلت حصنًا منيعًا في الدّفاع عن البلاد ومُواجهة الغزاة، خاصّةً الغزو الإسبانيّ، ولأسبابٍ داخليةٍ وخارجيةٍ، تدهورت أوضاعها وسقطت فأصبح الشّعب في حاجةٍ لمن يحمل لواء الدّود عنه، والدّفاع عن مصالح شعبها، فتكفّلت الطّرق الصّوفيّة وقتها بحمل العبء عوضًا عن الدّولة وواجهت العدو ووقفت إلى جانب النّاس وآزرتهم وساندتهم، ممّا ساهم في ازدهارها وانتشارها وتعزيز وترسيخ وجودها والتّفاف النّاس حولها وإقبالهم عليها، وتواصل دور الطّرق الصّوفيّة على مدار الفترات التّاريخيّة للجزائر في عهد الدّولتين الرّيانيّة

¹ - ابن مريم التّلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. نفس المصدر السابق. ص: 57.

² - ابن القنفذ، الفارسية في مبدأ الدّولة الحفصية. تح: مُحمّد الشّاذلي النيفر، عبد المجيد التّركي. الدّار التّونسية للنشر، 1968. ص: 114.

³ - محمد القصري: محمد بن علي القصري (ق 7هـ - 13 م)، الشيخ الفقيه الجليل الفاضل العالم العارف العابد الزاهد الولي: أبو عبد الله محمد بن علي القصري، أحد خواص الشيخ أبي الحسن الحرّالي، كان عالما بالفقه وأصوله وأصول الدين. يُنظر: عبد المنعم القاسمي الحسيني، أعلام التصوف. مرجع سابق. ص: 340.

⁴ - أبو العباس الغبريني، عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية. تح: عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان. ط02، 1979. ص: 171.

والحفصية «حيث أصبحت المسؤولية كبيرة على رجال الدين وذلك لحماية الأراضي الإسلامية من الخطر الإسباني وتحركاتهم على الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط»¹. وتواصلت هذه السمة التفاعلية بين السلطة السياسية وبين الطرق الصوفية، والتي أيدتها في الغالب، وقامت برعايتها، لضمان الشرعية واكتساب الدعم الشعبي وللتأثير الفعلي والتصديق أحياناً أخرى، فإن المرينيين والحفصيين ساهموا مساهمة واضحة في تأسيس المدارس والزوايا واحتضان شيوخ الصوفية فـ"أبو الحسن المارياني" بعد استيلائه على تلمسان (1337م)، قام ببناء مؤسسة كبيرة حول ضريح "أبي مرين" عن طريق «بناء مسجد ومدرسة وحمامات شعبية، وأبنية ملحقة، وبهذا فإن الفقه والتصوف أصبحا رفيقين يتحمل كل منهما الآخر، فالتصوف في المغرب، قد أصبح مادة للدراسة المنتظمة المتوافقة مع اكتساب العلوم القانونية (الشريعة)»². لقد استطاعت الفرق الصوفية -عُموماً- التأثير والاندماج مع سياسات وأساليب الحكم للدول المتعاقبة، وتغلغت بعمق في تركيبة المجتمع على جميع مستوياته، بل وصلت أحياناً إلى أن تحل محلها وتمكنت فعلياً من إقامة «مصالح معرفية مع الإسلام الرسمي وتقبيداً إيستمولوجياً للتصوف النظري المعارض و"المندفع"، وهذه المصالحة المعرفية مع الفقهاء [العقل الفقهي] واكتبتها مُصالحة سياسية مع الحكم السياسي المسنود من الفقهاء»³. فتمكنوا فعلياً (مشايخ الطرق) من إحداث تناغم وتوافق تام بين الفقه والتصوف، بين الظاهر والباطن، بين سلطتهم والسلطة والدولة القائمة، بوجود أعلام صوفية عارفين متمكنين، بحكم تكوينهم النفسي والعلمي، من أمثال: "أبو يعزى"، "أبو مدين الغوث"، "عبد الحق الإشيلي" وغيرهم، أثروا بسلوكهم ومواقفهم وحكمتهم في مجتمعاتهم، سلطةً وشعباً، حيث كانت الناس ترى فيهم أنموذج الصلاح والتقوى.

¹ - أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث، الجزائر. 2007. ص: 91.

² - سبنستر منجهام، الفرق الصوفية في الإسلام. مرجع سابق. ص: 92.

³ - نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي. دار الفارابي، بيروت، لبنان. 2006. ص: 490.

وصل هذا الاستقرار حدّه في العهد العثمانيّ، حيث تمكّنت الطرق الصوفيّة والزوايا من بسط نفوذها على الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والروحيّة، ساعدها في ذلك انتكاسات السلطنة القائمة آنذاك وضعفها وكثرة الصراعات والفتن والوهن داخلها، وفشلها في تحقيق الأمن والاستقرار، وعجزها عن ردّ الحملات الصليبيّة المتكرّرة على الجزائر، فتصدّر المشايخ والطرق الصوفيّة المرابطية الجهاد والذود عن البلاد، وهذا لم يكن وليد هذه الفترة فقط، بل إنّ العثمانيين وجدوا التّصوّف في هذه البلاد نسيجاً متكاملًا ومؤسّساً داخل المجتمع الجزائري «فإذا اقتصرنا على الجزائر وجدنا عدداً من المرابطين وأهل الزهد ورجال التّصوّف قد كثروا كثرة تُلَفّت النّظر قبل مجيء العثمانيين أيضاً، فعبد الرّحمان الثّعالبي ومُحمّد الهواري¹ وإبراهيم التّازي وأحمد بن عبد الله ومُحمّد بن يوسف السنوسي² كانوا من ألع أولئك الرّجال، وهُنَاك آخرون عاصروا بداية العهد العثمانيّ ولكنّهم قد تكوّنوا قبله مثل أحمد بن يوسف الملياني ومُحمّد التّواتي البجائي³، فالحركة الصوفيّة إذن سواء كانت على مُستوى العالم الإسلاميّ أو على مُستوى المغرب العربيّ قد ازدهرت قبل قُدوم العثمانيين إلى الجزائر»⁴.

¹ - محمد الهواري: الشيخ الولي الصالح العارف بالله القطب أبو عبد الله كان كثير السّياحة، أخذ بفاس عن موسى العبدوسي والقباب وببجاية عن شيخه أحمد بن إدريس وعبد الرحمن الوغليسي، استقرّ بوهران وأخذ عنه إبراهيم التّازي، توفي بوهران سنة 843هـ. ابن مريم التلمساني، البستان. مصدر سابق. ص: 228.

² - محمد بن يوسف السنوسي: وبه اشتهر نسبة إلى القبيلة المعروفة بالمغرب من قبل أبيه الحسني نسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أخذ العلم عن جماعة منهم والده والشيخ العلامة نصر الزواوي والشيخ العالم محمد بن تومرت الصنهاجي والشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي، وقد جمع تلميذه أبو عبد الله الملاي في أحواله وسيره وفوائده تأليفاً كبيراً فيه نحو ستّة عشر كراساً سماه بالمواهب القدوسية في المناقب السنوسية. ابن مريم التلمساني، البستان. نفس المصدر السابق. ص: 238-239.

³ - البجائي: الشّيخ المعتقد المجذوب، قدم الدّيار المصريّة كبيراً فحجّ وقرأ المدوّنة، واشتغل كثيراً، ثم حصلت له جذبة فانقطع بمخزن بالقرب من جامع الأزهر، واعتقده النّاس اعتقاداً كبيراً، لاسيّما برقوق فإنّه كان يجلّه ويحترمه، حتّى أنّه أوصى أن يدفن تحت رجليه، مات في يوم السبت خامس جمادى الآخرة سنة 797هـ - 1395م ودفن خارج باب النّصر وأُخرج السّultan وجهه على يد الأمير "يلبغا السالمي". يُنظر: عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التّصوف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 58.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي. ج01. دار المغرب الإسلاميّ، بيروت، لبنان. ط01، 1998. ص: 459.

لقد عاشت الطرق الصوفية أزهى فتراتهما في عهد الخلافة العثمانية، حيث امتازت بقوة التنظيم وسرعة انتشار وشموله كل المناطق في الحضر والريف، بل استطاعت أن تمتد خارج حدود الوطن، وكانت أحياناً تثار على هذه الدولة وعلى باياتها، بسبب تهاونها وتقصيرها في الشؤون العامة للبلاد، وهذا لم يمنع السلطة العثمانية من التقرب من هذه الطرق ومشايخها ومحاولة استمالتهم إلى جانبها وتشجيعها وإعانتها مادياً ومعنوياً «فساهمت في بناء الزوايا والرباطات وشاركتهم في تشييد القباب ورتبت لبعضها أوقافاً خاصة، وأعفت المقرين منها من الضرائب ومنحتهم الحرمة والحصانة، وكانوا يلجأون إليهم ويتبركون بهم ويطلعونهم على خططهم ونحو ذلك مما يدل على الثقة المتبادلة بين الطرفين... وشاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين حتى عرف الناس أن هناك سياسة عامة متبعة»¹.

2-3/ عوامل اجتماعية:

لقد استطاعت الطرق الصوفية في الجزائر منذ نشأتها وتبلورها كحركة صوفية قائمة بذاتها ومؤسسة تأسيساً منظمًا ومهيكلًا أن تستحكم وتتجذر بشكل عميق في وجدان العامة وأضحت جزءاً لا يتجزأ من التنظيم الاجتماعي للشعب الجزائري، كما تمكنت من التكيف والاندماج مع كل التنظيمات، قبلية أو محلية بفضل جهود شيوخ الطرق و شخصياتهم القوية علمًا وعملاً «جعلت الشعب يقبل إقبالاً لم يعرفه من قبل على أمور المجاهدة والكشف وينخرط في الزوايا والربط ويؤمن بالأولياء وكراماتهم... وتشكل بهذا الطرق الصوفية التي ملأت البلاد من أقصاها إلى أقصاها»².

تمكن هؤلاء الشيوخ بكفاءاتهم العالية من فرض نموذجهم التربوي الأخلاقي والسلوكي وتغيير تلك المجتمعات والتأثير عليها، ومنح الثقة لأفرادها والحفاظ على الاستقرار والتوازن لهذه المجتمعات، والتوفيق بين الحياة الفردية الخاصة التعبدية، ومعايشة المجتمع ومخالطتهم بين

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج01. مصدر سابق. ص: 465-466.

² - يحي هويدي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية. ج01. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر. ط1. 1965. ص:

الجوانب التنسكية والحياة المدنية العادية وأشغالهم اليومية كما ساهمت هذه الطرق ومشايخهم في السعي لحل مشاكل الناس وفك نزاعاتهم.

لهذا يمكن أن يُعدّ العامل الاجتماعي من أهم عوامل انتشار التصوف - الطرقي خاصة - في الجزائر، لأنه تكفل بالبناء الروحي والاجتماعي معاً، واستطاع تحديد وفهم حاجات المجتمع وحلّها، وبذلك ازدادت دائرة التأثير الفعلي في المجتمع، فبرز شيوخ التصوف وأحدثوا تحولات جذرياً عميقاً، ومكّنوا للطريقة من خلال الروابط والزوايا وشكّلوا بذلك قطباً اجتماعياً بامتياز «ومما ساعد على ظهور هذه الجماعات الصوفية ما شهدته مناطقها في عصرها من غزوات عمّت وحروب مرّقتها ونزاعات أرهقتها، ولاشك في ذلك أن ذلك كلّ ولد مُناخاً باعثاً على القلق، فكان الانتماء إلى جماعة تبني علاقاتها على الانسجام الروحي والتضامن المذهبي هو الذي كان يُطمع معه في التخفيف من وطأة ذلك المناخ الكئيب»¹.

كما لا يمكننا أن نغفل مرحلة مهمة من مراحل تكوين الطرق الصوفية، ومدى تأثيرها على تبلور الطرق وتأثيرها التربوي والروحي والاجتماعي، فقد ارتبطت الطرق الصوفية بإنشاء ما يُعرف بـ "الرباطات"، فوجد الصوفية في هذه المؤسسة الدينية المركز الذي تجتمع فيه وتتطلق منه، فتكوّنت مجموعة من المريدين والطلّبة حول شيوخ التربية والعلم والجهاد.

فالكثير من المؤرخين والباحثين يرون أن الزوايا كانت في الأصل رباطاً، تحوّل مع مرور الوقت إلى الزاوية، فكان الرباط مكاناً مقدّساً لحماية الثغور الإسلامية من الأخطار الخارجية والحملات الصليبية والغزوات الاستعمارية كما كان ملتقى للزهاد والعباد والمشايخ الذين نذروا حياتهم للعلم والعمل والعبادة والجهاد الأصغر والأكبر، «ولعلّ تاريخ هذه الرباطات يرجع إلى أواخر القرن الثاني الهجري حيث أسست على طول الساحل الجزائري من ميناء القالة شرقاً إلى ميناء الغزوات غرباً، ومن أشهرها رباط عنابة الذي يوجد به ضريح أبي مروان»².

¹ - جان شوفالبيه، التصوف والمتصوفة. تر: عبد القادر قنيني. إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان. 1999. ص: 71.

² - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. دار البصائر. الجزائر. ط 02، 2009. ص:

وَعَرَفَتْ بِمُرُورِ الْوَقْتِ تَطَوُّرًا كَبِيرًا، وَاسْتَقَلَّتْ عَنِ الْمَسَاجِدِ وَانْفَصَلَتْ عَنْهَا، وَأَصْبَحَتْ قَائِمَةً بِذَاتِهَا، تَخْتَصُّ بِتَكْوِينِ الطَّلَبَةِ دِينِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا وَعِلْمِيًّا، «فَتَشَكَّلَتْ عِلَاقَةٌ وَطِيدَةٌ بَيْنَ نِظَامِ الرِّبَاطِ وَظُهُورِ الزَّهْدِ وَالتَّصَوُّفِ، وَارْتِبَاطُ مَذْهَبِ مَالِكِ السَّنِّيِّ، بِهَذِهِ الرِّبَاطَاتِ وَسَيَطِرْتُهُ التَّامَّةُ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ عِلَّةً وَجُودَ هَذَا الْمَذْهَبِ وَأَنَّ الزَّهْدَ وَالْبَدَايَاثَ الْأُولَى لِلتَّصَوُّفِ قَدْ انْصَبَغَتْ بِصِبْغَةٍ سُنِّيَّةٍ»¹.

فَشَكَلَ حُضُورَ الرِّبَاطِ رَمْزًا سِيَاسِيًّا لِلتَّضْحِيَةِ، وَتَعَدَّى ذَلِكَ لِيُؤَسَّسَ بَعْدَهَا لِبِنَاءِ الرِّبَاطَةِ الْوَثِيقَةِ بَيْنَ الشَّيْخِ وَتَلَامِيذِهِ، وَالطَّرِيقَةِ وَمُرِيدِيهَا، ثُمَّ الْمَجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ، فَسَاهَمَ هَذَا الْقَبُولُ بَعْدَهَا فِي انْتِشَارِ تِلْكَ الرِّبَاطَاتِ فِي قَرَاهِمِ وَمُدُنِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَكَانَ بِذَلِكَ حَجَرُ أَسَاسٍ تَشَكَّلَ الْحَرَكَةُ الصُّوفِيَّةُ الَّتِي شَهِدَتْهَا الْجَزَائِرُ، فَتَحَوَّلَتْ تِلْكَ الرِّبَاطَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى فُضَاءَاتٍ وَمُلْتَقِيَّاتٍ لِلنَّخْبَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَالْجَزَائِرِ، وَعَرَفَتْ تَحَوُّلَاتٍ كَبِيرَةً وَجَوْهَرِيَّةً، تَجَاوَزَتْ مِنْ خِلَالِهَا الْأُمُورَ التَّعْبَدِيَّةَ وَالرِّبَاطَ وَالْجِهَادَ، لِيَتَّهَيْكَلَ فِي مُؤَسَّسَاتٍ مُنَظَّمَةٍ تَرْبِيًّا وَتَعْلِيمِيًّا وَتَأْمَلِيًّا، يُوَمِّئُهَا الزَّهَادُ وَالْعُلَمَاءُ وَالطُّلَابُ لِلتَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ وَالتَّعَلُّمِ فِي شَتَّى الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، خَاصَّةً بَعْدَ انْتِهَاءِ زَمَنِ الرِّبَاطِ وَالتَّوَقُّفِ عَنِ جِهَادِ الْعَدُوِّ الْخَارِجِيِّ، لِيَتَحَوَّلَ الرِّبَاطَاتُ لِمُزَاوَاةِ تَمَائِلِ تَوَجُّهَاتِ الرِّبَاطِ، وَصَارَتْ لِبَعْضِ الْمُنْتَصَوِّفَةِ مَرَكَزَ لِنَشْرِ الْعِلْمِ وَالْأَخْلَاقِ وَإِيَاءِ الْمُرَابِطِينَ الْمُتَقَرِّغِينَ لِلْعِبَادَةِ وَاتِّخَاذِ مُرِيدِينَ وَتَلَامِيذٍ «وَقَدْ حَظِيَ هَؤُلَاءِ الْمُرَابِطُونَ فِي أَوْسَاطِ الْجَمَاهِيرِ الشَّعْبِيَّةِ بِالْاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ نَظَرًا لِمَا كَانُوا يَقُومُونَ بِهِ مِنْ نَشْرِ الْعِلْمِ، وَمُحَارَبَةِ الْجَهْلِ، وَإِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ، وَإِطْعَامِ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَعَابِرِي السَّبِيلِ وَنَشْرِ آدَابِ الْإِسْلَامِ وَأَخْلَاقِهِ مِنْ رَحْمَةٍ وَأُخُوَّةٍ وَتَسَامُحٍ وَتَعَاوُنٍ وَتَضَامُنٍ»².

النَّسَبُ وَالْكَرَامَاتُ:

¹ - حميدي خميسي، نشأة التصوف الفلسفي في المغرب الإسلامي الوسيط. منشورات وزارة الثقافة. الجزائر. 2007. ص:

² - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 219.

لقد استطاعت الطرق الصوفية أن تجسد جيّدًا "النسب الشريف"، في استمالة الناس إليها، ففي الجزائر وأثناء وصول الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام بها كان "النسب الشريف"، مقصد كل قبيلة، تسعى جاهدة لإيواء واستقبال واحتضان "مُربط شريف" لتقوية مركزها مع مقامها، فقد كان للنسب الشريف رمزيته المقدسة لأن «العامّة ينظرون إلى النسب الشريف على أنه مصدر للبركة مرتبط بالإرث السلالي وكامن في النسب الشريف الورع النقي الصالح الخير، وهي صفات من عطايا الرسول ﷺ أودعها في ذريته والتي كانت تمثل بالنسبة لمجتمع المغرب الأوسط دليل القدرة على تحقيق حاجات الفرد فيلتمسون فعاليتها في أزمات الجفاف وعلاج الأمراض وتأمين المسافرين، ويعتبرونها سلاحًا بيد الشريف يُشهره في حالة هتك حرمة المقدسة»¹.

فكل الطرق الصوفية في العصور المختلفة، التي ظهرت بالمغرب الأوسط ربطت أسانيدًا بالبيت الشريف لتأكيد المنابع الخيرة الأصيلة التي نهلت منها ولتحقيق المشروع عند مرديها وأتباعها، باعتبارهم من سلالة الدوحة النبوية الشريفة، وبذلك ازداد أتباعهم بكثرة وتوطدت أصولهم علمًا ومعرفةً ونسبًا وبركةً، فقد أضفى هذا النسب دلالاته الإيجابية، التي ساهمت مساهمة واضحة في تبجيل المشايخ واحترامهم وأدت إلى قبول طُرُقهم ومناهجهم التربوية وخطابهم الفكري، فالانتساب إلى الرسول ﷺ عليه وآله وسلّمته الشريفة شكل ولا يزال مصدرًا روحياً مهمًا وسمّة بارزة في نجاح ظاهرة الطرقية في المجتمع الجزائري ومدعى لقبول الجماهير الشعبية والخضوع التام والتسليم المطلق.

بالإضافة إلى أسباب اجتماعية أخرى ساهمت أيضًا بشكل أو آخر في التسريع من عملية انتشار الطرق الصوفية وبلوغها مستويات كبيرة من الأتباع والتّمُدّ والتّوسّع «وقد تجلّى أبرز مظهر للتصوّف الحقيقي في إقرار التسامح والسلام في المجتمع ومد يد العون والمساعدة

¹ - مُحمّد فتحه، النّوازل الفقهيّة والمجتمع - أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي. منشورات كُلية الآداب والعلوم الإنسانية. الدّار البيضاء، المغرب. 1999. ص: 238.

بالإمدادات لتخفيف وطأة البؤس والألم... كان الشيخ يؤوي العجزة والفقراء والطلّبة فيجدون الطّعام والفرش، وقد تنافس الصّوفيّة في هذه المظاهر الاجتماعيّة والإنسانيّة»¹.
فوقوف الطّرق الصّوفيّة وزواياها سندًا قويًّا مع فئات الشّعب المحرومة، ومُساعدتها والوقوف إلى جانبها في السّراء والضّراء، ومد يد العون لهم، صار تقليدًا أصيلًا وموروثًا اجتماعيًا بارزًا في تمظهرات هذه الطّرق، كما كان النّاس يلجؤون لشيوخ الطّرق للتّخلّص من ظلم الحكّام وشُرورهم، وقضاء حوائجهم وتبليغ مظالمهم، وطلب بركتهم وشفاعتهم والدّعاء لهم لِمَا امتلكوه من علم وعملٍ وكراماتٍ وأخلاقٍ كريمةٍ، فأصبحوا خير نُوابٍ وأفضل مُمثّلين للشّعب والعامة في حلّ قضاياهم الدّينيّة والدّنيويّة، وأحسن ظهر يستندون إليه في وجه كلّ ظالمٍ من السّلطة أو من أفراد الشّعب.

3/- التّصوّف النّخبويّ :

فالتّصوّف في بداياته كان تجربةً شخصيّةً مُقتصرةً على مجموعة خاصّةٍ من النّاس انكفؤوا على أنفسهم واستبطنوا ذواتهم وجاهدوا في سبيل الوصول إلى مقاصدهم، فكان تصوّفهم أقرب إلى الحركة النّخبويّة، المُقتصرة على فئة محدّدة، قبل أن يصير بعدها ظاهرةً اجتماعيّةً مُندمجةً مُتفاعلةً مع فئات الشّعب الأخرى وتستقطب جميع الأوساط الشّعبية فقد كان التّصوّف في فتراتٍ محدّدة محصورًا في مدارسٍ خاصّةٍ، وعلى طبقةٍ معيّنةٍ من المشايخ والطلّبة المريدين، ويقاؤه في الحواضر الكبرى فقط مثل: بجاية، تلمسان ووهران... ولم ينزل إلى باقي المناطق الأخرى، ولا إلى جميع طبقاتها الشّعبية، كما أنّه كان محدودًا من حيث عدد المنخرطين والممارسين له «وقبل أن يتسرّب التّصوّف النّظريّ إلى مُختلف الطبقات وشرائح المجتمع، كانت المناقشات والمطارحات الفكرية والعلمية تدور بين العلماء والفقهاء فقط، ويُدرّس هذا العلم لطبقةٍ مُعيّنةٍ من الطّلبة، وما عُرف في تلمسان في القرن التّاسع (الصّراع بين الفقهاء

¹ - منال عبد المنعم، السيّد جاد الله، أثر الطّريقة الصّوفيّة في الحياة الاجتماعيّة لأعضائها. رسالة دكتوراه. القاهرة، مصر.

وَالْمَتَصَوِّفَةُ أَوْ أَرْمَةُ السَّلَفِيَّةِ وَالْمَتَصَوِّفَةُ كَمَا يَحُلُو لِلْبَعْضِ أَنْ يُسَمِّيَهَا) لَمْ تَنْزِلْ إِلَى الْأَوْسَاطِ الشَّعْبِيَّةِ»¹.

كما لا يمكننا أن نُهْمَلْ تَصَوِّفًا نَخْبَوِيًّا مِنْ نَوْعٍ آخِرٍ، وَإِنْ كَانَ الْكَثِيرُ لَا يَعِدُّهُ كَذَلِكَ لِتَبَايُنِ خَصَائِصِهِ وَتَغَايِرِ تَسْمِيَتِهِ، وَامْتِدَادِ فُتْرَاتِهِ الزَّمْنِيَّةِ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّهُ يُمَثِّلُ كَذَلِكَ مَرَحَلَةً مُهِمَّةً مِنْ مَرَاهِلِ هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّصَوُّفِ، لِلتَّأَصُّلِ الْفَعْلِيِّ النَخْبَوِيِّ لَهُ، تَنْظِيرًا وَتَفْكِيرًا وَمَنْهَجًا وَلُغَةً، وَهُوَ مَا يَسْمِيهِ الْبَعْضُ بِالتَّصَوُّفِ الْفَلَسْفِيِّ²، الَّذِي امْتَزَجَتْ فِيهِ الْأَذْوَاقُ الصَّوْفِيَّةُ بِالْإِعْتِبَارَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالتَّصَوُّفِ بِالْفَلَسَفَةِ، مَعَ اسْتِعْمَالِ مُصْطَلَحَاتٍ مُسْتَعْرِقَةٍ فِي الْإِيهَامِ وَالرَّمْزِ وَالْإِبْهَامِ وَالْغُمُوضِ وَالتَّعْقِيدِ، فَشَكَلَ بِذَلِكَ نَوْعًا آخَرَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّصَوُّفِ النَخْبَوِيِّ مَفْهُومًا وَجَوْهَرًا وَنَظَرًا لِعَدَدِ عُلَمَاءِ التَّصَوُّفِ الَّذِينَ تَعَاوَا مَعَ هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّصَوُّفِ.

فَقَدْ «تَمَيَّزَتْ بَدَايَاتُ التَّنْظِيمِ فِي الطَّرِيقِ الصَّوْفِيِّ بِظُهُورِ مَدْرَسَةِ أَلْمَرِيَّةِ الْمَشْبَعَةِ بِالْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْمَحْدَثَةِ، وَأَبْرَزَ أَعْلَامُهَا الَّذِينَ مَهَّدُوا لِابْنِ الْعَرَبِيِّ، هُوَ ابْنُ الْعَرِيفِ (ت 536هـ/ 1141م) فِي كِتَابِهِ (مَحَاسِنُ الْمَجَالِسِ) وَفِيهِ تَأَثَّرٌ وَاضِحٌ بِالتَّصَوُّفِ الْمَشْرِقِيِّ، وَابْنُ بَرَجَانَ (ت 536هـ/ 1141م) وَقَدْ تَمَيَّزَ بِقِرَاءَاتِهِ الْمِيْتَاْفِيْزِيْقِيَّةِ الْجَرِيئَةِ لِلْقُرْآنِ»³.

¹ - عبد المنعم القاسمي الحسيني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى . مرجع سابق. ص ص: 25-26.

² - وَهُنَاكَ اعْتِرَاضٌ كَبِيرٌ لِلْمَتَصَوِّفَةِ لاسْتِعْمَالِ مُصْطَلَحِ "التَّصَوُّفِ الْفَلَسْفِيِّ" وَرَفَضٌ شَبِهَ تَامَ لِلتَّقْسِيمِ التَّصَوُّفِ الْفَلَسْفِيِّ وَالسَّنِّيِّ وَالدَّعْوِيِّ وَغَيْرِهِ، الَّذِي يَعُدُّهُ مَوْقِفًا إِيْدِيُولُوجِيًّا مُتَأَثِّرًا بِالْمَنْهَاجِ الْإِسْتِشْرَاقِيَّةِ الَّتِي حَاولَتْ تَقْزِيمَ هَذَا الْمَنْهَاجِ وَنَسْبَهُ لِلتَّرَاثِ الْأَوْرَبِيِّ، خَاصَّةً وَأَنَّ أَعْلَامَ مِمَّا يُسَمُّونَهُ بِهَذَا الْمَصْطَلَحِ كَانُوا شُيُوخًا رَبَّانِيَّينَ وَأُئَمَّةً بَارِزِينَ فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ كَابْنِ عَرَبِيٍّ وَابْنِ سَبْعِينَ، وَالجِبَلِيِّ، وَالتَّلْمَسَانِيِّ، وَالحُلُويِّ، وَابْنِ دَهْقَانَ، وَالشَّوْذِيِّ، وَالْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ حَكَّمَ الْأُسْتَاذُ حَفِيَّانُ مُحَمَّدٌ عَلَى أَنَّ "هَذَا التَّحْقِيقَ الْمَعْتَمَدَ حَوْلَ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ هُوَ تَحْقِيقٌ غَيْرُ مَوْضُوعِي وَلَا تَارِيخِي، لِأَنَّهُ يَنْكُرُ - أَوْ يَكَادُ - عَلَى التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ قَبْلَ الْغَزَالِيِّ وَاقِعِهِ التَّارِيخِي كَوْنِهِ كَانَ سَنِّيًّا وَيَقْصُرُ جُهْدَ إِرجَاعِهِ إِلَى "مَذْهَبِ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ الْكَلَامِيِّ" عَلَى الْغَزَالِيِّ فَقَطْ، لِيَجْعَلَ مِنْ ذَلِكَ "الْمَذْهَبَ السَّنِّيَّ" عَتَبَةً فَارِقَةً بَيْنَ مَا قَبْلَهَا وَمَابَعْدَهَا فِي مَسَارِ حُرُوكِيَّةِ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ فِي التَّارِيخِ، وَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا عَلَى الْإِطْلَاقِ". مُحَمَّدٌ حَفِيَّانُ. الْأَمَالِيُّ الْمَطْبُوعِيُّ لِمَقْيَاسِ : التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ . كَلِيَّةُ الْعُلُومِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ، جَامِعَةُ سَعِيدَةِ، الْمَوْسَمُ الدِّرَاسِيُّ 2014/2015، ص: 43.

³ - مُحَمَّدُ بْنُ الطَّيِّبِ، إِسْلَامُ الْمَتَصَوِّفَةِ. دَارُ الطَّلَبَةِ، بِيْرُوت، لُبْنَانُ. ط1، 2007. ص: 106.

ولقد منحت البيئة البجاوية خاصة، ولا اعتبارات عديدة، كهجرة بعض من يُمثّلون هذا النوع من التصوف بعد سقوط الأندلس إلى بجاية واتخاذها مُستقرّاً له، أو لأنها كانت من أهمّ المواطن التي يُشدّ إليها الرّحال في ذلك الوقت، منحت فرصةً ومُنأخاً مُلائماً وحيويّاً ليُروّز هذا التّوجّه الصّوفيّ الفلسفيّ النّخبويّ، شكّلت بذلك البذور الأولى لتجلياته، ومُحاولة نشره واعتماده في الأوساط النّقافية للجزائر آنذاك، خاصّةً مع قدوم "ابن العربي" و"ابن سبعين" اللّذان استقرّا في بلاد المغرب الأوسط فترةً من الزّمن، حاملين لواء هذا اللون من التّصوّف «فابن العربي أقام ببجاية وابن سبعين في تبسة وبجاية والحلوي بتلمسان»¹.

فكانت لهذه الشّخصيات ومؤلّفاتهم تأثيراً واضحاً ومُباشراً في خلق فضاءات مُغايرة ومُختلفة للفكر الصّوفيّ القائم في هذه البلاد، وأغلب أصول هؤلاء المتصوّفة الوافدون من أصولٍ أندلسية.

«ومِمّن اشتهر به منهم الشّوذي² المنسوب إليه القوم، وابن دهاق³، وأبو مُحمّد بن سبعين⁴، وأصحابه مثل أبي الحسن الشّشتري وابن مطرف الأعمى⁵ وابن أحلى¹ والحاج المغربي²»³.

¹ - أبو العبّاس الغبريني، غنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية. مصدر سابق. ص: 13-157.

² - الشّوذي: أبو عبد الله الشّوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي، نزيل تلمسان وهو من أكابر العلماء العبّاد العارفين، وكان رضي الله عنه قاضياً باشبيلية آخر دولة ببني عبد المؤمن، ثم فرّ بنفسه من القضاء وأوى إلى تلمسان، ومات رحمه الله بتلمسان، ابن مريم التلمساني، البستان. مصدر سابق. ص: 69-70.

³ - ابن دهاق: إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق، المعروف بابن امرأة، نبغ في علم الكلام والحديث والتفسير، اتجه من مالقة إلى مرسية وتوفي بها سنة 600هـ - 1214م، من مؤلفاته: كتاب إجماع الفقهاء. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، تح: يوسف علي طويل. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط1، 2002. ص: 325.

⁴ - ابن سبعين: هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين المرسى (613هـ - 669هـ / 1216 - 1270م)، له علم وحكمة ومعرفة ونباهة وبراعة وبلاغة وفصاحة، رحل إلى العدو وسكن بجاية مدة، وهو أحد الفضلاء وله أتباع كثيرة من الفقهاء ومن عامة الناس، له شعر في التحقيق في مراقي أهل الطريق، كتابته مستحسنة في طريق الأدباء. أبو العبّاس الغبريني، غنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية. نفس المصدر السابق. ص: 237 - 238.

⁵ - ابن مطرف الأعمى: صوفي من أصحاب ابن أحلى والعفيف التلمساني، كان بمرسية. ابن الخطيب، روضة التعريف بالحَبّ الشّريف. تح: مُحمّد الكتاني. دار النّقافة. الدّار البيضاء، المغرب. ط1، 1970. ص: 604.

رأى البعض أنّ تجليات وتأثيرات هذا التوجّه الجديد تمثل أساساً في اتجاهين أساسيين هما: الحراليون القائلون بالوحدة المطلقة مُمثلاً في الشّوذية والسّبعينية، والاتّجاه الثاني القائل بوحدة الوجود، فأما الحراليون نسبةً إلى "أبي الحسن علي الحرالي التجيبي" (ت 638هـ- 1241م)⁴، وهو من أصول أندلسية، عُرف عنه تأثره بشهاب الدّين بن حبش السّهرودي (ت 1183م) و"أبي الحسن بن عبد الله بن سينا" (ت 1037م) لذلك تبنّى أفكار مدرسة التّصوّف الإشرافيّ (شروق الأنوار الإلهية)، التي تُعتبر أصول جميع الموجودات (المادّية والرّوحية) من نور الله، ولا تتأتّى مرتبة مُشاهدة الله والاطّلاع على أسرارهِ والانتفاع بمعارفهِ - حسبهِ - بواسطة العقل، إنّما يكون ذلك عن طريق المجاهدات والرّياضة الشّاقّة التي تمرّ عبر مراحل منها: تلطيف السّرّ السّكينة، التّيل، والغيبة عن النّفس⁵.

¹ ابن أحمى: من أمراء الأندلس، كان أميراً في "لورقة"، وكان من علماء الكلام، وله فيه تأليف، ولمّا احتل الرّوم "مرسية" سنة 640هـ قاومهم ابن أحمى، فصّدّوه بالشّرّ، فسالمهم، وتوفي في مقرّ إمارته. خير الدين زركلي. الأعلام. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. 1989. ج9. ص: 282.

² الحاج محمد: أحمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن يعقوب بن سعيد المناوي أصلاً الورنيدي مولداً ودياراً، عرف بـ"ابن الحاج" البيدي التلمساني، علّمتها بلا منازع، أخذ العلم عن الشيخ أحمد بن زكري (مفتي تلمسان وإمامها)، وهو الذي ربّاه وأجازه إجازة عامّة سنة 897هـ - 1493م، وأخذ عن الحافظ التتسي، والإمام السنوسي واهتمّ بكتب ابن عطاء الله السكندري، تخرّج عليه جماعة من العلماء كالحاج بن سعيد، أحمد بن موسى الشريف، محمد بن جلال المديوني، الولي عبد الرحمن البيعوي، من مصنّفاته: أنيس الجليس في جلوس الحناديس عن سينية ابن باديس، توفي قريباً من الثلاثين وتسعمائة. عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التّصوف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 106-107.

³ ابن الخطيب، روضة التعريف بالحبّ الشّريف. نفس المصدر السابق. ص: 604.

⁴ الحرّالي: (ت 638هـ - 1241م): أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرّالي التجيبي، كان بدء أمره بمراكش، ثم تخلّى عن الدنيا ورحل إلى المشرق، ولقي بالمشرق جلة العلماء ونفاية الفضلاء، من جملة من لقي بالمغرب أبو الحسن بن الخروف وأبو الحجاج بن الهوى، وممن لقي بالمشرق الإمام أبو عبد الله محمد القرطبي إمام الحرم الشّريف، له مؤلفات في كلّ الفنون والعلوم النّقلية والعقلية، منها كتاب "مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل"، وله تصنيف سمّاه "المعقولات الأوّل"، وله كتاب في علم الفرائض يسمّى بـ"الوافي"، له كرامات ومكاشفات تدلّ على قدره وبهجة أمره، توفي رحمه الله بحماه من بلاد الشّام. أبو العباس الغبريني. عنوان الدراية. مصدر سابق. ص: 143.

⁵ الطاهر بوناني، التّصوّف في الجزائر خلال القرنين السّادس والسّابع الهجريين 12 و 13 الميلاديين. دار الهدى. عين مليلة، الجزائر. 2004. ص: 143. والغبريني ص: 144-145.

وقد استقرّ "الحرالي" الحامل لهذه الأفكار في بجاية واتّخذ له مجموعة من الطلبة، منهم "أبو الفضل القرطبي" (ت 1263م)¹ و"أبو الحسن الملياني بن أساطير" (ت 1276م)² و"أبو زكريا بن محجوبة السطيفي" (ت 1278م) الذي ألف (شرح أسماء الله الحسنى)³، وقد انحصرت أفكار هذا النوع من التصوّف في بجاية، ولم تستطع التوسّع إلى مناطق أخرى من الجزائر.

أمّا تجليات الاتجاه الثاني، القائلين بالوحدة المطلقة⁴ في الجزائر، فتمثّل في الشّوذية والسّبعينية، أمّا الشّوذية، والتي تُنسب إلى "الشّوذي" الذي يُنسب إلى القوم فهو "أبو عبد الله الشّوذي الإشبيلي" المعروف بالحلوي، كان قاضياً بإشبيلية ثمّ فرّ بنفسه من القضاء، فأقام بتلمسان مدةً وتكرّر في زيّ المجانين وبهذه المدنية التقاه تلميذه "ابن دهقان" المعروف بابن المرأة وتتلّمذ على يديه حولين كاملين⁵.

وحاصل قولهم بوحدة الوجود هو "الشّشتري" و"ابن دهقان" أنّ الله تعالى هو مجموع ما ظهر وما بطن، وأنّ تعدّد هذه الحقيقة المطلقة، والهوية التي هي بين كلّ هوية إنّما وقع

¹ - أبو الفضل القرطبي (ت 662هـ/1263م): خرج أبو الفضل من قرطبة ونزل في رباط أسفي، حيث أخذ عن أبي محمد صالح الماجرّي، ثم دخل بجاية واخذ بها عن الحرّالي، وظهر له نشاط فاعل في بجاية، خاصّة في مسجد النطايعين، وفي زاويته الخاصّة، توفي ودفن في بجاية، أبو العباس الغبريني، عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية. مصدر سابق. ص: 161-162.

² - أبو الحسن الملياني - ابن أساطير - (ت 670هـ/1271م): أبو الحسن بن علي بن عمران الملياني المعروف بابن أساطير، كان زاهدا منقطعا عن الناس، ملما بعلوم شتى، كالفقه، وأصول الدين، توفي في بجاية. أبو العباس الغبريني، عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية. نفس المصدر السابق. ص: 199.

³ - المصدر نفسه. ص: 104.

⁴ - خلاصة رأي هذه الطائفة أنّ الله سبحانه هو أصل العقول المتصوّفة في الكون، وأنّها صدرت عنه بالفيض، وأنّ العقل الفعّال مصدر النفوس البشرية، التّواقة إلى الاتّصال به دوماً إنّ تجرّدت، وأنّ الكائنات جميعها مظاهر لعلم الله وإرادته، فوجودها عرضيّ بل ظلال واعتبارات وهمية فلا موجود بالحقيقة إلّا الله، والموجودات سواء تُوصف بالوجود مجازاً. عبد القادر محمود، الفلسفة الصّوفية في الإسلام. مطبعة المعرفة، القاهرة، مصر. ط01، 1967. ص: 553.

⁵ - ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. مصدر سابق. ص: 70.

بالأوهام من الزمان والمكان والخلاف والغيبة والظهور والألم واللذة والوجود والعدم وهي كما قالوا أوهام راجعة إلى الضمير، فإذا سقطت سار العالم وما فيه واحداً، وذلك الواحد هو الحق¹.

أما السبعينية؛ نسبة "لأبي محمد عبد الحق بن إبراهيم" المعروف بابن سبعين (ت 669هـ / 1270م)، تتلمذ على يد "الحلوي" و"ابن دهاق"، دخل بجاية رفقة بعض أنصاره خلال العقد الثالث من النصف الأول من القرن السابع الهجري، حاملاً إليها تركة مؤلفاته ومُصنّفاته، يصحبه أبرز أتباعه، "أبو الحسن علي الششتري" (ت 668 / 1269م).

قد انقسم طلبة بجاية إلى مجموعتين: مجموعة أخذت عن ابن سبعين، وهم أصحاب "أبي العباس أحمد الغبريني"، ومجموعة ثانية أخذت عن الششتري نظراً لطريقته الحسنة في التدريس²، كما اتُهمت طائفة أخرى أنها قالت بفكرة وحدة الوجود، وأن مصدرها دائماً من الوافدين على الجزائر، وقد ظهر هذا الاتجاه في تلمسان ممثلاً في الصوفي "أبي العيش محمد بن أبي زيد عبد الرحيم"³ الذي كان في إشبيلية، ولما نزل تلمسان واستقر بها خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي «قال بوحدة الوجود، والتي فصل نظريتها في أشعاره، فهو يُعبّر عن مرحلة الكمال الأسماي والكمال الوجداني والاعتقاد بأن كل ما تراه ما هو إلا تعينات للذات الإلهية، في قوله (الكامل).

اللّه قل وذر الوجود وما حوى *** إن كنت مرتاداً بلوغ كم الـ
فاللؤلؤ دون الله إن حقّقته *** عدم على التفصيل والإجمال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا *** شيئاً سوى المتكبر المتعال⁴

¹ - ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل. مصدر سابق. ص: 112.

² - أبو العباس الغبريني، غنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. مصدر سابق. ص: 209-212.

³ - أبي العيش محمد بن أبي زيد عبد الرحيم: كان في إشبيلية ثم نزل تلمسان واستقر بها خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري. نقلا عن الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر في القرن 6 و 7 هـ / 12 و 13م، مرجع سابق. ص: 155.

⁴ - المرجع نفسه. ص: 155.

وفي المدينة نفسها، ظهر خلال النصف الثاني من القرن 13هـ/13م "أبو الربيع عفيف الدين بن سليمان التلمساني" (ت 690هـ/1291م) الذي سلك طريقة "ابن العربي" في القول بوحدة الوجود¹، وتأثر به في أقواله وأفعاله حيث عكست أشعاره تجربته في ذلك، وعموماً تتلخص أفكار هذه الاتجاه، لبُلوغ الحقائق ومرتبة الإحسان، اعتماد العقل كواسطة تفصل في حقائق الموجودات، التي وقعت دفعةً واحدةً في شهود الحق، والذي لا يتوصل إليها إلا باتباع طريق المجاهدات والمكابدات والارتقاء في المقامات وكبح النفس عن الملذات والشهوات، فيبعث الله نوراً في عقل المريد، يُتيح له إدراك الحقائق والعلوم الكشفية الإلهامية.

لا يمكن الجزم النهائي في هذه الفترة، بأنهم هؤلاء المتصوفة بتأثرهم بالفلسفة وفلسفة الإشراق وخروجهم عن الشريعة، لتأثير الظروف السياسية والدينية التي كانت تسم تلك المرحلة وتأثير سُلطتي الفقهاء والسلاطين على بلورة هذه الآراء حول هؤلاء المتصوفة والزهاد، والأمر الثاني هو تعبير هؤلاء الصوفية عن أفكارهم ومعتقداتهم بلغةً سطحية رمزية، تحمل دلالات ومعاني مُعقدة وصعبة وغريبة عن اللغة العادية وهذا ما عبّر عنه "ابن عربي" مُتحدثاً عن
الحلاج:

¹ - مُصطلح وحدة الوجود، يوناني مُؤلف من مقطعين "Pan" بمعنى شامل أو عام و "Rheism" بمعنى إله، وهو بذلك شمول الألوهية لكل شيء. ولتر سبتس، التصوف والفلسفة، تر: إمام عبد الحميد الفتاح إمام. مكتبة المدبولي، القاهرة، مصر. 1999. ص: 259.

ويجب التفريق بين وحدة الوجود ووحدة الشهود "سر الربوبية" الذي يركز على الإيمان بالإثنينية والغيرية، عكس القائلين بـ"وحدة الوجود" الذين ينكرون هذه الإثنينية، يقول ابن عجيبة: "إن الفناء هو أن تبدو لك العظمة فتتسبك كل شيء، وتغيبك عن كل شيء، سوى الواحد الذي ليس كمثل شيء"، وليس معه شيء. أو تقول: هو شهود حق بلا خلق، كما أن البقاء هو شهود خلق بحق... فمن عرف الحق شهده في كل شيء، ولم يرَ معه شيئاً، لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، ومن شهود عالم المُلْك إلى شهود فضاء الملكوت. ومن فني به وانجذب إلى حضرته غاب في شهود نوره عن كل شيء ولم يثبت مع الله شيئاً. أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم. مصدر سابق. ص 296، وقد عبّر عنه ابن عربي بقوله: "والأحدية صفة تنزيهه على الحقيقة فلا تكون بجعل جاعل كما يراه بعض أصحابنا فمن قال إنه وحد الواحد ويريد به ما يريد بالوحدة فليس بصحيح... فالتوحيد على الحقيقة مناله سكوت خاصة، ظاهراً وباطناً، فمهما تكلم أوجد وإذا أوجد أشرك، والسكون صفة عدمية فيبقى توحيد الوجود له وما دخل الشك في توحيده إلا بإيجاد الخلق، لأن الخلق استدعى بحقائقه نسبة مختلفة تطلب الكثرة في الحكم وإن كانت العين واحدة. ابن عربي. الفتوحات المكية. ج3. مصدر سابق. ص: 436.

فَمَنْ فَهَمَ الْإِشَارَةَ فَلْيَصْنُهَا *** وَالْأَسَافَ يُقْتَلُ بِالسَّنَانِ
كَحَلَّاحِ الْمَحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ *** لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ فِي النَّدَانِ¹

كذلك عند الرجوع إلى تراجمهم التي يغفل البعض عن ذكرها، أو حتى التعرض والإشارة لها، نجد أن هؤلاء الذين اتهموا بالوحدة المطلقة ووحدة الوجود كانوا علماء ربانيين وحُكماء عارفين، في طبقة الأولياء والعلماء، وعلى سبيل المثال، نجد "ابن مريم التلمساني" يذكر "الشّوذي" بقوله: «سيدي أبو عبد الله الشّوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي، كان رضي الله عنه قاضياً بإشبيلية آخر دولة بن عبد المؤمن ثم فر بنفسه من القضاء وآوى إلى تلمسان»². عموماً، فهناك فرق بين وحدة وجود الصوفية ووحدة الوجود التي يدعو إليها الفلاسفة الغربيون، فوحدة الوجود الصوفية أو "وحدة الشهود"، ليست بمعنى تجلي الخالق في كل الموجودات، أو أنه حال متحد في كل شيء، أو أن العالم هو الله والله هو العالم، بل هي عندهم حقيقة الإيمان، فلا وجود حقيقة إلا الله، وعملياً لم يتمكن هذا الاتجاه من حصر مكانة له ضمن المنظومة الصوفية للمغرب الأوسط (الجزائر) فنجدته حتى في أماكن نشوئه وتواجده - تلمسان وبجاية مثلاً - مُتذبذب الحضور ومُتستراً وظرفياً، وذلك بسبب سيطرة التيارات الصوفية الأخرى، واقتصار نهجه الدعوي على طبقة النخبة فقط، وإفتقاره إلى الطلبة والمريدين وكثرة الأتباع، بالإضافة إلى انحصاره جغرافياً ونخبوياً في مناطق محدودة ومُعينة، لاستقرار المتصوفة الوافدين من الأندلس في الحواضر الكبرى فقط، مثل بجاية وتلمسان ولهذا لم يكتب لها الصمود والاستمرار طويلاً عكس الطرق الصوفية التي وفقت في الانتشار والتوقع في أوساط المجتمع بكافة أطيافه وطبقاته، وشكلت تطوراً تنظيمياً استقطبت جميع الشرائح الاجتماعية في الحواضر الكبرى والمدن والأرياف والقرى.

4/- التصوف الشعبي:

¹ - محي الدين بن عربي، رسائل ابن عربي. مصدر سابق. ص: 04.

² - ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. مصدر سابق. ص: 70.

إنّ صحّت التّسمية هُوَ مُخالفٌ لِلتّصوّف النّخبويّ وَهُوَ انتقاله من الجانب النّظريّ الخاص والمرتبط بِفئةٍ مَعيّنةٍ، إلى الجانب العمليّ الطّرقيّ، بِالانتشار الكبير لِلزّوايا والزّباطات في المدن والأرياف وإنضواء آلاف النّاس تحت لوائه، وَالتّركيز فيه على الممارسات الصّوفيّة الشّعائريّة والطّقوسية المعروفة كالذّكر والخلوّة والآداب، وَمَا إلى ذلك من مظاهر التّصوّف الشّعبيّ، وَبِفَتْح باب التّصوّف على العامّة وأهل الرّيف، وَانْتَقَلَ مِنَ النّخبة إلى العامّة، وَظَهَرَت الطّرق الصّوفيّة الكبرى، وَأَصْبَحَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ "تصوّف الزّوايا والطّرق الصّوفيّة" وَقَدْ ظَلَّ هَذَا التّصوّف العلميّ سائدًا في جميع المناطق الجزائريّة، وَقَدْ عَرَفَ تَوْسَعًا كَبِيرًا وَازْدَادَ عِدَدُ الطّرق وَالزّوايا وَانْفَتَحَتْ عَلَى تَعَالِيمِ الطّرق الصّوفيّة الكبرى المشرقية، بَلْ وَقَامَتْ بِتَصْدِيرِ طُرُقِهَا وَتَعَالِيمِهَا الْخَاصَّةِ إِلَى الْمَشْرِقِ كَالشّاذليّة والمدينيّة والزّحمانيّة والعلوية وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَغَلَّغَلَ وَتَسُودَ وَتُؤَطِّرَ نَفْسَهَا تَأْطِيرًا مُنَظَّمًا وَمُحَكَّمًا وَتَتَفَاعَلَ تَفَاعُلًا كَبِيرًا مَعَ الْمَجْتَمَعِ

المبحث الثالث: خصوصية الطّرق بِالجزائر وَمناهجها التّربويّة

تتفق تقريبًا جميع الطّرق الصّوفيّة على اختلاف مشاربها ومشايعها في أصولها ومبادئها الكبرى، على اتّباع الشّريعة الإسلاميّة والسّير على هُدى المصطفى ﷺ ودوام الذّكر والصّلاة وأعمال الخير على كُلِّ الأحيان، فَعَمَّرُوا أَوْقَاتَهُم بِالذّكر المسنون وتلاوة القرآن وتنظيم

الأوراد الجامعة في معانيها بين العلم والأدب والعرفان والحقائق، فكلّ الطّرق وإن اختلفت أساليبها التّربويّة، تعمل على ترويض النفوس على الطّاعة واجتناب المعاصي والتّخلّي بالفضائل والتّخلّي على الرذائل والعمل للآخرة والزّهد في الدّنيا. وما اختلافهم وتعدّد أسمائهم إلّا في الجوانب الفرعية، من حيث التّنظيم وطّرق التّربية والتّسليك والممارسات والشّعائر، وأساليب الأوراد والأذكار.

1/- الخصوصيات العامّة:

إنّ الطّرق الصّوفيّة بوصفها - إسلام بذوق - واحدة لا تتعدّد مهما اختلفت فيه الفرق وتتوّعت المآخذ والمداخل، ومهما يوّب المؤرخون وفصل الفلاسفة والباحثون تفصيلات مُصطنعة ومهما أكثروا التّسميات، يبقى التّصوّف واحداً فقد وسموا "تصوّف ابن العربي وتلامذته (التّصوّف الفلسفيّ) وتصوّف السّهروردي وأتباعه (التّصوّف الإشراقيّ) وتصوّف الجنيد والبدوي والدّسوقي ومريديهم (التّصوّف السّنيّ)، ثمّ تتزايد التّسميات فنجد (تصوّف الطّرق) ونجد (التّصوّف النظريّ والعمليّ) وأخيراً (التّصوّف النّفسيّ)... فلكلّ طريق صوفيّ مسلكه إلى الله، ولكلّ ثقافته وأسلوبه التّعبيريّ ومن وراء ذلك فجميعهم يشربون من نبع واحد، وجميعهم مُسافرون في رحلة تمتدّ من الخلق إلى الحقّ¹.

كذلك الشّأن للطّرق الصّوفيّة في الجزائر، فمُنذ نشأتها تميّزت بخاصيّة عامّة ثابتة حيث ثنائية الحقيقة والطّريقة راسخة في التّجربة الصّوفية الفرديّة والجماعية من ميلاد الطّريقة المدنيّة في القرن السّادس الهجريّ الثّاني عشر الميلاديّ «لذلك لا غرابة أن نجد شيوخ الحقيقة والشّريعة من الفقهاء الصّوفيّة وشيوخ المقامات والعرفان السّنيّ من العلماء الصّوفيّة والقضاة الصّوفيّة مُنتمين لطّرق صوفيّة أو مُتأثرين بها في جانبٍ من جوانب الحقيقة، أو حتّى مُمارسين لطّقوسها»².

¹ - يوسف مُحمّد زيدان طه، الطّريق الصّوفيّ وفروع القادرية بمصر. دار الجيل. بيروت، لبنان. ط01، 1991. ص: 11-12.

² - الطّاهر بوناني، التّصوّف في الجزائر خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين. مرجع سابق. ص: 506.

فكُلّ الطرق الصوفية الجزائرية المنبثقة عن الطرق الأمّ المشرقية، أو المكوّنة أصلاً في بلدها الأمّ الجزائر، لا تزال إلى يومنا هذا أشبه بمدارس اتّحدت أهدافها في التربية الصوفية الروحية، واختلفت وسائلها العلمية والممارستية باختلاف المناهج والمشايخ، الذين لم يألوا جهداً في رسم قواعد تربوية خاصّة لتلامذتهم ومريديهم، فالتعدّد والاختلاف وكثرة المسمّيات لا يؤثر على جوهر الأهداف وإنّما يقتصر على اختلاف الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الغايات، وتتبع هذه الرحلة إلى الحق، جعلت كلّ طريقة تتخذ نمطاً رئيساً ترتكز عليه في مناهجها التربوية، تتسم به وتُعرف من خلاله، فالجبلانية أو "القادرية" نسبةً إلى عبد القادر الجيلاني شعارها (الفقيه من عمل بفقهه) والطريقة (الرّفاعية) التي انتشرت في مصر وشمال إفريقيا شعارها (الفناء في محبة الله...)، والطريقة الأحمدية «نسبةً إلى أحمد البدويّ شعارها (النصوّف جهاد وعبادة) والطريقة الشاذلية نسبةً إلى أبي الحسن الشاذلي تُعرف طريقته بالمنهج الوسيط والصراط المستقيم»¹

فكُلّ طريق ارتكز على جوانب مُعيّنة، غلبت على سلوك السّير عنده، وهذا لا ينفي اتّفاقه مع الطرق الأخرى في المبادئ الأساسية التربوية للطرق الصوفية جميعاً، ولا يعني اختلافه في أساليبها المتّبعة لبلوغ التزكية والإحسان، وقد اجتهد الكثير في ضبط هذه الأساليب التربوية وتبويبها وتصنيفها حسب توجه كلّ طريق، وقد اتّفقوا جميعاً - تقريباً - على بلورتها في صنفين مُعيّنين، وإن اختلفوا في هذين الصنفين «واعلم أنّ الطرق وإن كثرت فإنّها ترجع إلى طريقتين هما أصل جميع الطرق، طريق من العدم إلى الوجود وأعني بالعدم المطلق وبالوجود الوجود الإضافي وسُلاك هذه الطرق الممتنعات والممكنات، وطريق من الوجود الإضافي وإن شئت قل العدم جميع الوجود الإضافي إلى الوجود مُمكن الوجود الإضافي وسُلاك هذه الطريقة الممكنات»².

¹ - منال عبد المنعم، السيّد جاد الله، أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها. مرجع سابق. ص: 122.

² - ابن عربي، الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلّى لأهل الذّكر من الأنوار. مصدر سابق. ص: 143.

فَيختلف منهج تربية كُلِّ مريدٍ، إِتِّباعاً لِتكوين المريد الصّوفيِّ وَمزاجه، بين التّسليم وَطلب سلام النّفس، تخليةً وَتحليةً نموذج تزكية النّفس، عن طريق المجاهدات وَتحقيق المراقبة التّامة، وَهي طريقة العبّاد وَالزّهّاد، وَالمقام الثّاني، مقام الفناء في الله، يعتمد فيها على قُدرة الله وَلطفه به، فلا يعرف مُجاهدةً وَلَا رياضةً إِلَّا بعد وُصوله فَيعود وَقَدْ فتح عليه وَاستتارت بصيرته، فالوصول عند هذه الفئة، لا يكون منك مهما حاولت وَفعلت، وَمهما مساوئك أَفْنيت وَرذائك محيت، فَلن تصل إِلَيه أَبداً إِلَّا إذا أوصلك هُوَ إِلَيه، بِمَنِّهِ وَعَظْفِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَ «الطّرق الصّوفيّة كُلّها إمّا طُرق شُكْرٍ أَوْ طُرق جُهد... وَعلى الأوّل يحوم الشاذلية وَمَن نحا نحوهم وَعلى الثّاني يحوم الغزالي وَمَن نحا نحوه»¹.

فالأولى مدارها الفرح وَالشّكر وَالحمد مِن غير كُلفةٍ وَلَا مشقّةٍ، وَالثّانية مدارها المجاهدات وَالرياضات وَالتّعب وَالجوع وَالسّهر وَلزوم التّقييد وَالتّعسير وَالتّضييق وَترك النّاس وَالتّوجّه إِلَى الله تعالى، وَالإعراض عن غيره وَهنا يُجيب "الحلاج" عن سُؤالٍ: كيف غرست صُورة الحقّ في العالم؟ يُجيب "الحلاج" قائلاً: غُرست إمّا بِقُوّة المحبّة وَإمّا بِقُوّة القهر، وَلكن طريق المحبّة في الدّعوة أَفضل مِن طريق القهر².

فَسرّ التّربية الصّوفيّة، الّتي تُؤدّي إِلَى بُلوغ الأسرار الإلهية تتوقّف على مُعادلتها اللّطف والقهر، المحبّة وَالمجاهدة، السّير وَالجذب، وَلهذا كانت مناهج السّلوكة الصّوفيّة المؤدّي إِلَى المعرفة تنتهج إحدى طريقتين:

1 الطّريقة الصّعوديّة: وَهي الطّريقة الخلوتية، وَتبدأ مِن قطع عقبات النّفس، ابتداءً مِن التّوبة حتّى الرّضا، لِتطهيرها مِن الآفتين اللَّتين علقتا بها كما جاء في القرآن وَهُما الغفلة، وَالوراثة، حتّى يُصبح القلب محلاً صالحاً لِتلقّي المعرفة بِالإلهام المباشر كما كان عليه الحال في النّشأة الأولى، وَكُلّ ذلك عن طريق المحسوس وَالمعقول مِن الموجودات.

¹ - محمد بن بريكة، التّصوّف الإسلاميّ مِنَ الرّمز إِلَى العرفان. دار المتون للنشر وَالطباعة وَالتّوزيع. الجزائر. ط01. 2006. ص: 296.

² - محمد إقبال، رسالة الخلود. تر: مُحمّد السّعيد جمال الدّين. مطابع سجل العرب. القاهرة، مصر. 1974. ص: 236.

2 الطريقة النزولية: وهي الطريقة النقشبندية والشاذلية ومن سار سيرهما، وتبدأ بإفناء حُظوظ

النفس، وتهيئتها ابتداءً لِتَلْقَى الفيض، ثُمَّ تنزل بِصاحبها بعد ذلك مرحلةً مرحلةً إلى أن تصل به إلى عالم الخلق والكثرة بما تلقي من إلهامات المعرفة في حالة الفناء عن الفناء¹. وَيُصَنَّف آخرون وَيُمَايزون خُصوصيات الطرق الصوفية جميعها، وَيَجْمَعها في طريقة عَلَمَيْن صُوفِيَّيْن "الغزاليين" و"الشاذليين"، بين الشكر والمجاهدة، فالغزاليون الذين تبنوا منهجية وأفكار "أبي حامد الغزالي" القائمة على الاهتمام الكبير بِتصفية النفس وتهذيبها وتجريدها من علائق البدن بِممارسة أنواع من الرياضات، من صيامٍ وَخُلُوةٍ وَذِكْرِ غيرها لِيَنجَلِيَ الحجاب وَتَنكشِف الحقائق.

أما الشاذليون وَمَن نَحَا منحاهم، فَأَسَاس طريقتهم قائمة على الشكر والفرح بِالنعم من غير مشقةٍ وَجُهدٍ، إخلاص العبودية والبراءة من جميع الحُظوظ والاعتراف بِالْعَجْز والتَّحْقِيق وعدم توفية الوجوبية حقها التَّام فَالطَّريقتان مُتَّفَقَتان على المجاهدات والرياضات وَقَطَعَ المقامات والأحوال، إِلَّا أَنَّ طريقة الشكر أَكْثَر تَعَلُّقًا وَتَرْكِيزًا على القلوب، وَتَعَلُّقًا بِالْحَقِّ وَالتَّوْبَات على ذلك في الحركات والسكنات.

فَالْمَنهجية الغزالية تجمع بين بذل الجهد وإفراغ الطَّاقة رياضيةً وَمُكَابَدَةً وَالصَّبْر على ذلك وَتَحَمُّلَه في سبيل نجاحه في السَّير وَالسَّلُوك، وَتُرْكَز كثيرًا في ذلك على منهجٍ عمليٍّ قائم على الالتزام بِالْعِبَادَات والإكثار منها وَتَنويع الأحزاب والأوراد والأذكار، وَتَكثِير الوظائف من خدمةٍ وَسَهَرٍ وَصِيَامٍ طُلُبًا لِصَفَاء القلب وَجَلَّائِهِ وَمُواصلة التَّرقِيَات في الأعمال والمقامات، فَتَقَع له التَّجَلِّيَّات وَالْمَكاشِفَات الباطنية، وَيَكُون أَهْلًا لِلْجَذْبَةِ الإلهية «وَسُمِّيَتْ هذه المنهجية بِطريقة "الصَّبْر" لِكونها تَتَطَلَّب الصَّعَابَ وَالْمَشَاقَّ وَالْوَعُورَ، فَجُلَّ أَهْلُهَا قَدْ حَلَّوْا مَقَامَ الصَّبْرِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهِ وَأَقْطَابِهِ وَقَدْ لُقِّبَ أَقْطَاب هذه المنهجية في السَّلُوك شُيُوخ التَّربية بِالْمَعْنَى الاصْطِلَاحِيَّ

¹ - عبد القادر أحمد عطا، التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقْتِبَاس في عصر النابلسي. مرجع سابق. ص: 325.

للكلمة... واستمروا حتّى بعد الإمام الغزالي إلى مجيء الإمام أبي الحسن الشاذلي وشعار هذه المنهجية الصّوفيّة "افعل ولا تفعل"¹.

أمّا الطّريقة الثّانية، وهي المنهجية الشاذلية، والتي تُركّز في منهجها التّربويّ والتّسلّيك العمليّ على أعمال القلوب، تزامناً مع بذل مُجاهدات يسيرة غير شاقّة ولا مُكثّفة ودون الالتفات إليها كثيراً، وهي تعتمد على اللّطف والمحبّة وأساس الفضل والامتنان الإلهيّ «وأسلوب تربيتها يكون خاصّة بالاجتناء الإلهيّ الأزليّ، فلا دعوى لحال أو مقام والفتح في هذه الطّريقة غير مقصود مبدئيّاً، وإنّما الهدف والمقصود هو العبودية المحضة، والفتح من باب تحصيل حاصل، وسُمّيت هذه المنهجية بطريقة الشّكر والمحبّة لكونها تتطلّب شكر المنعم على هذا الاجتناء والاختيار الأزليّ لأفرادها، لقّب أقطاب هذه المنهجية في السّلك بشيوخ التّرقّي بالمعنى الاصطلاحيّ الخاصّ وهم تاريخيّاً جُلّ مدرسة أبي الحسن الشاذلي»².

قام آخرون بتصنيفها إلى نوعين آخرين بارزين، خلواتي وغير خلواتي، فالنّوع الأوّل: الخلواتي؛ يمتاز شيوخها بمعرفة أسرار دينية غيبية خاصّة، والقدرة على تلقينها لأتباعهم، فيفرضون عليهم أذكّاراً خاصّة يتلونّها في خلّوات خاصّة معزولة ومُظلمة لمُدّة مُعيّنة، حتّى يفتح الله عليهم، ثمّ يُخرجونهم ليُصبحوا مريدن حقيقيّين، وبعد ذلك يفرضون عليهم أذكّاراً خاصّة تُدعى "الورد".

أمّا النّوع الثّاني: غير خلواتي؛ ولا يدّعي شيوخها معرفة أسراراً غيبية مُعيّنة، ولكن يتّخذون لأنفسهم وأتباعهم ورداً مُعيّناً من الأذكّار والصّلوات، يتلونّها وراء الصّلوات ويتصدّون لتحفيظ القرآن للأطفال الصّغار، وتعلّم بعض علوم الدّين واللّغة³.

¹ - منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، دور الشّيخ عدّة بن غلام الله في نشر الحكمة الصّوفيّة ومُمارسة القضاء. سلسلة القوافل العلميّة. تسميسيلت، الجزائر. 2011. ص: 47.

² - المصدر نفسه. ص: 48-49.

³ - يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب. ج 01. دار الهدى للطباعة والنّشر والتّوزيع. عين مليلة، الجزائر. ص: 219.

وَمَا تَقْدَمُ يُمكن أَنْ نَسْتَشْفَّ علامات وَميزات جامعة وَخُصوصيات عامّة، تجمع تقريبًا بين جميع الطرق الصوفية، وَلَا اختلاف إِلَّا في تفضيل إحدى مناهج وطُرق السير والتربية والسلوك، التي يُمكن تقسيمها إلى طريقتين رئيسيتين: طريقة الشكر والتي تُركّز على السير القلبي، ويتم فيها الفتح عن طريق الفيض الإلهي الرباني محبةً ولطفًا بهم، وأما طريقة المجاهدة فتُركّز أكثر على السير البدني والرياضات، ويكون الفتح فيها والكشف بسبب هذه المجاهدات والترقيات صعودًا وسلوكًا، على الرغم من أنّ البعض حاول إعطاء ميزة خاصة لكل طريقة، يفصل بينها وبين الطرق الأخرى، فوجدها كما قلنا لا تختلف عن بعضها البعض جوهريًا، وإنما في بعض التفاصيل أثناء الممارسة الصوفية التربوية «فالقادرية تتميز بالإحسان والصدقة والرحمانية بالعزلة والانفرادية (الخلوة)، والعيساوية بالغموض والتصوّف الخشن بما يُوحى بعدم أهميّة الإحساس البدني عندها، والدّرقاوية بتفضيل الفقر والابتعاد عن طُلاب السلطنة، والطيبية تُلحّ على احترام آل البيت والإخلاص إليهم، والتيجانية عُرِفَت بالتسامح والاعتدال والسنوسية بإعطاء الأولوية للسلطة الدينية والدعوة للجامعة الإسلامية»¹.

أما ما يخصّ أهمّ الطرق الصوفية في الجزائر وَخُصوصيتها فهناك طرق صوفية جزائرية خالصة كالرحمانية والتيجانية ومنها ما كان منشؤها مشرقياً وانتشرت هنا كالقادرية وبعضها الآخر تزوج حضوراً بين المغرب العربي عموماً والمشرق، ومنها ما ظهر وانتشر أثناء الفترة الاستعمارية.

2/- الطرق الصوفية في الجزائر وَخُصوصيتها:

وَقَدْ أُحصيت ستّ عشرة (16) طريقة تابعة لأربعة مدارس صوفية كبرى هي:

- المدرسة القادرية: القادرية، الرفاعية، العمّارية، حمداوة.

- المدرسة الخلواتية: الرحمانية، التيجانية.

- المدرسة الشاذلية: اليوسفية، الشيخية، الطيبية، الحنصالية، الزيانية، الكرزاوية،

الدّرقاوية، العلاوية، العيساوية.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. مصدر سابق. ج04. ص: 24-25.

-المدرسة السنوسية¹.

2-1/ القادرية:

هي أقدم الطّرق الصّوفيّة تأسيسًا على الإطلاق، وأولها ظهورًا على مُستوى العالم الإسلاميّ، كما أنّها تُعتبر أقدم الطّرق وجودًا في الجزائر، أسّسها الشّيخ الذّائع الصّيّت "عبد القادر الجيلاني بن موسى الحسني" المولود في جيلان بإيران عام (471هـ / 1078م)، والمتوفي عام (561هـ / 1166م) ببغداد، حيث قبره وزاويته إلى الآن، تتلمذ في بغداد على "حماد الدّباس" (ت 523هـ)، وكان له من التّلاميذ ما لا يُحصى في كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ، ولا تزال طريقته مُنتشرة في جُلّ أصقاع العالم خُصوصًا الشّرق الأقصى².

أمّا عن دُخول هذه الطّريقة إلى الجزائر، فيعود إلى الشّيخ "سيدي أبي مدين شُعيب" دفين تلمسان والمتوفي سنة 594هـ فهو الذي أدخلها، أي تتلمذ على يد شيخها وأخذ عنه التّصوّف وألبسه الخرقة، كما كان قدوم "إبراهيم بن عبد القادر الجيلاني" من المشرق إلى المغرب الأقصى ثمّ انتقاله إلى الجزائر، ليستقرّ بالأوراس حيث أسّس الزّاوية القادرية ببلدة منعة، كان ذلك من العوامل التي ساعدت على نشر الطّريقة القادرية في شرق البلاد وغربها على الخصوص، حيث يُوجد على ما يربو على المائتي زاوية تُخلّد اسم الشّيخ عبد القادر الجيلاني³.

ومن الذين نشروا الطّريقة القادرية بالجزائر الشّيخ "الحسن بن أبي القاسم بن باديس" (701-787هـ) وهو الفقيه الصّوفيّ القاضيّ المحدث، ومن أبرز الشّخصيات التي عملت على نشر الطّريقة القادرية بالجزائر، وفي الدّول المجاورة لها، الشّيخ "مُحمّد بن عبد الكريم المغيلي"

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي. مصدر سابق. ج04. ص: 05.

² - عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشّيخ أحمد التّيجاني وأتباعه. دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان. 2008. ص: 13.

³ - عبد الباقي مفتاح، أضواء على الطّريقة الرّحمانية الخلوتية. دار الكتب العلميّة. بيروت، لبنان. 2009. ص: 270.

صلاح مُؤيد العقبي، الطّرق الصّوفيّة والزّوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 145-146.

الذي يُعتبر الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في الغرب الإفريقي، أخذها عن شيخه السيد الإمام "عبد الرحمان السيوطي"¹.

خصوصيات الطريقة القادرية:

تتميز الطريقة القادرية ببساطتها ووضوحها وسلامة طريقتها التربوية، مما ساعد على انتشارها وسُرعة تغلغلها في جميع الأوساط الشعبية ومختلف الطبقات الاجتماعية وكثرة مریديها ودعوتها الإنسانية الشاملة المبنية على السلام والتسامح وحسن التعامل مع الآخر، على اختلاف مذهبه ودينه، وهذا ما يُفسر إقبال الأجانب على الانتساب لهذه الطريقة واعتناق مبادئها، من ذلك ما حدث للمغامرة "إيزابيل إبيرهارت" التي كتبت عن الإسلام واعتناقها له وشغفها بحياة الصحراء والبادية في وادي سوف وعين الصفراء وانتسابها للطريقة القادرية عن طريق "عبد العزيز عثمان" صديق "محمد الطيّب" مقدم زاوية الرويسات، وأعطيت هناك ذكر الطريقة القادرية والسبحة واللباس الخاص².

الأذكار والأوراد:

تحتوي الطريقة القادرية على مجموعة من الأذكار والأوراد عامة وأخرى خاصة³ كما أنهم يختصون بصلاة تتكون من عددٍ مُحدّدٍ من الركعات يقرأ في أولها فاتحة الكتاب مع سورة

¹ - يرى عبد المنعم القاسمي الحسيني في كتابه (الرحمانية الأصول والآثار)، أن الطريقة المدنية ليست فرعاً من فروع الطريقة القادرية، بل طريقة أصلية وأصلية نشأت وتطوّرت في المغرب الأوسط، بعيداً عن تأثيرات الطريقة القادرية، بل كانتا متعاصرتين في النشأة، وكان لقاء الشيخ أبي مدين مع الشيخ عبد الجيلاني لقاء شيخ مع شيخ، وليس لقاء شيخ بمرید، وقد تبرّك كلُّ منهما بالآخر حسب رواية ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني نفسه، والسبب الثاني الذي يجعلنا نميل لهذا الرأي هو خلو سلسلة الطريقة المدنية من اسم الشيخ الجيلاني ص 258-259.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. مصدر سابق. ج 04. ص: 51-52.

³ - تشمل التسبيح والاستغفار، فالعامة يُردّد المرید فيها 165 مرّة، الشهادة عقب كل صلاة، أمّا الخاصة فهي أستغفر الله العظيم 100 مرّة، واللّهم صلّ على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه 100 مرّة ولا إله إلا الله 500 مرّة.

ومنها أيضاً أن يقول المرید كل صباح ومساءً بعد صلاة الصبح والعصر:

- بسم الله الرحمن الرحيم 100 مرّة.

- فاتحة الكتاب مرّة واحدة.

- لا إله إلا الله 100 مرّة.=

مُعَيَّنَةً، بعد التسليم تُقرأ آيات مُحدّدة من القرآن ثُمَّ الصَّلَاة على النَّبِيِّ، ودُعاء عام يُخصّ في نهايته مؤسّس الطريقة القادرية وبهذا ينتهي الورد... أمّا طريقة أدائه فإنّهم يقرؤون في الرّكعة الأولى سورة الكوثر ستّ مرّات، وفي الرّابعة سورتيّ المعوذتين مرّةً وفي الخامسة آية الكرسي مرّةً وفي السادسة "لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ" سورة الحشر الآية 21، مرّةً واحدةً، وفي السّجود "رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي"، ثُمَّ يقول "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ دِينِي وَإِيمَانِي فَأَحْفَظْهُمَا عَلَيَّ فِي حَيَاتِي وَعِنْدَ مَمَاتِي وَبَعْدَ وَفَاتِي"¹.

فَالذِّكْر القادريّ ذكر الله وحده، وَالْإِكْتَار من الصَّلوات وَالِاسْتِغْفَار وَالصَّلَاة على الرّسول ﷺ وَيُكْثِرُونَ من ترديد سُبْحان الله وَالْحَمْد لله وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَالله أَكْبَرُ، فَالطَّرِيقَةُ القادرية كَبَاقِي الطَّرِيقِ الصَّوْفِيَّة الأخرى، تستند في أذكارها وأورادها على الهدى المحمّديّ وعلى ما أثر على كبار مشايخ الطريقة السّابقين "كَالْوَرْد اليوميّ الَّذِي يقرأ خمس مرّات في اليوم بعد كُلِّ صَلَاةٍ، وَمِنْهُ الْوَرْد الجماعيّ الَّذِي يقرأه الفقراء جماعةً بين العشاءين وَيُسَمَّى حزب التّمجيد، وَمَنْ الَّذِي يقرأ مرّةً واحدةً في الأسبوع جماعةً عقب صلاة العصر وَيُسَمَّى بـ"الوظيفة"².

بِالإضافة إلى ورد حزب البحر، المسبّعات العشر والأوراد في الأوقات الخمسة وأوراد الأسبوع وَالصَّلَاة الكبرى وَغَيْرَهَا من صيغ صلوات أخرى ودُعاء النّصر وحزب الجلالة ودُعاء ورد الجلالة وَغَيْرَهَا من الوظائف³.

2-2 / الشاذلية:

تُرْجَعُ أصول هذه الطَّرِيقَةُ لأحد أقطاب الطَّرِيقِ الصَّوْفِيَّة الجزائرية وأهمّ أوتادها والمنبع المساريّ الأساسيّ لِلتَّصَوُّف المغاربيّ عُمومًا وَالْجَزَائِرِيّ خُصوصًا، الشَّيْخ "أبو مدين شُعَيْب بن

- = أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ 100 مرّةً.

الزّاوي إبراهيم، السّير والمسايع. دار التّقوى لِلطّباعة والنّشر والتّوزيع. دمشق، سوريا. 2006. ص: 205.

¹ - مُحَمَّد الصّالِح حوشية، توات والأزواد. ج01. دار الكتاب العربيّ. الجزائر. 2007. ص: 185.

² - عبد الحيّ القادري، الزّاوية القادرية عبر التّاريخ والعصور. مطبعة تطوان. المغرب. 1986. ص: 25.

³ - السّيّد إسماعيل بن السّيّد مُحَمَّد سعيد، الفيوضات الربّانية في المآثر والأوراد القادرية. مرجع سابق. ص: 88.

الحسن الأندلسي"، والتي نبتت منها "الشاذلية" والتي تُنسب لأبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي¹.

فالشاذلية كسابقتها القادرية، من أقدم الطرق الصوفية انتشارًا واستقرارًا بالجزائر وتمكنت من تأصيل نهجها التربوي وفكرها الصوفي وبناء فروع وشعب كثيرة تنتسب كلها للطريقة الشاذلية الأم، اتسمت عادةً بأسماء رؤسائها ودعاتها ومشايخها في مختلف الأقطار العربية والإسلامية، ويوضح "أبو القاسم سعد الله" بقوله: وكان لتعاليم أبي الحسن الشاذلي أثر كبير في الجزائر، ونكاد نجزم بأن معظم الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن الثامن الهجري/ 14م، تتصل بطريقة أو أخرى بتعاليم الطريقة الشاذلية، وقد أحصى بعضهم عدد الطرق الصوفية في المغرب العربي أواخر القرن الثالث عشر/ 19م، فوجد ثلاث عشرة طريقة من مجموع ست عشرة- شاذلية الأصل، ويمكننا أن نعد الشيخ واضح ومحمد الهواري وإبراهيم التازي ومحمد بن يوسف السنوسي وعبد الرحمان الثعالبي وأحمد الملياني وغيرهم من أتباع الطريقة الشاذلية، وجميعهم قد أثروا في معاصريهم وتركوا تلامذة وأتباعًا وأسّس بعضهم زوايا ظلت إلى اليوم، وألّفوا كتبًا في أصول هذه الطريقة وتراجم رجالها.

فالشاذلية تفرّعت إلى طرق كثيرة وفروع عديدة، استقل كل شيخ بها عن الطريقة الأصل وأما الطرق الفرعية للشاذلية والتي لها في الجزائر أتباع كثيرون أو قليلون فهي الجزولية الزروقية، اليوسفية، العيساوية، البكائية، والأحمدية (الكرزاية) والشيخية، والناصرية والطيبية والزيانية والحنصالية والدراوية والحببية والمدنية².

¹ - ولد بالمغرب الأقصى في بلدة غمارة عن إقليم سيديّة، عام 593هـ، كان تلميذًا لأحد أتباع سيدي بومدين شعيب، مولاي عبد السلام بن مشيش، ويتوجّه منه غادر أبو الحسن إلى تونس، حيث تتلمذ على يد علمائها فازداد علمًا وتصفًا، ثم استقرّ بثونس بقرية "شاذلة" التي تُنسب إليها، وبعد مُضايقاتٍ عديدة تعرّض لها بثونس، غادرها مُتجهًا إلى الإسكندرية، توفي سنة 656هـ/1258م. يُنظر: عبد الحميد حميدو التلمساني، السعادة الأبدية. المطبعة الجديدة. فاس، المغرب. 1996. ص: 38.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. مصدر سابق. ج 01. ص: 466. صلاح مؤيد العقبى، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 150.

تمكّن الشاذلي من تأسيس طريقة خاصّة في نهجها التربويّ الصوفيّ، تجمع بين الحكم والأخلاق والفضيلة والتفكير في وحدانية الله والبحث المستمرّ عن التطهّر الروحيّ، بالالتزام بالفرائض والواجبات الشرعية، كما أحدثت تغييرات كثيرة في أساليبها التربوية، من ترك لباس الخرق، والابتعاد عن الخلوة المعهودة عند الصوفية الأوائل، وترك لباس المرقعات والاهتمام بالمظهر والتزيّن بزِيّ الجمال والزينة، فتمكّنت في ظرفٍ وجيزٍ بمرونة تعاليمها واعتدال نهجها أن تؤثر تأثيراً ملحوظاً في أكثر الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن السابع الميلاديّ. ويمكن أن نستشفّ عناصر التجديد في الطريقة الشاذلية بالانتقال من طريقة الرياضة والمجاهدات إلى الاعتماد على طريقة الشكر لبُلوغ مراحل المعرفة والكشف الإلهية والحقائق الربّانية والابتعاد عن أساليب التقشّف والتجرد في المأكل والملبس وعن متاع الدنيا وزينتها، فلم يتقيّد الشاذليون بقاعدتي التخلية والتخلية على طريقة أهل المجاهدات، والمأثور عن الشاذلي أنّه كان يلبس أحسن وأجمل الثياب ويركب الفاره من الدواب والخيل، ويتخذ من الخيل الصافنات الجياد لأنّه كان يحبّها ويقتنيها ويركبها فارساً وفي المواسم الدينية، دخل عليه مرّة تلميذه "أبو العباس المرسى" رحمه الله تعالى وفي نيته أكل الخشن ولبس الخشن فقال له الشيخ "أبو الحسن": يا أبا العباس، أعرف الله وكُن كيف شئت، ومن عرف الله فلا عليه أن يأكل هنيئاً ويشرب هنيئاً، وقد لخص الشاذلي نهج طريقته بقوله: «ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ولا ببقية الصناعة وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين»¹. وإلى جانب هذه الخصوصيات، تشبّث الشاذلية في الجزائر بمذهب مالك في الفقه وبالأشعرية في العقائد زيادةً على اعتمادها أوراذاً وأذكارا سهلاً وبسيطةً على شكل حكم أخلاقية وقيم تربوية مؤثرة ومن أهمّ مميّزات منهجهم التربويّ: «لين الجانب والتربية بالرفق والتيسير والملاطفة،

¹ - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 150-151.

وتدريب المريد على عدم الاعتماد على الرؤى والكرامات وخوارق العادات، بل على التعلق بالله سبحانه¹.

أوراد وأذكار الشاذلية:

يعتمد الشاذليون في أذكارهم وأدعيتهم على أوراد عامة وخاصة، ومن أهم أورادهم وأذكارهم التي اختصوا بها ما يلي:

-الدعاء المبارك المعروف بحزب البحر، وهو من سيوف الشاذلية لقضاء

الحاجات... قال رضي الله عنه: ما قلته إلا عن رسول الله ﷺ منه تلقيناً².

-حزب الفتح: الذي فتح الله به عليه، ويسمى حزب الأنوار أيضاً.

-الحزب الكريم والحجاب العظيم وهو الحزب الكبير (حزب البر).

بالإضافة إلى أوراد أخرى يومية:

-أستغفر الله 100 مرة.

-الصلاة المحمدية 100 مرة.

-لا إله إلا الله 100 مرة³.

2-3/ الدرقاوية:

تؤكد المصادر على أن الدرقاوية طريقة صوفية شاذلية الأصل، وأول من دعا إليها هو

"الشريف إدريس" المسمى علي بن عبد الرحيم الجمل الفاسي وهو المؤسس الحقيقي لهذه

الطريقة وقبيل وفاته نقل تعاليمها الروحية لأشهر تلامذته محمد العربي الدرقاوي (1159هـ -

1239هـ / 1737م - 1823م) والذي كان وارث سرها عن شيخه⁴.

¹ منشورات وزارة الشؤون الدينية والاوقاف، دور الشيخ عدة بن غلام الله في نشر الحكمة الصوفية وممارسة القضاء مرجع سابق. ص: 53.

² ابن الصباغ، درة الأسرار وثخفة الأبرار. المكتبة الأزهرية للتراث. 2001. ص: 68.

³ الإمام أبي الحسن الشاذلي، أوراد الطريقة الشاذلية. دار الزاهد للنشر والتوزيع. عمان، الأردن. 1997. ص: 53-56. وعبد القادر زكي، النفحة العلية في أوراد الشاذلية. مطبعة النيل. مصر. ط1، 1321هـ. ص: 15.

⁴ محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس عن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس. تح: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون. دار الثقافة. الدار البيضاء، المغرب. ط1، 2004. ص: 191.

ويُنسب اسم الدّرقاوية إلى قبيلة الدّرقّة التي ينحدر منها الجدّ الأوّل "أبو عبد الله مُحمّد بن يوسف المكنى بأبي درقة والذي استوطن بلدة زواوة بالجزائر على عهد السّلطان يعقوب المنصور الموحد¹.

وقد استطاع مُولاي العربي الدّرقاوي تنظيم الطّريقة تنظيمًا مُحكمًا، فوضع أُسسها على القواعد الصّحيحة، كما واصل نشر تعاليمها ومبادئها، فانتسبت الطّريقة لِشخصه، لِما أحدثه من دفع وتجديد لِلصّوفيّة عُمومًا والشاذلية خُصوصًا، وتمكّنت الطّريقة من خلاله بِمُسايرة المستجدّات السّياسية والاجتماعية الحادثة في إطار تصوّف اجتماعي عمليّ. ويمكن إجمال خُصوصيات المنهج التّربوي الصّوفي الدّرقاوي عُمومًا في مبدأين هامّين عليهما مدار نهجها التّربويّ، وهما مبدأي "التّجريد وخرق العوائد"² فالتّربية الرّوحية لدى درقاوة تقتضي من المرید تجريد الظّاهر علاوةً على الباطن، أي التّجريد حسًّا ومعنًى، ولا تكفي بِالباطن وحده، فيُظهر التّابع الدّرقاوي بمظهر المسكنة والدّلة، حتّى يستحقّروه ويصغر أمام النّاس -على الطّريقة الملاماتية- فتُرى النّفس نفسها دُون النّاس، وتتواضع لِغيرها وتُحقّق آنذاك الدّل والعبودية المحضة لله وتتخلّص من الرّياء والكبر وترتفع عن الدّنيا وعلائقها وتوجّه إلى الله بِقلب خالص نقيّ موحّد.

وأما مبدأ خرق العوائد، فهو نوعٌ خاصٌّ من التّجريد، يترك ما تعود الإنسان والمرید من مُلهيات الجوارح والقلب عمّا سوى الله والابتعاد عن ما ألفتة النّفس من تعلّق بالدّنيا وزينتها وما ألفتة النّفس وإرتاحت وأنست به من لغو الكلام وزائده وشبع الطّعام وتضييع الوقت والتّأنّس بالنّاس وزيادة النّوم، ويتحقّق خرقها بالتّأدّب والتّطبّع بِضدّها.

لقد نجح فعليًا الشّيخ العربي الدّرقاوي بِالعودة بِالطّريقة إلى منابع الشاذلية وأصولها وتطهيرها من الانحرافات التي طالتها كما قام في الوقت نفسه بِتجديد بعض الممارسات السلوكية والتّربوية

¹ - مُحمّد بن مُحمّد المهدي التّمستاني، الإمام مُولاي العربي الدّرقاوي شيخ الطّريقة الدّرقاوية الشاذلية ترجمته وبعض آثاره . دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط01، 2008. ص: 20-21.

² - مُحمّد المختار السّوسي، المعسول. ج15. مطبعة الجامعة. الدّار البيضاء، المغرب. 1961. ص: 31.

الصّوفيّة التي لم تكن في الطّريقة الشاذليّة الأمّ، ولا في باقي الطّرق الصّوفيّة الأخرى، جعلت منها ميزة خالصة لأتباع الدّرقاوية.

ومن أهمّ هذه المميّزات والخصوصيات ما يلي:

التمّظهر والتميّز: أو شعار الدّرقاوية، الذي يعكس صورة مريديها الصّوفيّ الزّهديّ فالدّرقاويون قدّموا إضافاتٍ مسّت الجوانب الظّاهرية وخرجوا عن المألوف في لباس أتباعهم وطرائق معيشتهم ومن أهمّ هذه الشّعارات:

- **لبس المرقعة:** حملت تسمية الخرقّة أو الدّربالة، وهو الثّوب المرقع، الذي غالباً ما يكون من الصّوف الخشن، كشعارٍ ودليلٍ على المسكنة والفقر، وهو شعار الصّالحين من الفقراء والزّهاد من أرباب الأحوال، عند الدّرقاويين، كما يظهر رمز ذلّة النّفس وتواضعها¹.
- **المشي خفاةً:** تشديداً على أفضلية الفقر على الغنى وتعزيزاً لصورة الضّعف والانكسار.
- **السّبحة:** وهي وسيلة للذكر والتّفكير، وقد أخذت سبحة الدّرقاويين شكلاً خاصاً لغلظتها وتقلها، وكثرة وكبر حباتها، تُلفّ حول العنق.
- **اتّخاذ العصا:** وهي سنّة الأنبياء وعون للضعفاء ورمزٌ للرحيل والسّفر الدائم، وإقتداءً بنبيّ الله موسى عليه السّلام.

- **العزلة:** يُحبّ الدّرقاويين العيش في عزلة وفي الصّحاري وفي الكهوف².

أمّا فيما يخصّ الميزة التّربويّة الدّرقاوية في طريقة وأسلوب الأوراد والأذكار، فقد حافظت على النّمط الشاذليّ في ذلك، إلّا أنّها جدّدتها عن طريق الانضباط الدّقيق والتّام، والممارسات الصّارمة في ذلك، ومن أهمّ أورادها في ذلك، وردّها الدائم الذي يلتزم به المريد في جميع أحواله وأوقاته، وقد أوصى به الشّيخ "العربي الدّرقاوي" عند وفاته³.

¹ - الشّريف الحسني، مجموعة رسائل الإمامة المحقّق والعلامة المدقّق مولاي العربي الدّرقاوي . تح: سام مُحمّد بارو. المجمع الثّقافيّ. أبو ظبي. 1999. ص: 74.

² - مُحمّد بن مُحمّد المهدي التّسماني، الإمام مولاي العربي الدّرقاوي شيخ الطّريقة الدّرقاوية الشاذليّة ترجمته وبعض آثاره . مرجع سابق. ص: 96.

³ - وهو: أسْتَغْفِرُ الله 100 مرّة.

2-4/ الطريقة الهبرية:

وهي طريقة شاذلية درقاوية، ويعود منشؤها وتأسيسها للشيخ الحاج محمد الهبري العزاوي والتصقت باسم الهبري لتكرار هذا الاسم في السند الروحي للطريقة، وقد ولد سيدي الحاج محمد بن أحمد بن عبد الرحمان العزاوي الشهير بالهبري سنة 1239هـ وتوفي في الثالث والعشرين من رمضان عام 1397هـ-1899م، في الأسبوع نفسه الذي توفي فيه سيدي مولاي العربي الدقاوي¹.

وقد أنشأ الزوايا في المغرب الأقصى وعرفت به، توارثها أبناؤها وعملوا على نشرها وانتقل بعدها إلى أنحاء كثيرة، خاصة في الغرب الجزائري. وقد ظهرت الطريقة الدقاوية في مدينة تلمسان في أواخر القرن 19م تحت اسم "الهبرية" وذلك بواسطة الشيخ "الدكالي"² الذي استقر به المقام في تلمسان حيث درس بها واتصل برجالاتها كالشيخ "الجليل محمد بن يلس"³ و"العربي الشرار" الذي أصبح فيما بعد مقدما للطريقة العلوية بها وبالشيوخ محمد بلقايد¹.

- اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم 100 مرة.

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير 100 مرة.

وفي سائر الأوقات لا إله إلا الله من غير عدد ولا كلفة . يُنظر: بسام محمود بارود، مجموع الرسائل الإمام المحقق والعلامة المدقق مولاي العربي الدقاوي الشريف الحسني. منشورات المجمع الثقافي. أبو ظبي، الإمارات. 1999. ص: 50-61.

¹- غيتاوي التهامي، الزائد في ذكر جملة من حياة وفضائل وكرامات الشيخ سيدي محمد بلقايد . المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار. الرويبة، الجزائر. 2002. ص: 16.

²- الدكالي: هو الشيخ الفقيه الصالح أبو سعيد بن تونارت الدكالي، أحد الفقهاء المحصلين لمذهب مالك كان من المدرسين ببجاية وحافظا للفقاه محصلا للمدونة ولم يكن له حرفة ولا عمل ولا مشاركة لأحد من الناس ولا في شيء من أحوال الدنيا ولا غير ذلك سوى الاشتغال بالعلم. أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. مصدر سابق. ص: 257.

³- محمد بن يلس: الإمام الشاعر المادح سيدي الحاج محمد بن يلس، ولي صالح تلمساني، ولد سنة 1271هـ/ 1855م، بمدينة تلمسان، تيتّم ابن خمس سنوات فعاش برعاية عمه الحاج محمد، درس في مسجد سيدي بومدين ومسجد تلمسان الكبير، وحفظ القرآن في سن العاشرة من عمره، أخذ العلم في مقتبل عمره على سيدي احمد بن محمد الدكالي من عربية ونحو وفقه وتفسير وتصوف، كما أخذ عن الشيخ العارف بالله سيدي الحاج محمد بن احمد بن عبد الرحمن العزاوي الملقب بـ "الهبري"، أنشأ الشيخ محمد زاويته بتلمسان التي دعيت بـ "زاوية رحمة الله"، توفي في دمشق يوم الإثنين 11 جمادى الثانية 1346هـ.

وَالزَّاوِيَةِ الهَبْرِيَّة لَا تَزَال قَائِمَةً إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَقَدْ اعتبرت أساس انطلاق الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين بتلمسان، حيث كان الشيخ "مُحَمَّد البشير الإبراهيمي" يُلقِي دُرُوسَهُ الأولى سنة 1933م، حيث أغلقت كُلَّ الأبواب في وجهه، كما يُعتبر المناضل "أحمد مصالي الحاج" زعيم الحركة الوطنية في الجزائر رحمه الله مِنَ الوجوه البارزة الَّتِي أنجبتها هذه الزاوية المباركة².

وَقَدْ تولدت هذه الطَّريقَة وَانتشرت في المناطق الغربية لِلوطن خاصَّة سعيدة، معسكر وتيارت، وَمِنْ أَهمِّ مشايخها "الحاج مُحَمَّد الهبري"³ الَّذِي عمل على إحياء الطَّريقَة الدَّرَقَاوِيَّة بِحماسٍ وَصفاءٍ، وَكانت له تعاليم صارمة في التَّقْوَى وَالورع وَالتَّأثير وَالدَّلِيل على ذلك أَنَّ بعض الإخوان تركوا الشَّيْوخ الآخرين وَاتَّبَعُوهُ هُوَ، وَيَعْمَل أَتباع الطَّريقَة الهَبْرِيَّة حيثما وَجِدُوا على تربية النَّاس وَتعليمهم وَالدَّعوة إِلَى الله، وَالقيام ببناء المساجد وَدراسة الْقُرْآن وَالأمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ

الموافق ل 1927م عن ثلاثة وسبعين عاما. بن عمر حسن. أسلوب الرسائل الأدبية الدينية الصوفية عند الإمام الشاعر المادح سيدي الحاج محمد بن يلس. مجلة أنثروبولوجيا الأديان. العدد التاسع. ص: 247 - 248.

¹ - محمد بلقايد: محمد بلقايد بن أحمد بن الحاج محمد بن العربي بن محمد الكبير الشريف الحسني الإدريسي، ولد بحاضرة تلمسان عام 1332 هـ، الموافق لعام 1911م، نشأ في عائلة تعرف بالشرف والعلم والطَّهارة والعفاف تحت رعاية والده ثم جدّه، تلقى من أفواه الرِّجال وأخذ عن كبار العلماء وجهابذة الفقهاء، فنهل منهم بشغف وشدة إقبال، أشهرهم الشيخ أحمد أبو العروق الأزهرى التلمساني والعلامة بلحساين النجار السلاوي والشيخ بن ناصر، بعدها شدَّ الرحال في رحلات مباركة كمدينة سيدي بلعباس ومعسكر وسعيدة، بل تعدّاها إلى البلدان العربية شرقا وغربا، والتقى بكبار العلماء والعارفين، انتقل قدس الله سره إلى الرِّفيق الأعلى عشية الجمعة 28 ربيع الثاني 1419هـ الموافق لـ 22 أوت 1998م بوهران ودفن يوم السبت بتلمسان. علي بن محمد. ترجمة الشيخ محمد بلقايد . المنشور في 2015/02/09، تمّ الاطلاع عليه يوم 2021/06/17 على الموقع التّالي:

<https://assafaa.ahlamontada.com/t2316-topic>

² - صلاح مُؤيد العقبي، الطُّرُق الصَّوْفِيَّة وَالزَّوَايا بِالْجَزَائِر تَارِيخُهَا وَنَشَاطُهَا. مرجع سابق. ص: 232-233.

³ - محمد الهبري: محمد بن أحمد العزّاوي الهبري (1280 - 1319هـ/1863-1901م)، مؤسس الطريقة الهبرية في آخر القرن التاسع عشر، أخذ العلم عن والده، وعن أحمد بن موسى الكرزازي الثاني وعن بوعزة المهاجي، كان من أبرز رجال الطريقة الدرقاوية الشاذلية، تميّز بالورع والتقوى والصَّرامة والقدرة العالية على التأثير في النَّاس، أسَّس زاوية خاصَّة به على ضفاف وادي كيس في مكان يعرف بدريوة في بني سناسن، وأعلن استقلاله وامتدَّ تأثيره إلى مناطق =واسعة في نواحي الغرب الجزائري وفي المغرب الأقصى، واشتهرت طريقته فأصبحت تسمى "الطَّريقَة الهَبْرِيَّة". عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر، مرجع سابق. ص: 294 - 295.

عن المنكر والحث على فعل الخير وتربية النشء تربية إسلامية صحيحة ويمتاز أتباعها بالخلق الطيب الكريم¹.

2-5/ الشيخية:

انبثقت عن الشاذلية، وقد أنشأها الشيخ "سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة" المولود سنة 940هـ / 1533م بضواحي الشلالة الظهرانية ولاية البيض، وتوفي سنة 1616م، بالقرب من أربوات ودُفن في مدينة الأبيض التي أصبحت فيما بعد تحمل اسم (الأبيض سيدي الشيخ) نسبةً إليه².

من أهم مؤلفاته في التصوف، الياقوتة، وعدد أبياتها مائة وثمانية وسبعون بيتاً، يتناول فيها مسائل تربوية وأخلاقية والدعوة للسلوك الصوفي والذكر، ومنظومة أخرى متممة لها وهي "الحضرة" تضم أربعة وعشرون بيتاً يغلب عليها الذكر ومدح الرسول ﷺ

ومن أهم مميزات الطريقة التربوية الشيخية هو تأكيدها على "الذكر" وحرصها عليه وإيلائه أهمية كبرى في منهجها التربوي الصوفي وضرورته الكبرى للسالك ابتداءً ونهايةً ونستشف ذلك في ترديد الشيخ لهذه الفضيلة في مؤلفاته، ويعدده في المرتبة الثانية بعد أداء الفرائض، يقول:

وما الحجّ والجهاد من غير فرضنا بأفضل من ذكر الأسماء العظيمة
بل الذكر أقوى ثم أولى لاسيما إذا استشعر القلب النعوت الحميدة⁴
وللشيخية الأذكار القادرية والشاذلية التي يتلقاها الأتباع ويردّدونها في أوقات محدّدة بعد انضمامهم للطريقة⁵.

¹ - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 245.

² - بوداوية بلحيا، التصوف في بلاد المغرب العربي. دار القدس العربي للنشر والتوزيع. وهران، الجزائر. ط01، 2009. ص: 56. عبد الله طواهرية، تذكرة الخلاف في مناقب العلامة الشيخ سليمان أبي سماحة. المطبعة الغربية. غرداية، الجزائر. ط2002، 1. ص: 42.

³ - محمد الصالح حوثية، توات والأزواد. مرجع سابق. ص: 202.

⁴ - الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد، الياقوتة. مكتبة المعارف تيميمون. أدرار، الجزائر. (د.ط)، (د.ت). ص: 11.

⁵ - وهي: - ترديد الفاتحة ثلاث مرّات.

- ترديد الشهادة ثلاثمائة مرّة.

وَلِلطَّرِيقَةِ الشَّيْخِيَّةِ وَرَدَ يَقُومُ عَلَى أَسَاسِ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ مَرَّتَيْنِ، سُورَةُ النَّصْرِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ الذِّكْرُ بِتَرْيِيدِ أَسْتَغْفِرَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مِائَةَ مَرَّةً، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةً، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِائَةَ مَرَّةً، «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» عشر مرّات من سورة الأحزاب، الآية 56، الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ مِائَةَ مَرَّةً، ثُمَّ يَقُولُ لِيَبْكُ لِيَبْكُ اللَّهُمَّ لِيَبْكُ وَسَعْدِيكَ، الْخَيْرُ كُلُّهُ بَيْنَ يَدَيْكَ فَإِنِّي عَبْدُكَ مُمْتَلِئٌ لِأَمْرِكَ مَرَّةً، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِائَةَ مَرَّةً، وَعِنْدَ إِتِمَامِ الذِّكْرِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ السَّرِيعِ الْمَجِيبِ الْقَرِيبِ الَّذِي خَزَنْتَ بِهِ مَفَاتِيحَ رَحْمَتِكَ وَخَوَاتِمَ إِرَادَتِكَ وَسُرْعَةَ إِجَابَتِكَ يَا سَرِيعَ لِمَنْ قَصَدَهُ وَبَا قَرِيبَ لِمَنْ سَأَلَهُ وَبَا مُجِيبٌ¹.

2-6/ العلوية:

وَتُعْتَبَرُ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الْفَرْعُ الْأَخِيرُ لِلشَّاذَلِيَّةِ الدَّرَقَاوِيَّةِ، وَتُنْسَبُ إِلَى الشَّيْخِ "أَحْمَدُ بْنُ مُصْطَفَى بْنِ عَلِيَّةٍ" (الْعَلَاوِي وَالْعَلَوِي أَيْضًا)، وُلِدَ فِي مَسْتَعَانَمَ سَنَةِ 1867م، وَالْمُتَوَفَّى بِهَا يَوْمَ 14/07/1934م، اسْتَقَلَّ عَنِ الدَّرَقَاوِيَّةِ وَأَسَّسَ زَاوِيَتَهُ بِهَا سَنَةَ 1914م، فَالطَّرِيقَةُ الْعَلَاوِيَّةُ مُسْتَوْحَاةٌ مِنَ الدَّرَقَاوِيَّةِ، دَعَا مِنْ خِلَالِهَا الشَّيْخُ بْنُ عَلِيَّةٍ إِلَى تَطْوِيرِ الْإِسْلَامِ السَّلَفِيِّ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْإِصْلَاحِيَّةِ، وَهِيَ تُعَدُّ أَحَدَ طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ عَهْدًا، وَآخِرَهَا تَأْسِيسًا وَأَكْثَرَهَا دَقَّةً وَتَنْظِيمًا.

فَقَدْ اسْتَعْمَلَتْ مُنْذُ تَأْسِيسِهَا أَحْدَثَ وَسَائِلَ الْإِتِّصَالِ الْعَصْرِيَّةِ، وَأَحْسَنَ الْأَسَالِيبِ النَّظَامِيَّةِ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ، وَهَدَايَةِ النَّاسِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَبَثَّ تَعَالِيمَ الطَّرِيقَةِ وَأَفْكَارَهَا وَتَعَالِيمَهَا وَسَائِلَ لَمْ

- تَرْيِيدِ الْاسْتِغْفَارِ مِائَةَ مَرَّةً.

- تَرْيِيدِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ مِائَةَ مَرَّةً.

- تَرْيِيدِ الْوَحْدَانِيَّةِ أَلْفَ مَرَّةً.

حَفَظَ قَصِيدَةَ الْجَلَالَةِ (ضَمَنَ الْحَضْرَةَ) وَبَعْدَ كُلِّ بَيْتٍ مِنَ الْجَلَالَةِ وَخِلَالَ الْحَضْرَةِ يُرَدِّدُ كُلُّ مَرِيدٍ بِصَوْتٍ عَالٍ كَلِمَةَ "اللَّهُ" اثْنَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً. يُنْظَرُ: إِبْرَاهِيمُ مِيَّاسِي، قَبَسَاتُ مِنَ تَارِيخِ الْجَزَائِرِ. دَارُ هُومَةِ لِلطَّبْعِ. الْجَزَائِرِ. 2012. ص: 09.

¹- أَحْمَدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ السَّكُونِيُّ الشَّرِيفُ الْفَيْقِيُّ، تَقْوِيَةُ إِيْمَانِ الْمَجِيبِينَ. تَح: ظَوَاهِرِيَّةُ عَبْدِ اللَّهِ. دَارُ الْأَدِيبِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ. الْجَزَائِرِ. (د.ط.). (د.ت.). ص: 212.

تستعملها باقي الطرق الأخرى، فاشترى مطبعة للزوايا وأسس صحفاً، كانت تنشر نشاطه، ومن أشهر هذه الصحف التي صدرت عن الزاوية العلوية صحيفة أسبوعية تسمى (لسان الدين)، التي صدر أول عدد منها يوم الثلاثاء 14 جمادى الأولى سنة 1349هـ الموافق لـ 1923م بعاصمة الجزائر، وصحيفة البلاغ الجزائري، كما قامت بطبع الكتب وتنظيم الملتقيات واللقاء المحاضرات وإنشاء النوادي والجمعيات، داخل الوطن وخارجه¹.

واستطاعت الطريقة أن تنتشر انتشاراً كبيراً وواسعاً في جميع أنحاء القطر الجزائري، بل تمكنت من تخطي حدود الوطن، لتحقيق انتشاراً أكبر خارجه، وفي مناطق مختلفة من العالم أوروبا، أمريكا، آسيا وإفريقيا، وقد دخل بفضل هذه الجهود المشكورة العشرات بل المئات من الأجانب في الإسلام وأصبحوا دعاة عاملين على الدعوة إليه ونشره والتعريف به².

لقد امتازت الطريقة العلوية، منذ تأسيسها، ومع توالي وتعاقب مشايخها، بالتركيز على التجديد في طرق الدعوة، وبإلنفتاح العالمي وثنائية خطابها محلياً وعالمياً، ومحاولة مد جسور التواصل وتصدير فكرها الصوفي للغرب الحديثي، وتجاوز الخطاب المغلق والمتمركز على الطريقة داخلياً، للتأسيس فعلياً للعيش مع الآخر مهما اختلفت ديانته ومعتقداته، باعتمادها على منهج تربوي صوفي متسامح، له خصوصياته من حيث الأوراد والأذكار، فأتباع الطريقة يستعملون الحضرة ويمارسون الأوراد والأذكار والاجتماعات ويحبذون الخلوة، حتى ألزموا المريد بالاختلاء أربعين يوماً إذا لزم الأمر ذلك³.

¹ - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 263. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. مصدر سابق. ج4. ص: 127.

² - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. نفس المرجع السابق. ص: 270.

³ - ويتألف الورد العلوي الجماعي من: يقول المريد أولاً: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم مرة، ثم بسم الله الرحمن الرحيم مرة، ثم تأتي هذه الآية الكريمة: «وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»، من سورة البقرة، الآية 110، ثم يقال: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، ثم يأتي بهذه الآية الكريمة: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» ثم يُصَلِّي على النبي بهذه الصيغة مائة مرة وهي: "اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وحبه وسلم"، وفي الأخيرة "وسلم تسليمًا"، ثم يأتي بهذه الآية الكريمة «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا» من سورة آل عمران، الآية 18، ثم كلمة الشهادة مائة مرة، وفي الأخير يقول: "لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله - عليه وسلم وبعد

2-7/ الكرزائية:

تُنسب الطريقة الكرزائية إلى مؤسسها الشيخ "أحمد بن موسى بن خليفة مولى كرزاز" الذي وُلد سنة 907هـ/1505م بقرية سيدي موسى بفاس، وقد تُوفي سنة 1013هـ-1604م عن عُمرٍ يُناهز القرن والثماني عشر سنة، وقد أخذ التَّصَوُّف عن شيخه "مُحمَّد بن عيد الرِّحمان السهلي" والشيخ "سيدي أحمد بن يوسف الملياني"، واستقرَّ بعدها بقرية سيدي موسى حيث أسس زاويته المشهورة، واشتهرت باسم الكرزائية، نسبةً إلى مقرِّ زاويته بكرزاز والتي تُوجد على بُعد 250 كلم عن مدينة أدرار¹.

كما تُعرف الكرزائية أيضًا بالموساوية والأحمدية أيضًا، نسبةً إلى مؤسسها، وهي تصل بسندها إلى السلسلة الشاذلية، وهي تعتمد على ذكر الشاذلية نفسها من حيث المبدأ، إلا أنه يُركّز وردها على كثرة التسبيح والصلاة على النَّبي ﷺ كانت لمؤسس الزاوية سيدي أحمد بن موسى سبحتان أحدهما قصيرٌ لِدوام الذكر مُكوّنة من مائة تسبيحة يكون بعد كُلِّ صلاةٍ والأخرى مُكوّنة من ألفٍ تسبيحة بعد صلاة العشاء ثلاث مرّات².

ولأهميّة التسبيح في منهجهم التربوي، وقيمتها الكبيرة في هذه الطريقة ولكثرة التسابيح، فقد أوصى أحد مشايخها وهو "مُؤلاي بن عبد السلام" أن يُدفن معه تسبيحه، كما أن الشيخ "مُحمَّد بن عبد الله"³ كان يستبدل خيط تسبيحه مرّة كُلِّ أسبوعٍ لكثرة تسبيحه¹.

الفراغ يقرأ سورة الإخلاص مع البسملة ثلاث مرّات ثم يدعو الله لنفسه ولأستاذه وإخوانه وأهل سلسلته. الشيخ عدّة بن تونس، الدرة البهية في أورد وسند الطريقة العلوية. المطبعة العلوية. مستغانم، الجزائر. ط01، 1987. ص: 07-11.

¹ - مُؤلاي التّهامي غيتاوي، الدرر النفيسة في ذكر جُملة من حياة الشيخ أحمد بن موسى. الوكالة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر. ط01، 2004. ص: 48.

² - مُحمَّد الصّالح حوثية، توات والأزواد. مرجع سابق. ص: 191.

³ - محمد بن عبد الله: (1240 - 1319هـ / 1825 - 1901م) محمد الطيّب بن إبراهيم بن أحمد الشّريف "مولى ورقلة"، المعروف بـمحمد بن عبد الله، وهو الاسم الثوري له، من رجالات الطريقة القادرية المشهورين بالقطر الجزائري وبتونس، ومن قادة الكفاح المسلح ضد الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر الميلادي، ينتهي نسبه إلى سيدي عبد القادر الجيلاني، وهو من السلالة التي هاجرت من العراق إلى تلمسان، ولد الشيخ محمد الطيّب بزاوية والده بنقطة، أخذ العلم عن والده وعن علماء الزاوية، وبرز في العلوم العصرية خصوصا، كلّفه والده بمرافقة النّائر بن ناصر بن شهرة إلى الجزائر، شارك في عدّة ثورات منها: ثورة الزيّان 1849م، ثورة بوشوشة، استقرّ أخيرا بمدينة ورقلة سنة 1870م، حيث أنشأ زاويته المشهورة بالروبيسات،

بالإضافة إلى كثرة التّسبيح، ركّزت الطّريقة في أورادها على حزبها المشهور "حزب الفلاح" والاستغفار والدّعاء².

2-8/ الطّبيّة:

تُنسب هذه الطّريقة إلى "مُلاي الطّيب بن سيدي مُحمّد بن سيدي مُلاي عبد الله الشّريف الوزاني"، وُلد سنة 1005هـ/1597م والمتوفي سنة 1089هـ/1678م، أحد أحفاد "مُلاي عبد الله الشّريف مُلاي الطّيب" الذي تُنسب إليه الطّريقة الطّبيّة والطّريقة الطّبيّة شاذلية الأصل، انتشرت في الجزائر، خاصّةً في الغرب الجزائريّ، في النّاحية الوهرانية. وتتمتاز هذه الطّريقة، من حيث منهجها التّربويّ، بالتركيز على الصّحبة والصّلاح وما تفرضه من آداب وأخلاق حتّى قال عنها "مُلاي العربي الدّرقاوي": أعطي ثلاث لثلاث: المعرفة للعربي الدّرقاوي، والصّلاح لأهل الوزان والمحبوبة للشرّفاء الكتّانيين³. مُعتمدةً في ذلك على التّربية الأخلاقية القيّمية المتجسّدة في السّلك الظّاهريّ، المتجلّية في العمل القويم والعبادة الحقّة، كما امتازت الطّبيّة كذلك بِخصوصيات أورادها وأذكارها بالمزج

ونظرا لنشاطه الكبير وضع تحت الإقامة الجبرية، ولم تلبث أن أدخل السجن، ممّا اضطره بعد خروجه منه التفكير في الفرار إلى المغرب، وبلغ فرنسا الخبر فترصدته عند منطقة شروين بناحية توات، أين أطلقت عليه الرّصاص رفقة مجموعة من مرافقيه أثناء أداء صلاة المغرب، عبد المنعم القاسمي الحسيني. أعلام التصوف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 281-282.

¹ - مُحمّد الصّالح حوثية، توات والأزواد. نفس المرجع السابق. ص: 192.

² - فبعد صلاة المغرب، يأتي بحزب الفلاح من أوّله إلى آخره وهو قوله " الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا ، الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، جَزَى اللَّهُ عَنَّا سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَهْلُهُ (ثلاثًا)"، "رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (ثلاثًا)" من سورة آل عمران الآية 08، "أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (ثلاثًا)". عبد الله حمادي الإدريسي، زاوية سيدي أحمد بن موسى السّاوري بوادي السّاورَة وبِلاد كرزاز . دار بُوسعادة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. ط01، 2013. ص: 66-68.

³ - مُحمّد بن جعفر الكتّاني، سلوة الأنفاس ومُحادثة الأكياس عن من أقبر من العلماء والصّالحاء بفاس. ج02. مصدر سابق. ص: 191.

بين الذكر القلبي السري والذكر الجهري من خلال أدائها الفردي والجماعي للأحزاب والجلالة والسماع والوجد¹.

2-9/ الطريقة التجانية:

تُنسب الطريقة التجانية إلى مؤسسها "أبو العباس أحمد بن المختار بن أحمد التجاني" ولد سنة 1150هـ-1737م، بعين ماضي بنواحي الأغواط، ولقب التجاني يعود إلى أخواله توفى يوم الخميس السابع من شوال عام 1230هـ-1815م، ودُفن بزاوية كبرى بفاس². والتجانية امتداد للسر الخلوتي، الذي يبقى هدفه كما ذكرنا البحث في العزلة والخلوة من الفناء إلى حضرة الله والسمو بالروح من خلال التأمل والتفكير في الخالق والكون ومن أهم خصوصياتها التي ساهمت في انتشارها، انخراطها تحت مسلك الشكر واللطف وسهولة تعاليمها، كما اقتصت التجانية عن باقي الطرق الصوفية بالتضييق على مريدها وتابعيها والزامهم بالدوام فيها والبقاء عليها إذا اختارها ولا يجوز له الدخول في طريقة أخرى وهو فيها، كما شددت أيضا في مسألة منح الورد وأخذه ومداومته، فوضعت شروطا محددة ودرجات مرتبة وذهبت إلى التشديد من ترك الورد التجاني وتخلي عنه، كما أنها حددت تحديدا واضحا مسألة الموكل بإعطاء الورد من الشيخ الأكبر -شيخ الزاوية الأم- «ومن ثم تظهر المركزية الشديدة في الطريقة التجانية ولعل ذلك راجع إلى عدم تعددية شيوخها لزاويتين رئيسيتين لكن بالتبادل»³.

¹ - ويتكون هذا الورد عموما من آيات قرآنية، وحزب الشاذلي والصلاة المشيشية، بالإضافة إلى التسبيح والحمد مائة مرة صباحا ومساء، والصلاة على الرسول ﷺ وأوجه وذريته خمسين مرة صباحا والشهادة مائة مرة صباحا ومساء، وتقول دبر كل صلاة مفروضة عشر مرات لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ الحادية عشر يقول لا إله إلا الله شفيعا رسول الله ﷺ على آله. بلهاسمي بن بكار، مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب . مطبعة ابن خلدون. تلمسان، الجزائر. 1967. ص: 67.

² - الأرمي أحمد، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي . ج01. دار الطبع. المغرب. 2000. ص: 45.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. مصدر سابق. ج04. ص: 240.

يُمكن حصر أهمّ المسائل التي يختصّ بها التّجانيون عن غيرهم ويختلفون بها عن بقية الطرق فيما يلي:

1 ترى أغلب الطرق الصّوفيّة بجواز اقتران أوراد طرّقهم مع أوراد وأذكار طرّق أخرى، إنّ أمكن الالتزام بها جميعاً، أمّا التّجانيون فيُلزمون من اعتنق طريقتهم التّجرّد من كلّ أوراد المشايخ الآخرين والإبقاء على أوراد طريقتهم فقط، فهي غنيّة عن غيرها، كما يرون بعدم جواز أن ينتقل منها لغيرها ويُسحب العكس في ذلك لأنّها -حسبهم- الأحسن والأكمل.

2 غالبية التّجانيين يرون أنّ كلّ من انتسب إلى الطّريقة التّجانية والتزم بشروطها وآدابها وداوم على ذلك للممات يكون له فضل كبير ويدخل الجنة¹.

وفيما يخصّ أوراد وأذكار التّجانية، فهم يركّزون كثيراً على ثبات الإذن المحمّديّ في تلقينها كما أنّها تُركّز بكثرة على "صلاة الفاتح لما أغلق" في منهجها التربويّ الروحيّ، بل وتختصّ بطريقة السلوك بهذه الصّلاة لأنّها مُختصةٌ عليهم، والتي يرى أتباع الطّريقة أنّها من تلقين الرّسول ﷺ للشيخ التّجاني يقظة لا مناماً فقد أسّس الشيخ الطّريقة التّجانية على مجموعة من الأوراد والتي كانت فيما يعتقد الشيخ أنّها من تلقين الرّسول ﷺ عليه الصّلاة والسلام لا مناماً يوم كان الفتح "بأبي سمغون" حيث يقول الشيخ: «أعطاني رسول الله ﷺ الطّريقة من الأوراد وأمرني بلزومها من غير خلوة ولا اعتزال عن النّاس من غير ضيق ولا كثرة مُجاهدة»².

ولهذا صارت الصّلاة على الرّسول ﷺ على أصحابها تميّزوا بها وبصيغ مُعيّنة أهمّها "صلاة الفاتح لما أغلق" والتي قيل بأنّها من أفضل الكرامات وأجلّ النّعم التي اختصّ بها الشيخ

¹ - عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ أحمد التّيجاني وأتباعه. مرجع سابق. ص: 170-171.

² - علي حراز، جواهر المعاني ويُلوغ الأمان في فضل سيدي أبي العباس التّجاني . تح: عبد اللّطيف عبد الرّحمان. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط01، 1997. ص: 89.

التّجاني، شيخ الطّريقة، والتي تُسمّى أيضًا "الياقوتة الفريدة" لأهمّيّتها وتفرّدها عن باقي الأذكار والأوراد¹.

من بين الصّيغ التي اختارها التّجاني لورده العام هي صيغة "جوهرة الكمال" والتي يرى التّجانيون أنّها بدورها من إملاءات الحضرة النّبوية على الشيخ "أحمد التّجاني" يقظةً وهي من الأركان الأساسيّة للوظيفة التّجانيّة التي تتضمّن أربعة أذكار على التّرتيب². بالإضافة إلى أذكار أخرى وردت في الكناشة³ كذكر ألف مرّة لكلّ عبارة من العبارات: يا لطيف، أستغفر الله، لا إله إلاّ الله.

2-10/ الطّريقة السنوسية:

تُرجع أصول هذه الطّريقة إلى "مُحمّد بن يوسف أبو عبد الله السنوسي الحسني" نسبةً إلى "الحسن بن علي بن أبي طالب" من جهة أمّه لأبيه، وُلد "السنوسي" سنة 832هـ وتُوفي بتلمسان سنة 895هـ واشتهر بهذا اللّقب نسبةً إلى قبيلة سنوس⁴، وهي قبيلة معروفة بضواحي تلمسان،

¹ - ونصّ هذه الصّلاة: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْفَاتِحَ لِمَا أَغْلَقَ وَالْخَاتِمَ لِمَا سَبَقَ نَاصِرَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ وَالْهَادِيَ إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ، وَعَلَى آلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ وَمَقْدَارِهِ الْعَظِيمِ.

² - وهي: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ (ثلاثون مرّة).

وتقرأ بعد الاستفتاح بفاتحة الكتاب بالبسملة والاستعاذة.

- صلاة الفاتح لما أغلق (ما بين 50 و 100 مرّة).

- الهيلة ب: لا إله إلاّ الله (ما بين 100 و 200 مرّة) وبعد كلّ مائة: مُحمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

- جوهرة الكمال: اثنتا عشرة مرّة. يُنظر: مُحمّد بن العربي بن مُحمّد السّائح التّجاني، **بُغْيَةُ الْمُسْتَفِيدِ لِشَرْحِ**

منية المريد. ج01. دار الكتب العلميّة. بيروت، لبنان. 2001. ص: 148.

³ - الكناش من إملاءات الشيخ أحمد التّجاني على بعض تلاميذه وهما الحاج علي حراز ومُحمّد بن المشري السّائح **وَمَتَّ** تاريخ حياته وعقيدته الصّوفيّة ووصاياهم لأتباعه وهو يحمل تاريخ ذي القعدة 1214هـ/أفريل 1800. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**. مصدر سابق. ج04. ص: 237.

⁴ - قد ذكر أبو القاسم سعد الله نقلاً عن رين أنّ السنوسي لا علاقة له بالشيخ محمد بن يوسف السنوسي دفين العباد في تلمسان، ولا بني سنوس القاطنين حول تلمسان، وإنّما هو اسم شائع في غرب الجزائر، قد يكون تبرّكاً بالشيخ السنوسي

وَقَدْ نَشَأَ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ فِي بَيْتِ عِلْمٍ وَدِينٍ وَفَضْلٍ وَهُوَ بَيْتُ آلِ سَيِّدِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطَّابِيِّ بِبَلَدَةِ مَسْتَعْنَمٍ عَلَى ضِفْتَيْ وَادِي شَلَفٍ¹.

قَدْ تَمَيَّزَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ عَنْ بَاقِي الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ بِدَعْوَتِهَا الشَّدِيدَةِ لِلرَّجُوعِ إِلَى الْأَصْلِ الْأَوَّلِ وَإِلَى عَمَلِ السَّلَفِ، وَالتَّمَسُّكِ أَكْثَرَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَنَبْذُ كُلِّ مَا عُلِقَ بِالتَّصَوُّفِ مِنْ شَوَائِبٍ وَإِنْحِرَافَاتٍ، كَمَا غَلَبَ عَلَيْهَا سِمَاتُ تَجْدِيدِيَّةٍ أَهْمُهَا «الْبَعْدُ عَنِ التَّجْزِئَةِ وَالتَّجْرِيدِ وَالتَّسْيِيسِ، مَعَ التَّرْكِيزِ الشَّدِيدِ عَلَى التَّرْبِيَةِ الْخَلْقِيَّةِ»².

فَاتَّخَذَتْ سَبِيلَهَا إِلَى التَّرْبِيَةِ الصُّوفِيَّةِ بِإِحْدَاثِ التَّكَامُلِ بَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالْفَقْهِ، بَيْنَ الشَّرِيعَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْحَقِيقَةِ الْبَاطِنَةِ، كَمَا دَعَتْ إِلَى التَّجَرُّدِ عَنِ الْحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا وَالْإِبْتِعَادِ أَيْضًا عَنِ التَّجْرِيدِ الَّذِي اسْتَعْرَقَ فِيهِ فُقَهَاءُ الْفُرُوعِ وَأَصْحَابُ الْكَلَامِ وَأَهْلُ الْعُرْفَانِ وَالْفَلَسَفَاتِ الْإِشْرَاقِيَّةِ وَالْإِهْتِمَامِ أَكْثَرَ بِالْأَعْمَالِ التَّعَبُّدِيَّةِ.

أَمَّا التَّسْيِيسُ وَالَّذِي يُعْتَبَرُ مِنْ أَهَمِّ الْمَظَاهِرِ الْمُمَيَّزَةِ لِلْسُّنُوسِيَّةِ فَهُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَجَاهِدَةِ وَالْجِهَادِ، الْجِهَادَيْنِ، الْأَصْغَرَ وَالْأَكْبَرَ، وَالْمُسَاهَمَةُ فِي الْمَعَارِكِ وَالْحُرُوبِ دِفَاعًا وَنُصْرَةً لِلدِّينِ وَالْوَطَنِ، لَيْسَتْ لِأَطْمَاعٍ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ أَغْرَاضٍ سُلْطَوِيَّةٍ، وَإِنَّمَا عَمَلٌ تَعَبُّدِيٌّ إِيْمَانِيٌّ رُوحِيٌّ، وَقَدْ رَأَى الْبَعْضُ أَنَّهَا «أَقْرَبُ إِلَى الطَّابَعِ السَّلَفِيِّ، وَالْوَهَابِيِّ، بِحُكْمِ تَعَنُّتِهَا الدِّينِيَّةِ، وَدَعَوَاتِهَا التَّارِيخِيَّةِ لِلنُّورَةِ وَالْجِهَادِ وَالْإِهْتِمَامِ الشَّدِيدِ بِالتَّجْدِيدِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى "الْإِمَامَةِ"»³.

المذكور، وتذهب عائلة السنوسي إلى أَنَّ جَدَّهُمْ هُوَ سَيِّدِي عَبْدِ اللَّهِ شَرِيفٍ مَنَحْدَرٍ مِنْ أَحَدِ الْأَشْرَافِ الَّذِينَ حَلُّوا بِالْمَنْطِقَةِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ الْهَجْرِيِّ. أَبُو الْقَاسِمِ سَعْدُ اللَّهِ، تَارِيخُ الْجَزَائِرِ الثَّقَافِي، نَفْسُ الْمَصْدَرِ السَّابِقِ. ج 04. ص: 246.

¹ - ألفرد بل، بَنِي سُنُوسٍ وَمَسَاجِدُهَا. تر: مُحَمَّدٌ حَمْدَاوِي. دار الغرب. وهران، الجزائر. 2001، ص: 115.

² - حَفَاوِي بَاعِلِي، الشَّيْخُ الْعَلَمَةُ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ السُّنُوسِيِّ التَّلْمَسَانِيِّ. دار السَّبِيل. تلمسان، الجزائر. ط 01، 2011، ص:

27.

³ - الْقَوْلُ لِضَابِطٍ فَرَنْسِيِّ نَقَلَهُ عَنْ: صَادِقِ سَلَامٍ، فَرَنْسَا وَمُسْلِمُوهَا قَرْنِ مِنَ السِّيَاسَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ 1895-2005. تح: زُهَيْدَةُ

دُرُوشِ جَبُور. دار كَلَّة. أَبُو ظَبْيِي، الْإِمَارَات. ط 01، 2012، ص: 94.

وَمِنْ مُمَيَّزَاتِهَا أَيْضًا أَنَّهَا لَمْ تُشَدَّدْ عَلَى أَتْبَاعِهَا -خِلَافَ بَعْضِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ الْآخَرَى-
الانضمام إلى طرقٍ أُخَرَى، فَبِمَا كَانَ الْمُرِيدُ السَّنُوسِي أَنْ يَبْقَى عَلَى طَرِيقَتِهِ الصُّوفِيَّةِ وَيَكُونَ
سَّنُوسِيًّا إِذَا أَرَادَ¹.

مِنْ أَهَمِّ مَا اخْتَصَّتْ بِهِ السَّنُوسِيَّةُ أَنَّهَا تَبَنَّتْ دَعْوَةً إِصْلَاحِيَّةً شَامِلَةً، رَكَّزَتْ فِيهَا عَلَى خُطَّةٍ
شَامِلَةٍ لِلْإِصْلَاحِ، تَعْتَمِدُ أَساسًا عَلَى الدَّعْوَةِ الْعَامَّةِ لِجَمِيعِ أَقْطَارِهِ، وَرَفَضَ الْحُدُودَ الْفَاصِلَةَ
وَالْمَقْسَمَةَ لَهُ، كَمَا يَلْزِمُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحَرَكَةُ الْإِصْلَاحِيَّةُ سِيَاسِيَّةً وَفِكْرِيَّةً، فَالْإِسْلَامُ دِينٌ وَدَوْلَةٌ،
عِبَادَةٌ وَعَمَلٌ، كَمَا آمَنَتِ السَّنُوسِيَّةُ بِضَرُورَةِ نَشْرِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فِي كُلِّ الْمَنَاطِقِ وَنَبَذَ الزَّهْدَ
الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْخُمُولِ وَالْإِسْتِجْدَاءِ، وَبُغْيَةِ تَحْقِيقِ كَامِلٍ لِهَذِهِ النَّهْضَةِ وَالتَّجْدِيدِ جَعَلَ مِنْ إِنْشَاءِ
الرَّوَايَةِ كَمَرْكَزٍ إِشْعَاعِيٍّ عِلْمِيٍّ وَتَرْبَوِيٍّ، دِينِيٍّ وَثَقَافِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ وَعَسْكَرِيٍّ وَسِيلَةً لِنَتْفِيزِ ذَلِكَ،
فَانْتَشَرَتْ الرِّوَايَةُ السَّنُوسِيَّةُ فِي كُلِّ الْمَنَاطِقِ الْمَغَارِبِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ حَتَّى فِي إِفْرِيقِيَا السُّودَانِ².

2-11/ الطَّرِيقَةُ الرَّحْمَانِيَّةُ:

وَتُنْتَسَبُ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ لِلْعَالَمِ وَالشَّيْخِ الْجَزَائِرِيِّ "مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْإِدْرِيسِيِّ الْأَزْهَرِيِّ"،
وُلِدَ حَوَالِي 1126 هـ وَتُوفِيَ سَنَةَ 1208 هـ/1799 م، بَدَأَ تَعْلِيمَهُ الْأَوَّلِيَّ فِي زَاوِيَةِ الشَّيْخِ "الصَّدِيقِ
بَنِ أَعْرَابٍ" فِي قَرْيَةِ آيْثِ إِيْرَاتْنِ ثُمَّ غَادَرَ الْجَزَائِرَ بَعْدَهَا لِأَدَاءِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ، ارْتَحَلَ بَعْدَهَا لِعِدِيدِ
مِنَ الدُّوَلِ، حَتَّى بَلَغَ الْهِنْدَ، وَعَادَ إِلَى السُّودَانِ، فَمَكَثَ بِهَا بُرْهَةً، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْجَزَائِرِ سَنَةَ
1183 هـ-1769 م، لِيَسْتَقَرَّ بِبَجَايَةِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْعَاصِمَةِ ثُمَّ قَامَ بِتَأْسِيسِ زَاوِيَتِهِ فِي مَسْقَطِ رَأْسِهِ

¹ - أَمَّا عَنْ أَوْرَادِ الطَّرِيقَةِ، فَتَتَلَخَّصُ فِي تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ «ثُمَّ الْإِسْتِغْفَارُ وَالتَّهْلِيلُ وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ هُنَاكَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَوْرَادِ
الَّتِي يُوَاطِبُ الْمُرِيدُونَ عَلَى قِرَاءَتِهَا، وَهِيَ مُوزَعَةٌ عَلَى أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ كَالْحَزْبِ السِّفِيِّ وَالْحَزْبِ الْمَغْنِيِّ، وَدُعَاءُ الْإِخْتِنَامِ بَعْدَهُمَا،
وَحَزْبُ النُّورِ الْأَعْظَمِ وَالْكَنْزِ الْمَطْلَسِ، وَحَزْبُ التَّجَلِّيِ الْأَكْبَرِ وَالسَّرِّ الْأَفْخَرِ وَالْأَوْرَادِ الْأَحْمَدِيَّةِ، كَمَا يُؤْمِنُ أَتْبَاعُ الطَّرِيقَةِ السَّنُوسِيَّةِ
وَمُرِيدُهَا بِأَنَّ الْإِمَامَ السَّنُوسِيَّ كَانَ عَلَى اتِّصَالِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ بِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِنَاسِيسِ الرِّوَايَةِ
وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ». صَلَاحُ مُؤَيِّدِ الْعَقْبِيِّ، الطَّرِيقُ الصُّوفِيَّةُ وَالرِّوَايَةُ بِالْجَزَائِرِ تَارِيخُهَا وَنَشَاطُهَا. مَرْجِعٌ سَابِقٌ. ص: 191.

² - يُنْظَرُ: أَحْمَدُ شَلْبِي، مَوْسُوعَةُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ. مَكْتَبَةُ النَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ. الْقَاهِرَةُ، مِصْرَ. ط 10، 1995، ص: 434-435.

بآيت إسماعيل والتي كانت مُنطلق نشر تعاليم طريقته الخلوتية وعُرفت باسمه فيما بعد بالرحمانية، وانتشرت الطريقة الرحمانية انتشاراً كبيراً وسط وشرق وجنوب الجزائر¹.

فَالرَّحْمَانِيَّةُ طَرِيقَةُ خَلَوْتِيَّةٍ، لَهَا مُمَارَسَاتُهَا الْخَاصَّةُ، الَّتِي تَرْتَكِزُ أَسَاسًا عَلَى الْعِزْلَةِ وَالتَّقَشُّفِ وَالدُّكْرِ وَالمِثَاقِ بَيْنَ الشَّيْخِ وَالمُرِيدِ وَمَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ السَّبْعَةِ، الَّتِي جَعَلَتْ مِنْهَا الرَّحْمَانِيَّةُ أَسَاسَ التَّدْرِجِ التَّرْبَوِيِّ الرُّوحِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ لِمُرِيدِهَا، وَمَرْكَزَ الِارْتِقَاءِ وَالتَّطَهَّرِ مِنَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسَّوِّءِ إِلَى النَّفْسِ الْكَامِلَةِ الرَّاضِيَةِ الْمَرْضِيَّةِ².

وَهَذِهِ الْأَذْكَارُ مُرْتَبِطَةٌ بِالمَرَاهِلِ السَّبْعَةِ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْهَا اسْمٌ خَاصٌّ دَالٌّ عَلَيْهَا³.

وَيُلْزَمُ اتِّبَاعُ الطَّرِيقَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ بِأَذْكَارٍ وَأَوْرَادٍ أُخْرَى تَخْتَلِفُ مِنْ حَيْثُ الصِّيَغِ وَالْعَدَدِ عَنِ الطَّرِيقِ الْآخَرِ، وَكُلُّهَا مُقْتَبَسٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْأَذْكَارِ النَّبَوِيَّةِ، تَجْمَعُ بَيْنَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالأَدْعِيَةِ وَالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

¹ - عبد الرحمن جيلالي، تاريخ الجزائر العام. ج03. دار الأمة. الجزائر، 2009، ص: 255. يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. ج02. دار الغرب الإسلامي. بيروت، لبنان. ط01، 1995. ص: 143.

² - فَيَبْتَدِئُ المُرِيدُ مِنْ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" ثُمَّ "اللَّهُ هُوَ" ثُمَّ "حَقٌّ" ثُمَّ "حَيٌّ" ثُمَّ "قَيُّومٌ" ثُمَّ "قَهَّارٌ" لَيْلاً وَنَهَارًا، مُتَدَرِّجًا وَمُتَقَرِّبًا مِنْ اسْمِ إِلَى اسْمٍ وَمِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ. يُنْظَرُ: عبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية. مرجع سابق. ص: 46.

³ - وَتَبْتَمِلُ فِي: الْأَوَّلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ وَتُسَمَّى فِيهِ النَّفْسُ بِالأَمَّارَةِ.

الثَّانِي: اللَّهُ؛ وَتُسَمَّى فِيهِ النَّفْسُ بِالْوَامَةِ.=

= الثَّالِثُ: هُوَ؛ وَتُسَمَّى فِيهِ النَّفْسُ بِالمَلْهُمَةِ.

الرَّابِعُ: حَقٌّ؛ وَهُوَ أَوَّلُ قَدَمِ يَحْلَهُ المُرِيدُ مِنَ الْوَلَايَةِ وَتُسَمَّى فِيهِ النَّفْسُ بِالمُطْمَئِنَّةِ.

الخَامِسُ: حَيٌّ؛ وَتُسَمَّى فِيهِ النَّفْسُ بِالرَّاضِيَةِ.

السَّادِسُ: قَيُّومٌ؛ وَتُسَمَّى فِيهِ النَّفْسُ بِالمَرْضِيَّةِ.

السَّابِعُ: قَهَّارٌ؛ وَتُسَمَّى فِيهِ النَّفْسُ بِالْكَامِلَةِ وَهُوَ غَايَةُ التَّقَاتِ.

يُنْظَرُ: عبد المنعم القاسمي الحسيني، الطريقة الرحمانية الأصول والآثار. مرجع سابق. ص: 245.

⁴ - وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَوْرَادِ:

- وَرَدَ السَّبَّحَةُ، بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْمَغْرِبِ يَوْمِيًا.

- يَقْرَأُ وَرَدَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الْأُسْبُوعِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ.

من الخصوصيات الأخرى التي انفردت بها هذه الطريقة أيضًا عدم حصر رئاسة الطريقة في أبناء المنطقة أو ليلانتماء القبلي أو لنسب وذرية مشايخها، بل قدمت العلم والصّلاح على كلّ اعتبار آخر، لذلك نجد من بين من تولّى رئاستها مشايخ من أبناء ربوع الوطن ومن خارجه أيضًا، فأول من تولّى رئاستها، بعد وفاة المؤسس الشيخ "ابن عبد الرحمان" الشيخ "علي بن عيسى"¹ والثالث الشيخ "الحاج إبراهيم"، كانا من المغرب الأقصى، أمّا السادس أي "محمد الجعدي"، فهو من منطقة سُر الغزلان².

تتفق الطرق الصوفية في الجزائر على خصوصية ثابتة وهي جمعها بين ثنائية الحقيقة والطريقة، واتّحاد أهدافها التربوية الروحية، مع اختلاف وسائلها ومناهجها في ذلك، فلا نرى اختلافًا جوهريًا بين هذه الطرق الصوفية المذكورة، على الرغم من اختلاف مشايخها ومناطق انتشارها، فهي جميعها نابعة من مشكاة واحدة، هي الشريعة الإسلامية، والاختلاف والخصوصية الموجودة تظهر جليّة في اعتماد كل طريقة على أورد وأذكار مخصوصة تميّز كلّ وحدة منها، عامّة أو خاصّة، وبصيغ معيّنة ومحدّدة، يجيزها ويلقنها شيخ التربية لمريديه.

- تقرأ المسبحات والصلوات الدرديرية ومنظومة أسماء الله الحسنى ليلتي الجمعة والاثنين من كلّ أسبوعٍ بعد صلاة المغرب.

- يقرأ ورد الدرة الشريفة بكامله مع تكرار قول: حسبنا الله ونعم الوكيل 77 مرّة، ثمّ حزب السيف ثمّ الهمز الهمز صباح الاثنين والجمعة بعد صلاة الفجر.

يقرأ ورد السحر قبل الفجر بساعة يوميًا في الليالي الطوال من السنّة وهو ورد اختياريّ.

يُنظر: عبد المنعم القاسمي الحسيني، الطريقة الرحمانية الأصول والآثار. نفس المرجع السابق. ص: 182-183.

¹ - علي بن عيسى التماسيني: العالم الفاضل الولي الصالح أبو الحسن علي بن عيسى التماسيني (نسبة إلى تماسين بالجنوب الجزائري)، من خاصّة خاصّة الشيخ أحمد التيجاني، وشيخ زاوية تماسين، بالقرب من بسكرة، أصله من بلاد الحاز، توفي سنة 1260هـ-1844م، ودفن بداره في تماسين. عبد المنعم القاسمي الحسيني. أعلام التصوف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 246.

² - الشيخ الحداد، التقيد المحلّ للتّعقيد في التّصوّف. مرجع سابق. ص: 39.

الفصل الثَّالث: الأبعاد الوظيفية

للتَّربية الصَّوفية

المبحث الأول: البعد الروحي والأخلاقي.

1/- البعد الروحي.

2/- البعد الأخلاقي.

المبحث الثاني: البعد الاجتماعي

1/- مظاهر البعد الاجتماعي.

2/- دور الزوايا في نشر العلم.

3/- السلام النفسي والاجتماعي ونبذ العنف.

المبحث الثالث: البعد الإنساني والحضاري والثقافي

1/- البعد الإنساني والحضاري.

2/- البعد الثقافي.

المبحث الأول: البعد الروحي والأخلاقي

يحتلّ البعد الروحيّ في التربية الصّوفيّة المقام الأوّل، اقتداءً بسيد المرسلين وإمام المربين والمرشدين، الذي حرص المتصوّفة على انتهاج سبله من خلال الاهتمام الشديد بتطهير القلب وتركيز النفس وتشخيص أمراض القلوب وعللها وإيجاد الدّواء لها ومقاومة الهوى وسدّ مداخل الوسوس الشيطانية.

فالتربية الصّوفيّة الروحية تخلية وتحلية، تهذيب وتشجيب البواطن من كلّ الرذائل، وتحليته بالفضائل، فالروح جوهر الإنسان والطريق البين الموصول إلى "الحقّ" وإلى "المعرفة" من خلال اكتشافها من جديد وإعادتها لأصلها الأوّل، ومحو وإزالة الحجب التي أفقدتها قيمتها العليا وأصولها الروحية الرّبانية، وأغرقتها في أطماع الدنيا وشهوات النفس واللّهث وراء الأطماع المادّيّة الدنيوية الزائلة، فاستدعى المنهج الصّوفيّ تحريرها من وصفها هذا والعودة بها إلى جوهرها، وبالتّركيز على "الروح" لإيقاظ الوعي الإنسانيّ بحقيقته الأصيلة والدّعوة إلى إصلاح باطنه وتطهيره وتنقيته.

فالحقيقة التي لا سبيل إلى جردها ونكرانها، أنّ هذا البعد الروحيّ هو أصل كلّ الأبعاد الأخرى، وهو مركزها ومدار تحقّقها أو فشلها، فرديّاً وجماعيّاً، ظاهريّاً وباطنيّاً، اجتماعيّاً وأخلاقيّاً، فالجهاد والبذل والعطاء والفتح والإصلاح والشّجاعة والإيثار... ما كان لها أن توجد وتظهر إلّا بعد صفاء الروح وتهذيبها إذا صلحت حياته الروحية، صلحت حياته الأخرى دنيويّاً وأخرويّاً، لأنّ الحياة الروحيّة أداة للسيطرة على النفس والتّحكّم فيها، فإنّ قدر على ذلك، تمكّن من إدراك الحقائق الربانية.

1/- البعد الروحيّ:

التربية الصّوفيّة إثمار للرّسالة الروحية للإسلام، وسعيّ مستمرّ لتحميل وتفعل المضامين العميقة لديننا الحنيف وتوظيفها توظيفاً إيمانياً إيجابيّاً، بمظهره الشريعة والطريقة ووصولاً للحقيقة في ذلك، واستنباطاً متواصلً واستشعاراً دائماً للوحي القرآنيّ، للتعايش مع طغيان النفس والمادّة، وتحقيق التّوازن اللازم.

وَمِنْهُج التَّربِيَةِ وَالْمَجَاهِدَاتِ النَّفْسِيَّةِ، يَسْعَى دَوْمًا لِتَصْفِيَةِ هَذِهِ النَّفْسِ مِنَ الْمَطَالِبِ الْمَادِّيَةِ وَالْحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ، الَّتِي تَحِيدُ بِالنَّاسِ وَتَشْغَلُهُمْ عَنِ الْمَطْلَبِ الْأَسَاسِيِّ وَهِيَ تَحْرِيرُهَا مِنْ تَمَلُّكِهَا الْجَسَدِيِّ وَإِسْتِعَادَةِ طَهَارَتِهَا الْعُلُويَّةِ، لِأَنَّ أَصْلَ الرُّوحِ عُلوِّيٌّ نُورَانِيٌّ طَاهِرٌ (﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَنَفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ﴾) مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ، الْآيَةِ 53، فَلَمَّا انْتَصَفَتْ بِهَيْكَلِهَا الْجَسَدِيِّ، تَاهَتْ وَجَهَلَتْ وَتَعَبَتْ، طَلَبًا لِلْعُودَةِ لِأَصْلِهَا الْأَوَّلِ فَ «الْمَتَصَوِّفُ لَا يَرْفُضُ الشَّرِيعَةَ إِطْلَاقًا، وَلَا طُقُوسَ الْإِسْلَامِ، هُوَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ يَنْثِيرُهَا مِنَ الدَّخْلِ مُجَدِّدًا لِلْمُؤْمِنِينَ مَعَانِيَهَا بِاسْتِمْرَارٍ»¹.

هَذَا الْمَثِيرُ الدَّاخِلِيُّ، الَّذِي يَقُومُ بِالْإِحْيَاءِ وَالْبَعْثِ الْجَدِيدِ الْحَيَوِيِّ لِلتَّصَوُّصِ الشَّرْعِيِّ وَالشَّعَائِرِ وَالطُّقُوسِ الدِّينِيَّةِ هِيَ مُمَارَسَةُ التَّربِيَةِ الصَّوْفِيَّةِ، وَالْعَمَلُ عَلَى تَرْبِيَةِ النَّفْسِ وَالسَّيْرِ بِهَا وَالْإِرْتِقَاءِ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ «وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَى هَذَا الْإِنْسَانِ، وَضَعَ هَذَا الرُّوحَ فِي هَذِهِ الْجَبَّةِ الْجَثْمَانِيَّةِ، لَطِيفَةً لَاهُوتِيَّةً مُودَعَةً فِي كَثِيفَةٍ نَاسُوتِيَّةٍ فَمِنْ غَلَبَتْ لَطَافَتُهُ عَلَى كَثَافَتِهِ كَانَ رُوحَانِيًّا وَالتَّحَقُّقُ بِالرُّوحَانِيِّينَ، وَمَنْ غَلَبَتْ كَثَافَتُهُ عَلَى لَطَافَتِهِ كَانَ جِسْمَانِيًّا وَالتَّحَقُّقُ بِالْبَهَائِمِ، وَمَنْ تَوَسَّطَ نَالَ شَيْئًا مِنْ طَبْعِ الْبَهَائِمِ وَشَيْئًا مِنْ طَبْعِ الرُّوحَانِيِّينَ»²، فَالْإِنْسَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ جَسَمٍ مُرَكَّبٍ فِيزِيَائِيًّا وَسَيْكُولُوجِيًّا، وَإِنَّمَا جَوْهَرُهُ سَرٌّ وَجُودِيٌّ عَمِيقٌ، هُوَ أُسَاسُ بُنْيَةِ الْحَقِيقَةِ وَوُجُودِهِ الْأَصِيلِ، يَتَجَاوَزُ ظَاهِرَهُ، لِيَرْبِطَهُ بِالْمَطْلُوقِ وَلَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَاكْتِشَافَهُ إِلَّا هُوَ ذَاتُهُ، مِنْ خِلَالِ تَغْلِيْبِ اللَّطِيفَةِ الرُّوحِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَى الْكَثَافَةِ الْبَدَنِيَّةِ الْجَسَدِيَّةِ الْبَهَائِمِيَّةِ. لِهَذَا عَمِلَتِ التَّربِيَةُ الصَّوْفِيَّةُ عَلَى إِحْيَاءِ الْبَعْدِ الرُّوحِيِّ وَتَقْوِيَةِ هَذِهِ الْجَوَانِبِ الرُّوحِيَّةِ، لِتُمَكِّنَ الْفَرْدَ وَالْمُرِيدَ مِنْ كَبْحِ شَهَوَاتِهِ وَمَلَذَّاتِهِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى نَفْسِهِ، فَيَنْعَتَقَ مِنْ حَسِّهِ الظَّاهِرِ وَكُلِّ الْعَوَامِلِ السَّلْبِيَّةِ، الَّتِي تَقِفُ حَاجِزًا دُونَ تَحْرِيرِ طَاقَاتِهِ وَإِسْتِغْلَالِ إِمْكَانَاتِهِ.

"قَالَجِهَادُ الْأَكْبَرِ" هُوَ جِهَادُ الْإِنْسَانِ أَعْدَاءَهُ الَّذِينَ يَحْمِلُهُمْ مَعَهُ، جِهَادُ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَمُحَاطَلَةُ إِعَادَتِهَا لِأَصْلِهَا الرُّوحَانِيِّ «وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ إِعْدَامُ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ الَّتِي لَهَا أَيْضًا، كَكُلِّ

¹ - Eric Geoffroy. Le soufisme. Voice intérieure de l'islam seuil. Coll. "point" 2009. P :09.

² - ابن عجيبة الحسني، الفتوحات الإلهية. تح: عبد الرحمن حسن محمود. عالم الفكر، القاهرة. مصر. ص: 311.

موجود، سبب لوجودها وموقع في الجملة، وإنما المقصود بالأحرى، هو جوهرتها بإرجاعها إلى الوحدة¹.

فَالمنهج التربوي الصوفي يُحاول دمج الحياة العادية الواقعية والفعلية، بالحياة الروحية التأملية، يتعايش الإنسان فيه بين عالميه الداخلي والخارجي والمؤثرات الخارجية بكل أشكالها وتَمظهراتها، فَيُرتقي بِجوانبه الداخليّة الروحية، دُونَ أَنْ يَبْقَى أسيرًا للحياة العامية العادية الفارغة، التي قد تُلهيه عن أهدافه السامية وتُعيد به عن المنهج التربوي الصحيح لبُلوغ ذلك، وتُنبِطُه عن مُمارسة المجاهدات والرياضات لِترقية جوانبه الروحية، وتحقيق الاستقامة النَّامة.

من النفس إلى الروح:

النفس جوهر واحد لا تعدد فيه، وإنما تتعدد في أحوالها وأوصافها: أمارّة، لَوامة مُطمئنة، راضية... وهي بطبيعتها الروحانية تطلّ ترنو إلى الكمال والرجوع لعالمها العلوي، وتبقى تسعى دومًا إلى الخلاص من قيود الجسد وتأثيرات المادة، والعودة إلى أصولها الطاهرة واتصالها المباشر بِخالقها، وكان لابد من مُجاهدتها وتطهيرها. ورحلة المجاهدة والتطهير والرقّي الروحي رحلة مُعاناة كما يصفها "البسطامي" حيث ينطلق من مرآة قلبه لمعرفة عُيوبها ونقائصها، ثم يُحاول التّجرد وقطع العلائق الشاغلة العائقة للقلب من التفرّغ لله وتحجبه بِحجاب الغفلة «كانت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمس سنين كُنت مرآة قلبي، فإذا في وسطي زنار ظاهر فعملت على قطعه، وعندما نظرت إلى الخلق قرأيتهم موتى»².

فَالمعراج الروحي، أو السّفر والطّريق والسّير والسلوك واجب لبُلوغ هذا البعد الروحي، فلا تربية رُوحية دون قطع هذه المنازل والأحوال والمقامات، وإذا كان خُروج الإنسان إلى هذا العالم يُسمّى ميلادًا طبيعيًا، فخُروج الصوفي إلى العالم الروحي يُسمّى ميلادًا رُوحياً، بالتّطهّر

¹ - روني جينو، رموز الإنسان الكامل. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث إريد. الأردن. ط1، 2016. ص: 127.

² - قاسم عباس مُحمّد، أبو زيد البسطامي المجموعة الصوفية الكاملة. دار الهدى للثقافة والنشر. دمشق، سوريا. ط 01، 2004. ص: 66.

والمجاهدة والتزكية والتصفية المستمرة والمتواصلة، الشاقة والمتعبة، ظاهراً و باطناً، بمعالجة النفوس وسياستها تدريجياً ومحو آثار الترسبات الزمنية والمادية التي علفت بها وغلفتها بحجب عديدةٍ منعته من الحفاظ على أصولها الروحانية النقية، لإعادتها لطريق "الاستقامة"، بعد عملية تطهيرها وإعادة توجيهها إلى ميثاقها الأول الذي قطعه على نفسها مع ربها، وإبعادها عن معاركها الهامشية التي غرقت في أحوالها «وأصل التدبير في ذلك كله تلطيف النفوس بإصلاح القوى، ثم تلطيف الأرواح بكباريت الاستقامة بعد تطهيرها من أوساخ البدع، ثم تلطيف الأجساد بأنواع التوجهات، وما هو إلا تهذيب، ثم تأديب ثم تدرّج يُنتج وجود التقريب»¹.

لا يتم هذا التلطيف إلا بإيقاظ مراكز الإدراك فيها من خلال تتبع المريد طريقاً يترقى بنفسه ووصولاً للحقائق المخفية وإلى مقامات "القرب"، ويمس هذا التدرّج النفس والقلب فالروح ووصولاً إلى السرّ، بتطهير النفس الشهوانية المادية وتزكية القلب الروحية، ليصير وعاءً مُمثلًا بالحب الإلهي والتجلي الروحي، ومُتعلّقاً تعلّقاً دائماً بالله، صافياً حياً، مُتخلصاً من كلّ الأكدار والأمراض المعنوية لقوله تعالى: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ٨٨) سورة الشعراء، الآية 88-89.

«إنّ تعلم رقص الروح عبءٌ ثَقِيلٌ، إحراق غير الحقّ عبءٌ ثَقِيلٌ فطالما يحترق القلب بنار الطمع والهَمِّ، فإنّ الروح لا تندمج في الرقص يا بُني»².

بلوغ هذا التناغم والتكامل، يمرّ عبر مراحل التصفية هذه، والمعالجات المتدرّجة، كما يحتاج منهاجاً دقيقاً، ونفساً تواقّةً مُخلصةً، وهدفاً واضحاً مُحدّداً، فترويض النفس شاقٌّ ومُجاهدتها ثَقيلةٌ لسيطرة الطمع والتوقان الدائم للشهوات الحسية، فَيَتَشَتَّت قلب الإنسان وَيَفْقَد

¹ - أحمد زروق، عدّة المريد الصادق. تح: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. ط01، 2006. ص: 193.

² - محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز. تر: عبد الوهاب عزّام. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة، مصر. 2014. ص: 237.

الراحة والسعادة الروحية، وتحول وساوسه وهوسه بينه وبين مُواصلة عملية معراجهِ الرّوحيّ والتّرقّي في درجاته وتحقيق الوصول.

فالنّزوع إلى متاع الحياة الدّنيا والارتباط بجوانبها الحسيّة المادية يُؤثّر سلبيّاً في حقائق التّركيبة النّفسية للإنسان وفي انحصار (كذا) ملكاته الروحية وتوقعه في "وهم الحياة الاعتيادية"¹. وهو يُضخّم البعد المادّي ويُهَمِّش البعد الرّوحيّ، ويُحاول إلغائه، أو تقزيمه وتقليل حضوره وهم كاسرّاب الممتدّ الذي يُقَيّد الإنسان ويُحيله إلى مراتب الهيمنة، فيحصر وجوده في المأكّل والمشرب والملبس وكماليات الحياة، ويُفني عُمره في مُحاولَة إرضاء هذه الشّهوات والنّزوات الدّنيوية الفانية ويتناسى، من خلال هذا "الوهم الاعتياديّ" أسرار وجوده وحقائق خلقه. ينجح هذا "الوهم" جليّاً في وقتنا الحاضر باستبدال الحكم الزّمنيّ المعاش بالسلطة الروحية المتعالية، من خلال إفقاد التّوازن بينهما وتغليب العناصر المادية المنحطّة على الجوانب والأبعاد الروحية ويتلذّذ الإنسان زيفاً في جرم نسيانه لمبادئه العلوية وفي بلوغه الدّركات السفلية، التي يُخلّد فيها مُنكراً كلّ معرفة حقيقية رُوحية، ولهذا نحن بحاجةٍ للبعد الرّوحيّ في كلّ زمان ومكان، ويجب أن تسعى دوماً لتأصيله في مُجتمعاتنا لأنّ «التّاريخ يُبيّن لنا بوضوح أنّ عدم الاعتراف بهذا النّظام التّراتبيّ ينجّر عنه في كلّ مكان وزمان نفس النّتائج فُقدان التّوازن الاجتماعيّ، واختلاط في الوظائف، وهيمنة مُتفاقمة للعناصر الأكثر انحطاطاً وأيضاً تقهقر وانحطاط للعقلية المستبصرة وللروحانية، وفي البداية نسيان للمبادئ المفارقة المتعالية، ثمّ هبوط تدريجيّ دَرَكَة بعد دَرَكَة، إلى حدّ إنكار أيّ معرفة حقيقية»².

فأيّ تغيبٍ لممارسات مُستوى الإحسان في سلوكاتنا سينجرّ عنه دينٌ مبتورٌ دون رُوح وغيابٍ لِحقائق الشّعائر وجوهرها، وطغيان الظّاهر السّطحيّ على الباطن العميق القيميّ الأخلاقيّ، وتنعكس الشّعائر الدّينيّة طُقساً جوفاء وأفعالاً ميكانيكيّة آليّة، لا ثمار فيها، وينتج

¹ - عبد الواحد يحيى، هيمنة الكمّ وعلامات آخر الزّمان. مرجع سابق. ص: 237.

² - عبد الواحد يحيى، السلطة الروحية والحكم الزّمنيّ. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط 01، 2018، ص: 93.

عن ذلك فقدان المرء للإيمان العميق الحقيقي لعلاقته مع ربه، وينتابه الشك في حياته وفيمن حوله، ويفقد التوازن الحق مع ذاته ومع الآخرين.

«وهذا الانحطاط الروحي لم يحدث بضربة واحدة، وإنما حدث عبر مراحل متتالية ومنطقيًا لا يتم البعث والإحياء إلا بقطع تلك المراحل في الاتجاه المعاكس بالاقتراب التدريجي من "الوضع الفطري الأول" الذي ينبغي التحقق به من جديد»¹.

وعملية تجديد هذا الوضع الفطري الأول، وإعادة بعث التحقق الروحي، تحتاج وقتًا ومنهجًا وصبرًا وإخلاصًا لأننا بلغنا مراحل متقدمة وموغة في الاتجاه المعاكس، ولهذا أصبنا بأزمة روحية كونية، في ظل الانحراف الخلقي والفراغ الروحي وغياب المعنى وحالات الانفصام التي نعيشها في وقتنا المعاصر، خاصة ونحن نواصل ترسيخ هذا الانحطاط وتنميته وممارسته بكل الوسائل بقصد ودون قصد، من خلال تمسكنا بالحادثة وما بعد الحادثة وإهمال "الجوهر والمعنى" والتفكك الاجتماعي والأخلاقي ومحاولة أنمطة الفكر والثقافة البشرية لتدجينها واستغلالها اقتصاديًا وتجاريًا وتسويقيًا، فصرنا كائنات بشرية متشظية، في ظل العولمة والتسويقية العالمية المهيمنة، مفرغين من أي سند علوي أو داخلي يمكننا من مقاومة هذه الثقافة التسويقية الجارفة وأحدثنا قطيعة تامة مع كل مرجعية روحية وأخلاقية إلا بما يلبي ذاتيتنا ومصالحنا ويُسبع رغباتنا المتفردة وأصبنا بـ"النكوص الطفولي" وما يجري الآن في عالمنا ما بعد الحادثة وما بعد العقلانية التتويرية كمشروع شمولي كامل لمعنى الوجود البشري².

هذه المشاريع الشمولية الكلائية كرست لهذا الانحراف عن المسار الروحي، وأسهمت

بشكل واضح في ممارسة تمرّد الفرد عن محور علاقاته الموجودة منذ الأزل بين الإنسان والمطلق وتحوير مساره إلى اهتمامات جانبية وهامشية أخرى، كما أوغلت في تقديس العقل والمادة وحُبّ النفس فنتج عن ذلك إحداث الفوضى على المستويات جميعها خاصة المستوى

¹ عبد الواحد يحيى، التربية والتحقق الروحي: تصحيح المفاهيم. مرجع سابق. ص: 140.

² جوزيبي سكاتولين، تأملات في التصوف والحوار الديني. تح: عمّار علي حسن. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر. 2013، ص: 176-177.

الرُّوحِيّ، وتلاشت بذلك قيمنا التي تربطنا بالله وسقطنا في بُورَة الإفلاس والخواء الرُّوحِيّ والمسار العام للحضارات الحديثة والمعاصرة، اهتم كثيرًا بالبناء المادي الظاهري والشكلي وتفانى في تحقيق رفاهية الجسد، وإفقار المعنى الرُّوحِيّ، مُبرِّرةً لأوهامها هذه بدعاوي التّقدّم والتّكنولوجيا والعلم الحديث، فتفنّنت وبالغت في ابتكار وسائل تقوية الغرائز الحيوانية المثيرة للشّهوات، وحفّزت على خلق جوّ ضاغطٍ على الإنسان، ضغط الشّهوات الحيوانية البهيمية القاتلة، وفي خلق إنسانٍ مُعاصرٍ فاقِدٍ لِتوازنه الرُّوحِيّ، مُوغلٌ في المادّية «فالحضارة الحديثة عوراءٌ لا تنظر إلّا بعينٍ واحدةٍ لأنّها بترت البعد الرُّوحانيّ، من الوجود، ولم تعد تعترف إلّا بالبعد الماديّ المحض»¹.

لهذا تبحث التربية الصّوفيّة على بعث حنايا العالم اللّانهائيّ انتقالاً من المادّيات إلى اللّامادّيات، ومن الظّاهر إلى الباطن ومن المتناهي إلى المطلق، من مُنطلق تغيير ذات الإنسان وتصفيه نفسه وتركيبته وتحصيل المعرفة، وإعادة بعث علاقات الإنسان مع نفسه ومع مظاهر الكون المختلفة، هذا البعد الرُّوحِيّ الذي لم يعد من أولويات دُعاة التّحضّر والتّمَدّن، أو أنّه أصبح يُشكّل عائقاً -في زعمهم- ضدّ هذا التّوجّه الجديد، «فالاتّبعاد عن الرُّوحية بادّعاء التّحضّر والتّمَدّن والعلم والعقلانية والحدّات وما بعدها يُحقّق فعلياً مقولة "العلم الغربيّ دراية جاهلة"»².

فهو دراية تقنية مادية بحثة، سهّلت حياة الإنسان ومكّنته من اكتشاف ما حوله ويُلَوِّغُ مُعجزات علمية خارقة، تمكّن من خلالها السّيطرة على هذا العالم وتذليله لخدمته، ولكنّها عجزت عن اكتشاف حقيقة الإنسان وحاجاته الحقيقية وحلّ مشاكله الرُّوحية، بل ازدادت جهلاً، لأنّها أبعدت هذا المخلوق عن أصل وجوده وأماتت جوانباً مهمّةً في قيمه الرُّوحية السّامية، فأدّى هذا الانفصال إلى فراغٍ رُوحِيٍّ رهيبٍ وتبخيس الذات الإنسانية واحتقارها إلى حدّ

¹ - إريك يونس جوفروا، المستقبل للإسلام الرُّوحانيّ. تر: هاشم صالح. نبض للنشر والتّوزيع، القاهرة، مصر. ط01، 2016، ص: 112.

² - عبد الواحد يحي، شرق وغرب. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن. ط01، 2016، ص: 76.

انتحارها، وكثرت الاضطرابات النفسية والإحباطات المعنوية واكتملت مُصيبة "الدراية الجاهلة" بالحيّدة عن معرفة حاجاتها الروحية الحقيقية والاشتغال الكامل بالسلوك الظاهر الدنيوي المادي.

وعبئاً حاولنا، الخروج من هذا النسق العام، الذي ما زدنا فيه إلا توغلاً وتيهاناً واقتربنا منه، بل اتحدنا معه حين رمنا نفيه والانفصال عنه «وإذا سلّمنا بأن للتطور المادي بعض الفوائد، فإن رؤية النتائج تجعلنا نتساءل عما إذا كانت قد تجاوزتها الخسائر الفادحة بقدر كبير؛ ولسنا نتكلّم هنا عن كلّ ما ضحي به في سبيل هذا التطور المنحصر في المادّة وهو بلا مقارنة أنفس وأسمى، كما لا نتكلّم عن المعارف العليا التي نسيت، ولا عن المستوى العرفاني الذي حطّم ولا عن الروحانية التي اختفت»¹.

فمهما بلغت هذه الحضارة المعاصرة شرقياً وغربياً، ومهما حاولت أن تتعالى على ذاتها وعلى مركز وجودها وعلى علاقاتها بالمطلق المتعلّق المتسامي، لا يمكنها إلا أن تعود إلى ميثاقها الأول المقدّس، إن أرادت بلوغ رشدّها وحالتها المتوازنة والسليمة.

فالنموذج التربوي الصوفي مؤهل أكثر لإحداث هذه الطفرة الداخلية للتغيّر الروحي العميق، لرؤيته المتكاملة للنفس والوجود والكون، ولبحثه الدائم عن بلوغ النموذج الحقيقي للإنسان الكامل، وقدرته على الرّبط المنسجم وإحداث التوافق والتزامن اللازمين بين عالمي الغيب والشهادة، بين الدّين والدّنيا، واستناداً للسلسلة التراثية الروحية الشرعية التي تجمع بين الشريعة والحقيقة وتُمكن من «التوليف بين الجوهر الروحاني في الإنسان، وبين البحث عن الاستئناس والاطمئنان بالله، هو باب الولوج إلى مدينة التّصوّف»².

فإمكانية إحداث هذه التّوليفة الروحية بين الجوهر الإنساني والقرب من الله، من اختصاص التربية الصّوفيّة، لتضمّن كلّ الوسائل والغايات الروحية الخلاقة، التي تؤهلّها لاستدعاء

¹ عبد الواحد يحي، أزمة العالم الحديث . تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط 01، 2017، ص: 101 .

² عبد السلام الغرميني، الصّوفي والآخر: دراسات نقدية في الفكر الإسلاميّ المقارن . المدارس، الدّار البيضاء، المغرب. ط01، 2000، ص: 53.

الروحانية الكامنة في الشخصية البشرية، وإنارة ظلمات النفس وإطلاق طاقات الخير الإيجابية الكامنة.

ذلك أن المريين الصوفيين امتازوا عن غيرهم من المريين بالفهم الحقيقي للبعد الروحي التربوي، فمارسوا هذه التصفية الروحية، وجاهدوا أنفسهم، ولم يقتصروا على الادعاءات النظرية ولا الممارسات الشفوية، كما تجاوزوا حصرها في مجرد مبادئ تلقينية وقواعد دينية تعليمية، بل أدركوا قيمة العناية بتركيتها وتطهيرها، وتخليتها وتحليلتها وإصلاح هذا الجانب فيها. «فالتصوف ليس إذن مجرد أسماء تسرد أو صفات صيدلية، بل هو علاج بدأ الطبيب المعالج فجربه على نفسه ابتغاء أن يفيد به الآخرون»¹.

فيتحول المريون الصوفيون إلى أطباء ومعالجين نفسانيين يعملون على شفاء أمراض وسواس وبلايا الآخرين، بفضل ما اكتسبوه من خبرة وتجربة في ميدان السير القلبي، وما نالوه من نور رباني أضاء بصائرهم وأنار حكمتهم خاصة في عصرنا الحالي، بعد سطوة المادية وانتكاس مجال النفوس البشرية وغرقها في الضياع والقلق والكآبة واضمحلال المعاني الروحية وفقدانها لصلتها بخالقها وانحرافها عن فطرتها، فصار الإنسان المعاصر فارغاً روحياً، متوتراً مضطرباً، يبحث عن الخلاص بإدمان المخدرات والمهلوسات وبالانتحار والانسياق وراء تيارات جارفة «وهي حالة يتزايد تفاقمها باستمرار، ولا تُعطي بالتأكيد شعوراً بالأمن لمن يعيشون في عالم بلغ به القلق إلى هذا الحد، فإن المعرفة هي المرهم النهائي ضد الهلع، وكذلك ضد الخوف بجميع أشكاله وضد مجرد القلق، لأن هذه المشاعر ما هي إلا استتبعات أو نتائج الجهل...»²، فالجهل الذي يقصده الشيخ "عبد الواحد يحي"، جهل الروح جهل حقيقة وجودنا، وحقيقة ذواتنا، جهل المعرفة التي باكتسابها نهائياً نقضي على كل أمراض النفوس وأنواع الهلع والخوف والقلق والحزن، وحتى الشك، لأنك تتحقق بمعاني وأسرار أسمى من صراع زائف، ضيقت فيه أعماز وجُهود، نهايته محدودة ومعدودة، لتنتقل إلى غاية أسمى وأشرق، غاية لا متناهية خالدة، في

¹ - عبد الرحمان بدوي، تاريخ التصوف. مرجع سابق. ص: 23.

² - عبد الواحد يحي، التربية والتحقق الروحي: تصحيح المفاهيم. مرجع سابق. ص: 20..

بحسب متواصل نحو المطلق اللامتناهي والمتعالي ووصولاً فعلاً إلى مقامات الحرية والعبودية والسعادة الحقيقية.

من أهم تجليات تحقق البعد الروحي وتمثله عند الأفراد حدوث السلام الداخلي والاطمئنان النفسي، من خلال اكتساب الروح معانيها الإيمانية السامية، التي تُوجب ضمان الثقة بالله وعدم القلق، أو الخوف من المستقبل، فتستكين النفس وترتقي إلى مستوى راقٍ من مستوياتها الروحية، فينصبغ عليها نشاطها الإيجابي، ويمحي عنها كل الجوانب السلبية المعرقة وتفرغ من كل الشحن المعيقة التي تُعكر صفوها وتُعيق روحانيتها وتمنع من تحقق حرّيتها «ذلك أن التصوّف يهدف إلى قهر دواعي شهوات البدن أو ضبطها وإحداث نوعٍ من التوافق النفسي عند الصوفي، وهذا من شأنه أن يجعل الصوفي متحرراً من كل مخاوفه»¹.

وفي رحلة الحرية، التي يكابدها السالك المريد للتخلص من كل التبعات والموجودات والأشياء، تكتسب النفس الزاهدة من مطامع الدنيا الزائلة أحوالاً ربّانية، تزداد الروح بها صفاءً ورُقياً وسمواً ونقاءً وكمالاً، كالقرب والمحبة والشوق والأنس والمشاهدة واليقين، وهي أحاسيسٌ وُجدانيةٌ روحية، يتلذذ بها السالك، ويتغلب فيها، وتزیده حُرّيةً وعبوديةً ويقيناً وثباتاً وانعتاقاً من أصوله الترابية ويُلَوِّغ المراتب والدّرجات العلوية الروحانية.

فالحقيقة الواضحة الجلية أن هذه التربية الصوفية الإحسانية والسير في قطع مقامات السلوك والمجاهدات والرياضات تحوّل النفس تحوّلًا كاملاً، وتحيل الإنسان لحالات روحية ومعنوية عجيبة من الصفاء والحب والوجد، وقُوّة الشخصية، والإخلاص والإقدام والفتوة والتّضحية «فَالوْظِيفَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلْهَيْئَةِ الرُّوحِيَّةِ هِيَ إِذْنِ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَظِيفَةُ عِرْفَانٍ وَتَعْلِيمٍ تَرْبَوِيٌّ»². فالبعد الروحي مؤسّس على المعرفة، لأنّ المعرفة أو العرفان حالة ملكوتية وحقيقة روحية يتوصّل إليها بالبحث المعمّق في باطن الروح وسرّ الوجود، وترتبط بالمبادئ السامية وتُحاول

¹ - أبو الوفا الغنيمي النفتازاني، مدخل إلى التصوّف الإسلامي، مرجع سابق. ص: 07.

² - عبد الواحد يحي، السّلطة الرُّوحِيَّة والحكم الزَّمَنِي. مرجع سابق. ص: 30.

المحافظة عليها، مُتَجَلِّيةً في البحث عن الحقيقة والحكمة، اللتان يتولّدان منها كثمرة داخلية وَسِرٌّ مِنْ أَسْرَارِهَا.

مِنْ أَجْلِ بُلُوغِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِيَّةِ، وَتَمَثُّلِ الْوُضُوفَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْهَيْمَنَةِ الرُّوحِيَّةِ، نَحْتَاجُ الْبَعْدَ الْوُضُوفِيَّ الثَّانِي الْمُرْتَبِطَ بِالْوُضُوفَةِ التَّربَوِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ تَرْبِيَةِ أَنْفُسِنَا عَلَى الْمَعَارِفِ وَالْأَخْلَاقِ وَتَحْرِيرِ نُفُوسِنَا وَعَتَقِهَا وَاجْتِيَازِ مَرَاكِلِ السَّمَوِ الرُّوحِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ وَقَطْعِ الْمَعْرَاجِ الرُّوحِيِّ، وَصُولاً لِلْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ.

2/- البعد الأخلاقي:

هُوَ مِنَ الْأَبْعَادِ الْمُمَيَّزَةِ لِلتَّربِيَةِ الصَّوْفِيَّةِ، وَمِنْ أَبْرَزِ ثَمَارِهَا وَتَجَلِّيَّاتِهَا، وَيُظْهِرُ ذَلِكَ جَلِيًّا مِنْ خِلَالِ حِرْصِ مَشَايِخِ الصَّوْفِيَّةِ عَلَى "الاستقامة في السلوك"، تَأْصِيلاً وَتَأْلِيفاً وَمُمَارَسَةً تَنْظِيرًا وَتَطْبِيقًا، بِاعْتِمَادِ التَّربِيَةِ الصَّوْفِيَّةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ "التَّحْلِيَّةِ" وَ"التَّخْلِيَّةِ" التَّحْلِيَّ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالتَّخْلِيَّ عَنْ مَرْدُولِهَا وَقَبِيحِهَا، وَلَا يَتَّصِفُ الصَّوْفِيُّ بِالْكَمَالِ إِلَّا إِذَا حَسَنَتْ أَخْلَاقُهُ وَاتَّسَمَ بِالصَّلَاحِ وَالْفَضْلِ وَالْوَرَعِ، اقْتِدَاءً بِالْمَثَالِ الْأَعْلَى خُلُقِيًّا الرَّسُولُ ﷺ قَالِبِ الْبَعْدِ الْأَخْلَاقِيِّ لَهُ أَهْمِيَّةٌ خَاصَّةٌ فِي الْمُبَاحَثِ الصَّوْفِيَّةِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْأَخْلَاقَ عِنْدَهُمْ جَوْهَرَ التَّصَوُّفِ وَثَمَرَتَهُ وَنَتَاجَهُ عِلْمًا وَعَمَلًا يُلَخِّصُ ذَلِكَ قَوْلُ "ابن القيم الجوزية" «وَجِئْتُمْ بِكَلِمَةِ النَّاطِقِينَ فِي هَذَا الْعِلْمِ أَنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ الْخَلْقُ»¹.

وَلِهَذَا رَكَّزَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِي تَرْبِيَتِهِمْ عَلَى مَوْضُوعِ الْأَخْلَاقِ، الَّذِي هُوَ سُلُوكِيَّاتُ الْإِنْسَانِ الصَّادِرَةُ عَنْهُ قَوْلًا وَفِعْلًا، فَوَصَفُوا لَهَا مَبَادِيَّ مَعْيَارِيَّةً ضَابِطَةً لَهَا، تَرْبِيَةً وَمُعَالَجَةً وَتَوْجِيهًا لِهَذِهِ السُّلُوكَاتِ، وَتَجَاوَزَ النَّصَائِحَ الْمَجْرَدَةَ وَالتَّوَجُّهَاتِ الْجَافَّةَ، مُحَاوَلَةً لِبِنَاءِ أَخْلَاقٍ إِنْسَانِيَّةٍ إيجابية قائمةً عَلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّجَرُّبِ وَالْإِرْتِكَازِ عَلَى بِنَاءِ "ضَمِيرٍ حَيٍّ" مُشْبَعٍ بِالْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالسِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَسِيَرَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ الْكَرَامِ، وَفَقِ مِنْهُجٍ ذَوْقِيٍّ مُحِبٍّ.

¹ - ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين. ج2. دار الحديث، القاهرة، مصر. 2005. ص: 250.

أول ما يتجلى من اهتمام للبعد الأخلاقي عند المتصوفة هو ربطهم لتعريف التصوف بالأخلاق، فقد كان للجانب الأخلاقي في تعريف المتصوفة النصيب الأكبر والحظ الأوفر من اهتماماتهم، حتى وُصف التصوف بأنه "علم الأخلاق" ونجد اتفاقاً شبه تام على اعتبار التصوف حسن للخلق والتزام بالآداب، ومن أهم هذه التعاريف:

- سئل "الجنيد" عن التصوف ما هو؟ فقال: «اجتنب كل خلقٍ دني واستعمال كل خلقٍ سني»¹.

- وأورد "القشيري" قال: سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت الكتاني يقول: «التصوف من زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف»².

- عند "الهجويري" «قال أبو حفص النيسابوري: التصوف كله أدب، لكل وقتٍ أدبٍ ولكلِّ مقامٍ أدبٍ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيدٌ من حيث يظنُّ القرب ومردودٌ من حيث يظنُّ القبول»³.

- والتصوف عند "ابن عربي" «التصوف بغير خلقٍ لا يعول عليه»⁴.

فملاك الأمر عندهم كله وسنامه وأصله، هو التخلق والتأدب، بين يدي الله سبحانه وبين العبد مع نفسه ومع الآخرين.

فالتصوف منهجٌ تربويٌّ أخلاقيٌّ، يستند أساساً لرؤية مُحددة لأصول الأخلاق ومُخرجاتها، فلا يقتصر على مجرد التوقف عند التعاليم الشرعية والأحكام الظاهرية بل يتجهون إلى مبدأ الاشتغال المباشر الذي يُثمر أحوالاً تخلقية، وإلى مقارنة، سبيلها التجربة الذاتية، المقترنة بالتصفية الروحية -استبطان الذات- لبلوغ "الخلق الكامل" المتجسد في أخلاق الرسول ﷺ الأخلاق الإلهية، والتخلق بالصفات الحسنى، التي يهفو الصوفي تحقيقها أثناء معارجه الروحي

¹ - الجنيد البغدادي، تاج العارفين. تح: سعاد الحكيم. دار الشروق، القاهرة، مصر. ط02، 2005. ص: 151.

² - نقلا عن أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية. مصدر سابق. ص: 242.

³ - الهجويري، كشف المحجوب. مصدر سابق. ص: 42.

⁴ - ابن عربي، رسالة الذي لا يعول عليه. الكرمة للنشر، وهران. 2017. ص: 25.

وَتَمَثَّلُ صِفَاتُهَا وَالتَّحَلِّيُّ بِهَا وَتَمَثَّلُ مَعَانِيهَا كَالْحَقِّ وَالرِّضَا وَالرَّحْمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالْجَمَالَ ... فَلَا صِفَاتٍ تَبْلُغُ هَذَا الْمَقْصُودَ التَّخْلِيقِيَّ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي نَسَبَهَا الْخَالِقُ إِلَى نَفْسِهِ وَذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ. وَالتَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ، لَا تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا تَشْبِيهًا أَوْ تَجْسِيمًا أَوْ تَعْطِيلًا أَوْ تَحْيِيزًا، بِقَدْرِ مَا هِيَ مُحَاوَلَةٌ إِخْلَاصِ التَّوَجُّهِ إِلَى الْكَمَالَاتِ وَالْقِيمِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي «الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى لَا نِهَايَةَ لِعِدْدِهَا، وَلَا لَوَحْدَتِهَا وَلَا لِكَمَالَاتِهَا، وَأَنَّهَا خَزَائِنُ الْقِيمِ الْمُثَلَّى الَّتِي لَا تَنْفَدُ، وَالَّتِي يَحْصُلُ بِهَا تَخَلُّقُ الْإِنْسَانِ وَتَرْقِيَّتُهُ فِي مَدَارِجِ الْكَمَالِ، عَلَى أَسَاسِ أَنَّ الْإِسْلَامَ عِبَارَةٌ عَنْ "إِسْلَامِ الْوَجْهِ لِلَّهِ" وَمَعْنَاهُ التَّحَقُّقُ بِ"الْإِتِّمَانِ" وَ"الْإِحْسَانِ"»¹.

وَذَلِكَ بِالْإِنْسِلَاحِ التَّدْرِيجِيِّ وَالْكَلْبِيِّ مِنَ الشَّهَوَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَيَفْنَى عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنِ الْخَلْقِ، فَيَبْقَى بِالْحَقِّ، فَيَتَحَقَّقُ بِالصِّفَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ مِنْ حِكْمَةٍ وَعِلْمٍ، وَغَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ، وَتَتِمُّ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ التَّخْلِيقِيَّةُ وَمُعَالَجَتُهَا، بِالنَّمِذْجَةِ وَالْمُمَارَسَةِ وَالتَّطَبُّعِ، بِدَايَةٍ مِنْ تَصْفِيَةِ الْبَاطِنِ وَالتَّرْكِيزِ عَلَى الْمَطَالِبِ الرُّوحِيَّةِ، وَصُورًا إِلَى الْمَكَابِدَةِ وَالْمُجَاهِدَةِ لِئُلَوِّغَ "الاستقامة" المطلوبة، فَلَا بُدَّ لِطَالِبِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ مِنْ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَتَطْوِيعِهَا بِأَنْوَاعِ الرِّيَاضَاتِ.

يقول "زكي مبارك" «إِنَّ دَرَسَ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ يَصُورُ فَهْمَ الصَّوْفِيَّةِ لِلْحَيَاةِ الْخَلْقِيَّةِ وَهُمْ يَبْرُونَ الْإِنْسَانَ بَيْنَ حَالَيْنِ: الْأَوَّلُ: حَالُ الْمُجَاهِدَةِ وَالثَّانِي تَلَقِّي الْفَيْضِ، وَالشَّخْصِيَّةُ الْخَلْقِيَّةُ لَا تَتَفَكَّ تَجَاهِدُ الْأَهْوَاءَ وَالشَّهَوَاتِ وَلَا تَزَالُ تُوجِّهُ الْقَلْبَ إِلَى النِّفَاحَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ فَهِيَ فِي شُغْلٍ مَوْصُوفٍ بِمُؤَاجَهَةِ أَسْبَابِ الصِّفَاءِ، وَأَثَرُ التَّصَوُّفِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ عَظِيمٌ جَدًّا فِي الْأَخْلَاقِ فَالرَّجُلُ الْمُتَصَوِّفُ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَيَتَلَمَّسُ مَوَاقِعَ الْفَيْضِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ»².

قَدْ شَاعَ هَذَا التَّوَجُّهُ التَّرْبَوِيُّ عِنْدَ الْمُتَصَوِّفَةِ، لِمَا عَلِمُوا أَنَّ النَّفْسَ هِيَ مَنْبَتُ كُلِّ شَرٍّ وَمَنْبَعُ كُلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ، وَأَصْلُ كُلِّ فَعْلٍ ذَمِيمٍ وَأَسَاسُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ، عَنُوا بِالْكَلامِ فِي دَقَائِقِ أَحْوَالِهَا وَتَصْنِيفِهَا وَتَبْيِينِ السَّبِيلِ الْمَوْصِلَةِ لِتَرْوِيضِهَا وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الْخُبَائِثِ وَالْمَكْدَرَاتِ وَالْكَفِّ عَنْ

¹ - طه عبد الرحمن، دين الحياء من الفقه الانتقاري إلى الفقه الانتقائي. المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، لبنان. ط01، 2017، ص: 86.

² - زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق. ج01. المكتبة العصرية، بيروت، لبنان. 2012، ص: 118.

الشّهوات، بل أشبعوها بحثاً وتصنيفاً وتأليفاً، وأفردت لها أبواب وفصول وكتب كاملة ودققوا فيها تدقيقاً وتمحيصاً لا مثيل له، عند باقي الفرق والمذاهب والمدارس الفقهية والكلامية والفكرية وتعرضوا لكل كبيرة وصغيرة، فأنتجوا ثرائاً أخلاقياً فريداً، وجعلوا لكل وقت وموضع وعمل أدباً يُحترم وقعدوا لها القواعد وأصلوا لها أصولها.

فَجعلوا التربية الصوفية نظاماً متكاملًا ومنهجاً قائماً على السلوكات والآداب والأخلاق له واجباته المفروضة وآدابه المرعية، وتوغلوا في دقائق وبواطن هذه النفس لإيجاد حلول علاجية لعُيوبها الأخلاقية وأمراضها العارضة فاستحقوا لقب (فُقهاء الباطن وأطباء النفوس) بامتياز.

انعكست إنتاجاتهم الأخلاقية، في ممارساتهم، حيث ألزموا مريديهم وسالكي الطريق

الصوفي بالتأسي بشيخ تربية هادياً ومرشداً، واشترطوه لقطع الطريق وأكّدوا عليه، شيخاً عارفاً مُحققاً، مُتخلّقاً بصيراً بعُيوب النفس، عالماً بخباياها، مُجرباً الطريق لأن الطريق إلى الله مُجاهدة أخلاقية تربوية في جوهرها، مقامات وأحوال تطهيرية مُتعاقبة وتركيبية مُستمرة.

كما يبرز هذا البعد الأخلاقي كثيراً ويتجلى بصورة أكيدة في كتب الطبقات والمناقب

الصوفية، في سير وسلوكات لنماذج أخلاقية سامية قولاً وفِعلاً، تصل حد الغرابة والتعجب

والإعجاب، ذاتياً واجتماعياً، وقد تيقن "أبو حامد الغزالي" بعد رحلته الطويلة، أنهم أرباب الآداب والأخلاق وسيرهم أفضل السير وسلوكهم أحسن سلوك «أنّي علمت يقيناً أنّ الصوفية هم

السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم

أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع

من العلماء، ليُغيّروا شيئاً من سيرهم، وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً»¹.

فالمنهج الصوفي التربوي، يُمثل امتداداً واختزالاً لنظام معرفي وأخلاقي قائم بذاته، يجعل من

التصفيّة الباطنية المرتبطة بـ"المجاهدة والتزكية" منهاجاً ونظاماً مضبوطاً ومُتدرّباً لضبط السلوك

وأخلاق الإنسان وكبح الغرائز الإنسانية، وتوجيهها توجيهاً مثالياً للتخلّي بالأخلاق الكريمة

¹ - أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال. تح: جميل صليبا، كامل عواء. دار الأندلس، بيروت، لبنان. (د.ت). (د.ط). ص:

الفاضلة لتتربّخ كمنهج ذاتي تقويمي مستمرّ، يُمارس تلقائيًا عملية التّصفية هذه والتّطوّر الدائم "يفعل الذات" بعد اكتسابها للوصول والتّحقّق، لأنّ أهمّ المبادئ الأساسية لعملية التّكوين على الأخلاق وممارستها أنّها مُركّزة على أساس قابلية الأخلاق للتّغيير والتّهذيب والتّشجيع، وهذا ما يؤكّده "أبو حامد الغزالي" بقوله: «قلو كانت الأخلاق لا تقبل التّغيير لبطلت الوصايا والمواظ والتّاديبات ولمّا قال عليه الصّلاة والسّلام: حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ»¹.

فالأخلاق قابلة للتّغيير بطريق المجاهدات والرياضات وباتّباع منهج تربويّ، قائم على شروط وطرق وعملية واضحة، من خلال حمل النّفس على الأعمال التي تقتضيها هذه الممارسات الخلقية، والتّصبر عليها، وتكفلها أحيانًا لتصير انتهاء طبعًا وسجيةً راسخةً عند المتخلّق، ومُداومة تمرين النّفس المستعصية وتطبيعها على الأخلاق الحسنة وإزالة الأخلاق السيّئة، ولهذا «كان واجبًا على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كلّ شئمة سليمة من المعائب، ويصرف همّته إلى اقتناء كلّ خيم كريم، خالص من الشوائب، وأن يبذل جهده في اجتناب كلّ خصلة مكروهة ردية، حتّى يجوز الكمال بتّهذيب خلّقه»².

فالتّحقّق الأخلاقيّ يستوجب المجاهدة وحمل النّفس على المشاق والريضة والتّهذيب، تمثلاً لقوله عليه السلام ((وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ (...)). ((وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))³.

تحقيق هذه الأخلاق يستوجب جهادًا وقطع مقامات التّرقّي، والتّخلّي التام عن الصّفات الذميمة والسّير الحثيث في منازل السّالكين.

وَعَايَةِ التّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، الّتي هي شعار كلّ مریدٍ وسالكٍ توفّقاً لمرتبة الإحسان والكمال، بابتغاء هذه الوسيلة، لِلْحُصُولِ عَلَى مُنْتَهَى الْفَضِيلَةِ، فالأخلاق الحميدة جوهرية في طريق الوصول بدايةً ونهايةً ورُجوعًا، في كلّ حالاته ومراحلها، لأنّ حقيقة التّوحيد والإيمان والعبودية

¹ - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين. ج3. دار المعرفة، بيروت، لبنان. 1987. ص: 57.

² - ابن عربي، تهذيب الأخلاق. مصدر سابق. ص: 9-10.

³ - مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، دار إحياء التّراث العربيّ. ج06. القاهرة، مصر. 1993. ص: 21.

وَالْتَصَوُّفُ، لَا تَسْتَوِي أَبَدًا مَعَ أَخْلَاقِ الْكِبَرِ وَالْحَسَدِ وَالْكَذِبِ وَالْبَخْلِ وَحُبِّ الدُّنْيَا، فَلَزِمَ أَنْ يُطَهَّرَ الْقَلْبُ، مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ بِوُضُوحٍ تَامٍ فِي الْمَقَامَاتِ الصَّوْفِيَّةِ كَالصَّبْرِ وَالذِّكْرِ وَالشُّكْرِ وَالتَّوَكُّلِ.

«وَأَمَّا الْحِكْمَةُ الْخَلْقِيَّةُ، فَفَائِدَتُهَا أَنْ تَعْلَمَ الْفَضَائِلُ، وَكَيْفِيَّةُ اقْتِنَائِهَا لِتَرْكُو بِهَا النَّفْسَ، وَتَعْلَمَ الرِّذَائِلُ وَكَيْفِيَّةُ تَوَقُّفِهَا لِتَتَطَهَّرَ النَّفْسُ»¹.

ذلك بِحِمْلِ النَّفْسِ عَلَى اكْتِسَابِ هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَمُجَاهَدَتِهَا عَلَى تَكْلَفٍ تَعَاطِيهَا وَمُحَاوَلَةِ اتِّخَاذِ الرِّيَاضَاتِ وَالْمُجَاهَدَاتِ كَوَسَائِلٍ تَصْفِيَّةٍ لِتَغْيِيرِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمَأْلُوفَةِ وَعَدَمِ الرُّكُونِ إِلَيْهَا وَإِسْتِلْذَاقِهَا وَإِسْتِحْسَانِهَا وَالْبَحْثِ الدَّائِمِ عَنْ تَطْهِيرِهَا.

أَسَاسُ الْأَخْلَاقِيَّةِ الصَّوْفِيَّةِ:

يُرْوَمُ الصَّوْفِيَّةُ التَّحَقُّقَ الْكُلِّيَّ بِكُلِّ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ جَلِيلِهَا وَدَقِيقِهَا، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا قَوْلًا وَفِعْلًا، مَعَ اللَّهِ وَالْإِخْوَانِ وَالنَّاسِ جَمِيعًا، وَمَعَ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، فَدَعَا إِلَى الصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالصِّدْقِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَمَحَبَّةِ الْغَيْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالْعِفَّةَ وَالْعَدْلَ وَمُرَاعَاةَ الْآخِرِ، وَبَذَلَ مَا فِي الْيَدِ وَالصَّبْرَ عَلَى الْإِذَايَةِ وَالْإِحْسَانَ لِلْمُسِيءِ، وَالْحَبَّ فِي اللَّهِ وَالْغَضَبَ لِلَّهِ وَالْبَغْضَ فِي اللَّهِ وَالْوُقُوفَ عِنْدَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَتَرَكَ فَضْلَ الْكَلَامِ وَالْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ وَالتَّعَصُّبِ.

سَأَحَاوَلُ هُنَا التَّرْكِيزَ عَلَى خُلُقٍ وَاحِدٍ أَرَى أَنَّ الصَّوْفِيَّةَ رَكَّزُوا عَلَيْهِ كَثِيرًا، وَهُوَ الْكِبَرُ وَالْعَجَبُ، وَالَّذِي يُمَثِّلُ سَبَبَ طَرْدِ إِبْلِيسَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَعْصِيَةٍ أُرْتَكِبَتْ فَهَذَا "الْحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ الْمَحَاسِبِيِّ" صَاحِبُ كِتَابِ الرِّعَايَةِ لِحَقُوقِ اللَّهِ، يَعِدُّهُ أَصْلَ كُلِّ خَطِيئَةٍ وَذَمِيمَةٍ وَيُعَلِّلُ لَنَا كُرْهَهُ الشَّدِيدَ لِهَذَا الْخُلُقِ الدُّنْيَا، يَقُولُ عَنِ الْعَجَبِ: «فَبِالْعَجَبِ هَلَكَ أُنْمَةُ الضَّلَالَةِ، وَبِالْعَجَبِ تَكَبَّرَ الْمُتَكَبِّرُونَ، وَافْتَخَرِ الْمُفْتَخِرُونَ، وَاخْتَالَ الْمُخْتَالُونَ، وَبِهِ هَلَكَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى

¹ - ابن سينا، غُيُونُ الْحِكْمَةِ. تح: عبد الرَّحْمَنِ بَدْوِي. دار القلم، بيروت، لبنان. ط2، 1980. ص: 28.

ذلك قول النبي ﷺ ذكر آخر هذه الأمة- فقال ((إِذَا رَأَيْتَ شُحًا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ))¹.

فَمِنْ أَرْكَانِ التَّوْبَةِ وَالتَّزْكِيَةِ الْإِحْسَانِيَّةِ وَشُرُوطِهَا نَبْذُ شَبَهَاتِ الْكِبَرِ وَالْعَجَبِ وَالرَّيَاءِ وَالْغُرُورِ، وَاتِّهَامِ النَّفْسِ وَعَدَمِ مُجَارَاتِهَا، لِأَنَّ الرُّكُونَ إِلَيْهَا وَالرَّضَا عَنْهَا يَحُولُ دُونَ مَعْرِفَةِ عُيُوبِهَا، فَالْعَجَبُ بِالنَّفْسِ وَمُلاحَظَتِهَا بِعَيْنِ الْكَمَالِ، مِنْ أَعْظَمِ الْآفَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَأَخْطَرُهَا، وَيَنْتِجُ عَنْهَا عَدَمُ تَحَقُّقِ الْإِخْلَاصِ الَّذِي هُوَ الْأَسَاسُ كُلُّهُ، كَمَا تَصْرِفُ الْعَبْدُ عَنِ التَّوَاضُّعِ لِلَّهِ وَلِخَلْقِهِ وَتَمْنَعُهُ مِنَ التَّذَلُّلِ وَالْإِنْكَسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيُدْفَعُ كُلُّ هَذَا إِلَى احْتِقَارِ النَّاسِ وَظُلْمِهِمْ وَإِسْتِعْظَامِ الْأَعْمَالِ.

كَمَا أَنَّ الْعَجَبَ بِالنَّفْسِ وَالتَّكَبُّرَ عَلَى الْآخَرِ، يَنْتِجُ عَنْهُ مَفَاسِدُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ، وَيَفْتَحُ عَلَى صَاحِبِهِ أَخْلَاقًا سَيِّئَةً أَكْثَرَ ضَرَرًا وَفَتْكًا، عَلَى مُسْتَوَى الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ، دُنْيَا وَأُخْرَى، فَلَا يَنْفَعُ مَعَ هَذَا الْخَلْقِ كَثْرَةُ عِلْمٍ وَلَا عِبَادَةٍ، لِأَنَّهَا دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ تَأْثِيرِهَا عَلَى جَوْهَرِهِ وَبَاطِنِهِ «وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْغَايَةَ الْقَصْوَى مِنَ الطَّرِيقِ الصَّوْفِيِّ عِنْدَهُمْ جَمِيعًا كَانَتْ وَلَا تَزَالُ تَتِمُّنُّ فِي غَايَةِ خُلُقِيَّةٍ هِيَ إِنْكَارُ الذَّاتِ»².

فَنُكْرَانُ الذَّاتِ أَوَّلُ كُلِّ تَرْبِيَةٍ صُوفِيَّةٍ، لِأَنَّهَا تُؤَلِّدُ الْإِخْلَاصَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَتُؤَكِّدُ فِعْلًا تَحَقُّقَ مَقَامَاتِ التَّوْبَةِ وَقَهْرَ النَّفْسِ، وَلَا يَكْتَمِلُ مَقَامُ الصَّوْفِيِّ، حَتَّى يَكُونَ فِعْلِيًّا عَارِفًا لِحَقِيقَةِ نَفْسِهِ، مُحْتَقِرًا لَهَا وَأَنَّهَ مَخْلُوقٌ ضَعِيفٌ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ مَعَ سَيِّدِهِ وَخَالِقِهِ فَلَا يُقِيمُ لِنَفْسِهِ وَزَنًا، وَلَا يَرَى لَهُ وَجُودًا وَلَا لَهُ حَقًّا، لَا عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ، مَهْمَا صَغُرَتْ.

¹ - الحارث المحاسبي، الرعاية لحقوق الله. تح: عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط 04، (د.ت). ص: 336.

² - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، مرجع سابق. ص: 236.

ذكر "السيوطي" في كتابه الباهر حديثاً مطوّلاً وجميع طرقه يُبين فيه ويبرز خطر الكبر والتعجب، ويربطه بحديث "الفرقة الناجية"¹.

العجيب في الأمر أن الكثير يُهمل الحديث ولا يورد له ذكرًا أبدًا، ولو تعضيدًا لأحاديث أخرى، عند تأصيله لحديث الفرقة الناجية، وافتراق الأمة، والذي قام "السيوطي" هنا بتأصيله تأصيلًا مفصلاً وربط فيه الظاهر بالباطن والأخلاق بالعقيدة، كما جعله أصل افتراق الأمة واختلافها، وجعله مدار الحديث أن "الفرقة الناجية" لا تختص بها طائفة دون أخرى بل هو أمر متاح لكل من تحقق بمراعاة حقوق الله وعباده بالجوارح والقلب، دون ربطه وحصره في فرقة دون أخرى، كما يمكننا أن نستخرج بعض الأحكام الأخلاقية منه مُتمثلة في:

- حُطورة "العجب والكبر" وأثرها السلبي والخطير على النفس والمجتمع، فقد محت ظاهر الأعمال التعبدية وأفقدتها الإخلاص الواجب تحققه ظاهرًا وباطنًا.

¹ - والحديث عن أنس قال أبو يعلى في مُسنده، حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ فِي حَوْضِ زَمَرْمَزٍ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: ((كَانَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَغْرُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِذَا رَجَعَ وَحَطَّ عَنْ رَاحِلَتِهِ، عَمَدَ إِلَى مَسْجِدِ الرَّسُولِ فَجَعَلَ يُصَلِّي فِيهِ فَيَطِيلُ الصَّلَاةَ، حَتَّى جَعَلَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَهُ فَضْلًا عَلَيْهِمْ، فَمَرَّ يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ فِي أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذَا ذَاكَ الرَّجُلُ فَمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِ نَبِيُّ اللَّهِ، وَإِمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى الْمَجْلِسِ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَقْتَلْتَ الرَّجُلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَأَتَى نَاحِيَةً مِنَ الْمَسْجِدِ، فَخَطَّ خَطًّا بِرَجْلِهِ، ثُمَّ صَفَّ كَعْبِيهِ فَقَامَ يُصَلِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هَذَا يَقْتُلُهُ؟ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَقْتَلْتَ الرَّجُلَ؟ قَالَ: وَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَهَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هَذَا يَقْتُلُهُ؟ قَالَ عُمَرُ: أَنَا، وَأَخَذَ السَّيْفَ فَوَجَدَهُ قَائِمًا يُصَلِّي، فَارْجَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَقْتَلْتَ الرَّجُلَ؟ قَالَ: وَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَهَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هَذَا يَقْتُلُهُ؟ قَالَ عَلِيٌّ: أَنَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنْتَ لَهُ إِنْ أَدْرَكْتَهُ، فَذَهَبَ عَلَيَّ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَارْجَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَقْتَلْتَ الرَّجُلَ؟ قَالَ: لَمْ أَدِرْ أَيْنَ سَلَكَ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا أَوَّلُ قَرْنٍ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَتَلْتَهُ أَوْ قَتَلَهُ مَا اخْتَلَفَ فِي أُمَّتِي اثْنَانِ، إِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقُوا عَلَى وَاحِدٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ يَغْنِي أُمَّتَهُ سِتُّونَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً، فَقُلْنَا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَنْ تِلْكَ الْفِرْقَةُ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ)). ينظر: جلال الدين السيوطي، الباهر في حكم النبي ﷺ عليه وآله وسلم والباطن والظاهر. تح: مُحَمَّدٌ خَيْرِي فِيرِيَانَسْ أَوْغَلُو. دار الكام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر. ط. 01، 1987، ص: 46-47.

- "لا يُعقل أن يأمر الرسول ﷺ أحد أصحابه، كما لا يُمكن ألا يعرف الرسول

عليه وآله وصحبه، ولهذا يُمكن أن يكون هذا رمزاً لفئةٍ معيّنة، ترى نفسها أفضل من

غيرها، متكبرة بتدينها، متعجبة بعباداتها .

- سوء أدب هذا الشخص مع حضرة الرسول ﷺ اختار الصلاة على الجلوس

إلى رسول الله، فهل يُعقل أن يترك جماعته وأصحابه وبركته وخيره، ويشغل بِأداء

الصلاة النافلة"¹.

- فالأخلاق الصوفية مبنية على الأساس في التركيبة الحقيقية بين الظاهر والباطن

وتمازج تجلياتها روحاً وسلوكاً وأخلاقاً.

المبحث الثاني: البعد الاجتماعي

¹ - وهذا تأويل الأستاذ حفيان محمد - أستاذ التعليم العالي بجامعة سعيدة - لهذا الحديث قال به في محاضرات ودروس الماستر لشعبة الفلسفة الإسلامية للموسم الدراسي 2015 - 2016.

1/- مظاهر البعد الاجتماعي:

تواجد الطرق الصوفية وأعمالها في المجتمع كانا قد حدثا في أماكن مُخصصة للتعليم الديني، والتربية الروحانية، والعلاج من الأمراض، ودمج المنبوذين في المجتمع، ثم لاستقبال المسافرين العابرين أيا يكونوا... وهي تُدعى أحيانا بالزاوية وأحيانا بالرباط وأحيانا بالتكية. تعددت الأسماء والشيء واحد. وقد نشرت على مدار قرون عديدة إسلام السلام والانفتاح على الآخر، كما نشرت ثقافة الترحاب والضيافة والوساطة الاجتماعية. بالتالي فقد قامت الطرق الصوفية بأعمال ووظائف إيجابية لا تُحصى. وقد تحدث "هشام جعيط" عن النزعة الإنسانية للصوفية، وكذلك عن وظيفة التقريب التي قامت بها بين الله والبشر، ثم بين البشر أنفسهم مع بعضهم البعض. كل هذه القيم الرفيعة كانت الصوفية مُفعمة بها بما فيها الصوفية المتأخرة. وهذا ما منع نزوب الإسلام أو جفافه كلياً¹.

لكن ينبغي الاعتراف بأنّ التعاليم الإسلامية التي كانت تلقى على التلاميذ في الزوايا تحولت في نهاية المطاف إلى تعاليم روتينية مُجترة ومُحافظة. لكن رسالتها على الأقل بقيت إيجابية ومُفعمة بالحياة. وعدم الاهتمام بها وإقصائها وتهميشها، أدّى إلى إضعاف نفوذها والحد من انتشارها، مما سمح ب بروز تيارات أخرى تنافي التوجه العام للشعب الجزائري، لكن الجزائريين سرعان ما لاحظوا نتائج هذه اللامبالاة وآثارها السلبية بعد أقل من جيل على تطبيقه. فالإرهاب الأصولي القاتل الذي اكتسح البلاد بدءاً من التسعينات كان أحد نتائج هذا القرار الذي أضعف الحركة الصوفية وقوى الحركات الأصولية المتزمتة. وقد عبّر عن ذلك أحد الباحثين عندما قال: «البلدان الإسلامية التي حاربت الطرق الصوفية (كالجزائر، وتركيا، ومصر، وتونس) قد دفعت ثمن ذلك غالباً. فقد شجعت بذلك عن وعي أو غير وعي الحركات الأصولية الراديكالية. فهذه الحركات المتطرّفة احتلت المكان أو الحيز الذي كانت تحتله الصوفية قبل اضطهادها أو مُحاربتها. أمّا البلدان التي لم تُحارب الصوفية وإن دمجتها في المجتمع المدني (وبخاصة

¹ - هشام جعيط، أزمة الثقافة الإسلامية. مرجع سابق. ص: 109.

بُلدان إفريقيا الغربية، وتتنزانيا والمغرب) فقد عانت من حركات التطرف الديني بشكل أقل بكثير، على الأقل حتى الآن»¹.

تُشكل الزاوية مدرسة حياة كاملة متكاملة. إنها عبارة عن مختبر للتجربة الروحانية الجماعية في الإسلام، وتُشكل بالتالي كونًا مُصغّرًا للحوار مع العالم الخارجي، تتبادل معه طبقًا لإيقاع وتنفس طبيعي، وتُعطيه دائمًا أكثر مما تأخذ منه.

الطريقة الصوفية جسم اجتماعي قائم بذاته في مجتمعا، له ممارساته وطُوقسه، وله وظائفه ودوره في حياتنا الاجتماعية، كما ترتبط التربية الصوفية بالواقع، ولا تتعالى عليه، ولا تُهمشه أو تُقصيه من خلال تصوف إيجابي يُوجه الإنسان لربط صلته بربه، دون أن يفقد صلته بواقعه، فالمنهج التربوي الصوفي لا يرتبط دلالاته بالتأمل الذاتي المنعزل المجرد، الذي يدعو للغربة والاعتراب من فاعليته الاجتماعية، بل تتجسد سلوكيًا وأخلاقيًا واجتماعيًا بتهذيب النفس وتطهيرها والتدرج في مراتب الكمال والانتقال من إحسان المراقبة إلى المشاهدة، لأن "التصوف سلوك فردي ذاتي، هدفه الأسمى إنتاج قيم أخلاقية تواصلية واجتماعية إيجابية ومُنتجة، تتعدى الاحتكار الذاتي والأنا الشخصي إلى الأنا الجمعي، فربطوا بين عالم الحق وعالم الخلق بحكمة متناسقة متناغمة ومتكاملة، فالصوفي أن تراه يُؤاكلك ويُشاركك ويُمازحك ويُبايعك وقلبه في ملكوت القدس هذه أعظم الآيات"².

فَالصُوفِيَّةُ القائمة على التعاليم الإسلامية الشرعية والاجتماعية قصدها الأساسي أن تُمارس في وسط المجتمع، وأن تكون النموذج المثالي خُلُقًا ومُعاملةً، أُمُوقًا وعموديًا، لا أن تُمارس في مُناخ "رهباني"، مُنعزلةً عن النظام الاجتماعي بل هو مُحاولَة دُوبةً لِكشف عُيوب النفس ومُعالجتها في ذاته ومع الغير، ليرتفع بمُستوى الجوانب الروحية لِيشكّل وعيًا يتعدى الأنا والطريقة، لِسائر الأمة، كما أنها شوق دائم للتضحية في سبيل الآخر وخدمته «أعطى الصوفية على مرّ

¹ -Zidane Meriboute, la fracture islamique demain le soufisme bibliotèque fayard paris France, 2004, p23.

² - قاسم عباس مُحمّد أبو زيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة. مرجع سابق. ص: 70.

العصور والدهور، أنصع الأمثلة في معاملاتهم الاجتماعية فقد تجاوزوا القيم النظرية والأطر المنهجية إلى الممارسة الفعلية، من خلال الصدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق»¹.

فقد حاول الفكر التربوي الصوفي التأثير في حياتنا الاجتماعية وبناء الإنسان وتسليحه بالقيم الروحية والأخلاقية والآداب الاجتماعية التي تعيش على مواجهة الحياة المادية وتحقيق التوازن الإيجابي الفعال، الذي يربطه بنفسه ومجتمعه فيكملها بالفضائل، فيعدل نظريته وسلوكاته اتجاهها، فيتحرر تمامًا عن كل معيقات ومغريات وشهوات النفس، فيكون خادماً نافعاً لمجتمعه، مُحتملاً مسؤولياته كاملة.

ف"المؤمن مرآة المؤمن"، ولهذا اتخذها الصوفية معياراً حقيقياً ومؤثراً فاصلاً لسلوكهم الاجتماعي، اتجاء مجتمعهم، فالمتصوفة يؤكدون على أن تحقق الكمال التربوي الفعلي والمفهوم الحقيقي للكمال الصوفي هو الرجوع إلى الواقع الاجتماعي، والجمع بين الحقيقة والشرعية، أو بين الواقع والمثال، أو عالم الجمع والفرق².

فالعبرة من التربية الصوفية ليست الخروج من المادة بجميع أشكالها وضغوطها، وإنما هي أن تملكها، لا أن تملكك، أن تسيطر عليها وتوجهها بما يتناسب والكمال الإنساني، وعليه فالتصوف يسعى للجمع بين قيم التجرد والزهد دون إهمال الحالة المجتمعية وشروطها الخاصة.

«أما الانقطاع عن الخلق فيكون بالقلب، ليس لصفة القلب أي تعلق بالظاهر وحين ينقطع الشخص بقلبه في الخلق وصحبته، لا تكون له دراية بالمخلوقات حتى يستولي التفكير فيهم على قلبه، ومن ثم فإن هذا الشخص وإن يكن بين الخلق، فإنه يكون وحيداً، وتكون همته فريدة عنهم، وهذا دليل على أن أهل الباطن وإن خالطوا الخلق في الظاهر، فإن قلوبهم تكون متعلقة

¹ - الكسنزان محمد، موسوعة الكسنزان فيما أُصطلح عليه أهل التصوف والعرفان. ج 07. دار آية، بيروت، لبنان. ط 01، 2005، ص: 379.

² - الجمع والفرق، الجمع حق بلا خلق وبالنقرقة إلى العكس الجمع هو الاشتغال بالحق بحيث يجتمع المتم ويتفرع الخاطر للتوجه إلى حضرة قدسه تعالى وتقدس وإن الفرق هو تفرقة الخاطر. عبد الرزاق القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام. تح: أحمد عبد الرحيم السابح وآخرون. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر. ط 01، 2005، ص.ص: 322-323.

بالحقّ وَيَكُونُونَ رَاجِعِينَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَيَعْدُونَ ذَلِكَ الْقَدْرَ مِنْ صُحْبَتِهِمْ لِلْخَلْقِ بِلَاءٍ مِنَ الْحَقِّ»¹.

فَالْتَّسَامِي الْأَخْلَاقِيّ وَالْاجْتِمَاعِيّ لِلْفَضَائِلِ وَالْإِحْسَانِ وَتَحَقُّقِ الْمُرِيدِ السَّالِكِ الصَّوْفِيِّ بِهَا وَإِنْشَادِهِ "الإنسان الكامل"، الجامع للحقيقتين المكمل بينهما، من خلال التّغيير والإصلاح الرّوحيّ النّفسيّ والسّلوكيّ، يدفعه لِيَكُونَ إيجابياً ظاهراً، مُتَقَرِّداً باطنياً، مُتَأَقِّلَماً مُتَوَانِماً مع أفراد مُجْتَمَعِهِ، مُسَاعِداً على تفادي الانحلال الخلقيّ والانحراف الاجتماعيّ مُحرِّراً جميع طاقاته الكامنة لِيُحْدِثَ تَنَاقُماً تَاماً وَخَلَاقاً مع عالمه وَمُحِيطِهِ.

بين الفرق والجمع والبقاء والتّمكن:

يَبْقَى مَقَامُ الْفَرْقِ نَسْبِيّاً وَمَرْحَلِيّاً، مِنْ خِلَالِ رَحْلَةِ الْعُودَةِ إِلَى مَقَامِ الْجَمْعِ، فَالْمَجَاهِدَاتِ وَالرِّيَاضَاتِ وَعَمَلِيَّاتِ النَّظْهِيرِ وَالتَّخْلِيَةِ وَالتَّجَرُّدِ، لَيْسَتْ غَايَةً فِي ذَاتِهَا، بَلْ هِيَ تَجْرِبَةٌ مُؤَقَّتَةٌ لَا يَصِيرُ مَعَهَا السَّالِكُ مُحَقِّقاً كَامِلاً، إِلَّا بَعْدَ عُودَتِهِ مِنْهَا إِلَى الْعَالَمِ الْحَسِّيِّ وَالْوَقَاعِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْمَعِيشِيِّ، وَقَدِيمًا سَأَلَ أَحَدَ الصَّوْفِيَّةِ، أَحَدَ الرُّهْبَانِ الْمُنْقَطِعِينَ الْمُنْعَزِلِينَ: أَمَا كَانَ يَسْتَقِيمُ أَنْ تَذْهَبَ مَعَنَا هَاهُنَا فِي الْأَرْضِ وَتَجِيءَ وَتَمْنَعَ نَفْسُكَ الشَّهَوَاتِ؟ فَرَدَّ الرَّاهِبُ: هِيَاهُتَ هَذَا الَّذِي تَصِفُ أَنْتَ قُوَّةً، وَأَنَا فِي ضَعْفٍ².

فَالصَّوْفِيُّ لَا يَتَتَكَّرُ لِمَوَاقِعِهِ، وَفِكْرَةُ رَفْضِ الْوَقَاعِ وَالتَّتَكَّرِ لَهُ، فِكْرَةٌ مَغْلُوطَةٌ، نَتَجَتُ عَنْ فَهْمٍ خَاطِئٍ وَقَرَاءَاتٍ إِيدِيُولُوجِيَّةٍ غَرِيبَةٍ لِفِكْرَتِي التَّوَكُّلِ وَالْفَنَاءِ، وَهَذَا لَا يَتَنَافَى وَالسَّعْيِ فِي الْأُمُورِ الْحَيَاتِيَّةِ وَالْمِشَارَكَةِ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَالْانْخِرَاطُ فِي السَّلُوكِ الصَّوْفِيِّ لَا يَعْنِي اسْتِقَالَةَ طَوْعِيَّةٍ مِنَ التَّأْطِيرِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَلَا مَدْعَاةً لِإِهْمَالِ أَنْ تَكُونَ عُضْواً فَعَالاً فِيهِ وَفِي التَّفَكُّيرِ فِي أَوْضَاعِهَا وَنَقْدِهَا وَالْمِشَارَكَةِ فِي إِيجَادِ الْحُلُولِ لِمَشَاكِلِهَا، أَوْ التَّوَاجُدِ كَطَرْفٍ فَعَالٍ فِي إِصْلَاحِ أَحْوَالِ الْأُمَّةِ، لِأَنَّ الْمَعْرَاجَ الصَّوْفِيَّ لِلرَّقْيِ الرُّوحِيِّ، لَا يَرْتَبِطُ فَقَطْ بِالْمَتْعَةِ الْفَرْدِيَّةِ وَلِهَذِهِ

¹ - الهجويري، كشف المحجوب. مصدر سابق. ص: 271.

² - سامي علي التّشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. ج03. دار المعارف، القاهرة، مصر. ط08، 1980، ص: 452.

المشاهدات والمكافئات، بل الهدف الأسمى منه البقاء لا الفناء والعمل والإنتاج لا العدم فالصوفية كما يقول "سيد حسين نصر" تحمل الإنسان إلى "مقامه الإلهي" أينما اتفق وجوده¹. فرحلة الصوفي ممتدة بين معرفة الحق ومخالطة الخلق غايتان متكاملتان، وهذا هو أساس التربية الصوفية التي تؤسس لمنهجها لخدمة الخلق، تبتدى من الانسلاخ من الشهوات النفسية وعن كل الأحوال الآنية البدنية -الفناء عن الخلق- لبلوغ مرتبة البقاء في الحق، ليحقق بعدها مرتبة أسمى وهي عودته للبقاء في الخلق، مع محافظته على دوام البقاء مع الله. يقول "أبو مدين الغوث": «من علامات فراره عن الخلق، وجوده للحق، ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق»².

فمن أعظم هذا التجسيد، بلورة هذه الآداب والأخلاق الصوفية وتفعيلها ومشاركتها الآخر لتتعدى المحيط الذاتي والشخصي، والمحيط الصغير المرتبط بجماعة معينة إلى نطاق تواصلها مع الناس، والقدرة في تكيفها وفي التعايش مع الخلق، ولا يكتمل هذا السفر عبر المقامات وتحقيق المعراج الروحي، إلا برجوعه سريعاً إلى معايشة الخلق، ومباشرة تعاملهم والتفاعل معهم إيجابياً، فالسادة الصوفية جمعوا في منهجهم بين العبادات والمعاملات وربطوا ربطاً وثيقاً بين الخلق والحق، شعارهم في ذلك الصّدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق ونفعهم والسعي في قضاء حوائجهم والتأدب معهم، فمبدأ الخدمة يقوم على توظيف السالك وإعماله خادماً لا مخدوماً، وقد استوعب مشايخ الصوفية القيمة الحقيقية لهذا الرجوع، ووعوا من خلاله ضرورة العمل الاجتماعي، فلم يقتصرُوا في تربية مريديهم ومحبيهم على الاهتمام بالأعمال التعبدية والفرائض والنوافل فقط، بل أدركوا ضرورة الأخلاق الاجتماعية، كالبذل والعطاء والإيثار والتّصح والإرشاد... واهتمّوا أكثر بخدمة الآخر، وقد اشترطوا على السالك والمريد الخدمة لسلوك الطريق وكفّوه بالأعمال التي يكون فيها خادماً، لا مخدوماً، فخدمة الخلق عموماً شرط لخدمة الحق، ودليل على إخلاصه وسبب القبول والوصول إلى السمو الروحي والكمال المنشود.

¹ - سيد حسين نصر، الصوفية بين الأمس واليوم. مرجع سابق. ص: 44.

² - روبرت كاسبر، اتجاهات غربية في دراسة التصوف. تح: محمد عبد الله الشرقاوي. القاهرة، مصر. 1996، ص: 16.

ف«دور الواصل في حياة الجماعة، فالله سبحانه حين يختصّ واحدًا من عباده بالتقريب والمواهب فهذا الاختصاص يكون تامًا إن عاد نفعه على الناس، لذلك ينتقد الجنيد الشبلي بقوله: لو أفاق لجاء منه إمامٌ يُنتفع به، أي أنّ الجنيد يُشير إلى عودة الواصل، فكما أنّ السالك يقطع مراحل الفناء ليعود إلى صيغته الوجودية، التي كان عليها في آية الميثاق إلاّ أنّه بعد الوصول يرجع إلى الناس لينتفعوا بتجربته الروحانية وهذا الرجوع لا يعني مفارقة الوصول، لأنّ الوصول معنوي لا مكاني، كما أنّه لا يعني العودة إلى الوجود النفساني بل يظلّ الواصل في صفاته الروحانية وفنائه التام الكامل، وفي الوقت نفسه يُمارس تعليمه عن خبرة وذوق»¹.

وقد ساهم المتصوّفة كباقي طبقات المجتمع في بناء النسيج الاجتماعي لمجتمعاتهم وشاركوا مشاركة واسعة في خدمته وتطوّره، عكس ما يُروّجه البعض، بنعت الصوفيّة بالسلبية والبطالة والكسل والجمود واتّهامهم بتعطيل بناء الحياة الاجتماعية واعتزالهم خدمة الناس ومخالطتهم، والفرار من مُعترك الحياة، وتجنّب تحمّل مسؤولياتهم الأسرية والاجتماعية ومن أهمّ المظاهر الدالة على البعد الاجتماعي عند المتصوّفة ما يلي:

1-1/ أدب الأخوة:

اهتمّ الصوفيّة اهتمامًا كبيرًا به، تنظيرًا وتطبيقًا، فلا يخلو مؤلّف من مؤلّفاتهم من ذكر آدابها وشروطها ووصفها، فقد فهموا معنى الأخوة والصّحة والصداقة فهمًا عميقًا لما لها من تأثير كبير في بناء الروابط الاجتماعية وتعميق أواصر المحبة والتكافل، فمعظم المشاكل الحاصلة في مجتمعاتنا، بين الأفراد والمجتمعات، راجع إلى انعدام أو نقص المحبة

الأخوية في مجتمعاتنا حتّى نقل الطوسي «كُنّا لا نصحب من يقول نعلي وركوتي»².

¹ - سعاد الحكيم. الجنيد البغدادي، تاج العارفين. مرجع سابق. ص: 49.

² - الرّكوة في لسان العرب هي إناء صغير من الجلد يُشرب فيه الماء، الجوهري، الصحاح، مصدر سابق. ص: 461.

³ - أبو نصر السّراج الطوسي، اللّمع. مصدر سابق. ص: 234. وقد نقل هذا القول عن جماعة من المشايخ عن إبراهيم بن شيبان.

وَقُوَّةُ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ الدَّائِمَةُ لَيْسَتْ فِي الْانْعِزَالِ الْمَتَرَقِّعِ السَّلْبِيِّ، بَلْ هِيَ فِي الشَّوْقِ الْخَارِقِ إِلَى التَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ إِخْوَانِهِ، فَالْصَّوْفِيُّ يَخْدُم نَفْسَهُ، كَمَا يَخْدُم الْآخَرِينَ، يَكْتَشِفُ عُيُوبَ نَفْسِهِ، لِيُعَالِجَهَا فِي نَفْسِهِ وَفِي الْآخَرِينَ، وَيُحَاوِلُ دَائِمًا أَنْ يُعْطِيَ الْأَخُوَّةَ حَقَّهَا وَمَعَانِيهَا الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا مِنْ الْأَحْتِرَامِ وَالْمُسَاعَدَةِ وَالْإِيثَارِ فَالْأَخُ مَرَاةَ أَخِيهِ.

1-2/ تكوين الأسرة:

فَالطَّرِيقُ الصَّوْفِيُّ لَا يَدْعُو إِلَى الرَّهْبَةِ وَالْانْقِطَاعِ التَّامِّ لِلْعِبَادَةِ، وَلَمْ يَتَبَنَ أَبَدًا النِّزْعَةَ الْهَرُوبِيَّةَ وَتَرَكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا الَّذِي يَحْدُثُ انْفِصَامًا وَانْعِزَالًا عَنِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، كَعُنْصَرٍ سَلْبِيٍّ غَيْرِ نَافِعٍ لِأَنَّ التَّربِيَةَ الصَّوْفِيَّةَ مِنْهَجَ حَيَاةٍ مُتَكَامِلٍ وَمُتَنَاسِقٍ، لَهُ رُؤْيَاهُ الْخَاصَّةُ لِلْحَيَاةِ الَّتِي قَدْ تَخْتَلَفَ مَعَ الْآخَرِ، مِنْ مُنْطَلَقِ حَالِهِ مَعَ اللَّهِ وَرُؤْيَاهُ فِي الدُّنْيَا، فَالْصَّوْفِيُّ يَجْتَهِدُونَ وَيَعْمَلُونَ وَيَكْسِبُونَ الْأَمْوَالَ، وَلَكِنْ لَا تَشْغَلُهُمْ هَذِهِ الْمَكَاسِبُ وَالْأَرْزَاقُ عَنِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّيَّتِهِمْ وَفِي كُلِّ أَعْمَالِهِمْ، فَهَدَفُهُم الدَّائِمُ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَمَا هَذِهِ إِلَّا وَسَائِلُ تَقَرُّبٍ إِلَى اللَّهِ وَلَا تُبْعِدُهُمْ عَنْهُ، فَهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الدُّنْيَا لِاتِّبَاعِ الْغَرَائِزِ وَالتَّمَتُّعِ، بَلْ هِيَ نَعْمَ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ وَعَدَمُ الْإِنْشَاغَالِ بِهَا وَالْغَفْلَةُ عَنِ اللَّهِ بِسَبَبِهَا.

فَالْتَجَرُّدُ وَعَدَمُ التَّمَلُّكِ وَحُبُّ الْفَقْرِ، لَا تُؤَثِّرُ لِذَاتِهَا وَإِنَّمَا مُحَاوَلَةٌ لِصَرْفِهَا عَنِ الشَّوَاغِلِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي قَدْ تَتَمَلَّكُ الْقُلُوبَ عَنْ وُجُودِهَا وَمَطْلَبِهَا الْأَزَلِيِّ. فَالْمَالُ عِنْدَهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ، لَا فِي قُلُوبِهِمْ، يَغْنُونُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَعَوَائِلُهُمْ كَيْلًا تَصْرِفُهُمْ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَمَدَاوِمَةِ ذِكْرِهِ، وَلَا يَلْهَوُ بِالْدِّينِ، كَمَا يُنْفِقُونَهُ عَلَى الْغَيْرِ وَيُسَانِدُونَ بِهِ الْمَحْتَاجَ وَالْفَقِيرَ. «فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُنْدَمَجِينَ فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِصُورَةٍ عَادِيَّةٍ، لَهُمْ بُيُوتٌ وَأَزْوَاجٌ وَأَبْنَاءٌ يَقُومُونَ بِوَجِبَاتِهِمْ وَالتَّزَامَاتِهِمْ إِزَاءَ أُسْرِهِمْ»¹.

1-3/ الصَّوْفِيَّةُ وَالْعَمَلُ:

¹ - الطَّاهِرُ بُونَانِي، التَّصَوُّفُ فِي الْجَزَائِرِ خِلَالِ الْقَرْنَيْنِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ الْهَجْرِيَيْنِ 12 و 13 الْمِيلَادِيَيْنِ فِي الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ. مرجع سابق. ص: 169.

لقد كان الصوفيّة كغيرهم، منهم الفقير المعدم، والغني، والعازف عن الثراء، ومنهم أصحاب المزارع والثروات وقد قرنوا بين طلب العلم والعمل وشكّلوا بينهما تلازماً تاماً، وقد اشتهر الكثير منهم بألقاب حرفهم ومنهم التي تبين ذلك، كلقب الوراق، الخواص، القصّار الحلاج، الزجاجي، الصيرفي، الحصري.

وقد «يغلب على صوفية المغرب الأوسط، طابع النشاط والاجتهاد والعمل والاعتماد على النفس، من خلال انشغالاتهم بأنواع مختلفة من الحرف، حيث احترف أبو مدين الغوث رعي الغنم¹»².

فألعمل عند الصوفيّة وسيلةً لذاتها، فألعمل واجبٌ والرّازق هو الله، جمع بين اتّخاذ الأسباب والثّقة بالله والتّوكّل عليه. والأمثلة على ممارستهم للحرف وإمتنانهم التّجارة وغيرها من المكاسب كثيرة قديماً وحديثاً. فقام "أبو زكريا بن يوغان" يرفع الإبل، وإشتغل بالفلاحة كلّ من "أبي النّجم هلال بن يونس الغبريني"³، و"أبي سليمان داود الوجهاني"⁴ و"أبي عبد الله المستاري"، وابن أخيه "أبي محمّد عبد الواحد"، فقد كانت لهما أرض ببني مستار يعيشان منها. كما احترف آخرون التّجارة مثل مزاولة "أبي عبد الله الشريف" بتجارة الصّوف، وإقتصار "أبي عبد الله الحلوي" على بيع الحلوة للصّبيان في طرقات تلمسان، وكان "أبي إسحاق إبراهيم بن يسول" يحتطب العزف من الجبل ويصنع به حصر الصّلاة ثمّ يبيعها ويقتات منها.

¹ - لم يذكر صاحبو السّير احتراف أبّا مدين مهنة رعي الأغنام، بل رعاها وهو لا يزال صبيّاً مكرها من إخوته، ولكنّه هرب بعدها لطلب العلم.

² - الطّاهر بوناني، التّصوّف في الجزائر خلال القرنين السّادس والسّابع الهجريين 12 و13 الميلاديين في المغرب الأوسط. نفس المرجع السابق. ص: 179.

³ - أبو النّجم هلال بن يونس الغبريني: الشّيخ الفقيه الجليل، العابد المتقي، الولي المبارك، من أصحاب الشّيخ الفقيه أبي زكريا الزواوي، كان رحمه الله من أهل الجدّ والاجتهاد، وممّن يعدّ في أولياء العباد، مع هيئة وسكينة ووقار، كان يقول عنه شيخه الزواوي: "من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة، فلينظر إلى هلال بن يونس"، كان ملازماً للجامع الأعظم ليله ونهاره للعبادة والدراسة والقراءة. أبو العباس الغبريني. عنوان الدراية. مصدر سابق. ص: 185.

⁴ - أبو سليمان داود بن مطهر الوجهاني: القرن السابع الهجري، رحل إلى المشرق، وحجّ بيت الله الحرام، وقرأ ودرس واجتهد، كان له علم بالفقه وأصول الفقه، وأصول الدّين، وهو أحد الأخيار المجتهدين والأكابر المفنّين. أبو العباس الغبريني. عنوان الدراية. نفس المصدر السابق. ص: 262.

كما مارس "أبو عبد الله بن البلد" و"أبو عبد الله بن الملك" حرفة استنساخ الكتب، ناهيك عن احتراف "أبي علي عمر الحباك" مهنة نقل الزبل، بينما كان "الأبي إسحاق إبراهيم الخياط" حانوت بتلمسان، يجلس فيه للخياطة وكذلك كان بنو مرزوق أهل دين وتصوّف، يحترفون العلم والتجارة في دكاكين لهم بالقيصرية ودرب مرسى الطلبة بتلمسان وفلاحة الأرض بالعباد¹. فقد أجمعوا على وجوب الاشتغال بالمكاسب وطلب الرزق واتخاذ الأسباب والحث عليها من تجارة وحرف وزراعة وغيرها، مما أباحه ديننا الحنيف، مع التحرز الشديد من الشبهات والتشدد في طلبه والاستكانة لها.

لقد تمثل الصوفية جيّداً حديث الرسول ﷺ عليه السلام ((النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ)) فعملوا على التضحية في سبيل إسعاد الآخرين ومساعدتهم وخدمتهم، فالصوفي يخدم نفسه، كما أنه يقدم عليها خدمة الآخرين، ويكتشف عيوبه، ليُعالجها في نفسه وفي الغير، ويرتفع ويرتقي بحياته الروحية والأخلاقية ليجعلها أنموذجاً يُحتذى ويُقتدى به.

كما أن الصوفي مثال ناصع في التنشئة والتطبع الاجتماعيّ يُعلّم الفرد ويربّيه على السلوكات الاجتماعية السليمة لتتلاءم وقواعد مجتمعه ويحصّنه من الخروج عنها ويلزم نفسه بالنقيّد بها واحترامها والعمل بها، في بيته ومع جيرانه ومُجتمعه كاملاً. وما انتشار الطرق الصوفية في الجزائر وتعدّد الزوايا وكثرة المريدين والمحبّين وتردّد الطلبة والزائرين إلا أكبر دليل على عمق تجربتهم الاجتماعية ومُساهماتهم الكبيرة في بناء النسيج الاجتماعيّ للأمة الجزائرية، وإقامة علاقات متينة جداً أفقية وعمودية، بتمظهراتها المتعدّدة والمختلفة، تربوية وتعليمية وتوعوية وتكافلية.

¹ - الطاهر بوناني، التصوّف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين 12 و13 الميلاديين في المغرب الأوسط. مرجع سابق. ص: 171.

«مَنْ لَهُ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ فِي جَمِيعِ تَصَارِيفِهِ لَا يَعْمَلُ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، بَيْنِي الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ، يُعَمَّرُ المساجد والمدارس والزُّبُط وَيُهْدَبُ طُرُقُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ بَنَى غَيْرَ هَذَا فَلِلْعِيَالِ وَالْأَرَامِلِ وَالْفُقَرَاءِ وَمَا لَا بَدَّ مِنْهُ»¹.

فَمَشَايِخُ الصُّوفِيَّةِ مَزَجُوا الدِّينَ وَالدُّنْيَا، وَجَعَلُوا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ ذَخْرًا لِلْآخِرَةِ، فَرَأَوْا أَنَّ أَجَلَ الْأَعْمَالِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهَا لِلنَّاسِ وَالْمَجْتَمَعِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَعْيٍ رَاقٍ فِي فَهْمِ الدِّينِ، وَلَمْ يَقْصُرُوا أَعْمَالَهُمْ عَلَى الْأُمُورِ التَّعْبُدِيَّةِ الَّتِي بَيْنَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ، بَلْ أَكْمَلُهَا وَأَرْفَعَهَا مَنْ يَظْهَرُ نَفْعُهَا وَيَمْتَدُّ أَثَرُهَا وَيَشْمَلُ كَافَةَ أَبْنَاءِ الْمَجْتَمَعِ مِنْ بَنَاءٍ لِلْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ، وَحَفَرِ الْآبَارِ وَتَعْمِيرِ الْأَرْضِ، وَإِعَانَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَتَيْسِيرِ حَالِ الْمُسْلِمِينَ حَسَبَ الْإِسْتِطَاعَةِ بَلْ عُرِفَ الصُّوفِيَّةُ وَامْتَاذُوا بِ «التَّصَاقُفِ بِالْعَامَّةِ وَمُخْتَلَفِ الطَّبَقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحِرْفِيَّةِ وَمُخَالَطَتِهِمْ، بَلْ إِنَّ مُعْظَمَهُمْ كَانَ مِنْ ذِي الْحِرْفَةِ، بَلْ كَانُوا لَا يَرْعَوْنَ عَنْ مُخَالَطَةِ الْحَشَاشِينَ وَمُدْمَنِي الْخَمْرِ وَالْمُخَنَّثِينَ مِنَ الْفَنَاتِ الْمَرْذُولَةِ»².

فَقَدْ تَجَاوَزَ عَمَلُهُمُ الْاجْتِمَاعِيَّ، فَنَاتِ الشَّعْبِ الْمُخْتَلَفَةِ وَطَبَقَاتِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ، لِيَصِلَ إِلَى بَعْضِ الْفَنَاتِ الْمُنْبُوذَةِ اجْتِمَاعِيًّا فَخَالَطُوهُمْ وَتَوَاصَلُوا مَعَهُمْ وَحَاسِلُوا إِصْلَاحَ أَحْوَالِهِمْ وَمَدَّ يَدَ الْعَوْنِ لَهُمْ، مُقْتَنِعِينَ يَقِينًا بِفِكْرَةٍ أَصِيلَةٍ عِنْدَهُمْ، تُلْغِي رُؤْيَيْتَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِأَنْهُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ، مَهْمَا اخْتَلَفَتْ مَرَاتِبُ هَؤُلَاءِ وَمُسْتَوِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالُهُمْ، فَلَا يَتَكَبَّرُونَ أَبَدًا بِهَذِهِ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ بَلْ تَزِيدُهُمْ رِسْوَخًا بِنَقْصِهِمْ، بَلْ وَيَعْتَبِرُونَ الْمَتَكَبِّرَ بِطَاعَتِهِ أَشْرَ وَأَضَرَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ فِي ذَاتِهَا.

1-4/ التَّكَاْفُلُ الْاجْتِمَاعِي:

ظَلَّتْ وَلَا تَزَالُ الطَّرِيقُ الصُّوفِيَّةُ مِنْذُ عُهُودٍ قَدِيمَةٍ الْأَكْثَرُ تَغْلَغَلًا وَتَأْثِيرًا فِي الْمَجْتَمَعِ الْجَزَائِرِيِّ، مُقَارَنَةً مَعَ جَمِيعِ التَّيَّارَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَحَتَّى السِّيَاسِيَّةِ الْآخَرَى، فَبِإِضْلَافِ قُدْرَتِهَا عَلَى التَّأْثِيرِ السَّرِيعِ وَالْمُبَاشَرِ فِي تَرْكِيبَةِ الْمَجْتَمَعِ وَبِإِضْلَافِ جُھُودِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ فِي ذَلِكَ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ

¹ عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني . تح: أنس مهرة. منشورات الجمل. بغداد، العراق. ط 01، 2007. ص: 76.

² عبد الوهاب الشَّعْرَانِي، الكوكب الشَّاهِقُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْمُرِيدِ الصَّادِقِ وَغَيْرِ الصَّادِقِ. تح: مُحَمَّدٌ شَرْقَاوِي. دار المعارف، القاهرة، مصر. 1991، ص: 73.

جلياً في الكم الكبير من الطرق والزوايا الصوفية المنتشرة في الأرياف والمدن والقرى والتي مارست من خلالها جميع الوظائف الاجتماعية والدينية والتربوية، ومن أهم هذه المظاهر: التكافل الاجتماعي؛ والذي يتمثل أساساً في رعاية الفقراء والأيتام والأرامل، رعاية عابري السبيل وتقديم العون اللازم لهم حتى يعودوا إلى أوطانهم ودمج المنبوذين والمتشردين وعلاج المرضى وتخصيص أماكن للتعليم الديني وتحفيظ القرآن الكريم ومختلف العلوم الشرعية وتنقيف وتوعية الأمة والمساعدة في الأعمال الخيرية ونشر ثقافة الترحاب والضيافة وممارسة الوساطة الاجتماعية.

1-5/ وظيفة الإيواء والإطعام:

فالتطرق الصوفية من خلال زواياها الموجودة في كل رُبوع الوطن أخذت على عاتقها مسؤولية تلبية حاجات الجماعة، وتحمل أعبائهم ورعايتهم والعناية بهم، ومن أهم مظاهر التكافل الاجتماعي؛ وظيفة الإيواء والإطعام، والتي ارتبطت في نشأتها بشكل وثيق بوظيفة التدريس والتعليم حيث تقوم الزاوية بتوفير الشروط الضرورية من أكل ومبيت لطلبة العلم وحفظ القرآن الكريم، وللمدرسين على السواء خاصة الذين كانوا يستقبلون من خارج المنطقة ثم عُممت هذه الوظيفة لتصير من البديهيات الاجتماعية كإطعام وإيواء عابري السبيل والفقراء والمتشردين حتى أصبحت تُلقب الزاوية بـ"دار الضيوف".

ومن القرائن على هذه النماذج التكافلية قديماً ما ذكره "الطاهر بونابي" عندما أصابت أهل بجاية مجاعة أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، وامتألت الشوارع بالمعوزين والمتشردين الذين يفتقدون إلى المأوى والمأكل والملبس، ولم تتحرك السلطة الموحدية ولا وجهاء وأغنياء المدينة للتخفيف عنهم، تكفل الصوفي "أبو زكريا يحي الزواوي" على عاتقه إعالتهم، فلجأ إلى جمع المال واكترى فندقاً بثلاثمائة دينار، جمعهم فيه واشترى لهم ما يكفيهم من الطعام واللباس، حتى انجلاء الأزمة في العام الموالي فأنصرفوا إلى مواضعهم¹.

¹ - الطاهر بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14/13م. مرجع سابق. ص: 188-189.

فَالزَّوَايا مارست هذا الدَّور قديمًا، ولا زالت تُمارسه في كثيرٍ مِنَ المناطق، ولا حاجة لنا لِسرد الأمثلة الكثيرة لِفاعلية هذا البعد الوظيفي الاجتماعي لِلطَّرق الصَّوْفِيَّةِ الجَزائِرِيَّةِ فَهُوَ معروفٌ مُشتهرٌ، فَالزَّوَاوية تقوم بِاستقبال وإكرام وإعانة كُلِّ أصناف النَّاسِ وَالتَّكْفُلُ بِهِم اجتماعيًا وَأبوابها تبقى مفتوحةً طيلة أَيَّام السَّنَةِ، لِيلاً وَنهارًا سواءً كانوا مريدين بها أم لا.

1-6/ حل القضايا والنزاعات وإصلاح ذات البين:

لقد استطاعت الطَّرق الصَّوْفِيَّةِ وَالزَّوَايا، وَمشايعها، مُمارسة وظيفة الوساطة وَالتَّحْكِيمِ وَإِصلاح ذات البين وَالفصل في النَّزاعات بين الأطراف المتخاصمة مهما كانت، بِفضل تغلغلها في النسيج الاجتماعي الجَزائِرِيَّ وَإِختلاطها بِجميع طبقات المجتمع وَمُعاشية مشاكلهم، وَمُشاركتهم أَفراحهم وَأفراحهم، فَساهمت في شكلٍ كبيرٍ في مُحاولَةِ إِشاعة السَّلم وَالأمن، مِنْ خلال فَضَّ النَّزاعات الحاصلة بين الأفراد وَالجماعات، وَحَلَّ الصَّراعات وَالخلافات بِطَرَقٍ وِدِّيَّةٍ، لِمَا يَكُنُّه المجتمع لِشُيوخ الزَّوَايا مِنْ احترامٍ وَتَبَجُّيلٍ، فيقوم بِمُهمَّةِ التَّوسُّطِ وَالتَّحْكِيمِ وَإِصلاح وَالقضاء وَالحكم بين الأطراف المتنازعة لِضمان الصَّلح وَالاستقرار، وَبِالتَّالي يُمكن الجزم بأنَّ هذه الوظيفة المرتبطة بِالوساطة وَحَلَّ القضايا وَالنَّزاعات وَالتَّحْكِيمِ شكَّلت جُزءًا لا يتجزأ مِنْ الوظائف المتعدِّدة الَّتِي كانت تحكم تحركات وَنشاطات الزَّوَاوية مُنذ العهود الأولى لِتأسيسها وَإلى يومنا هذا، بِاعتبار الزَّوَاوية سُلطة دينية وَشرعية، تتموقع خارج هذه الصَّراعات وَتُحبِّب الخير وَالرَّاحة وَالسَّعادة لِلْمُجتمع.

فَقَدْ تمكَّنت هذه الطَّرق وَالزَّوَايا الصَّوْفِيَّةِ مِنْ تنظيم فضاءٍ شرعيٍّ مُحكمٍ وَتوسَّعت علاقاتها بِكافة أَطراف المجتمع وَارتبطت به ارتباطًا متينًا، فَصارت بِذلك ملجأً لِجَمِيع النَّاسِ وَحَلَّ مشاكل الأتباع وَالمريدين وَالمحبِّين، وَرُبَّما حتَّى مَنْ لا ينتمي لِلطَّرِيقَةِ إِنَّ قَصدها كَقضاء الديون، وَالتَّوسُّطِ لِفَكِّ النَّزاعات وَالإنفاذ مِنَ السَّجون، وَدفع الدَّية، وَالإعانة على المناسبات الاجتماعية، كَالزَّواجِ وَالجنائز...، دُونَ أَنْ ننسى دورها في رَأب الصَّدع بين أبناء الشَّعب الواحد في الفتن وَالمحن وَالشدائد، كَأحداث القبائل أَوْ غرداية أَوْ بُرج باجي مُختار، كَمُبادرة الصَّلح الَّتِي قام بها أئمَّة وَشُيوخ زاوية عَنابة وَزيارتهم لولاية غرداية وَلِقائهم معهم، وَالدَّعوة لِلوحدة وَإِخماد نار الفتنة

والمبادرة التي قام بها شيوخ الزوايا في أدرار لإصلاح ذات البين بين المتنازعين في بُرج باجي مختار والتي كللت بالنجاح وتمّ وأد الفتنة في مهدها¹.

دُون أن ننسى دورهم قبل ذلك في دفاعهم عن المشروع الخاص بالعمو الشامل والمساهمة في حلّ الأزمة والمأساة الوطنية، خاصّة في ظلّ مكانة "الشيخ" الروحية في المجتمع الجزائريّ الذي تُخوّله كسلطة رمزية مؤثّرة، التوسّط بين المتنازعين والمتخاصمين وإيجاد الحلول وحقق الدماء والتأليف بين القلوب والمساهمة في الاستقرار والأمن.

1-7/ تحقيق الوحدة الاجتماعية وترسيخ الهوية الوطنية:

لقد شكّل النّصوّف الطّرقيّ في الجزائر عبر امتداداته التاريخية شكلاً واضحاً من أشكال التّدين، كما تمكّنت الزّاوية من فرض سيطرتها كمؤسسة اجتماعية وتربوية ساهمت مساهمة كبيرة في المحافظة على التماسك الاجتماعي لاستقطابها مختلف الطبقات الاجتماعية وتنوّع مستوياتها حيث نجد الرئيس والوزير والحرفي والفلاح والموظف، الغني والفقير، عبوراً بالطبقات المتوسطة، وأوساط العلماء، مهما اختلفت مراتبهم ووظائفهم وطبقاتهم، فأسس بذلك بُنية اجتماعية جديدة قائمة ومُجسّدة على الولاية الدينية، بدل الرابطة الدّموية والقبلية والعروشية، تذوب فيها كلّ الفوارق الجهوية والعنصرية بين الأتباع والمريدين، وتخلق جوّاً من التضامن والتآزر والتكافل.

كما ساهمت الطّرق الصّوفيّة في إفشال كلّ المخطّطات الاستعمارية الرّامية إلى تقسيم الشعب الجزائريّ، فالتمّت جميعها قادية ورحمانية وتيجانية وشاذلية وشيخية... تحت راية الجهاد، كما كان لها موقفاً حاسماً ورافضاً لمشروع فصل الصحراء، ويبقى موقف الشيخ "بيوض" مثلاً بيّناً في ذلك، حين ردّ على مبعوث "ديغول" "أوليفي فيشار" بعد أن ألحّ عليه بالموافقة، «إنّ الصحراء ملكاً للجميع ولا تخصّنا نحن الميزابيين»².

¹ - ع. زهيرة، مبادرة من أئمة وشيوخ زوايا بغانابة: زيارة صلح إلى ولاية غرداية. جريدة الخبر. الأربعاء 19 فيفري 2014، عنابة.

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب: دراسة اجتماعية وإقتصادية وسياسية. المطبعة العربية، غرداية، الجزائر. 1992، ص: 215.

كما تمكن المنهج التربوي الصوفي، من ضمان الوحدة الصوفية وتحقيق الأمن الداخلي والحد من التطرف والإرهاب الفكري والديني والمساهمة الفعالة في توفير الاستقرار اللازم لإحداث التنمية الشاملة، والتقريب بين المذاهب، لقدرته على احتواء الآخر ونبذ الأطروحات المتطرفة، ولاتسامه بالتنوع والتفتح والتسامح مع الآخر، ومحاصرته لكل الروافد المغذية للمنطق الأصولي، خاصة ما أفرزته التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية على المجتمع الجزائري، في السنوات الأخيرة، الذي أعاد بعث نشاط الطرق الصوفية، لإدراك السلطة السياسية القائمة، والنخبة الفكرية دورها الهام والحيوي في المجال الدعوي واستقطاب وتحسين أفراد المجتمع، من كل دعاوي الهدم والتفرقة، وللوقوف في وجه كل تيار إسلاموي ينتهج أساليب العنف وطرح التبذيع والتفسيق والهجر والتكفير، ورفض كل تدين آخر، مقدساً لنموذجه ومُنفرداً بتوجهه في فهم الإسلام وتطبيقه، كما تمكنت الطرق الصوفية من خلال زواياها المنتشرة بتنمية الشعور بالوحدة الوطنية، بمنهجها الروحي التربوي القويم الغني في محتواه، الشرعي السليم في جوهره، فحافظ على الشخصية الوطنية وروح الأمة وحتى عقيدتها، وبنى مواطنين معتزّين بقيمهم وعاداتهم متعلّقين بدينهم ولغتهم، وكانت فعلاً حصناً قوياً ضدّ كل الإغراءات والإغواءات والأساليب التي حاولت طمس هويتنا، وما هؤلاء الرجال والنساء الذين امتلأت بهم صفحات التاريخ الجزائري، من مُصلحين وسياسيين، ومُجاهدين إلّا من خريجي الزوايا، ومن الذين ترعرعوا في مدارسها وشبّوا على حبّ الإسلام والوطن في أحضانها وبين جدرانها "الشيخ محي الدين" وهو من هوعلماً وجهاداً، كان مقدّم الطريقة القادرية وشيخ زاويتها بالقيطنة قريباً من مدينة معسكر، وهو الذي أنجب البطل المجاهد الأمير "عبد القادر" قائد المقاومة الوطنية... والطريقة القادرية هي التي أنجبت المجاهد "ابن ناصر بن شهرة" قائد ثورة الصحراء، وهذا الشيخ "بومعزة" قائد ثورة الشلف والونشريس من أتباع الطريقة الطييبية، وأمّا الطريقة الرحمانية أخرجت كبار القادة والمجاهدين ويكفي أن نذكر على سبيل المثال الشيخ الحدّاد، وفاطمة نسومر البطلة¹.

¹ - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 223.

بالإضافة إلى اعتبار الزوايا مراكز العلم والثقافة العربية الإسلامية بالجزائر منذ القدم وشكّلت حصناً منيعاً للحفاظ على هذه الهوية إبان كلّ الفترات الزمنية المتعاقبة، خاصة أثناء الفترة الاستعمارية، التي وقفت خلالها ضدّ كلّ حملات التبشير والتّصير، يقول "أحمد توفيق المدني": «لبعض الطّرق الصّوفية بقُطرنّا هذا (الجزائر) مزيةً تاريخيةً لا يستطيع أن يُكرها حتّى المكابر، تلك هي أنّها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظُّلمات، وعمل رجالها العاملون الأولون على تأسيس الزّوايا، يُرجعون فيها الضّالين إلى سواء السبيل ويقومون بتعليم النّاشئين، وبثّ العلم في صدور الرّجال، ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها، والتي نقف أمامها موقف المعترف المعجب لما كنّا نجد السّاعة في بلادنا أثرًا للعربية ولعلوم الدّين»¹.

ما تزال الطّرق الصّوفية مُمثّلة في زواياها المنتشرة في ربوع وطننا تُمارس وظيفتها التّربوية التّعليمية على أتمّ وجه، جمعت فيه بين التّربية الرّوحية الوجدانية ووظيفة نشر العلم وتدريبه، والتي يتخرّج منه العديد من الحفاظ والفقهاء. وقد برزت فيه الطّرق والزّوايا الصّوفية كمعاهد مُتخصّصة لتخريج الطّلبة والحفاظ على هويتنا الوطنية لما حوته من مشايخ وعلماء ومكتبات وكتاتيب، ساهمت مُساهمة فعّالة في تنشئة وتكوين أجيال مُتلاحقة ليومنا هذا.

كما قال الدّكتور "عبد الله الرّكبي": «بقي نوع آخر من التّعليم وهو الخاصّ بالزّوايا، والذي يرجع إليه الفضل في الحفاظ على اللّغة العربية وعُلومها، وهو تعليم كان يسير على المناهج القديمة التي تُعطي الأولوية لعلوم اللّسان والدّين... وتتلخّص طرق هذا النوع في التّعليم في تحفيظ القرآن وقراءته ثمّ حفظ المتون "متون النّحو والصّرف والفقه والتّوحيد»².

2/- دور الزّوايا في نشر العلم:

¹ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر. دار الكتاب، الجزائر. 1963، ص: 350-351.

² - عبد الله ركيبي، الشّعَر الدينيّ الجزائري الحديث. الشّركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1981، ص: 30.

لقد كان للطرق الصوفية دورٌ بارزٌ مُتمثلٌ في زواياها التربوية التعليمية، التي قامت ولا تزال، بإعداد المريدين وتأديبهم وتخليتهم، وتحليتهم، في وقتٍ زاع فيه الشباب عن هذا النهج القويم والخلق الكريم، وأنصاعوا لتقليد نماذج غريبة غريبة عنّا، بفضل الزوايا والكتاتيب التابعة لها وبفضل نشاط مشايخها في تقديم الدروس العلمية، انتشر العلم والوعي وقلّت الأمية والجهل بين الطبقات المختلفة للمجتمع، خاصةً الوسطى والبسيطة، وحسب هذه الزوايا فخرا أنّها ساهمت مساهمةً معتبرةً في مُحاربة التخلف ونشر التعليم العربي الإسلامي وإخراج أجيال من المثقفين والمتعلمين، حتّى لم يبق بين أبناء الجزائريين من يجهل القراءة والكتابة «الزوايا المؤسسات التربوية التعليمية، التي ظلّت عقوداً صامدةً صمود الجبال الزواصي في وجه الحملات التبشيرية والمحاولات التنصيرية لِتُحافظ على الشخصية الإسلامية العربية لهذا الشعب وتحفظ له أصالته من عوامل المسخ والدوبان والتشويه»¹.

وقائمة العلماء الذين تخرجوا من الزوايا طويلةٌ جدّاً ولقد حاول الاستعمار الفرنسي منع اللغة العربية باعتبارها وعاء الدين ووسيلة لفهمه، كما أراد تنصير أبناء الشعب الجزائري وتغريبهم تمهيداً لإدماجهم، لكن التعليم الديني وعلى رأسه الزوايا وقفت له بالمرصاد وحافظت على مقومات الشعب الجزائري وهويته، والكثير ممّن دافعوا عن مقومات الأمة ورؤاد الإصلاح في الجزائر كانوا طرقيين، أو من خريجي الزوايا، والأمثلة كثيرة، فشيخ التجانية بالجزائر العاصمة "عمر بن قدور" يُعتبر في نظر الكثيرين رائد الصحافة العربية بالجزائر، ومن أوائل المؤسسين لصحيفة عربية إسلامية، وهي الفاروق، والتي صدر العدد الأول منها في 18 فبراير 1913، وكان شعارها:

ديني ووجداني وحُب بلادي قلمي لساني ثلاثة بفؤادي²

¹ - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 14.

² - زاهر إحدادر، الصحافة الإسلامية الجزائرية من بدايتها إلى سنة 1930. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1986، ص: 30-31.

فالتربية والتعلم أهم الوظائف المركزية والأساسية للزوايا والطرق الصوفية، خاصة مع احتلال الجزائر ومحاولات محو الأبعاد والقيم الإسلامية، وطمس معالم الشخصية العربية الإسلامية بكل السبل والوسائل، من خلال تقليص عدد المساجد والكتاتيب، وتحويل بعضها لوظائف أخرى، فقد كانت هذه الزوايا وفترات تاريخية طويلة، هي المؤسسات الوحيدة والغالبة التي تولت مهمة التربية والتعلم مجاًناً، للصغار والكبار، الفقراء والأغنياء، وقد استطاعت بأسلوبها البسيط المتواضع وبإمكاناتها المتاحة من الحفاظ على اللغة العربية والآداب الإسلامية في مجتمعنا الجزائري.

وهي إلى يومنا هذا تقوم بوظائف تربية مهمة، تتمثل في تحفيظ الطلبة القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية، بالإضافة إلى التربية والتعليم عموماً، فلا يزالون منذ قديم الزمان أولى المعلمين، الذين نشروا القرآن والسنة النبوية ومبادئ اللغة العربية كما لا يزال أول التعليم في الجزائر ينطلق من الكتاتيب فلا نجد مدينةً، ولا قريةً، إلا وفيها كتاباً، فيقوم بتعليمهم القراءة والكتابة والقرآن الكريم.

دون أن ننسى أنها كانت تمثل المرجعية الأصلية في حل كل القضايا الدينية والعقدية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، وفي المحافظة على وحدته المذهبية لأنها «كانت تضطلع بمهمة الفتوى والقضاء، من خلال الإجابة عن التساؤلات الشرعية للناس والفصل في النزاعات التي يمكن أن تنشأ بينهم حول مختلف القضايا المرتبطة بالملكية والأحوال الشخصية والعلاقات الاجتماعية وغير ذلك»¹.

كما أن الطرق الصوفية عملت ظاهراً وباطناً على مواجهة الانحرافات والآفات الاجتماعية بكل أشكالها من خلال اهتمامها أولاً بأداء الواجبات الشرعية وتطبيقها، باعتبار الاستقامة أساس السلوك الصوفي، ثم باحتضان الشباب وتعليمهم وتربيتهم وتخليتهم والحفاظ عليهم من كل التيارات والتوجهات التي قد تؤثر سلباً على حياتهم، ومن ثم مجتمعاتهم، وعملت جاهدة للوقوف

¹ - سعيد جاب الخير، أبحاث في التصوف والطرق الصوفية الزوايا والمرجعية الدينية في الجزائر. دار الفيروز للإنتاج الثقافي، الجزائر. 2013، ص: 28.

في وجه الرذائل والآفات الاجتماعية، ومُحاربة المنكرات والحفاظ على الأخلاق، بل بلغ حدّ محاولة إصلاح وإدماج المساجين، التجربة التي بادر بها شيخ الطريقة العلّوية "ابن عليوة" «المهم أن أول تجربة تربويّة استوقفتني في مشوار الشيخ الصوّفيّ في تربية المساجين القصر، بطلبٍ منه، ليتولّى إعادة تربيتهم وسلّمت له السّلطات الفرنسية دُفعةً من شباب المسلمين الذين ارتكبوا جرائم في سنّ المراهقة، وكان الشيخ قد أعدّ نظاماً مضبوطاً يُشرف على تنفيذه الفقراء المعنيون على الشّكل التّالي: في الصّباح يقومون بتحفيظ سورٍ من القرآن الكريم، ثمّ يُقدّم لهم طعامَ الفطور، ثمّ يُوزعون على العمل الذي اختاره كلّ سجين عند دخوله، كالعمل في الطّباعة أو الفلاحة أو المخبزة أو الميكانيكا أو التّجارة، تحت رقابة الفقراء، وحين عودتهم من العمل وبعد الاستراحة وبعد صلاة العشاء وتناول طعام العشاء تُعطى لهم دروس في الدّين والأخلاق»¹.

هذا ما يبيّن بصورة واضحة حرص الطّرق الصّوفيّة على البعد التّربويّ التّعليميّ وما له من تأثير إيجابيّ ودور فعّال في إصلاح المنظومة الأخلاقية والاجتماعية، والحفاظ على ثوابت الأمانة ومُقدّساتها.

3/- السّلام النّفسي والاجتماعي ونبذ العنف:

تُمكن التربية الصّوفيّة من إحلال السّلام النّفسي الدّاخلي للأفراد، وتزوّده بالمبادئ الإيجابية التي تسمح بتكوين فردٍ صالحٍ يخدم مُجتمعه ويُطوّره، من خلال مُحاسبته الدّائمة لنفسه وتصحيح أخطائه وتكميلها بالفضائل، ويجعل هذه الحياة وسيلةً لا غايةً، كما يُنقذه هذا التّسلّيك الصّوفيّ من الاضطرابات السلوكيّة الاجتماعية كالاكتئاب المزمن والقلق ومن الانحرافات الخطيرة كالإدمان على المشروبات الكحولية والمهلوسات وغيرها من هذه الآفات الاجتماعية المنتشرة، ممّا يفقده القابلية على التّفاعل الإيجابيّ والفعّال مع مُحيطة وبيئته

¹ - نقلاً عن بشير جلطي، البعد التّربويّ في الطّريقة العلّوية. مجلة الحضارة الإسلاميّة، العدد الرابع والعشرون، 2014، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر. ص: 382.

الأسرية والمجتمعية، ويدخل في حالة صراع معه، وتخفي معه الطمأنينة والسكينة ويحل محلها التوتر الدائم فتتعاكس سلبيًا على الأمة بأكملها.

فالانخراط في المنهج التربوي الصوفي الروحي، والتقيّد بشروطه وآدابه، والمداومة على العبادة والذكر والأوراد، ولزوم الجماعة، وحضور حلقات العلم والسماع يُمكن من خلق توازن روحي اجتماعي، يُعمّق أواصر المحبة والمودة والأخوة في الأمة الجزائرية ويشكّل وعيًا اجتماعيًا نافعا ومؤثرا.

كما أنّ العمل الصوفي بشكل عام، لا علاقة له بالعمل الحركي المتأسلم، ولا يُروّج للخطاب السياسيّ الغالب على هذه الحركات المتأسلمة، كما أنّه لا يتبنى الدلالات السياسية والحمولة الإيديولوجية للمفاهيم الداعية إلى: «المفاضلة الشعورية» و«الحاكمية» و«الجاهلية» و«الولاء والبراء» وما إلى ذلك، لاعتبارات عدّة منها: مثلاً أنّ هاجس الفاعل الصوفي يدور حول مواجهة "العدو الأكبر" ويُقصد به "هوى الذات" و"حُظوظ النفس"¹.

فالمنهج الطريقي الصوفي الفاعل، يُقدّم أنموذجاً مختلفاً للتدوين المتطرّف المتعصّب والمؤدلج، وينبذ كلّ تعصّب ديني، يتجاوز الآخر ويتعالى عليه، يتّهمه و يرفضه ويجرحه ويحتقره ويكفره ويبدّعه ويفسّقه، بل يصل حدّ إحلال دمه وإهداره، فالصوفي الحقّ يؤمن بفكرة "الآخر" وتنوّعه واختلاف أفكاره، وعدم مركزيته على نوع بشريّ محدّد، أو طائفة معيّنة، فالمركزية الصوفية مبنية على "الإنسان" قريباً أو بعيداً من الله، فلا مركزية تعلو على هذه العلاقة.

«ويُعالج المتصوفة عُقدة الشّخصية الدّينية التي ترى نفسها فوق سائر النّاس وتحتكر الحقيقة والفضل دونهم، والصّوفيّ مُنفتح على الغير المختلف معه في السّلوک أمّ في العقيدة ولا يُلاحق النّاس بالتّفسيق أو التّبديع أو التّكفير»².

¹ - محمد أبو رمان، الصّوفيّة اليوم قراءة مُعاصرة في مُجتمع التّصوّف ونماذج. عالم الفكر للطباعة، عمّان، الأردن. ط01، 2020، ص: 136.

² - هادي العلوي، مدارات صوفيّة. دار الهدى للطباعة والنشر، دمشق، سوريا. ط01، 1997، ص: 187.

على هذا الأساس نبذ الخطاب الصوفيّ كلّ الأطروحات المتطرّفة، التي تُروّج لها بعض الجماعات المحسوبة على الإسلام، التكفيرية المتشدّدة، ولهذا فقد استقرّ الخطاب الرّسمي لوزارة الشؤون الدينية والأوقاف على تبني المنهج الصوفيّ الجنيدي كأحد مكونات الهوية الجزائرية، إلى جانب المذهب المالكيّ والعقيدة الأشعرية، كتنوّج مناقض لكلّ تلك الجماعات.

المبحث الثالث: البعد الإنسانيّ والحضاريّ والثقافيّ

1/- البعد الإنسانيّ والحضاريّ:

أصبح مفهوم الإنسان يُشكّل محورًا جذابًا لكلّ الخطابات ومُحرّكًا أساسًا لفهم أبعاد هذا الوجود الإنسانيّ، تتجاذبه وضعياته المتعدّدة وتداخلاته المتشعّبة، الذاتيّ والموضوعيّ الماديّ والرّوحيّ، الوجود والعدم، الانفصال والاتّصال، الوحيّ والفلسفة. جاء في موسوعة مُصطلحات التّصوّف الإسلاميّ، في التعريف الاصطلاحيّ للجذر اللّغويّ للفظ "إنسانية"، «إنسان: تقرر عندنا أنّ الإنسان نُسختان: نُسخة ظاهرة ونُسخة باطنة فالنُسخة

الظاهرة مُضاهية للعالم بأسره فيما قدرنا من الإقسام والنسخة الباطنة مُضاهية للحضرة الإلهية، فالإنسان هو "الكلّي" على الإطلاق والحقيقة، إذ هو القابل لجميع الموجودات»¹.

فالإنسان عالمٌ صغيرٌ يشمل العالم الكبير ويحتويه، فكلّ الموجودات في هذا العالم الإنساني متضمنة في هذا العالم الإنساني الأصغر، بما اختصّ به من حسن الخلق ورجاحة التدبير وبما ركب فيه من أسرار باطنية وعناصر عجيبة، مكنته من خلافة الله في خلقه، وملكته أمرها، فكان حامل أمانة تدبير هذه المملكة الإنسانية وتسييرها وتنشئتها وتنشئة الروحانيّة والجمع بين العين الإنساني والجسد الآدمي لأنّ الإنسانية مرتبطة بقيم الإنسان الأخلاقيّة التي يلتزم بها في تعامله مع بني جنسه والتي تهدف إلى تحريره من الذلّ والمهانة وتُعزّز مفهوم الكرامة والعزّة، وتُقوّي وعي الإنسان بإنسانيته في إطار الرحمة والإحسان والأخوة والمحبة. فالإنسان لغة، بحثٌ عن الآخر، عن الشيء، لا لكي يُخضعها بمعرفة لهما، بل لكي يتواصل معهما في تساوٍ وحُبٍّ².

وكأننا نأنس بهذا الآخر، وجودًا ومعرفةً، نبحث عنه لننصل به ونُعائشه ونُحبه، لا لنتخذة عدوًا. لأنّ مأساة الإنسان الأزلية، في كلّ العصور، ناجمة عن أنانيته التي تدعوه دائماً إلى الاستكبار على أخيه الإنسان بدل أن ترجو الخير للبشرية كلّها، دون إقصاءٍ لطرفٍ مُعيّن، أن تتّصف بالرحمة والحب، في نظرتك للمخلوقات لأنّ «المتأمل للتراث الصوفي يقف على أنّ التصوّف كمنهج حياة ظاهرة إنسانية، لم يخل منها دين من الأديان أو حضارة من الحضارات، ذلك أنّ الاهتمام بالمعنى الإلهي، وبما فوق الطّبيعة هو إحدى التّزعات الخالدة للإنسانية»³. باعتبار المنهج الصوفيّ، يتّسم بوحدة الغاية، فوجه الله هو المطلوب دائماً، وهو الهدف الأسمى والأقصى في رحلة البحث المضنية، يتّفق في ذلك مع سائر المسيرات البشرية المنتمية لسلسلة التّراث الدينيّ الإنسانيّ الروحيّ، من خلال انجذابه إلى محبة الله، الذي هو جوهر أيّ

¹ - رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوّف الإسلاميّ. مكتبة ناشرون، بيروت، لبنان. ط1، 01، 1999، ص: 99.

² - علي أحمد سعيد أدونيس، الصّوفيّة والسّريالية. دار الساقي، بيروت، لبنان. ط3، 03، 2004، ص: 56.

³ - الجياش عبد الحميد، التصوّف الإسلاميّ بين الحقيقة والواقع. دار النهضة العربيّة، مصر. ط1، 01، 2009. ص: 17.

تربية صوفية، وهو أسمى علاقة، يتوحد في المريد السالك والولي العارف للوصول إلى الحقيقة، بعد أن يترفع عن جميع الخلافات اللاهوتية والفقهية والكلامية والنزاعات والإيديولوجيات والعلائق.

فَالصَّوْفِيُّ السَّالِكُ الْحَقُّ هُوَ كُنْةٌ مِنَ الْأَدَبِ الْإِيجَابِيِّ مَعَ جَمِيعِ أَفْرَادِ مُجْتَمَعِهِ الْإِنْسَانِيِّ - الْإِنْسَانُ عُمُومًا - مُسْلِمًا وَمُؤْمِنًا كَافِرًا وَعَاصِيًا، وَالنَّظَرُ إِلَى الْإِنْسَانِ كَانْسَانٍ مَخْلُوقٍ لِلَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ ذَاتَ صَنِيعِ اللَّهِ تَعَالَى وَخَلْقِهِ، وَمَا أَمَرَتْ شَرْعًا لِحَقِّقَارِهِ ذَاتَهُ، وَإِنَّمَا مَا آتَاهُ مِنَ مُخَالَفَاتٍ وَتَجَاوُزَاتٍ شَرْعِيَّةٍ لَا غَيْرَ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لِحَنَازَةِ يَهُودِيٍّ مَاتَ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ، وَقَالَ ﷺ قِيَامُهُ: ((أَلَيْسَتْ نَفْسًا))¹. فَمَا تَكَلَّمَ بِغَيْرِ ذَاتِهَا مِنَ الصِّفَاتِ الْعَرَضِيَّةِ، فَقَامَ تَعْظِيمًا لَهَا وَاجْلَالًا لِشَرَفِهَا الذَّاتِيِّ وَمَكَانَتِهَا الذَّلَفِيِّ مِنَ اللَّهِ، فَهِيَ مِنَ الْعَالَمِ الْأَشْرَفِ الْمَلَكِيِّ الرُّوحَانِيِّ².

فَوَاجِبَاتُ الْإِنْسَانِ نَحْوُ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ وَهِيَ النَّظَرَةُ لِلْإِنْسَانِ كَمَرْكَزٍ لِلْوُجُودِ، وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ صِفَاتِ النَّزْعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِلتَّوْبِيَّةِ الصَّوْفِيَّةِ، وَكَمَرْحَلَةٍ ثَانِيَةٍ تَطْمَحُ لِلْإِرْتِقَاءِ بِالْإِنْسَانِ الْوُجُودِيِّ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ إِلَى الْإِنْسَانِ الرَّبَّانِيِّ "الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ" مِنَ الْإِنْسَانِ الْحَيَوَانِ إِلَى الْإِنْسَانِ الْخَلِيفَةِ، فِي رُؤْيَا إِنْسَانِيَّةٍ لِلْعَالَمِ، وَهُوَ مَشْرُوعٌ وَغَايَةُ الْمَجَاهِدَةِ وَالْمَكَابِدَةِ الَّتِي يَكْدَحُ الصَّوْفِيَّةُ مِنْ أَجْلِهَا، لِإِنْبَاءِ الْإِنْسَانِ وَتَرْقِيَّتِهِ وَنَيْلِ غَايَةِ خَلْقِهِ وَسِرِّ وُجُودِهِ، عِبْرَ مَعْرَاجِ رُوحِيٍّ. فَالْإِنْسَانُ الْكَامِلُ «وَالَّذِي يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ هَذَا الْكَوْنَ وَسَيَلَةً لِّغَايَةِ هِيَ الْإِنْسَانُ عَامَّةً، وَهُوَ مَعْنَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ((لَوْلَاكَ لَمَّا خُلِقْتُ الْأَفْلَاكُ³ وَقَالَ لِي: أَنْتَ مَعْنَى الْكَوْنَ كُلِّهِ...))»⁴.

¹ - صحيح البخاري 441/01، رقم 1250.

² - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف الروحية والفيوضات. ج 02. تح: عاصم إبراهيم الكيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط 01، 2004. ص: 149.

³ - ذكره العجلوني في كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس وقال: قال الصَّغَانِي موضوع وأقول: لكن معناه صحيح وإن لم يكن حديثًا. إسماعيل بن محمد العجلوني. كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. تح: يوسف بن محمود الحاج أحمد. مكتبة العلم الحديث. بيروت. لبنان. 1999. ج 2. ص: 191.

⁴ - مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ النَّفَرِيِّ، المواقف والمخاطبات. ج 02. تح: آرثر أربري. دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر. 1934. ص: 05.

فَالله خلق الإنسان على صورته تشريعاً له، وَجمع فيه معاني العالم العلوية وَالسَّفَلِيَّة، وَهُوَ كذلك عند الصَّوْفِيَّة عِلَّة الوجود وَسبب إيجاده، فَلولا الإنسان ما خلق الله هذه العوالم، وَمَا كانت لَتَكُون، فَالله شَرَف الإنسانية بهذه المرتبة وَفَضَّلَهَا على سائر مخلوقاته، فَالإنسان هُوَ تَجَلِّيات لِلذَّات الإلهية، بِمَظْهَرِيهِ وَنُسخَتِيهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَهُوَ خاتم التَّراكيب وَأَخَصَّهَا وَأَسْمَى أَنْواعها وَأَشْرَفَهَا، وَهُوَ مركز الوجود وَالْعَالَم كُلَّهُ يخرج منه وَإِلَيْهِ، فَهُوَ مخلوقٌ على صورة الله، وَهُوَ الَّذِي نفخت فيه مِنْ رُوحِ الحقِّ.

«وَمَا هُوَ إِلَّا عَيْنُ جَمْعِهِ بَيْنَ الصَّوْرَتَيْنِ، صُورَةُ الْعَالَمِ وَصُورَةُ الْحَقِّ، فَمَا صَحَّتِ الْخَلَافَةُ إِلَّا لِلْإِنْسَانِ الْكَامِلِ، فَأَنْشَأَ صُورَتَهُ الظَّاهِرَةَ مِنْ حَقَائِقِ الْعَالَمِ وَصُورَهُ وَأَنْشَأَ صُورَتَهُ الْبَاطِنَةَ على صُورَتِهِ تَعَالَى»¹.

شاءَ اللهُ الْحَقَّ تَعَالَى، أَنْ يَرى أَعْيَانَ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى فَأَوْجَدَ الْإِنْسَانَ، وَكَأَنَّهَا أَظْهَرَهَا فِي أَكْمَلِ صُورَةٍ خُلِقِيَّةٍ هِيَ الصَّوْرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، فَاجْتَمَعَ فِي الْإِنْسَانَ الْعَالِمَانِ وَالْمَظْهَرَانِ، عَالَمُ الظَّاهِرِ الْمُسْتَوْدِعِ فِيهِ مَظَاهِرُ الطَّبِيعَةِ، وَعَالَمُ الْبَاطِنِ الْمُسْتَوْدِعِ فِيهِ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنَ الْقَبَسِ الْإِلَهِيِّ، الَّذِي أَوْدَعَهَا اللهُ سِرّاً مِنْ أَسْرَارِهَا وَهِيَ الرُّوحُ، مُسْتَوْدِعُ حُبِّهِ وَمَعْرِفَتِهِ.

1-1/- حاجة الإنسانية للتَّصَوُّف:

استدعاء التَّصَوُّفِ لِإِنْقَازِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، لَيْسَ هُوَ إِلَّا تَمْكِينٌ لِلْإِيمَانِ الْعَمِيقِ، الَّذِي يُعِيدُ لِلْإِنْسَانَ إِنْسَانِيَّتَهُ، وَيُحَرِّرُ طَاقَاتِ الْخَيْرِ فِيهِ، فَالْكَوْنُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَحْتَكِرَهُ لِسَانُ وَاحِدٍ أَوْ جَنْسٌ مُعَيَّنٌ، أَوْ مَذْهَبٌ مُحَدَّدٌ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهُ جَيِّدًا، فَالْأَخَوَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ أَصْلٌ، مِنْ خِلَالِ الْإِبْتِعَادِ عَنِ الصَّرَاحِ الْبَشَرِيِّ الْعَنْصَرِيِّ، وَالْتِزَامِ التَّرَابُطِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنَّسَامَحِ وَالنَّكَافِلِ. وَمُبَرَّرَاتُ التَّوَجُّهِ لِلتَّصَوُّفِ كَحُلِّ إِنْشَائِيٍّ، مُبَرَّرٌ وَجِيهٌ، لَطُغْيَانُ الْفَلَسَفَاتِ الْمَادِيَةِ الْمُؤَثِّرَةِ سَلْبًا عَلَى الْعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَدَعْوَى الرُّأْسُمَالِيَّةِ الْمَعَادِيَةِ لِهَذَا التَّوَجُّهِ، وَأَمَلًا فِي إِعَادَةِ الْمَعَانِي

¹ - ابن عربي، فُصوص الحكم. مصدر سابق. ص: 55.

السَّامِيَّة وَالْقِيَم الْإِنْسَانِيَّة الَّتِي ضَيَّقَهَا عِلْم الْكَلَام وَالْفَقْه، «وَأَنْقَاذ الدِّين مِنْ اخْتِرَالِهِ فِي الْفَقْهِ عَمَلِيًّا، لِيَعُودَ الدِّينُ مُجَدِّدًا إِلَى وَظِيفَتِهِ بِوَصْفِهِ نِظَامًا لِإِنْتَاكِ مَعْنَى لِلْحَيَاة»¹. فَالْإِنْسَانِيَّة لَا بَدَّ لَهَا مِنْ رُوحٍ مُتَعَالِيَّة، تَلْتَزِم بِالشَّرِيعَةِ، وَتَفْقَهُ أَحْكَامَهَا وَتَتَذَوِّقُ الْمَعَانِي وَالذَّلَالَاتِ الْفَقْهِيَّة وَالْكَلَامِيَّة، وَتُثْمِرُ مِنْ لَبِّهَا أَسْرَارَهَا الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِيهَا لِتُجَدِّدَ دَوْمًا حَيَاتَهَا وَتَسْمَحَ بِالْبَحْثِ الْمُسْتَمَرِّ عَلَى الْحَقِيقَةِ اللَّامْتُنَاهِيَّة فِيهَا وَفِي بَاطِنِهَا.

1-1-1/ إِرْوَاءُ الظَّمَا الرُّوحِيِّ الْإِنْسَانِيِّ الْمَفْقُودِ:

وَنَعْنِي بِ"الظَّمَا" «افْتِقَارَ الْكَائِنِ الْبَشَرِيِّ إِلَى مَا يُثْرِي وُجُودَهُ، وَيُكْرِسُ كَيُنُونَتَهُ وَيَمْنَحُهُ وَقُودًا لِحَيَاتِهِ، لِأَنَّ حَيَاةَ هَذَا الْكَائِنِ تَفْتَقِرُ إِلَى طَاقَةٍ دَاخِلِيَّةٍ تُحَرِّكُهَا، وَيُشْبِعُ حَاجَتَهُ لَمَّا تَحْتَاجُهُ كَيُنُونَتُهُ فِي إِثْرَاءِ وُجُودِهَا، وَمَا يَكْشِفُ لِلْكَائِنِ الْبَشَرِيِّ السَّرَّ فِي وُجُودِهِ وَيُبِيحُ لَهُ بِتَفْسِيرِ الْغُمُوضِ الَّذِي يَكْتَنِفُ مَوْتَهُ وَمَصِيرَهُ، بِالْمَسْتَوَى الَّذِي يَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى التَّغَلُّبِ عَلَى الْقَلْقِ الْوُجُودِيِّ الَّذِي تُعْرَضُ لَهُ»².

لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ فِي مَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّصَوُّفِ وَمَنْهَجِهَا التَّربَوِيِّ الرُّوحِيِّ، أَكْثَرَ مِنْ أَيْمَانِ هَذِهِ، حَيْثُ بَلَغَ الظَّمَا الرُّوحِيُّ أَشَدَّهُ، وَوَصَلَ الْإِنْحِلَالُ الْخَلْقِيَّ مُنْتَهَاهُ، وَتَشَيَّأَ الْإِنْسَانُ بِفَعْلِ الْمَادِيَّةِ وَالصَّرَاعَاتِ النَّفْعِيَّةِ مِنْ أَجْلِ السَّلْطَةِ وَالْجَاهِ، وَآلِ التَّدِينِ إِلَى شَعَائِرٍ وَطُقُوسٍ جَوْفَاءٍ لَا حَقَائِقَ لَهَا، رُوتَيْنِيَّةٍ آلِيَّةٍ، لَا خُشُوعَ وَلَا تَدَبُّرَ وَلَا إِخْلَاصَ فِيهَا، وَانْجَرَّتِ الْأَدْيَانُ إِلَى صِرَاعَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ وَتَكْتَلَاتٍ إِيدِيُولُوجِيَّةٍ وَمَعَارِكٍ وَنِزَاعَاتٍ طَائِفِيَّةٍ.

فَضَلَّ الْإِنْسَانُ طَرِيقَهُ، بَعْدَ أَنْ انْفَصَمَ تَدْرِيجِيًّا عَنْ ارْتِبَاطَاتِهِ التَّرَاثِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَعَنْ حَقَائِقِ الرِّسَالَاتِ النَّبَوِيَّةِ وَازْدَادَ غَوْصًا وَحُبًّا فِي الْمَادِيَّاتِ بِكُلِّ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا «لِأَنَّ الْمَادَةَ هِيَ بِالْأَسَاسِ كَثْرَةٌ وَانْقِسَامٌ، أَيْ مَنَبِعٌ لِلنِّزَاعَاتِ وَالصَّرَاعَاتِ»³.

¹ - مُحَمَّدٌ أَبُو رِمَانٍ، الصَّوْفِيَّةُ الْيَوْمَ. مَرْجِعٌ سَابِقٌ. ص: 20.

² - مُحَمَّدٌ أَبُو رِمَانٍ، الصَّوْفِيَّةُ الْيَوْمَ. مَرْجِعٌ سَابِقٌ. ص: 27.

³ - عَبْدُ الْوَاحِدِ يَحْيَى، أَرْزَمَةُ الْعَالَمِ الْحَدِيثِ. تَرْ: عَبْدُ الْبَاقِي مِفْتَاحُ. عَالَمُ الْكُتُبِ الْحَدِيثِ، إِرِيدُ، الْأُرْدُن. ط 01، 2017، ص:

التربية الصوفية تفتح إمكانية إصلاح وترميم وتقريب هذه المسافات، التي أصبحت تتسع وتتعدّد مع مرور الوقت، من خلال إصلاح الذات وتهذيب النفس الإنسانية وتجريدها من الحبّ الأعمى السلبيّ لكلّ ما هو ماديّ، وبالتالي التخلّص من جميع قيوده، ووصولاً إلى الامتلاك الفعليّ لجميع الإمكانيات وتسخّرها للوضع الإنسانيّ عامّةً «يعني إيجاد قاعدة بشرية لبث الكلمة الإلهية في الأرض خارج أيّ تركيز ذاتيّ أو استعلاء»¹.

لتمكّن هذه القاعدة المشتركة من تعزيز المبدأ الإنسانيّ وتجاوز الخلافات وبناء تجربة رُوحية خالصة، تتجاوز كلّ الخلافات والنزاعات والتوجّهات المنطوية والمستعلية إلى البحث عن الحقيقة، وخدمة الجميع، دون التّصلّل أو الانسلاخ عن الشرائع السماوية المنزلّة وأحكامها الشرعية، لأنّ تفعيل البعد الإنسانيّ واستلهامه باستدعاء الينابيع الأصيلة لمبادئ الإحسان والتركية، هو نتاج كلّ حضارة إنسانية بلغت النضوج والاكتمال.

وعدم تنبّه كلّ الباحثين في الحضارة الغربيّة حتّى اليوم إلى هذه الحقيقة، «وهي أنّ النزعة الإنسانية أولاً ضرورية الوجود في كلّ حضارة عالية تبلغ نضوجها، وثانياً أنّ الفاعل في إيجادها هو الأصول الروحية التي نشأت هذه الحضارة في أحضانها...»².

وهذا المسار المتردّي، اللاإنساني للإنسانية أساسه الخلوّ من البعد الروحانيّ المقدّس ومُحاولة إعادة هيكلة البناء الحضاريّ، خالياً من أيّ صلةٍ بينهما وهذا البعد الحتميّ والضروريّ، الذي أصبح يعدّه البعض من أسباب انحطاط من انتسب إليها وهذا غير مُمكنٍ لاعتباره من الثوابت الإنسانية الأصلية.

«ولا يرجع الفارق هنا إلى (تفاوت) بين العقليتين، عقلية المجتمعات الإسلامية وعقلية المجتمعات الغربية، باعتبار الأولى (متخلّفة) والثانية (متقدّمة) فكلاهما يعيش مأزقاً في تخلفه

¹ - مُحمّد أبو القاسم حاج مُحمّد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية . دار الهادي، بيروت، لبنان. ط03، 2004، ص: 80.

² - عبد الرّحمان بدوي، الإنسانية والوجود في الفكر العربيّ. مكتبة النهضة العربية، مصر. 1974، ص.ص: 61-62.

أو تقدّمه... علماً أنّ النسقين يعيشان مآزق عدّة، ويُحاولان الخروج منها، إسلامياً بمنطق (التّجديد) وغريباً بمنطق (نقد الحداثة وما بعدها)¹.

فالشّدوذ الحقيقيّ هو إحداث قطيعة حقيقيّة وتامّة مع كلّ المبادئ العلوية والرّوابط الرّوحيّة والحقائق الرّبانية والاتّجاه نحو المادية، وإنكار كلّ معرفة رُوحية، والاشتغال الجاد بالفلسفة الوضعية ومتاهاات العولمة والنّظريات العقلية المعاصرة، والتّأسيس إلى حدّ الهذيان لـ"إتعالى" "الأنا" المفرط وإنفصاله عن الله، وعن الوحي، وعن الدّين وعن ذاته، فنّارت الحضارة على إنسانيتها وكفرت بقيمتها ومركزيتها وأدّلت كرامتها، بفكر "التّجديد" أو "التوغّل في الحداثة وما بعدها"، فعقدت من عملية بعث إمكانية العمل الغيبيّ والرّوحي، وأصبح المناخ العام للإنسانية تحت ضغوط رهيبية واختلالات مُشينة، وجب بثّ طاقات مُتجدّدة لحياتها، باعتبار النّفس الإنسانية والرّوح المتعالية هي مركب تفاعل كوني يسعى إلى بناء الإنسان والكون.

1-1-2/ المبرّر الحضاريّ:

انحرفت الحضارة الغربية الحديثة عموماً، عن دائرة اللّإنسانية وركّزت اهتماماتها الكبرى على مناحي الحياة المادية والاقتصادية والتّجارية الاستهلاكيّة التّسويقية، فنتج عن ذلك إهمالها الكبير والفادح للمستويات الرّوحيّة الأخلاقية، وتغليب مناحي النّفعية على المصالح العامّة للمجتمعات، ومن هنا تتجلّى ضرورة استدعاء التّصوّف وتمثّل نهجه وفكره الإنسانيّ والعناية بتجسيده، لكونه يُمثّل الوجه الرّوحيّ العميق الذي يُحافظ على علاقة الفرد مع الله، ومع غيره من بني الإنسان، كما أنّه ينطوي على العديد من القيم الأخلاقية والإنسانية العليا والنّبيلة التي تحتاجها في كلّ زمانٍ ومكان، وفي بناء الفعل الإنسانيّ كالمحبّة والتّسامح والدّعوة إلى السّلام والرّحمة... الذي بإمكانه تحقيق "الأمن الرّوحيّ والإنسانيّ" ويُشكّل صناعة حقيقية ضدّ كلّ أنواع المادة الجارفة التي تُهدّد خلق إنسانية عالمية جديدة.

هذا ما حدا بالشيخ "أحمد العلوي الجزائريّ" مؤسس الطّريقة العلاوية بمستغانم إلى الوقوف ضدّ هذه الموجة الحضارية المناهية للمبادئ الإنسانية والحضارية، والتي إنقلبَت على إنسانيتها

¹ - مُحمّد أبو القاسم حاج مُحمّد، جدلية الغيب والإنسان والطّبيعة العالمية الإسلاميّة الثّانية. مرجع سابق. ص: 69.

وَكَفَرَتْ بِالْإِنْسَانِ وَقِيَمَتِهِ وَمَرْكَزِيَّتِهِ فِي هَذَا الْوُجُودِ، وَقَلَّتْ مِنْ كَرَامَتِهِ، وَكَانَ دَائِمًا «يُرَدِّدُ هَذَا الرَّأْيَ نَفْسَهُ عِنْدَمَا دَعَا جَمِيعَ الْأَدْيَانِ إِلَى عَقْدِ الْأَيَادِي فِي وَجْهِ الْكُفْرِ الْمَعَاصِرِ»¹.

1-1-3/ المبرر الإيديولوجي:

في ظلّ توقّع البعض تطوّر (صدام الحضارات) وإمتداده لصور صراع أكبر باتّخاذ الصبغة الدّينية الحضارية، والتركيز على دعاوي تناقض الحضارتين الغربية والحضارة الإسلامية، ومُحاولة المجتمع الإنسانيّ بنخبه وأطره تشكيل أرضية ثقافية لبناء حوار بين الحضارات والأديان، فالتصوّف يُمثّل في كلّ هذا «تلك الرّوح المتعالية على الشوفينية والعرقية الضيقة»²، رُوح تهدف إلى تحرير الإنسان المعاصر من كلّ تبعية إيديولوجية مُثقلة بالنزاعات والصّدامات والحروب، والتّقنيل والتّكنيل والإبادة والوحشية والتّعذيب والدمار والبغضاء والكره، حتّى تنتقل إلى عصرٍ مُغايرٍ، نعيش فيه أكثر أخوةً ومحبّةً وأمنًا وعدالةً.

لقد وجدوا في التّراث الصّوفيّ الإسلاميّ وفي منهجه التّربويّ الأخلاقيّ وفي سلوك الكثير من العارفين معيّنًا خصبًا وأنموذجًا صادقًا وواعيًا لصوره مُشرقةً، ومُتسامحةً عن الدّين الإسلاميّ، تتبنّى الحوار وتُرجّح السّلام وتقبل الآخر وتتفاعل معه، وتنبذ العنف بكلّ أشكاله ومظاهره، وترفض هذا الصّراع المزعوم والصّدام المحتوم اللّذين تبنّتهما وغدّتهما إيديولوجيات مُختلفة، ونمّتهما أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تزال تسعى لذلك.

فالتصوّف يمتلك من المقومات الأساسية للخروج من هذه الدّائرة اللاإنسانية، وإرجاعها لعهودها الأصلية الأولى، القريبة من ينباع التّورانية للوحي الرّبانيّ فكّل السّمات الصّوفيّة التّاريخيّة والفكرية والأدبية والرّمزية تُؤهلّه للنّجاح في هذا المسعى الإنسانيّ والحضاريّ من خلال:

1-2/ التّصوّف والإخاء الإنسانيّ:

فعالمية التّصوّف تتبنّى منهج التّفاعل الحضاريّ ونبذ فعل وإحتكار وتحيّز الدّين والحضارة، وتخصيصها لدينٍ، أو فئةٍ، أو طائفةٍ مُعيّنة، أو فكرٍ أو مذهبٍ خاصٍ، ورفض كلّ

¹ - سيّد حسين نصر، الصّوفيّة بين الأمس واليوم. مرجع سابق. ص: 162.

² - عبد الوهاب شعلان، إشكالية الفكر العربيّ المعاصر. مكتبة الآداب، القاهرة، مصر. ط1، 01، 2006. ص: 22.

تمركز ذو توجهات عرقية أو دينية، سواء من خلال خطابه الفكري أو موضوعاته فالمتصوف يدعو إلى إنسانية متفاعلة مع كل الأنساق الحضارية، الداعية للتفتح وقبول كل الأديان والأجناس «التصوف أرحب من المذهبية والإيديولوجيات، معنى أن تكون صوفياً أن تترفع عن العنصرية والعصبية والخصومات المذهبية»¹.

تبني شعار "الاختلاف رحمة" حقيق بأن يؤسس لتعايش ديني وحضاري، وقادر على إلغاء كل فكر أحادي متطرف، داع إلى هيمنة فكرية إيديولوجية متعصبة على صعيد العالم بأسره.

فالمناهج التربوي الصوفي منهج وأنموذج فريد وسام في تعامله مع "الآخر" وفي تجاوزه لكل فكر ضيق، منهج ذو رؤية عميقة، مبنية أساساً على التكامل الإنساني الذي يتمثل في ذروة شعوره بذاته، بإعترافه واحترامه للغير مهما كان، فالأنا لا تتحقق فعلياً إلا مع الآخر تعترف به وتتواصل وتحترمه.

كما أن التربية الصوفية تقف ضد كل محاولة لتأسيس الدين وقولته في اتجاه أحادي مغلق محدّد، وتحويله إلى إيديولوجيات تخدم مصالحها الضيقة، بل تدعو لقراءة مغايرة وفق رؤية صوفية مفتوحة، وثرية لمسألة الإنسان، وجوده، تسامحه، حريته وعلاقاته، تبتغي دائماً تقليص الهوة وتضييقها، ومحو كل عناصر عنصرية، وتوسيع دائرة "الحب الإنساني" والدعوة إلى ضرورة التواصل والتراحم وإستشعار روابط الأخوة الإنسانية العالمية فالصوفية في هذا المستوى "دين الحب"، تحرر كل ما خنقته أو أغرقته المؤسسة الدينية أو شبه الدينية، والسلطات السياسية والاجتماعية، وما همشته حركات العالم الداخلية والخارجية بنزواتها ورغباتها الجامحة وأحلامها المدمرة، وبغرائزها ومكوناتها، وبإهتمامها المتزايد والمتنامي لثقافة الجسد، وتخطي ثقافة "الروح".

فالتربية الصوفية بهذا تحاول جاهدة الوقوف ضد انكماش الانفتاح الكوني المتزايد، والتعلق بالمواقف السلبية المغلقة، الداعية لفرض الخطابات الإيديولوجية الضيقة الواحدة وقراءتها

¹ - محمد أبو رمان، الصوفية اليوم. مرجع سابق. ص: 44.

قراءات تخدم توجيهاتها وتأويلها تأويلات نحو تصوّراتها وبلورتها وفق أنماط وقوالب جاهزة، والتي قد تُسهم بشكل كبير في «الانتقال من المفاضلة إلى التسوية، لا تأخذ بشكل عصبية إمّا شوفينية وإمّا شعوبية، ومهما يكن من أمرٍ، فإنّ إشكالية نظرة الآخر هي إلى حدّ كبير إشكالية زائفة، أو هي على كلّ حال إشكالية نفسية أكثر منها إشكالية معرفية»¹.

فنزيف الوعي الإنساني ومُحاولة الحيدة به لتوجّهات نفسانية مريضة رُوحياً، وبعيدة كلّ البعد عن النظرة المعرفية العلمية الحقيقية تخدم فئةً مُعيّنة ومُحدّدة تقف منذ الأزل على خراب الآخر ودماره وعذابه خاصّة مع تواصل انفصالنا عن ميراثنا العقدي والروحي والديني، وذوباننا بوعي ولا وعي في هُوم الحياة العادية ومشاكلنا الاقتصادية، وانغماسنا في مصالحنا الشخصية وأنانيتنا واستغلال الآخر لذلك بمُسمّيات كثيرة ومُتعدّدة.

لأنّ «الحضارة الحديثة تظهر في التاريخ كشذوذٍ حقيقيٍّ فمن بين كلّ الحضارات التي تعرفها، هي الوحيدة التي تطوّرت في اتجاهٍ ماديٍّ بحث، وهي أيضاً الوحيدة التي لا تعتمد على مبدأ من طراز علويٍّ... صحبه نُكوصٌ للعقلية العرفانية يستعصي فهمه، العقلية العرفانية الحقيقية النقية، التي يُمكن تسميتها أيضاً بالروحانية»².

فالتحضّر مطلوبٌ معقولٌ ومشروعٌ، خدمةٌ للإنسان والإنسانية، الميسرٌ للحياة والمسخرٌ لرفاهية الفرد وتحقيق راحة المجتمع، شرط ألا يفقد صلته بالله والروح وألا يترقّع عن الطابع العرفاني الحقيقي والنقي السليم وألا يُهمل البعد الداخلي والأساسي لأيّ فعلٍ حضاريٍّ كيلا يتسبّب بانفصاله هذا في انسدادات ومآزق مُهلكة وعميقة، يصعب ترقيعها وإيجاد حُلُولٍ لها، «فإذا كانت الحضارة مريضةً رُوحياً فإنّ الفرد يُعاني من المرض ذاته»³.

¹ جورج طرابيشي، من النهضة إلى الزدة تمرّقات الثقافة العربية في عصر العولمة. دار السّاقى، بيروت، لبنان. ط 01، 2011. ص: 127.

² عبد الواحد يحيى، رموز العلم المقدّس. تح: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن. ط 01، 2014. ص: 07.

³ كولن ولسن، سقوط الحضارة. تر: أنيس زكي حسن. منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان. ط 03، 1982. ص: 06.

فالفرد تابع للفعل الحضاري، يمرض بمرضها ويصح بصحتها، وعندما يُصبح الفرد لا مُنتمياً لها، خارج حضارته بسبب مرضها وتروحنه، تجعله عُصراً مُحايداً، لا فعّالاً وبِالتّالي تزيد عُربته، ولا يستطيع أن يُؤثر ولا أن يتعايش كإنسان في مُجتمعهِ اللّإنسانيّ. فالانتماء الحقيقيّ، هو السلوك الذي يقود السّالك إلى الالتقاء مع الله، واكتشاف حقيقته وأبعاده الوجودية الحقيقية، في صورة العبودية الحقّة أو الخلافة الكونية، أو تجسّداً لأسماء الله وصفاته أخلاقياً، وبهذا ينتقل المجتمع الإنسانيّ من البهيمية والحيوانية إلى الإنسانية الحقيقية والتي تهدف إلى حماية كرامة الإنسان وهويته، وتجلّيه بحسب ذاته وقيمة وجوده في هذا الكون، ثمّكّنه من الاستقرار والعطاء وإثبات شخصيته كإنسان كاملٍ مُستخلفٍ من الله.

1-2-1/ الإنسان الكامل:

التربية الصوفية تسعى إلى بلوغ درجات الكمال الإنسانيّ رُوحياً وأخلاقياً واجتماعياً ليتجلّى بعدها أكثر تمثلاً وشُمولاً في بُعديها الإنسانيّ والحضاريّ، بالتحقق أنموذجياً بـ"الإنسان الكامل"، ليس باعتباره أنموذجاً فلسفياً كلامياً وإنّما باتّخاذه أنموذجاً إنسانياً وحضارياً، أنموذج الكمال، والأسوة الحسنة التي جسّدها تاريخياً الرّسول مُحمّد ﷺ أساس الكمال، بالمعنى المطلق، وعلى اعتباره أيضاً، أنّه مُجسّد مكارم الأخلاق، ومعنى الإنسانية المنشود، يتجلّى في هذا الأنموذج الخلاق، انطلاقاً ممّا يُسمّيه الصّوفية بـ"الحقيقة المحمّدية".

والإنسان الصّوفيّ يترقى عبر معارجه الرّوحيّ ليُلَوِّغ درجات الكمال ويصير إنساناً كاملاً فصّفة الكمال عند الصّوفيّة من أجلّ الصّفات بعد الأحدية، ومطلب كلّ سالكٍ ومريدٍ، ليَحَقِّق الإنسان الكامل كلّ معاني الخلافة الأرضية ويَقْدَس الأمانة العظمى الموكلة إليه في هذا العالم الأرضيّ ويُؤدّيها ويضمن بذلك استمرارية وديمومة الرّسالة الإيمانية الإحسانية الخالدة.

فالكمال مركّز في الجميع، ولكن لا يُمكن أن يظهر إلّا بإبراز استعدادات خاصّة لكلّ فردٍ وهُم بالتأكيد مُتفاوتون مُختلفون في وجودها وظهورها وبيان آثارها على النفوس الإنسانية فكلّ إنسانٍ مخلوق على الصّورة، كاملٌ بالقوّة، وإنّ لم يتحقّق ذلك الفعل، يحتاج فعلاً استعداداً خاصّاً، ومُجاهدة شاقّة ورياضة مُضنية، ليتجلّى بعد ذلك بالتخلّق والاتّصاف بالتّمام والكمال.

وَلِيَتِمَّكَنَ مِنْ تَحْقِيقِ مَعَانِي "الكمال" وَ"الخلافة" وَيَتِمَّنَّهَا فِعْلاً مَعَ "الحقِّ وَالْخَلْقِ"، اقْتِضَاءً لِلْحِكْمَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي اخْتَصَّتْ بِهَذَا الْاِخْتِيَارِ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ وَجِبَ عَلَيْهِ مُجَاهَدَةٌ نَفْسَهُ وَالتَّخَلُّصَ مِنَ عَشْقِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْمَادَّةِ، لِيَتَصَفَّ تَدْرِيجِيًّا بِالسَّمَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَيَنْتَقِلَ إِلَى الْوُضُوفَةِ الْعِرْفَانِيَّةِ، حَتَّى يَصِيرَ إِنْسَانًا مُتَمَيِّزًا كَامِلًا تَامًا.

الإنسان هو مركز الوجود، منذ خلقه آدم عليه السلام الكلمة الآدمية التي تحوي نشأة العالم وعلاقته بالله، انعكاساً للصورة الإلهية بالكون باعتباره روح العالم والنور الذي يعكس تجلياتها، في شكل مخلوق جامع لحقائق الوجود «خلق الله الإنسان مختصراً شريفاً جمع فيه معاني العالم الكبير وجعله نسخة جامعة لمعاني العالم الكبير، ولما في الحضرة الإلهية من الأسماء وقال فيه رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ))»¹.

فَالْإِنْسَانُ تَجْتَمِعُ وَتُظْهِرُ مِنْ خِلَالِهِ صُورَ كُلِّ الْأَشْيَاءِ، وَتَتَكَوَّنُ إِنْسَانِيَّتُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ وَنُسَخَتَيْنِ، ظَاهِرَةٌ جِسْمَانِيَّةٌ مُشَابِهَةٌ لِلْعَالَمِ، وَأُخْرَى بَاطِنَةٌ رُوحَانِيَّةٌ نُورَانِيَّةٌ، فَهُوَ مَزِيَجٌ مُتَكَامِلٌ، جَامِعٌ لِلْحَقِيقَةِ الْمَطْلُوقَةِ بِمُظْهِرِيهَا.

«وَيُقَالُ فِيهِ رَبٌّ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَلِيفَةٌ وَمِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ وَمِنْ حَيْثُ أَحْسَنُ تَقْوِيمٍ، فَكَأَنَّهُ بَرَزْخٌ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْحَقِّ وَجَامِعٌ لِخَلْقٍ وَحَقٍّ وَهُوَ الْخَطُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْحَضَرَةِ الإِلَهِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ... فَلَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ فِي الْحُدُوثِ وَالْقَدَمُ وَالْحَقُّ لَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ فِي الْقَدَمِ... فَمَا أَشْرَفُهَا حَقِيقَةٌ وَمَا أَطْهَرُهَا»².

فَقَدْ خَصَّ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بِ"أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" وَأَفْضَلِ "تَكْرِيمٍ" وَهِيَ مِيزَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا كَائِنٌ آخَرُ فِي هَذَا الْوُجُودِ، فَنَالَ التَّشْرِيفَ وَالتَّكْرِيمَ وَالتَّقْضِيلَ وَالْكَمَالَ، فَالْإِنْسَانُ خُلَاصَةُ هَذَا الْكُونِ وَمَجْمُوعُ أَوْصَافِهِ، اِنْعَكَسَتْ فِيهِ كُلُّ الْعَجَائِبِ وَالْبِدَائِعِ وَالْخَبَرَاتِ وَالْكَنُوزِ وَالْمَعَارِفِ، وَالتِّيْ بِهَا يُمَكِّنُهُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَضَرَتَيْنِ الإِلَهِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ، فَالْحَضَرَةُ مُقَدَّسَةٌ، مُطَهَّرَةٌ وَمُنَزَّهَةٌ، غَيْرُ مُتَاحَةٍ إِلَّا لِمَنْ تَمَنَّاها

¹ ابن عربي، إنشاء الدوائر. تح: عاصم إبراهيم الكيلاني. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1، 2005، ص: 163.

² ابن عربي، عنقاء مغرب في ختم الأولياء، وشمس المغرب. تح: عاصم إبراهيم الكيلاني. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1، 2005، ص: 149.

وَجَسَدَهَا رُوحِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا وَإِنْسَانِيًّا وَإِنْفَادًا لِلْإِسْتِشْعَارِ الدَّائِمِ لِلْحُضُورِ الْإِلَهِيِّ مَعَهُ، فَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ قُرْبًا وَبُعْدًا مِنْ هَذِهِ الْحُضْرَةِ، وَكُلَّمَا زَكَّى نَفْسَهُ، وَجَاهَدَهَا وَأَزَالَ الْعَوَاقِقَ وَالْحُجُبَ الذَّاتِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ وَالْجَسَدِيَّةَ وَأَحَبَّ النَّاسَ وَضَحَّى لِأَجْلِهِمْ وَتَحَقَّقَ بِالْمَعَانِي السَّامِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، وَفَقًّا لِتَحْقِيقِ التَّكَامُلِ بَيْنَ الْحَضَرَتَيْنِ وَتَجَسِيدِهِ "إِنْسَانٌ أَحْسَنُ تَقْوِيمٍ".

فَالْإِنْسَانُ هُوَ مَدَارُ وُجُودِ الْكَوْنِ، لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ مُنْذُ الْأَزَلِ لِيَرَى ذَاتَهُ فِيهِ وَلِيَكُونَ مِرَاةً لَهُ وَتَجَلِيًّا لِحَقِيقَتِهِ "كُنْتُ كَنْزًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْرِفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ فِيهِ عَرَفُونِي" فَالْإِنْسَانُ هُوَ الْعَالَمُ الْأَصْغَرُ الَّذِي يَخْتَزِلُ الْعَالَمَ الْأَكْبَرَ فَمَثَلُ ذَلِكَ الْحَقِيقَةُ بِإِطْلَاقِهَا، فَهُوَ جَوْهَرٌ وَمَرْكَزُ الْخَلْقِ وَعِلَّةُ الْوُجُودِ، يَقُولُ الْحَلَّاجُ: «تَجَلَّى الْحَقُّ لِنَفْسِهِ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَقَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقَ، وَجَرَى لَهُ فِي حُضْرَةِ أَحَدِيَّتِهِ مَعَ نَفْسِهِ حَدِيثٌ لَا كَلَامَ فِيهِ وَلَا حُرُوفَ، وَشَاهِدٌ سَبَحَاتِ ذَاتِهِ فِي ذَاتِهِ. وَفِي الْأَزَلِ حَيْثُ كَانَ الْحَقُّ لَا شَيْءَ مَعَهُ نَظَرَ إِلَى ذَاتِهِ فَأَحْبَبَهَا وَأَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، فَكَانَ هَذَا تَجَلِيًّا لَذَاتِهِ فِي ذَاتِهِ فِي صُورَةِ الْمَحَبَّةِ الْمُنْزَهَةِ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ وَكُلِّ حَدٍّ وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ عِلَّةَ الْوُجُودِ وَالسَّبَبُ فِي الْكَثْرَةِ الْوُجُودِيَّةِ. ثُمَّ شَاءَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرَى ذَلِكَ الْحُبَّ الذَّاتِيَّ مِثْلًا فِي صُورَةٍ خَارِجِيَّةٍ يَشَاهِدُهَا وَيَخَاطِبُهَا فَنَظَرَ فِي الْأَزَلِ وَأَخْرَجَ مِنَ الْعَدَمِ صُورَةً مِنْ نَفْسِهِ لَهَا كُلُّ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَهِيَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ صُورَتَهُ أَبَدَ الدَّهْرِ»¹.

فَالْحَلَّاجُ هُنَا يُفَرِّقُ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَنَ وَبَيَّنَ مَكْنُونَاتِ أَسْرَارِهِ وَجَمَالِهِ مِنْ خِلَالِ مَظْهَرِي الْإِنْسَانِ الْمُؤَلَّفِ مِنَ الطَّبِيعَتَيْنِ النَّاسُوتِيَّةِ وَاللَّاهُوتِيَّةِ، الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، كَمَا رَكَّزَ الْحَلَّاجُ عَلَى أَمْرِ هَامٍ فِي هَذِهِ الْخَلْقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَعَلَى عُنْصَرِ جَوْهَرِيٍّ وَهُوَ "الْمَحَبَّةُ الْإِلَهِيَّةُ" الْمَتَجَسِّدَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ "أَحْبَبْتُ"، فَالْخَلْقُ الْإِنْسَانِيُّ مُرْتَبِطٌ بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ، لِأَنَّهَا تَمَثَّلَاتُ وَتَجَلِّيَّاتُ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَالْمَحْبُوبُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ، وَكُلُّ مَا يُحِبُّ هُوَ الْحَقُّ وَالَّذِي يَتَجَلَّى فِيهَا لَا يَتَنَاهَى مِنْ صُورِ الْجَمَالِ، فَمَا الْمَظْهَرُ الْإِنْسَانِيُّ فِي صُورِهِ الْجَمِيلَةِ الرَّائِعَةِ إِلَى مُجَلَّى الْجَمَالِ الْإِلَهِيِّ

¹ - حسين بن منصور الحلاج، الطَّوَّاسِين، تر: لويس ماسينيون. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، مصر.

(د.ط)، 1956. ص: 129.

المطلق، فأعطت عقيدة "الحب الإلهي" أساساً وأنموذجاً مختلفاً وفريداً لإنسانية عالمية تتخطى الحدود وتجمع على حبّ الخلق لأجل الحقّ، لأنّ الإنسان أكمل صورة وأفضل مُجلى للخلق جميعاً، والصورة الإنسانية اختزل فيها الحقّ كامل أسرارهِ والتي استحقّ من أجلها الخلافة عن الله في الأرض ومن أجلها فضّل على سائر المخلوقات.

فبالحبّ والمعرفة يسعى المريد لعبور التربية الروحية لأنّه العلة والغاية، فالإنسان البشريّ، جوهره وروحه إلهيّ، فما يُشكّل إنسانية الإنسان "لولاك ما خلقت الأفلاك"¹.

فأول طريقٍ لتحقيق هذه الإنسانية، هو معرفة أصلها وجوهرها وعلوّ مرتبتها وعلاقتها بخالقها، وبأصل الوجود عامّة وحكمة خلقها ووُجودها الإنسانيّ وصورة تركيبها لتتبلور بعدها لخلق أنسنة جديدة تربط حاضرها بأصولها الوجودية والمعرفية.

فالتصوّف، من خلال منهجه التربويّ الروحيّ، يدعو إلى خلق إنسانية، أو أنسنة جديدة ومُتجدّدة انطلاقاً من إتبّاع مسارٍ روحيّ مسكون بهاجس التحرّر والانعقاد من العالم الحسيّ الماديّ، ومن خلال تجربة ذاتية داخلية عميقة، تتجاوز حُجب الواقع المعرّقة، لبُلوغ اللامحدود والمطلق المتعالّي تنظر إلى هذه التربية كوسيلة، لا غاية نهائية محدّدة يتوقّف عندها الصوّفيّ وإن كمل، عملية دائبة مُستمرة لا مُتناهية للوصول للامْتناهي من أجل «البحث عن الهوية الإنسانية الدّاتية، وعن التّعايش في البيئة الكونية التي تتموضع فيها الإنسانية، وأخيراً عن البعد المتسامي نحو المطلق الذي يُمثّل المنبع الأوّل والغرض الأخير لهوية الإنسان كإنسان وآخر معنى لوجوده ولكلّ موجود»².

فالإنسانية الصّوفيّة -إن صحّ القول- تسعى لصياغة هوية إنسانية جديدة وذات رؤية خاصّة وعبر مراحل مُتكاملة، بحثاً عن الذات الإنسانية وكيفيات التّموقع الكونيّ فيها، من خلال

¹ -أورد هذا الحديث أبو الفدا إسماعيل المجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس. ج2. تح: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف.

المكتبة العصرية. بيروت، لبنان. ط01، 2000. ص: 192. الحديث رقم 2123.

² -جوزيبي سكاتولين، تأملات التّصوّف والحوار الدّينيّ. مرجع سابق. ص: 37.

التركيز المستمر الدائم على البعد المتسامي والمتعالي نحو المطلق، ويتكوّن المريد على فهم حقيقته أولاً، وعلاقته بخالقه، ثمّ بالعالم الإنسانيّ عامّةً.

فمع ذاته، يسعى الصوّفيّ للكمال وبلوغ الفناء أحياناً، سعي داخليّ جوهريّ وسرّ باطنيّ مأمول، ومُحاولة بلوغ منتهى الفعّالية على الضبط النفسانيّ الذاتي، ببذل مجهودٍ روحيّ هائلٍ لكسب القدرات المعرفية، تُمكنه من تجاوز المستويات الإدراكية المعرفية الدّنيا الحسيّة والعقلية إلى مُستوى روحيّ سامٍ، بإحداث تناعٍ وتناسقٍ أفقيّ وعموديّ للإنسان مع ذاته والآخر والمجتمع الإنسانيّ عامّةً، ليصير فرداً معطاءً إيجابياً.

انطلاقاً من اللاّوجود لهرمية تراتبية يقف عندها السالك، مُحققاً غاية مُحدّدة نهائية تستريح معها النفس الإنسانية وتتوقّف عندها حُدود الأحوال والمقامات المعرفية، خاصّة في الفترة الرّاهنة، وفي ظلّ إفرزات العولمة والتطوّر التكنولوجيّ (العلميّ والتقنيّ)، والغلوّ الدينيّ ونفسيّ ظاهرة الإسلاموفوبيا. وإعادة بناء العلاقات الإنسانية "الأنسنة الجديدة" والممكنة في عصرنا الحالي، وهي الأقدر على لملمة ورأب هذه العلاقات ومواجهة التّحدّيات والعراقيل لاتّساعها وجمعها بين العقل والروح والوجدان (الظّاهر والباطن) والتأسيس للحوار الدينيّ والإنسانيّ.

1-2-2/ التّسامي الإنسانيّ:

وهي محور هذه الأنسنة الجديدة في رحلتها للبحث عن هذه الهوية الموحدة، لما لها من آثار كبيرة في حياة الإنسان، ولما تُؤقّره من تحفيز له كقوّة دافعة لتحقيق الغاية الكبرى للوجود الإنسانيّ عامّة في هذا الكون، فَمَا الحالة الظّاهرية البرّانية الخارجية للإنسان إلّا ثمرة وانعكاس لحالته الرّوحية إذا صلحت حالته الرّوحية، صلّحت حالته المادية، فالرّوحانية أداة تُسيطر وتسمو بالحالة النفسية، كما أنّ الروح تنزع دائماً إلى التّسامي على مطالب الحياة الحسيّة الحيوانية وتتشوّق للتّرقّي والصّعود إلى العالم الرّوحانيّ "قَالهوية، بحسب المقول الثقافيّ السائد، كينونة مُغلقة، وليس الآخر موجوداً، بالنسبة إليها إلّا بقدر ما يتخلّى عن هويته ويتحوّل إليها،

ينصهر في إنيتها، فهي إما أنها تُقَرَّب الآخر لِتتَماهى معه، وإما أنها تتبذره لِكَي تتفصل عنه، وهذا ممَّا يجعل الكون مُستودعًا لِرُكام التَّباذ والتَّنافي، فيخلق على المستوى الإنساني كونية زائفة، كونية سيِّد وعبد، نابذ ومنبوذ، وعلى المستوى الحضاري كونية تماثلية تُلغي الحرية والإبداعية، لِكَي تخرج إلى الكون حقًّا، يجب أن نخرج من هذه الهوية ولا أجد ما يُضيئنا في هذا الخروج أعمق من التَّجربة الصَّوفيَّة¹.

فالإنسان كما أشرنا جامعٌ لمعاني الأكوان، وأيُّ بُعدٍ عن هذه المعاني السَّامية، هو بمثابة خنق لوجوده الحقيقي وإهانة وإحتقار لمساره الإنساني وزيادةً لِتسيِّده وقمعه وعُنفه وخُروجًا عن طبيعته، وهذا يعني أنَّ مآزق الحادثة الذي تسببت في مآزق الذات الإنسانية ما هو إلا نتيجة لنسيان -أو تعمّد نسيان- حقيقة وجوده «والمخرج وفق الرؤية الائتمانية، لا يكون بالتَّعالي السَّطحي اللَّامُتسامي، والضَّيق والمنحاز، من خلال الانشغال بالذات المتجزئة الأناية المصلحية، وإنَّما من خلال التَّعالي المتسامي، الذي يُؤدِّي إلى انشغال الذات بِخالقها والاعتراف بِحقيقة الرُّوح وسُلطانها، وأهمَّيتها كَسبيلٍ لِتركيز النفس وإزعاجها، بهذه التَّركيز يتَّسع وجود الذات الإنسانية وينمو»².

لن تتجسّد هذه الرؤية المتسامية إلا بِمُداومة المجاهدة وتركيز النفس والسَّمو الإيماني الرُّوحي، لأنَّ التَّركيز عملية دائمة ومُستمرّة ومحورية في عملية التَّغيير الدَّاخلي الباطني والجانب الخارجي الواقعي، في تفاعل وتُموّ نحو الخيرية والإيجابية والصِّفاء والصِّلاح لإقامة مُجتمع إنسانيٍّ، تُراعى فيه حُقوق النفس وحُقوق الآخر، ترسيخًا لِلذَّات الإنسانية المتكاملة. كما يتركز البعد الإنساني عند الصَّوفيَّة على مُرتكزات أساسية تجعله قادرًا على إعادة لملمة ودفعه من جديد وهي المحبة والحرية والسلام والسَّعادة.

¹ - أدونيس، الصَّوفيَّة والسَّريالية. مرجع سابق. ص: 166.

² - طه عبد الرّحمان، رُوح الدِّين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية. المركز الثقافي العربي، الدَّار البيضاء، المغرب. ط02، 2012، ص.ص: 289-290 يتصرّف.

1-2-3/ المحبة:

فَالْتَصَوَّفُ كُلَّهُ حُبٌّ، وَيُمْكِنُنَا اعتِبار المتصوّفة سُفراء المحبة الإنسانية، فلا مكان بينهم للكره والحقد والإقصاء ونَبذ الآخر، حُبٌّ لا يستثني أحدًا من الخلق، بل من سائر المخلوقات وَيَتَرَفَّع عن كُلِّ الاختلافات الدينية والمذهبية والعقائدية والفكرية.

حُبٌّ يُطَبِّعُهُ كُلُّ مَنْهُمْ بِطابع شخصيته، فَيَغْدُو فيهم عاطفة جديدة قادرة على أَنْ تَهَبَ لِحياة البشر معانٍ مَتَجَدِّدَةٍ مُنْطَلَقَةً مِنَ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، لِيَشْمَلَ الإنسانية كُلَّهَا فَشعار الصّوفيّة الكاملة المتحقّقة علم وعمل وخلق وَحُبٌّ «فالمحبة أساس الرؤية الصّوفيّة الصادقة، وهي محبة تشمل أضعف مخلوقاته، حتّى تصل إلى مداها في محبة العارف بالله والفناء فيه، وتُصبح الأشياء بالله ولله ومن الله»¹.

فَالطَّرِيق الصّوْفِيّ هُوَ طريق المحبة، وقد انتقلت صلة المتصوّفة من الخوف من الله لِيَسْتَحِيلَ إلى عاطفة المحبة والقرب، انطلاقاً من اجْتِنَاءِ اللَّهِ لِلْمُرِيدِ السَّالِكِ في حضرته، فَأَرَادَهُ وَأَحْبَبَهُ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ وَمِنْ محبة الله، تتبع محبة الصّوْفِيّ وتَنَشَأُ وَتَتَفَرَّعُ إلى محبة الصّوفيّة لبعضهم البعض، وَلِسائر المخلوقات لِتُثْمَرَ محبةً أسمى وأشمل، لِتَنُمُو بعدها قيم التسامح والرحمة وَيُصْبِحَ الآخر "أنا" و"حبيباً" و"مُقرَّباً" وتُرى المحبة الصّوفيّة أَنَّ التّراث الدينيّ ينبع من مصدر واحد وَيَنحدر من هذا "الدين القيم" والذي أَصَلَّتْ له الصّوفيّة بالدّعوة إلى "دين الحبّ والمحبة" من خلال التّأكيد على هذا البعد الذي قزّمته وهَمَّشَتِ الرّهانات السياسيّة والمصالح الاقتصاديّة وَالتّوجّهات الفكرية، بِالتّوجّه نحو المجموعة الإنسانية كُلِّهَا وَالتّفَتُّح على الديانات الأخرى، شعارها في ذلك "التّوحيد واحدٌ" «وهذه الحقيقة ما يُلَمَح إليها الدين بقوله: إِنَّا نُحِبُّ النَّاسَ في الله، وَكبار المتصوّفين يُعلنون أَنَّهُمْ يشعرون أَنَّ ثَمَّةَ تيّارٍ يسري في نفوسهم إلى الله ثُمَّ يَهْبِطُ من الله إلى الإنسانية»².

¹ - حميدي خميسي، نشأة التّصوّف الفلسفيّ في المغرب الإسلاميّ الوسيط. مرجع سابق. ص: 08.

² - هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين. مرجع سابق. ص: 60.

فَالْحَبُّ جَوْهَرُ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا، إِذَا تَمَلَّكَ الْقَلْبَ اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَشْيَاءُ وَانْكَشَفَتْ لَهُ الْحَقَائِقُ وَتَجَلَّتْ لَهُ الْأَسْرَارُ فَالْحَبُّ سُلْطَانٌ يَقْذِفُ بِأَنْوَارِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ دَاخِلُهُ وَهَذَا "ابن العربي" يتغنّى بِأَبْيَاتٍ صَارَتْ مُضْرِبُ الْمَثَلِ فِي الْحَبِّ الْإِنْسَانِيِّ حِينَ يَقُولُ:

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلَّ صُورَةٍ فَمَرَعَى لَغْزَلَانٍ وَدَيْرٍ لِرُهْبَانٍ
وَبَيْتٌ لِأَوْثَانٍ وَكَعْبَةٌ طَائِفٍ وَالْوَاخُ تَوْرَةٍ وَمَصْحَفُ قُرْآنٍ
أَدِينُ بِدِينِ الْحَبِّ أَنَّى تَوَجَّهْتُ رَكَائِبُهُ، فَلَحَبُّ دِينِي وَإِيمَانِي¹

فَالْحَبُّ مِنْ أَرْفَعِ الْمَقَامَاتِ وَأَكْمَلَ وَأَشْرَفِ الْغَايَاتِ، وَهُوَ سِرٌّ نَجَاحُ الْبِدَايَاتِ وَيُلَوِّغُ أَفْضَلَ النِّهَايَاتِ، وَهُوَ أَسَاسُ كُلِّ الْحَالَاتِ الرُّوحِيَّةِ الذَّوْقِيَّةِ الْقَلْبِيَّةِ الْكَشْفِيَّةِ، فَالْمَحَبَّةُ تُوجِبُ الْإِتِّبَاعَ وَالتَّذَلُّلَ وَالِاسْتِقَامَةَ، وَحُبُّ اللَّهِ أَسَاسُ عِلَاقَةِ الْإِنْسَانِ وَكَذَلِكَ عِلَاقَتُهُ بِغَيْرِهِ مِنْ بَنِي جَنَسِهِ وَعَنَايَةُ اللَّهِ لِعِبْدِهِ وَتَجْعَلُهُ مُحِمِّيًّا بِنُورِ حُبِّهِ، هَذَا النَّورُ أَسَاسُ التَّأَدُّبِ وَالتَّخَلُّقِ وَالْمُعَامَلَةِ مَعَ اللَّهِ لِتَتَعَدَّى لِتَحْسِينَ الْخُلُقِ مَعَ الْخَلْقِ وَهِيَ بِذَاتِهَا دَعْوَى لِنَشْرِ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِيَّةِ كَافَّةً. كَمَا أَنَّ الْمَحَبَّةَ الصَّادِقَةَ لِلْحَقِّ، لَا تَنُتِمُ إِلَّا بِمَحَبَّةِ الْخَلْقِ أَوَّلًا، وَلَا يَجْتَمِعُ كَرَهُ الْخَلْقِ وَمَحَبَّةُ الْخَالِقِ، فَرَحْمَةُ اللَّهِ مُرْتَبِطَةٌ بِرَحْمَتِهِ لِإِخْوَتِهِ وَقَضَاءُ حَوَائِجِهِمُ وَالسَّعْيُ فِي مُسَاعَدَتِهِمْ، وَبِالرَّفْقِ وَالْإِحْسَانِ فِي مُعَامَلَتِهِمْ.

فَهَذَا "أَبُو يَزِيدَ الْبُسْطَامِي" يَدْعُو اللَّهَ لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَيَرْجُو مِنْهُ بَسْطَ رَحْمَتِهِ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا وَيَتِمَنَّى لَوْ يَتَشَفَّعُ لِلْمَذْنُبِينَ وَالْمُخْطِئِينَ جَمِيعًا، مِنْ أَيِّ دِيَانَةٍ كَانُوا يَوَدُّ لَوْ يَتَحَمَّلَ عَنْهُمْ عِقَابَهُمْ وَأَنْ يَتَّسِعَ وُجُودُهُ لِيَمْلَأَ النَّارَ كُلِّهَا، فَلَا يَبْقَى فِيهَا مَوْضِعًا لِغَيْرِهِ: «جَازَ أَبُو يَزِيدَ عَلَى مَقَابِرِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: مَا هَؤُلَاءِ حَتَّى تُعَذِّبَهُمْ؟ كَفَّ! عِظَامُ جَرَتْ عَلَيْهِمُ الْقَضَايَا، اعْفُ عَنْهُمْ».

قَالَ أَيْضًا: «إِلَهِي، إِنْ كَانَ فِي سَابِقِ عِلْمِكَ أَنْ تُعَذِّبَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ بِالنَّارِ، فَعَظِّمْ خَلْقِي فِيهِ (أَيُّ فِي النَّارِ) حَتَّى لَا يَسْعَ مَعِيَ غَيْرُهُ»¹.

¹ - ابن عربي، ترجمان الأشواق. تح: عبد الرحمن المصطاوي. دار المعرفة، بيروت، لبنان. ط01، 2005، ص: 62.

فالمحبة الصوفية إصلاح هادئ، تبتعد بالإنسان عن أمراض العدواة والبغضاء، ومسالك الاستعداد السياسي والمذهبي والعرقى والإيديولوجي في مجتمعاتنا الإنسانية، وترسيخ مبدأ التضحية، تجعله إنساناً تضامنياً، محباً، يجمع ولا يفرق، يود ولا يكره، فالبشر عنده سواسية لا تمايز بينهم ولا اختلاف ولا تفاضل فهم مخلوقات الله وإله واحد، مهما تعددت سبلهم واختلفت طرقهم الموصلة إليه، وإزالة الوعي الزائف لحقيقة النزاعات الوهمية الإنسانية التي غابت عن هؤلاء، وهو أنهم ينحدرون من طينة واحدة وأنهم مشتركون في هذه الإنسانية ومطلبهم واحد، مهما تعددت أشكالهم ومظاهرهم وإعادة بناء وعي جديد يهتم ببناء "وعي مشترك إنساني".

1-2-4/ السلام والسعادة الإنسانيين:

الذي يمكن تحقيقه داخلياً وخارجياً، داخلياً بإحداث تغيير نفسي إيجابي، من خلال القضاء على القلق والاكتئاب واليأس والقنوط، وفتح مجال أوسع وأفسح في طريقة التفكير في المستقبل، وبإعطاء رؤية دقيقة ومقنعة في تعامله مع شخصيته وذاته وقدراته وإقتناعه بإمكاناته ومؤهلاته ورضاه بها، في جميع جوانب الحياة، جسدياً ومعنوياً، من حيث الصحة والرزق والغنى والفقر، الحياة والموت والمرض... «إن هذين الفريقين كليهما فريق الذين يرغبون في أن يصيروا في الفضاء وفريق الذين يُنشدون التحرر من قبضة المشاعر الحسية باستخدام الأدوية المخدرة، التي تُتيح لهم أن يختبروا الحقيقة بطريقة أخرى، يثبتان كل عن طريق محاولته الخاصة استمرار الحاجة إلى التجربة الروحية، وضرورة السعي وراء المطلب الصوفي، وهذا معناه أن الإنسان في أي عصر كان يفتقر إلى الله "اللامتناهي" وإلى "المطلق" حتى يبقى على صعيده الإنساني»².

¹ - قول البسطامي، أورده عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني. مرجع سابق.

ص: 27.

² - سيد حسين نصر، الصوفية بين الأمس واليوم. مرجع سابق. ص: 38.

فَالْكَلَّ يُنْشِدُ السَّلَامَ وَالْأَاطْمَنَانِ الدَّاخِلِيَّ وَالْإِسْتِقْرَارَ النَّفْسِيَّ وَاخْتِبَارَ الْمَعَانِي السَّامِيَةِ لِلْحَقِيقَةِ، بِطَرَقٍ شَرْعِيَّةٍ وَغَيْرِ شَرْعِيَّةٍ، نَافِعَةٍ أَوْ ضَارَةٍ، وَالَّتِي تَتَحَقَّقُ وَرَاءَ الْمَطْلَبِ الصَّوْفِيِّ رُوحِيًّا وَإِنْسَانِيًّا، بِإِحْدَاثِ النَّتَاجِ الْمَلْزَمِ وَالتَّوَافُقِ التَّامِّ بَيْنَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْمَعَانِي الْحَقِيقِيَّةِ "لِلْحَيَاةِ" وَتَوْجِيهِ الضَّالِّ إِلَى إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ وُجُودِهِ، وَسَرِّ خَلْقِهِ وَأَهْمِيَّةِ خِلَافَتِهِ، فِي ظِلِّ مَازِقِ الْإِنْسَانِ تَحْتَ طَائِلِ الْحَضَارَةِ الْمَادِيَةِ الْمَعَاصِرَةِ، الَّتِي أَدَّتْ إِلَى "اغْتِرَابِهِ"، وَحَوَّلَتْهُ إِلَى كُنْثَلٍ مِنَ التَّشَاوُمِ الْقَاتِمِ الْقَاتِلِ، وَالَّتِي تُعْيِقُهُ عَنْ فَهْمِ ذَاتِهِ الْجَوْهَرِيَّةِ وَتَقْلِبَاتِهَا، وَرَانَ عَلَيْهَا حِجَابٌ غَطَّى بِصِيرَتِهَا وَحَالَ دُونَ ارْتِقَائِهَا لِمَقَامِهَا الْأَوَّلِ، فَإِذَا تَحَقَّقَ مِنْ هَذِهِ النُّظَرَةِ الْأَحَادِيَةِ لِلْخَلْقِ وَانْعَتَقَ مِنْ بَوْتَقَةِ الْجَسَدِ وَالْمَادَةِ وَانْفَكَ مِنْ حِصَارِ وَشَوَاغِلِ الرِّزْقِ، أَحْدَثَ تَحْوِيلًا عَمِيقًا لِلْإِنْسَانِ، فَتَتَوَسَّعُ رُؤْيَتُهُ لِذَاتِهِ وَلِلْوُجُودِ وَلِلْإِنْسَانِيَّةِ، وَيَتَحَرَّرُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَصْلُحِيَّةِ وَخُطُوطِ النَّفْسِ، فَتَتَوَهَّجُ نُورَانِيَّتُهُ وَتَتَعَكَّسُ هَوِيَّةُ الْإِنْسَانِ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ وَيَزْدَادُ تَخَلُّقًا وَمَعْرِفَةً وَحَقِيقَةً، فَتَزْدَادُ إِنْسَانِيَّتُهُ، وَتَتَّسِعُ نَظَرَتُهُ وَتَشْمَلُهُ السَّعَادَةُ، الَّتِي هِيَ هَدَفُ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ، سَعَادَةٌ حَقِيقِيَّةٌ دَائِمَةٌ، تَتَجَاوَزُ الْعَطَاءَاتِ الْمَادِيَةِ وَالْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْمَكَاسِبِ الْآثْنِيَّةِ الْفَانِيَّةِ، سَعَادَةٌ تَتَجَاوَزُ الْفَرْدَ وَالْمَجْتَمَعَ وَالْأُمَّةَ الْوَاحِدَةَ، لِتَبْتَغِيَ سَعَادَةَ الْبَشَرِيَّةِ قَاطِبَةً «أَمَّا الصَّوْفِيُّ فَيَقُولُ: يَجِبُ أَنْ نُمَارِسَ السَّعَادَةَ -السَّعَادَةَ الصَّوْفِيَّةَ طَبْعًا- الْآنَ، وَبُلُوغَ الْمَوْتِ، أَيْ الْآخِرَةِ، إِنَّمَا هُوَ بُلُوغُ لِدْرُوَةِ السَّعَادَةِ، فَالسَّعَادَةُ تَبْدَأُ هُنَا وَالْآنَ، وَكَذَلِكَ الْأَبَدِيَّةُ فَالْأَبَدِيَّةُ لَا تَنْتَظِرُ وَإِنَّمَا تُعَاشُ»¹.

تَبَعًا لِلنُّوعِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّلَامِ الدَّاخِلِيِّ، يَتَجَلَّى الْمَظْهَرُ الثَّانِي لَهُ، مِنْ خِلَالِ إِحْلَالِ السَّلَامِ الْعَالَمِيِّ، الَّذِي يَعْتَمِدُ مَبْدِئِيًّا عَلَى خَلْقِ شَبَكَةِ تَوَاصُلٍ فَعَّالٍ مَعَ الْآخِرِ، وَإِنْفِتَاحِهَا عَلَى الْإِنْسَانِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ غَيْرِ مُسْلِمٍ، وَفَهْمِ أَسْرَارِ الْحَقِيقَةِ وَالْغَيْبِيَّةِ عَلَى ضَوْءِ الْمَعْرِفَةِ الصَّوْفِيَّةِ، الَّتِي تُبْجَلُ الْإِنْسَانُ كَتَجَلٍّ مِنْ تَجَلِّيَّاتِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا ذَكَرْنَا آنَفًا، كَمَا تَعْتَرِفُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ ذَوْقٌ يَنْتِجُ عَنْ هَذَا التَّصَوُّرِ الَّذِي يَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا جَازِمًا أَنَّ الْحَقِيقَةَ مَلِكٌ لِلْجَمِيعِ «فَالسَّلَامُ خُضُوعُ النَّفْسِ بِثِقَةٍ

¹ - أدونيس، الصَّوْفِيَّةُ وَالسَّرِّيَالِيَّةُ. مرجع سابق. ص: 253.

الله، أو استصغار النفس أمام الله، الانتساب الواعي والطوعي الفعّال إلى سلام الله، أو تسليم النفس بشكلٍ واعٍ وإراديٍّ فعّالٍ إلى النظام الكوني»¹.

وللمتصوّفة الجزائريين تجاربٌ إنسانية رائعة في هذا المجال، ولنضرب مثالين مختلفين من أنصع الأمثلة في ذلك، الأول ما فعله الأمير عبد القادر الجزائريّ أثناء وقوع الأحداث والمجازر الطائفية سنة 1860 والتي راح ضحيتها آلاف المسيحيين، حيث عمل على حماية البعثات الدبلوماسية والقناصل الأجانب وأعضاء الإرساليات الأجنبية والزّهبان وعامة المسيحيين، فأواهم في بيته وحماهم من كلّ شرّ.

«ولمّا وقعت حادثة السّتين في دمشق سنة 1860، ومأساتها معروفة، فقد وقف الأمير الموقف الواجب على كلّ مواطنٍ شريفٍ، فضلاً عن موقف المسلم النّقيّ، وذكّر الأهالي بوحدة الوطن والمثّل الإسلاميّة العالميّة، وقد التّجأ إلى داره كلّ خائفٍ وضعيفٍ وأسعف المنكوبين وآوى المشرّدين»².

فأسّس لمبدأ السّلام والتّسامح والمعاملة الحسنة مع كافة الأديان والمذاهب والأطياف، همّه الأوّل وهدفه هو الحقّ تعالى، يعرف الحقّ بالحقّ، فحياة الإنسان ووجوده هو المقصود بذاته وأسمى من وجود العالم بأكمله، يتقرّب من الآخر ويحاوره ويشاركه، ولا يحكم عليه بالكفر أو الخروج أو الزّندقة، أو البدعية، ويظهر كلّ ذلك جليّاً في نزعه الإنسانية حين يقول: «لو أصغى إليّ المسلمون والنّصارى لرفعت الخلاف بينهم وصاروا إخواناً، ظاهراً وباطناً ولكن لا يُصغون إليّ»³.

في عصرنا الحالي، يُعاود مفهوم "الإنسان الكامل" الظّهور بمُسمّيات أخرى -إن صحّ القول- الإنسان العالميّ والمواطن العالميّ، مُرتبطاً بمفاهيم أخرى كحقوق الإنسان والعيش معاً

¹ - إيريك يونس جوفرا، المستقبل للإسلام الروحانيّ. مرجع سابق. ص: 27.

² - جواد المرابط، التّصوّف والأمير عبد القادر. منشورات وزارة الثقافة. الجزائر. 2007. ص: 68.

³ - فؤاد صالح السّيد، الأمير عبد القادر الجزائريّ متصوّفاً وشاعراً. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1985. ص: 118.

بسلام، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمنهج الصوفي الذي يُركّز على تحقيق هذه الفكرة والتعاشير بأمن وسلام مع الإنسانية، والذي يُمثّله اليوم الشيخ "خالد بن تونس"¹ شيخ الطريقة العلوية والذي استطاع أن يُحقّق اليوم العالمي للعيش معاً بسلام² في 16 ماي من كلّ سنة والذي تبنته الأمم المتحدة تحقيقاً للغاية الكبرى التي تُشدها كلّ تربية صوفية روحية.

2/- البعد الثقافي

لقد كان للتصوّف دورٌ كبيرٌ في ثقافة البلاد العربية والإسلامية عامّة وفي الجزائر خاصة، فقد كان ولا يزال التصوّف مُلهماً لثراثٍ ثريٍّ وضخمٍ ويكُلُّ لغات العالم، ولا يمكن لعاقِلٍ أن يُنكر هذا التراث المعرفي والفكري والثقافي، وحتّى في مجال الفنون والآداب، فقد كانت لهم اجتهاداتهم ونظرياتهم الخاصة، في المعرفة وطبيعة الإنسان والعالم والنفس والخلق والعقل والروح والأخلاق، تفردوا بها عن غيرهم وتميّزوا بها عن سائر المدارس والمناهج والخطابات الفكرية الأخرى.

فَالمنهج الصوفي يتّسم في نسقه الثقافي الفكري بالانفتاح على الحقول المعرفية المختلفة الأخرى كالفقه وعلم الكلام والفلسفة والأدب، وغيرها من العلوم الأخرى، لانفتاح مشايخ وعلماء الصوفية وتعدّد مشاربهم وغنى أفكارهم وتجاربهم وكثرة تأليفهم واجتهاداتهم ومعالجتهم لقضايا الوجود والإنسان.

في الجزائر يتّضح جلياً بأنّ الطرق الصوفية ومؤسسات الزوايا قد لعبت دوراً ثقافياً إيجابياً في الحفاظ على الهوية الوطنية، ومُحاربة الأمية، بفضل المدارس القرآنية والكتاتيب والمعاهد، في تحفيظ القرآن الكريم وتدرّيس مختلف العلوم الشرعية، كما كان لها الأثر الإيجابي في حقل

¹ - خالد بن تونس مؤسس ورئيس الجمعية الدولية للصوفية العلوية، من مواليد مستغانم سنة 1949 والرئيس الشرفي للمؤسسة المتوسطة للتنمية المستدامة، من مؤلفاته التصوّف قلب الإسلام سنة 2003.

² - خلفية تاريخية، يعود إقرار يوم 16 ماي يوماً دولياً للعيش معاً في سلام إلى الجزائر بعد أن اقترحت هذا التاريخ على الجمعية العامة في ديسمبر 2017، اللائحة 130/72، وفكرة اليوم الدولي للعيش في سلام تم تقديمها خلال مؤتمر نُظّم بـوهران سنة 2014 من طرف الجزائري خالد بن تونس مؤسس الجمعية الدولية للصوفية العلوية. على الموقع التالي:

إنتاج وإعادة إنتاج المعرفة، بفضل تراث ضخم من المؤلفات في شتى الفنون والعلوم الدينية والأدبية والصوفية، كما ساهمت مساهمة جلية في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية والثقافة الإسلامية عموماً في جميع أقطار العالم، ولا تزال تُمارس هذا التأثير الواضح من خلال تأسيس الاتحادات والجمعيات الصوفية، داخلياً وخارجياً، وعقد المؤتمرات والندوات والملتقيات، لترسيخ هذه الثقافة وطنياً وعالمياً، كما صار موضوع التصوف ومضامينه الكثيرة، يحتل مكانة مرموقة في حياتنا الثقافية والفكرية المعاصرة، من خلال ظهور حركة قوية ودؤوبة في الاهتمام بـ"التصوف" و"الطرق الصوفية" درساً وبحثاً وتحليلاً، وهذا ما انعكس كمياً ونوعية البحوث والدراسات والرسائل والمقالات التي كتبت وتُكتب في مواضيعه المختلفة، وحتى التخصصات الفرعية والجزئية في أحد اتجاهاته.

ففي الفترة الأخيرة -خاصة- أصبحنا نلاحظ عودة ظاهرة وقوية للخطاب الصوفي والعناية به على المستويين الرسمي وعلى المستوى الأكاديمي العلمي، وتغير الصورة القائمة التي كانت تسوق لهذا التيار الفكري الراقي طيلة عهود من الزمن.

قد شهد المؤرخ والكاتب "أحمد توفيق المدني" بدورها الهام والكبير في هذا المجال، حيث قال في (كتاب الجزائر): «لا زال للطرق الصوفية بقطر الجزائر خطوة كبرى ونُفوذ عظيم... إنَّ لبعض الطرق الصوفية بقطرنا هذا مزية تاريخية لا يستطيع أن ينكرها حتى المكابر، تلك هي أنها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات وعمل رجالها الأولون على تأسيس الزوايا، يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل ويقومون بتعليم الناشئة وبيت العلم في صدور الرجال ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها والتي نقف أمامها موقف المعترف لما كُنّا نجد الساعة في بلادنا أثراً للعربية ولا لعلوم الدين»¹.

ويمكن أن نحصر أهم تمثيلات البعد الثقافي للتصوف الجزائري عموماً والتربية الصوفية خصوصاً في هذه النقاط:

2-1/ حركة التأليف:

¹ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر. مصدر سابق. ص: 375.

التي تُمثّل أحد الجوانب المهمة في هذا البعد الثقافيّ لِلكَمِّ الهائل من المؤلفات الصوفيّة وتتنوّعها، في التفسير والفقه والحديث والآداب والمواعظ والسّير والشعر والمتون، وكتابات عن التربية السلوكية وآداب الطّريق والكتابات العرفانية، وأحياناً أخرى كتابات تُدافع عن التّصوّف ومنهجه وشيوخه.

امتلأت كُتب التّراجم المختصّة تاريخياً بمئات المشايخ والعلماء الصّوفيّة، التي تميّزت بإنتاجات ضخمة، أهمّها: عنوان الدّراية لِمَن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية "لأبي العباس الغبريني" ¹، وكتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان "لابن مريم" ² والذي تضمن أكثر من مائة وثمانين ترجمة لأولياء وعلماء ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها وكتاب تعريف الخلف برجال السّلف "لأبي القاسم الحفناوي" ³، وكتاب أعلام التّصوّف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى "لِعبد المنعم القاسمي الحسني" ⁴ وموسوعة الطّرق الصّوفيّة للمرحوم "مُحمد بن بركة الحسني"، بالإضافة إلى أمّهات ومصادر كُتب التّاريخ الجزائريّ التي

¹ - أبو العباس الغبريني: أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي الغبريني، وكنيته أبو العباس، وقد غلبت عليه شهرته الغبريني، نسبة إلى "بني غبري"، بطن من قبائل الأمازيغ "البربر" في المغرب الأوسط، وك ان ميلاده في أواسط المائة السّابعة سنة 644هـ - 1246م، أخذ العلم عن نحو سبعين شيخاً، ولي القضاء بمواضع عدّة، آخرها بمدينة بجاية، توفي بمدينة بجاية سنة 704هـ - 1305م. ابن قنفذ القسنطيني. كتاب الوفيات. تح: عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة. بيروت، لبنان. ط 04. 1983. ص: 338-339. وأبو العباس الغبريني. عنوان الدراية (المقدمة). مصدر سابق. ص: 12-13.

² - ابن مريم التلمساني: محمد بن محمد بن أحمد، أبو عبد الله الشريف المليتي نسبا المديوني أصلاً، التلمساني منشأً ووفاته (ت 1014هـ تقريباً)، مؤرخ من علماء تلمسان، ويعتقد أبو القاسم سعد الله أنّ أول من ترجم له وعرف به تلميذه حسين بن محمد البطوي في كتابه "مطلب الفوز والفلاح في طريق أهل الفضل والصلاح". أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي . ج2. مصدر سابق. ص: 355.

³ - أبو القاسم الحفناوي: أبو القاسم بن الشيخ بن أبي القاسم الحفناوي الإبراهيمي الدّيسي، مفتي المالكية بالديار الجزائرية، ولد بقرية "الدّيس" سنة 1269هـ/1852م، تعلّم على يد والده ثمّ توجّه إلى زاوية طولقة، ثم زاوية ابن أبي داود وأكمل تعليمه العالي بزاوية الهامل، توجّه إلى العاصمة سنة 1301هـ، تولّى الكتابة بجريدة المبرشّر إلى أن توقفت سنة = 1344هـ، كما تولّى التدريس بالجامع الكبير بالعاصمة منذ سنة 1315هـ، عيّن للفتوى سنة 1927م، وهو صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف، توفي بمسقط رأسه سنة 1942م، عن أكثر من تسعين سنة. عبد المنعم القاسمي الحسني. أعلام التّصوّف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 89 في الهامش.

⁴ - عبد المنعم القاسمي الحسني: باحث أكاديمي وأستاذ جامعي، متخصص في التّصوّف، له مؤلفات عديدة، أهمّها: زاوية الهامل مسيرة قرن من العطاء والجهاد: 1862 - 1962 - الطّريقة الرّحمانيّة: الأصول والآثار - أعلام التّصوّف في الجزائر.

لا يخلو أيّ كتاب منها من ذكرهم ومن تعداد إنتاجاتهم الفكرية، "كأبي القاسم سعد الله"، "عبد الرحمان الجيلالي" و"أحمد توفيق المدني"، والتي أرخت بدورها لشخصيات ومؤلفات صوفية كثيرة ومؤثرة، تأليفاً وتدریسا وتنقيفاً ونشراً للدين الإسلامي.

«فمن المزايا الخالدة لهذه الزوايا أنها أخرجت أجيالاً من العلماء الذين لهم في المشرق والمغرب طيب الأثر، كما كانت لهم سُمعة طيبة وذكر حميد في أوساط كبار العلماء ونذكر من هؤلاء: العلامة عبد الرحمان الوغليسي¹ مفتي بجاية، وهو من أعلام القرن الثاني عشر الهجري ومؤلف "الوغلّيسية" توفي رحمه الله عام 1189هـ / 1775م، والرحالة المعروف الذي يُعتبر من مفاخر الجزائر وهو الحسين بن محمد السعيد الورتيلاني² من أعلام القرن الثاني عشر الهجري، ويحي العبدلي³ من أعلام القرن العاشر الهجري، والقاضي عيسى أبا الروح اليانيوي⁴ الذي تولّى القضاء في مصر والشّام وشرح (صحيح مُسلم) في تسعة أجزاء»¹.

¹ عبد الرحمن الوغليسي: هو أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي البجائي، عالم بجاية ومفتيها، أخذ عنه جماعة منهم بلقاسم بن محمد المشذالي وغيره، له "المقدمة" المشهورة، و"فتاوي"، والوغلّيسي نسبة إلى وغلّيس بطن من قبائل الأمازيغ، (البربر)، في جنوب بجاية بأعلى وادي صمام، توفي ببجاية سنة 786هـ. ابن قنفذ. كتاب الوفيات. مصدر سابق. ص: 376.

² الورتيلاني: الحسين بن محمد السعيد الورتيلاني (1125-1193هـ / 1713-1779م): رحلة، مؤرخ، فقيه، مال إلى التصوف، ولد ونشأ في قبيلة بني ورتيلان (قبيلة قرب بجاية)، وأخذ عن والده وغيره، ثم رحل إلى المشرق فحجّ واخذ عن علماء مصر والحجاز، كالشيخ محمد بن محمد التونسي الشهير بالبليدي، وأحمد بن الحسن الخالدي الجوهري وغيرهما، ثم رجع إلى وطنه، له "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" ويعرف بالرحلة الورتلانية وهو وصف لرحلته إلى الديار المقدسة سنة 1179هـ، وما شاهده من الأمكنة والآثار ومن لقيهم من العلماء والأعيان وغيرهم، و"شرح القدسية للأخصري" في التصوف، و"حاشية" على كتاب المرادين، و"شرح على خطبة الصغرى" و"حاشية علي السكتاني" و"قصيدة ميمية" في نحو 500 بيت في مدح النبي ﷺ عدّة رسائل. أبو القاسم الحفناوي. تعريف الخلف برجال السلف. مطبعة = بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر. 1906. ص: 133-134. وعادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. مرجع سابق. ص: 340.

³ يحي العبدلي: (ت 882هـ / 1486م): شاذلي الطريقة، وهو شيخ الصوفي الشهير زروق، وذكره وعظمه غاية التعظيم، وشهد بقطبانيته تلميذه الولي الصالح المؤلف عبد الرحمن الصبّاغ، وشهد له أيضا بالعلم وبالكرامات الكثيرة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، أسس زاوية له ببجاية والتي تخرّج منها عدد كبير من العلماء لعل أشهرهم: زروق، الصبّاغ، الخروبي، أحمد بن يوسف الملياني، والشيخ يدير وغيرهم كثير. أبو القاسم الحفناوي. تعريف الخلف برجال السلف. مصدر سابق. ص: 584-585.

⁴ عيسى أبا الروح: أبو الروح عيسى بن مسعود المنكلاتي الزواوي، الفقيه الإمام المتقن في كثير من العلوم، العمدة المتقن الألمي الذكي الزكي حفظ مختصر بن الحاجب في ثلاثة أشهر ونصف، ثم حفظ الموطأ، تفقه في بجاية عن جماعة منهم أبو

لا يمكننا عرض كل إنتاجات وتآليف المتصوفة الجزائريين لِكثرتها وتتنوع تخصصاتها ولكن سنقف عند أهمها وأكثرها شهرة وانتشاراً في الآفاق العربية والإسلامية، وربما كثرة شراحها والحواشي عليها، وتداولها.

من أبرز المنتجين في العقائد "عبد الرحمن الثعالبي" و"محمد يوسف السنوسي"، ولكن بجاية قد سبقت الجزائر وتلمسان بمدرسة "عبد الرحمن الوغليسي"، ومنهم "محمد الهواري" و"الثعالبي" و"عيسى بن سلامة البسكري"² ونحوهم، فكانت (الوغلانية) في الفقه موضع دراسة واهتمام اللاحقين لفترة طويلة، كما سبقت قسنطينة بمدرسة "حسن بن باديس"³ صاحب (السينية) التي تبارى بعض العلماء في شرحها وتقليدها⁴.

ففي علوم القرآن وتفسيره، نجد كتاب (المواقف الروحية والفيوضات السبوحية) للإمام عبد القادر الجزائري، وكتاب (الإبريز والإكسير في علم التفسير) لأبي راس الناصر أحمد المقرئ،

يوسف يعقوب الزواوي، وقدم الإسكندرية وتفقه بها عن جماعة ودرس بمصر وحصل به النفع وانتهدت إليه رئاسة الفتوى هناك، وتولى القضاء بنابلس، ثم بدمشق، شرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلدا سماه إكمال الإكمال، وشرح مختصر ابن الحاجب، واختصر جامع ابن يونس، مولده سنة 664هـ وتوفي سنة 743هـ (1342م). محمد بن مخلوف. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. تح: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ج1. ط1. 2002. ص: 314.

¹ - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 291.

² - عيسى بن سلامة البسكري: من تلامذة الشيخ الثعالبي، أخذ عن ابن مرزوق، له من المؤلفات: فتح المغرب كتاب في التصوف تضمن مناقب رجال التصوف وكراماتهم، وكتاب آخر عنوانه: اللوامع والأسرار في منافع القرآن والأخبار. عبد المنعم القاسمي الحسيني. أعلام التصوف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 260.

³ - الحسن بن أبي القاسم بن باديس: (701 - 787هـ / 1301 - 1385م): الشيخ الفقيه الصوفي القاضي الشهير المحدث، درس بقسنطينة وبجاية، حيث أخذ عن ناصر الدين المشدالي، ابن غريون البجائي، ابن عبد الرزاق القاضي وغيرهم، وأخذ بالمشرق عن صلاح الدين العلائي المقدسي و خليل المكي وابن هشام النحوي صاحب المغني وغيرهم، كان من مشايخ الطريقة القادرية، أسند إليه منصب قضاء الجماعة بتونس آخر ربيع الأول من سنة 778هـ - 1376م، له عدة تقايد منها:

فوائد الدرر وفرائد الفكر في شرح مختصر السير، النفحات القدسية: قصيدة سينية مشهورة وقد تبارى العلماء في شرحها وتقليدها، توفي بقسنطينة ودفن بزوايته. أبو القاسم الحفناوي. تعريف الخلف برجال السلف. مصدر سابق. ص: 118. وعبد المنعم القاسمي الحسيني. أعلام التصوف في الجزائر. نفس المرجع السابق. ص: 136 - 137.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. مصدر سابق. ص: 88.

أبو حامد المشرفي¹ وعبد القادر السنوسي الخطابي المنور التلمساني، (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) للثعالبي من أربعة أجزاء، وفي علم الحديث، يتجلى تأليف إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن لمحمد بن علي السنوسي، وكتاب (البذور السائرة في الأسانيد الفاخرة للسنوسي)².

ومنها أيضاً كتاب (الأنوار المنبلجة من أسرار المنفرجة) لأحمد بن عبد الرحمان النفاوس البجائي³ والقصيدة المشهورة بالمنفرجة التي قالها يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي التوزري الحمادي والتي مطلعها:

إِسْتَدَيْ أَرْمَةً تَنْفَرَجِي قَدْ آذَنَ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ

والمؤلفات الكثيرة للسنوسي صاحب (العقائد) المشهورة، التي تبارى العلماء في شرحها ودرسها وتقريرها وحفظها وهي أيضاً في علم الكلام، وقد تتوَّعت موضوعات كتبه في التوحيد والفقه والمنطق والجبر والقراءات والفرائض والحديث والتفسير والتصوّف⁴.

وكتاب أنس الوحيد لأبي مدين وشرح أسماء الله الحسنى "لأبي زكريا السطيفي"¹، و"عبد

¹ - أبو حامد المشرفي: (ت 1313 هـ - 1895 م) العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، أبو حامد: مؤرخ، أديب، نسابة، من أهل قرية "الكرط" من ضواحي معسكر، تعلّم بوهران، وهاجر إلى المغرب بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، فأخذ عن جماعة من كبار العلماء، من أثاره "ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولاي مجاجة"، و"ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول" و"نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار". عادل نويهض. معجم أعلام الجزائر. مرجع سابق. ص: 302.

² - عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومُعجم المعاجم والمسلسلات. ج01. تح: إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. 1982. ص: 247.

³ - البجائي: الشيخ المعتقد المجذوب، قدم الديار المصرية كبيراً فحجّ وقرأ المدونة، واشتغل كثيراً، ثم حصلت له جذبة فانقطع بمخزن بالقرب من جامع الأزهر، واعتقده الناس اعتقاداً كبيراً، لاسيما برقوق فإنه كان يجله ويحترمه، حتى أنه أوصى أن يدفن تحت رجليه، مات في يوم السبت خامس جمادى الآخرة سنة 797 هـ - 1395 م ودفن خارج باب النصر وأخرجه السلطان وجهه على يد الأمير "يلغا السالمي". عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 58.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج01. مصدر سابق. ص: 89. ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. مصدر سابق. ص: 237.

الحقّ الإشبيلي² ومؤلفاته العديدة، التي من بينها كتاب الصلّاة والتّهجد.

بالإضافة إلى شعر "أبي مدين التلمساني"، وديوان الأمير عبد القادر وديوان عفيف الدين التلمساني وديوان البوزيدي والعلاوي وعدّة بن تونس المستغانميين فضلاً عن الياقوتة "لعبد القادر بن محمد - المعروف بسيد الشيخ -"، والكتب النثرية كجواهر المعاني للشيخ "أحمد التجاني"، وزوال الإلباس للشيخ "الكنتي الكبير"³ وشرح شطرنج العارفين "لمحمد بن عبد الرحمن الهاشمي التلمساني"⁴، والمؤلفات الكثيرة للشيخ الكنتي، كتفسير الفاتحة في جزئين ونزهة الدّاوي وبُغية الحاوي في جزئين، الشّمس المحمّدية في التّوحيد، نفح الطّيب في الصلّاة على النّبّي محمد الحبيب، الرّسالة في علم التّصوّف وغيرها⁵.

¹ - يحي بن زكريا (أبو زكريا السطيفي): (ت 677 هـ / 1278م): الشيخ الفقيه، الولي الصالح المبارك، أبو زكريا يحي بن زكريا المحجوبي القرشي السطيفي من طلبة الشيخ أبي حسن الحرّالي، وكان من المتعبدين الزهاد الأولياء، رحل إلى المشرق ولقي مشائخ واقتصر على شيخه أبي الحسن الحرّالي، وله تأليف حسنة في شرح أسماء الله الحسنى، وله في التّصوّف تقايد كثيرة، وله نظم حسن وقطع مستحسنة كلّها في المعاني الصّوفية. أبو القاسم الحفناوي. تعريف الخلف برجال السلف . مصدر سابق. ص: 581-582.

² - عبد الحقّ الإشبيلي (510 - 581 هـ / 1116 - 1185م): هو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الإشبيلي، رحل إلى بجاية وتخيّرنا وطنا وكمل بها خبرة، فألف التّأليف وصنّف الدواوين، وكان مصاحباً ومواليّاً للفقيه أبي علي المسيلي، وقد نقل الغبريني قولاً عن ابن عربي عن الشيخ أبي مدين يقول عن عبد الحقّ الإشبيلي حين يرى ما أيده الله به ظاهراً وباطناً، فيقول عند ذلك: "هذا وارث على الحقيقة" الغبريني. عنوان الدراية. مصدر سابق. ص: 41 - 42.

³ - الشيخ الكنتي الكبير: المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن الشيخ سيدي عمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي، ولد بكثيب أوغال سنة اثنين وأربعين بعد المائة والألف وتوفي رضوان الله عليه زوال يوم الأربعاء خامس شهر جمادى الأولى سنة ستة وعشرين بعد المائتين والألف، من أشهر أولياء المغرب وأعظمهم قدراً وأجلهم معرفة وله مؤلفات منها: مختصر في فقه مالك، كتاب النزهة. سيدي محمد الكنتي. الطرّائف والتلاند. تح: يحي ولد سيدي محمد. دار المعرفة. الجزائر. ج1. (د.ط.). (د.ت.). ص: 217.

⁴ - أبو عبد الله الشّريف: أبو عبد الله محمد بن أحمد العلوي الشّريف الحسني المعروف بالشّريف التلمساني، كان من أعلام العلماء والأئمة الفضلاء أعلم من في عصره بإجماع، ألف المفتاح في أصول الفقه وشرح جمل الخونجي، له ترجمة واسعة خصّت مع ابنه بالتأليف، مولده سنة 710 هـ، وتوفي في ذي الحجة سنة 771 هـ (1369م). محمد بن مخلوف. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. مصدر سابق. ص: 337.

⁵ - البرتلي الطّالب محمد بن أبي بكر الصّدّيق الولاتي، فتح الشّكور في معرفة أعيان وعلماء التكرور. تح: إبراهيم الكتاني محمد حجي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط01، 1981. ص.ص: 152-153.

دُون أَنْ نَنْسَى مُؤَلَّفَاتِ الْعَلَاوِي "أَحْمَدُ بْنُ مُصْطَفَى الْعَلَاوِي" وَالَّذِي تَرَكَ إِرْثًا كَبِيرًا مِنَ الْمُوَلَّفَاتِ مِنْهَا: الْقَوْلُ الْمَقْبُولُ فِيمَا تَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ الْعُقُولُ، وَمَنْظُومَةُ فِي الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ سَمَّاها: الْأَلْفِيَّةُ الْعَلَاوِيَّةُ، وَرِسَالَةُ سَمَّاها: مَبَادِي التَّأْيِيدِ فِي بَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُرِيدُ فِي عِلْمِ الْفَقْهِ وَالتَّوْحِيدِ، مِفْتَاحُ الشَّعُورِ فِي مَظَاهِرِ الْوُجُودِ وَالْمَنْحِ الْقُدُوسِيَّةِ....¹.

وَمِنْ أَهَمِّ الشَّخْصِيَّاتِ الصُّوفِيَّةِ الْجَزَائِرِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ، نَذْكُرُ شَخْصِيَّتَيْنِ بَارِزَتَيْنِ تَأَلَّفَا وَنَشَاطَا عِلْمِيًّا، الْمَرْحُومَ "مُحَمَّدُ بْنُ بَرِيكَةَ"، الْأُسْتَاذَ الْجَامِعِيَّ بِقِسْمِ الْفَلَسَفَةِ بِجَامِعَةِ الْجَزَائِرِ، وَالَّذِي وَلَجَ بَابَ التَّأَلِيفِ الصُّوفِيِّ مِنْ بَابِهِ الْوَاسِعِ، فَكَتَبَ مُوسُوعَةَ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ فِي سِتَّةِ عَشَرَ مُجَلَّدًا بِالإِضَافَةِ إِلَى مُؤَلَّفَاتٍ أُخْرَى مِنْهَا (الْكِتَابُ الْكَبِيرُ فِي الثَّنَاءِ عَلَى النَّبِيِّ الْبَشِيرِ) وَكَذَا مُوسُوعَةُ الْحَبِيبِ وَجَمَهْرَةُ الْأَعْمَالِ الصُّوفِيَّةِ فِي سَبْعَةِ أَجْزَاءٍ مَطْبُوعَةٍ وَكِتَابُ (سِلْسِلَةُ الْإِتْحَافِ بِمَنَازِلِ الْأَشْرَافِ) فِي ثَلَاثِ أَجْزَاءٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْأَكَادِمِيَّةِ الْقِيَمَةِ، وَكُلُّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِمَجَالِ التَّصَوُّفِ².

وَالشَّخْصِيَّةُ الْبَارِزَةُ الثَّانِيَّةُ هُوَ الشَّيْخُ "عَبْدُ الْبَاقِي بْنِ أَحْمَدَ مِفْتَاحُ" مِنْ مَوَالِيدِ 1952 فِي بَلَدَةِ قَمَارِ بُولَايَةِ وَادِي سُوْفٍ بِالْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ الْجَزَائِرِيِّ، وَقَدْ اخْتَصَّ بِالتَّأَلِيفِ الصُّوفِيِّ عَامَّةً وَبِشَخْصِيَّةِ "ابْنِ عَرَبِي" خَاصَّةً وَمِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ:

- خَتَمَ الْقُرْآنَ مَحْيَ الدِّينِ بْنِ عَرَبِي، دَارُ الْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ مَرَكَشَ 2005 وَدَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوتَ، 2009.

- الشَّرْحُ الْقُرْآنِيُّ لِكِتَابِ (مَشَاهِدُ الْأَسْرَارِ الْقُدْسِيَّةِ) لِابْنِ الْعَرَبِيِّ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ بَيْرُوتَ، 2009.

- الْحَقَائِقُ الْوُجُودِيَّةُ عِنْدَ ابْنِ الْعَرَبِيِّ، نَيْنَوِي لِلتَّحْقِيقِ وَالنَّشْرِ، دِمَشْقَ، 2013.

- شَرْحُ كِتَابِ (عَنْقَاءُ الْمَغْرِبِ) لِابْنِ الْعَرَبِيِّ، تَحْتَ الطَّبْعِ.

¹ - الشَّيْخُ عَدَّةُ بْنُ تُونَسَ، الرِّوَاظَةُ السَّنِيَّةُ فِي الْمَأَثَرِ الْعَلَاوِيَّةِ. الْمَطْبَعَةُ الْعَلَاوِيَّةُ. مَسْتَعْنَمُ، الْجَزَائِرِ. ص: 19.

² - عَبْدُ الْحَمِيدِ مَرْزُوقِي، مُحَمَّدُ بُوَزِيدِي، مَجَلَّةُ الْبَصَائِرِ. الْعَدَدُ 861. الْجَزَائِرِ. 2021. ص: 11.

وتزيد مؤلفاته عن ابن العربي عن اثنين وعشرين مؤلفاً (22)، بالإضافة إلى ترجمته أكثر من تسع كتب من الفرنسية إلى العربية للشيخ "عبد الواحد يحي"، هذا ويبقى حضوره فعال في الملتقيات الوطنية والعالمية، ودائماً حول التراث الصوفي¹.

الكتابات السلوكية:

وقد شكّل هذا النوع من الكتابات الصوفية قاعدة أساسية ومؤسسة للجوانب العملية وطرق الممارسة لتوجيه المريدين، لهذا اهتم به مشايخ وعلماء الطرق الصوفية في الجزائر تأليفاً وكتابةً، نثراً وشعراً (منظومات) من أجل تبين معالم التسليك وطرق التربية ومناهجها وخصوصياتها عند كلّ طريقة صوفية.

فقد شرح الشيخ "محمد الصبّاغ القلعي"² (القصيدة المرادية) التي نظمها الشيخ "إبراهيم التّازي" وسماه (شفاء الغليل)، كما شرح "الورتلاني" القصيدة القدسية "لِعبد الرحمان الأخضرى"³، وهي قصيدة الآداب والسلوك، مسمّياً إيّاها (الكواكب العرفانية والشّوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية)⁴.

¹ - موقع مدينة قمار 23 سبتمبر 2018. المكتبة الفلسفية الصوفية. على الموقع التالي: maktaba-falsafia.com

² - محمد بن محمد الصبّاغ القلعي: (ق 10هـ / 16م): محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصبّاغ القلعي، صاحب كتاب "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخبار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الزّاشدي النسب والدار"، ومن اتباع الطريقة اليوسفية الشاذلية، ولد حوالي سنة 920هـ / 1514 م، اهتم بحياة الأولياء والصّالحين وجمع حكاياتهم، سجل لنا في كتابه الهام "بستان الأزهار" سيرة الولي أحمد بن يوسف الملياني، ولولا هذا الكتاب لضاع تاريخ مؤسس الطريقة اليوسفية وله شرح على قصيدة المرادية للشيخ إبراهيم التّازي، سماه: "شفاء الغليل والفؤاد بشرح النظم الشهير بالمراد". عبد المنعم القاسمي الحسيني. أعلام التصوّف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 365.

³ - عبد الرحمن بن محمد الأخضرى: (920 - 953هـ / 1514 - 1545م): العلامة الإمام، الصوفي المصلح، من أشهر المؤلفين في القرن العاشر الهجري، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد "الصغير" بن عامر الأخضرى، ويتّصل نسبه بالعباس بن مرداس صاحب النبيّ ﷺ في بنطوس من قرى نواحي بسكرة، أخذ العلم عن والده، وعن أخيه الأكبر، قضى حياته في التعليم في زاويتهم بمسقط رأسه، وتخرّج على يديه الكثيرون، وتوفي بأحد الأسياف في "كجال" قرب سطيف، كتب في علوم كثيرة مثل: المنطق، التصوّف، الفقه، البيان، الكلام، الحساب، ومن مؤلفاته: السّلم المرونق في علم المنطق، الجواهر المكنون في البلاغة، منظومة القدسية، مختصر في فقه العبادات، وغير ذلك من الكتب والمؤلفات التي تزيد عن العشرين، توفي رحمه الله 953هـ / 1545م، ودفن بضريحه المشهور بقرية بنطوس. عبد المنعم القاسمي الحسيني. أعلام التصوّف في الجزائر. نفس المرجع السابق. ص: 191-192.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. مصدر سابق. ج04. ص: 130.

كما اهتم الشيخ "محمد بن علي الخروبي" ¹ بهذا الشكل من التأليف بتأليفه لمجموعة من الكتب، أهمها: (شرح على الصلوة المشيشية وشرح على الحكم العطائية) وكتاب (الدرة الشريفة في الكلام على أصول الطريقة)، وترك الشيخ "أبو راس الناصري" ² مؤلفات اهتمت بالجانب السلوكي التربوي، فله شرح على الحكم العطائية سماه (الزهر الأكم في شرح الحكم) وشرح آخر (فتح الإله في شرح حكم ابن عطاء الله) ³.

غلب على مؤلفات الطريقة الرحمانية الاهتمام الكبير بطابع التربية والسلوك والآداب، أهمها كتاب (دفتر الدفاتر) لمؤسس الطريقة، و(شرح على الريفاوي) أصل فيه للطريقة، وبين آدابها وأصول التربية الروحية لها، وكتاب (تبصرة السائلين في طريق السالكين) للشيخ "محمد بن رمضان البسكري" ⁴، و(رسالة في الأنفاس والمقامات) "لأبي

¹ - محمد الخروبي: أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري: عالمها الكبير وإمامها الشهير كان من أهل الحديث والفقه والتصوف جمع من التصوف والأذكار والأوراد كتباً منها شرح الحكم ورسالة رد فيها على أبي عمر القسطلي المراكشي وله تفسير. أخذ عن الشيخ زروق وأبي عبد الله محمد الزيتوني وعمر بن زيان المديوني. وعنه أخذ جماعة من أهل الجزائر وفاس وفي سنة 959 هـ قدم مراكش سفيراً بين سلطان آل عثمان وبين الأمير أبي عبد الله الشريف بقصد المهادنة بينهما وتحرير البلاد. توفي بالجزائر سنة 963 هـ/1555م. محمد بن مخلوف. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. مصدر سابق. ص: 411.

² - أبي راس الناصري: العلامة المحقق الحافظ الإمام القدوة المتفنن سيدي محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الزاشدي الناصري، كان رحمه الله ورضي عنه إماماً في المنقول والمعقول وإليه يرجع في الفروع والأصول، ورحل في طلب العلم واكتساب المعارف، وافي الأفاضل من أهل مصر وتونس وفاس، وله تأليف مفيدة بديعة مثل: كتاب التأسيس، ودرء الشقاوة، وله شروحات كثيرة، شرح المقامات الحريية، شرح العقيدة، وشرح الحلل السندسية، وغيرها، توفي عام ثمان وثلاثين ومائتين وألف (1238)، وقد تجاوز التسعين، ودفن بمعسكر. أبو القاسم الحفناوي. تعريف الخلف برجال السلف. مصدر سابق. ص: 332 - 333.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. مصدر سابق. ج4. ص: 133.

⁴ - مصطفى البسكري: مصطفى بن عبد الرحمن بن مصطفى بن محمد بن رمضان بن عصمان البسكري، فقيه صوفي ولد ونشأ ببسكرة عام 1211 هـ/1797م، سكن قرية "بانيان" من قرى الأوراس القريبة من باتنة، انتقل إلى قرية "البرانييس" واستقر بها، أخذ الطريقة الرحمانية عن عمه الشيخ محمد الصادق بن رمضان، أنشأ الزاوية الرحمانية الموجودة حالياً في حي سيدي البركات، توفي عام 1323 هـ/1906م بالبرانييس ودفن بها. مجموعة من الأساتذة. إشراف: رابح خدوسي. موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين. منشورات الحضارة الجزائر. ج1. (د.ط.). (د.ت.). ص: 393.

القاسم الهاملي¹، في بيان التربية والسلوك².

كما لا تكاد تخلو أي طريقة جزائرية من مؤلفات ومنظومات توضح آدابها التربوية ومنهجها السلوكي، وأورادها وأحزابها وغيرها من مواضيع مماثلة من التربية والسلوك في الطريقة.

2-2/ دور الطرق الصوفية في نشر الدعوة الإسلامية:

لم تكتف الطرق الصوفية الجزائرية بالمحافظة على الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية داخل مجتمعتها فقط، بالوقوف صمام أمان ضد الحملات التبشيرية والتنصيرية التي سخرت لها أوروبا وفرنسا كل الوسائل، بل استطاعت الطرق الصوفية والزوايا التوغل خارجياً في أدهال إفريقيا منسجمة ومتأقلمة مع واقعها المحلي والاجتماعي، وأصبح لها شأن كبير، «وانتشار الإسلام في إفريقيا السوداء جنوبي الصحراء: السنغال، ومالي، والتيجير وغينيا، وغانا ونيجيريا وتشاد، إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه إلى الطرق الصوفية، خصوصاً التجانية والسنوسية والشاذلية، فكانت الزوايا والرباطات التي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية بؤرات لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الإفريقية وقلبها»³.

فالتطرق الصوفية لا تعترف بجغرافية الحدود، ولقد كان لها ولأئمتها ومشايخها الأثر الواضح في نشر الإسلام ونصرتة والعمل بالتهوؤ بالمسلمين الأفارقة، خاصة طرق التجانية والقادرية والسنوسية، فالإسلام لم ينتشر في أواسط إفريقيا وغربها إلا على أيدي الدعاة

¹ - أبو القاسم الهاملي: (1240 - 1315 هـ / 1824 - 1897 م): محمد بن أبي القاسم بن ربيع بن محمد بن عبد الرحيم بن سائب بن منصور بن عبد الرحيم أبو عبد الله، مؤسس زاوية الهامل، من أشهر رجالات القرن التاسع عشر في الجزائر، ومن كبار العلماء والمصلحين ورجال التصوف والتعليم بها، ولد قرب حاسي بجبج في شمال الصحراء جنوب الجزائر، حفظ القرآن بقرئته، ثم انتقل إلى زاوية علي الطيار بمنطقة الببيان، فأتقن القراءات السبع وفن التجويد، ثم انتقل إلى زاوية سيدي السعيد بن أبي داود قرب أقبو، تعلم فيها الفقه والنحو وعلم الكلام والفرائض والمنطق وغيره، ثم عاد بعد خمس سنين إلى بلده الهامل يعلم الناس الفقه وغيره بمسجد القرية، ثم انشأ زاويته التي أقبل الناس عليها من جميع الجهات، وتخرج على يديه جمع غفير من الطلبة والشيوخ أشهرهم: محمد بن عبد الرحمن الديسي، محمد المكي بن عزوز، محمد العاصمي، أبو القاسم الحفناوي، له منظومته التي عرفت شهرة كبيرة وتعرف "الأسماوية" وعدة رسائل. عبد المنعم القاسمي الحسيني. أعلام التصوف في الجزائر . مرجع سابق. ص: 284 - 285.

² - عبد المنعم القاسمي الحسيني، الطريقة الرحمانية الأصول والآثار. مرجع سابق. ص.ص: 518-534.

³ - عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف. مرجع سابق. ص: 25.

الصوفيين، حيث انتشرت بصورة هائلة وأصبح لها نفوذًا كبيرًا، ولا يزال إلى يومنا هذا. «فَالطَّرِيقَةُ التَّيجَانِيَّةُ مَثَلًا عَرَفَتْ امْتِدَادًا جُغْرَافِيًّا شَمَلَ مَنطَقَةَ الصَّحْرَاءِ وَالسُّودَانِ الْغَرْبِيِّ وَوَادِي النَّيْلِ وَالسَّنْغَالِ وَإِفْرِيقِيَّةَ الْغَرْبِيَّةِ»¹.

وَقَدْ تَفَرَّقَتْ مِنْهَا زَوَايَا وَطُرُقٌ تَابِعَةٌ لَهَا فِي تِلْكَ الْمَنَاطِقِ الْإِفْرِيقِيَّةِ، وَامْتَدَّتْ وَتَوَسَّعَتْ، وَصَارَ مَرِيدُهَا بِأَلْفَافٍ أَبْرَزَهَا الْحَافِظِيَّةُ وَالْعَمَرِيَّةُ وَاللَّائِنِيَّةُ وَالْمَرِيدِيَّةُ وَالْجَهْوِيَّةُ².

وَلَقَدْ قَامَ مَشَايِخُ الصَّوْفِيَّةِ الْجَزَائِرِيِّينَ بِدَوْرٍ كَبِيرٍ وَحَاسِمٍ فِي تَنْشِيطِ الْحَرَكَةِ الدِّينِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالِدَّعْوِيَّةِ فِي الْعَالَمِينَ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ، بَعْدَ فِتْرَةٍ رُكُودٍ نَتِيجَةُ الصَّرَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ الَّتِي عَرَفَهَا الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ عَامَّةً، فَعَمَلُوا عَلَى تَأْسِيسِ الزَّوَايَا الْعِلْمِيَّةِ وَالْكَتَاتِيبِ الْقُرْآنِيَّةِ وَعَكَفُوا عَلَى نَشْرِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ الْفَقْهِيَّةِ وَالْمَعْرِفِيَّةِ كَمَا اسْتَمَرُّوا فِي نَشْرِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فِي أَصْقَاعِ إِفْرِيقِيَا وَامْتَدَّ ذَلِكَ إِلَى أَقْصَى بِلَادِ السُّودَانِ الْغَرْبِيِّ وَأَوَاسِطِ إِفْرِيقِيَا مَالِي، النِّيجَرِ، السَّنْغَالِ.... وَمِنْ أَهَمِّ الْمَشَايِخِ الصَّوْفِيِّينَ الْجَزَائِرِيِّينَ الَّذِينَ قَادُوا هَذِهِ الْحَرَكَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْجَدِيدَةَ وَمَثَّلُوا الْأَبُوَّةَ الْفِكْرِيَّةَ وَالْإِشْعَاعَ الثَّقَافِيَّ لِلتَّصَوُّفِ فِي إِفْرِيقِيَا، الشَّيْخُ "عَبْدُ الْكَرِيمِ الْمَغِيلِي" وَتَلْمِيزُهُ الشَّيْخُ "الْكَنْتِي"³، وَخَلِيفَتُهُ الشَّيْخُ "سَيِّدِي مُحَمَّدٌ" وَحَفِيدُهُ الشَّيْخُ "بَادِي" وَالشَّيْخُ "سَيِّدِي أَحْمَدُ الْبَكَاي" وَالشَّيْخُ "السَّنُوسِي" وَ"الْعَلُوي"... وَغَيْرُهُمْ.

يَذْهَبُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ إِلَى أَنَّ "مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْمَغِيلِي"⁴ (1504/1425) هُوَ الَّذِي أَدْخَلَ الطَّرِيقَةَ الْقَادِرِيَّةَ فِي مَنطَقَةِ حَوْضِ نَهْرِ النِّيجَرِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ وَلَاشَكَّ

¹ عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي التصوف المغربي خواص ومميزات. ج2. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب. 2001. ص: 218.

² عبد القادر محمد سيلا، المسلمون في السنغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر. ط1، 01، 1985. ص.ص: 136-139.

³ سيدي محمد الكنتي. الطرائف والتلائد. مصدر سابق. ج1. ص: 217.

⁴ المغيلي: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدُ الْمَغِيلِي التلمساني، وُلِدَ بِالْقَرْبِ مِنْ تَلْمَسَانَ، تَلَقَّى تَعْلِيمَهُ الْأَوَّلَ بِهَا، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ وَتَلَقَّى مِنْ عُلَمَائِهَا، دَرَسَ عَلَى يَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّعَالِبِيِّ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ الْوُغْلِيْمِيِّ بِبِجَايَا، وَكَتَسَبَ ثِقَافَةً دِينِيَّةً وَأَدَبِيَّةً أَهْلَتْهُ لِأَنْ يُهَدَّ مِنْ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ وَكَانَ مِنْ أَكْبَارِ عُلَمَاءِ الْقَرْنِ 15م، وَقَدْ اتَّخَذَ الْمَغِيلِي مَنطَقَةَ تَوَاتٍ وَتَمْنِطِطٍ مُسْتَقَرًّا وَمَجَالًا لِلدَّعْوَةِ وَتَجْدِيدِ رُوحِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ اتَّصَلَ بِمَكَامِ الْهَوَسَةِ الْوُثْنِيِّينَ بِالسُّودَانِ الْغَرْبِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ مُحَاورَاتٌ مَعَ الْحَاجِّ مُحَمَّدِ الْأَسْقِيَا حَاكِمِ سَنَغَايَا، كَمَا كَانَ لِلْمَغِيلِي مَوَاقِفُهُ الْجَادَّةُ مِنْ سَيِّطَرَةِ الْيَهُودِ عَلَى تِجَارَةِ السُّودَانِ الْغَرْبِيِّ وَالَّتِي سَمَّيَتْ قَضِيَّتَهَا

أن الدور الأكبر في نشر الطريقة في إفريقيا الغربية قد لعبته الزاوية الكنتية والزاويا المتفرعة عنها¹. حيث لعب هؤلاء المشايخ، من خلال إنشاء الزاويا وتكوين المريدين، دوراً كبيراً في تنشيط العلاقات الروحية والدينية، وتشكيل أنموذج متميز من التفاعل الحضاري والثقافي الإيجابي والفعال، كما ساهمت مساهمة عظيمة في نشر الدين الإسلامي والحضارة العربية والمحافظة على استمراريته ضد التيارات الأوروبية والغربية والحملات الاستعمارية والحركات التنصيرية والتبشيرية المسيحية، خاصة في المنطقة الإفريقية السوداء، وغرب إفريقيا، جامعين بين العلم والفكر والسياسة، تأليفاً وممارسةً.

واصل نشر هذه الطريقة الكنتيين، خاصة سيدي امير الشيخ الكنتي تلميذ المغيلي، وسيدي المختار الكنتي²، الذي كان له الفضل الكبير والدور الواضح في مؤسسة التصوف وإرساء قواعده وبناء صرحه وإعطائه الطابع الإفريقي، وأنشأ مدارس عديدة لنشر الإسلام والطريقة القادرية على نهر النيجر وموريتانيا، لتشمل القادرية بعدها المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى جمهورية النيجر في الشرق ومن توات في الشمال إلى ما وراء نهري السنغال والنيجر في الجنوب³.

بـ "نازلة اليهود". يُنظر: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. 1999. ص: 266.

¹ أمباكي نديم محمد سعيد، التصوف والطرق الصوفية في السنغال. معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب. 2002. ص: 37.

² المختار بن أحمد الكنتي: (1142-1226هـ / 1730-1811م): المختار بن أحمد بن أبي بكر، وهو حفيد عمر بن أحمد البكاي، ناشر الطريقة القادرية بالجنوب الجزائري، من كبار رجالات الطريقة القادرية، ومن أشهر شيوخ زاوية "كنتة" بالجنوب الجزائري، وتمتد سمعته إلى المغرب والسودان وطوارق الصحراء، زاول دراسته بـ "أزواد" - الواقعة شمال تمبكتو -، ثم أقام مدة قصيرة لدى قبيلة "السوقيين" الذين عرفوا بدراساتهم الدينية، ثم انتقل إلى "تمبكتو" حيث التقى شيوخه في الطريق الشيخ علي بن النجيب، وعنه أخذ الورد والعهد القادريين، ويعتبر مجدد الطريقة القادرية وأعاد لـ "كنتة" هيبتها الدينية، توفي بزوايته "الأنوار" بـ "توات". عبد المنعم القاسمي الحسيني. أعلام التصوف في الجزائر. مرجع سابق. ص: 388.

³ -عزيز بطران، الشيخ المختار الكنتي الكبير ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب إفريقيا، مجلة البحوث التاريخية. مركز جهاد. السنة الثالثة، العدد الثاني، 1981، ص: 318.

الأمر نفسه ينطبق على بقية الطرق الجزائرية الأخرى التي اتخذت النسق الدعوي نفسه، فتجاوزت حدودها المحلية الضيقة، لتسارع في الدعوة خارجها، ونشر الدين الإسلامي والدعوة إلى الله، خاصة التيجانية والسنوسية والعلوية.

فيظهر مثلاً أن التيجانية تفوقت على الطرق الصوفية انتشاراً وتوسعاً وتمركزاً، والتفت الكثير من الأتباع حولها، ففي موريتانيا ونيجيريا يمثلون أكثر من 60% من نسبة العدد الإجمالي للسكان، وفي السنغال يمثلون 90%، وفي النيجر ومالي بنسبة 80%، وبنسبة 70% في ساحل العاج وغينيا (كونا كري)¹.

وقد كان لهذه الطريق أعلام في كل ولاية من الولايات الإفريقية التي انتشرت بها، يحملون راية الدفاع عن طرقهم ويواصلون نشر الإسلام، فإزداد نفوذهم وتوسعهم وشمل كل المناطق تقريباً، فانتشر بذلك العلم الشرعي والإسلام والطريقة التيجانية، ولا أدل على ذلك من موقف الشيخ "آدم عبد الله الإلوري" من هذا الأمر حين قال: «لقد عرفنا الإسلام في هذه البلاد على أيدي رجال صوفيين وتعلمنا العربية والثقافة الإسلامية من مشايخ صوفيين، وترينا تربية دينية من آباء صوفيين، فلا تطيب نفساً، ولا تقر عيناً أن نكافئ حقوقهم علينا بالعقوق والعصيان»².

فقد كانت الطريقة التيجانية من أنشط الطرق وأكثرها نفوذاً وسيطرة وانتشاراً، ليعم كل البلدان الإفريقية عامة، فكانت بحق منارة في التعريف بالإسلام الحق، والدعوة إليه والصبر على ذلك، ونشر العلم والقيام بأمور المسلمين عامة، حتى قيل عنهم «إن إفريقيا كادت أن تكون مسلمة لولا قضاء فرنسا على سلطة التيجانية»³.

قام السنوسي بتأسيس أول زاوية له في تاريخ الطريقة في جبل (أبي قبيس) بمكة المكرمة سنة 1255هـ/1837م، ثم أنشأ بعدها زاوية بمنطقة الجغابيب سنة 1271هـ بليبيا⁴.

¹ عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ أحمد التيجاني وأتباعه. مرجع سابق. ص: 264.

² آدم عبد الله الإلوري، الإسلام اليوم وعدا في نيجيريا. مكتبة وهبة، القاهرة، مصر. 1985. ص: 120.

³ صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. مرجع سابق. ص: 119.

⁴ صلاح مؤيد العظم، رحلة في الصحراء الكبرى بإفريقيا. تح: صلاح الدين حسن السواري. مركز جهاد للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا. 1998. ص: 111.

كان للشيخ السنوسي ودعاة الطريقة السنوسية نشاط كبير في الوسط الصحراوي أيضاً حيث ساهم كغيره من مشايخ الطرق الجزائرية الأخرى في نشر الإسلام في إفريقيا وجنوب الصحراء، وقامت بدور هام وكبير في أسلمة القبائل الإفريقية المسيحية والوثنية، «وقد نجح السنوسيون في نشر دعوتهم في كل من وادي والباجيرمي والبوركون وتبو ونهر بينوي إلى أن بلغوا النيجر الأدنى»¹.

ساهم الشيخ "أحمد العلاوي" بنشر الطريقة الشاذلية الدرقاوية إلى بلاد الشام والأردن وسورية وفلسطين ولبنان، في بداية الثلاثينيات، حينما قام الشيخ بالحج، وزار كلاً من غزة والخليل والقدس ودمشق وبغروت قبل أن يعود إلى الجزائر، وخلال تلك الرحلة أعطى الشيخ "العلاوي" الإذن بالطريقة والتسليك للشيخ "محمد هاشم التلمساني"، ولاحقاً للشيخ "مصطفى الفيلاي"، بينما أعطى مقدّم الطريقة الدرقاوية في ليبيا الشيخ "محمد المدني"، الشيخ "علي اليشرطي"، الإذن بالطريقة الشاذلية².

وقد دأب شيوخ الطريقة على إنشاء الزوايا في مختلف المناطق، داخل الوطن وخارجه بأنفسهم أو تحت إشرافهم ومهمتها نشر تعاليم الطريقة العلوية ومبادئ الدين الإسلامي الحنيف وتجديد التربية الروحية، موزعة جغرافياً، بالإضافة إلى زوايا الوطن كآلاتي:

- المغرب الأقصى: في مناطق الريف المغربي، زوايا بتطوان طنجة.

- تونس: وفيها عدة زوايا بالساحل التونسي.

- المشرق العربي:

- بلاد الشام: وتشمل الزوايا الموجودة في كل من فلسطين (غزة وبيافا) وزوايا دمشق في سوريا.

- السعودية: زوايا موجودة بالمدينة المنورة.

¹ - الدجاني أحمد صدقي، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر. مطبعة دار الجزائر العربية. دمشق، سوريا. 1966. ص: 221.

² - محمد أبو رمان، أسرار الطريق الصوفي مجتمع التصوف والزوايا والحضرات في الأردن. عالم الفكر للطباعة، عمان، الأردن. ط1، 2020، ص: 147.

- اليمن: زاوية عدن.

- زاوية بالسودان.

- شرق إفريقيا.

- الحبشة زاوية أديس أبابا.

- زاوية صومال.

- في أوروبا: فرنسا: زاويتان بباريس ومرسيليا. هولندا: زاوية بلهاي. إنجلترا: زاوية بلندن¹.

فقد ركزت الطريقة العلاوية على تأسيس فروع غربية للزاوية الشاذلية الدرقاوية والتي أدت إلى تغيير نمط الفكر الصوفي السائد في الغرب، شأنها شأن الطريقة العلوية الدرقاوية التي كانت من أوائل الطرق الصوفية الإسلامية التي استطاعت أن تبصم بصماتها الواضحة على الساحة الفكرية والفلسفية في الغرب خاصة، مُمهدة السبيل لظهور تنظيمات وجمعيات وطرق صوفية إسلامية أخرى كالحبيبية الدرقاوية والبودشيشية القادرية، التي كان لها تأثير نوعي في الأوساط الغربية.

وقد كان من أهم نشاط حضور الفعل الصوفي في الغرب إسلام المفكر الفرنسي " René Guénon، رينيه غينون" وأخذته النسبة الشاذلية، فقد «كان إسلامه ثورة كبيرة، هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة؛ فآقتدوا به، واعتنقوا الإسلام، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصه، تعبد الله على يقين في معازل الكاثوليكية في فرنسا، وفي سويسرا، فهو العالم الفيلسوف والحكيم الصوفي "رينيه غينون" الذي يُدوي اسمه في أوروبا قاطبة وفي أمريكا»². أصبح "غينون" - عبد الواحد يحي اسمه بعد إسلامه - أحد الدعاة إلى الصوفية والمدافعين عن مبادئها، وكان سببا في انضمام العديد للطرق الصوفية، ومن أهم هذه الشخصيات الفيلسوف السويسري " Frithjof Schuon، فريجتوف شيرون" الذي أرسله "غينون"

¹ - يحي بعبطيش، دراسات في الخطاب الصوفي عند أقطاب الطريقة العلاوية. مؤسسة العالمين، القاهرة، مصر. ط 01، 2009. ص.ص: 33-34.

² - عبد الحليم محمود، قضية التصوف المنقذ من الضلال. مرجع سابق. ص: 300.

إلى "أحمد بن مصطفى العلوي" شيخ الطريقة العلوية الدرقاوية الشاذلية بمستغانم (الجزائر) وأخذ النسبة الدرقاوية الشاذلية، وأصبح يُسمّى "عيسى نور الدين أحمد"، ليصير بعد وفاة الشيخ العلوي مقدّمًا للزاوية العلوية الدرقاوية الشاذلية في الغرب من طرف شيخ الطريقة "الجديد عدّة بن تونس"، ليؤسّس "شيورن" بعد عودته إلى الغرب ثلاث زوايا في كلّ من أميين، باريس، وبازل¹.

من الأوائل الذين تصوّفوا أيضًا الرّسام السويدي "إيفيان آجيلي"، وأصبح يُسمّى بالشيخ "عبد الهادي عقيلي" وكان يُدير (مكتبة الرّوائع)، كما أسّس مع زملائه مجلةً (ثنائية اللغة) تصدر باللّغتين العربية والإيطالية تُسمّى (النّادي).

كما أصدرت الطريقة صحيفة (البلاغ الجزائري) التي كان لها قرّاء في الحجاز وفي فرنسا سنة 1961²، فالمتتبّع لنشاط هذه الطّرق الصّوفيّة الجزائريّة، يستنتج دورها الدّعويّ العام في نشر الفكر الإسلاميّ والثّقافة الإسلاميّة في كلّ أقطار العالم العربيّ والإفريقيّ وحتّى الغربيّ.

2-3/ الآداب والفنون:

يعشق الصّوفيّ الجمال، ينشأ ويتربّى على اكتشافه وتدوّقه في جمال الخالق وتجلّيات وإبداع صنعه في مخلوقاته، فيصير إنشاء الجمال وظيفة تربوية لإدراك الجمال الإلهيّ والتّوجّه من خلاله نحو المطلق، والتي تتجلّى أكثر عنه الصّوفيّة في القصائد الخالدة في (الحبّ الإلهيّ).

ف«الفنّ الصّحيح هو الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحقّ، فالجمال حقيقة هذا الكون، والحقّ ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمّة التي تلنقي عندها كلّ حقائق الوجود»³. فالصّوفيون لا يُبدعون حبًّا في الفنّ في ذاته، أو محاولةً لتقليد من سبق لإثبات الذات ومحاكاة الخيال وحبًّا في السّبق والإنتاج، بقدر ما هو شعور وجدانيّ وقصّة حقيقية لقلب امتلأ حبًّا وشوقًا، ووجب عليه أن يُخفّف عنه، ببوح بعض ما اختزن فيه «فالصّوفيون كانوا ومازالوا من

¹ - صادق سلّام، فرنسا ومسلموها قرن من السّياسة الإسلامية 1895-2005. مرجع سابق. ص.ص: 95-96.

² - Andreur Rauvlimoom : A history of westerw sufism , Discus, vol 1, N01, 1993, PP :45-83.

³ - محمّد قطب، منهج الفنّ الإسلاميّ. دار الشّروق، القاهرة، مصر. ط2، 2006. ص: 85.

رُعاة الفنون، وذلك ليس لأن هذه الرعاية هي أحد أهداف السلوك الصوفي، بل لأن سلوك الطريق الصوفي يُولد الشعور المتزايد بالجمال الإلهي الذي يتجلى في كل مكان والذي على ضوئه يصنع الصوفي أشياء ذات جمال يُوافق جمال طبيعته الخاصة، وينسجم في الوقت نفسه مع أصول الفن»¹.

وقد استلهم التراث الإنساني عامّة، خاصّة الفنون العربية والفارسية، وحتى التركية من الفنون والآداب الصوفية، وتهدّبت وترقّت عبر العصور المتوالية، على يد من كانوا على اتصال ومعرفة بالتصوّف واشتهروا بذلك لملازمتهم لاجتماعات الطريقة والصوفية «وقد شمل هذا التأثير الفني فروعاً كثيرة كالموسيقى والسّماع والأنشيد الروحية والفن المعماري والخطوط والنحت والمنمنمات والرقص الصوفي، ومن أبرزهم المستشرق "تيتوس بوركهاردت"، سالك أحد فروع القادرية، التي كانت له إسهامات غنيّة في الفن والخط والعمارة الإسلامية»². من أهمّ التأثيرات الصوفية في هذا المجال "الشعر والسّماع الصوفي"، فصيحا أو ملحونا والتي حاول أصحابها مناقشة وإثراء القضايا الفكرية الصوفية بوجه عام، في مجال الأدب والشعر، كالحبّ الإلهي، و"الحضرة" و"النور المحمدي" وقضايا أخلاقية وتربوية تسليكية من خلال النظم وقصائد التربية والتسلّيك، «والذي يعنينا من هذا كلّها، أنّ الشعر الصوفي نشأ في ظلّ "الزاوية" وبين جدران "الطرق" واستوحى نماذج من تراث السابقين عليه... وأنّ هذه الطرق احتفظت بهذا التراث الأدبي وشجّعته بحيث استمرّ حتى الوقت الحاضر»³.

فقد استعان المتصوّفة الجزائريون كباقي الصوفية الشعراء على الشعر للتعبير عن أحوالهم وأذواقهم وأحاسيسهم، باعتبار الشعر أحد الوسائل الهامة في تقبل اللغة الرمزية والإشارية وإمكانياته في تقبل الأفكار والمضامين العرفانية وتحقيق التكامل والاندماج في الزمن

¹ - سيّد حسين نصر، الصوفية بين الأمس واليوم. مرجع سابق. ص: 25.

² - عزيز الكبيطي إدريس، ظاهرة التصوف الإسلامي في الغرب الحديث. مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر.

العدد 10، 2010. ص: 111.

³ - عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث الشعر الديني الصوفي. ج 01. دار الكتاب العربي، القبة، الجزائر.

2009، ص: 245.

والتجربة الروحية «فهم بهذا أصحاب ذوق، وأهل شعر، يصعب عليهم أن يعيشوا تجاربهم الروحية دون أن يكون للشعر نصيب في إحياء قلوبهم الظامئة، ونفوسهم المتعطشة وأرواحهم التي تطرب لمعاني القصائد الرقيقة»¹.

تعدت هذه العلاقة مجرد القراءة والحفظ والاستماع، إلى الإنتاج والإبداع فبرز صوفية كثيرون اشتهروا بمؤلفات ودواوين شعرية وقصائد رائعة خلّدها التاريخ الأدبي والشعري سواء كانت منظومات تعليمية أخلاقية، قصد نشر قواعد التصوّف وإفادة المريدين والسالكين أو قصائد هامت في أغراض أخرى، أو تعبيراً ذاتياً في تجارب روحية وأحوال ربّانية كقصائد "أبي مدين الغوث" الرائعة والمشهورة والتي لا زالت تُحقّق وتُشرح حتى الآن والهمزية، والبردة للبوصيري²، والياقوتة لـ"سيدي عبد القادر بن محمّد" وقصائد "عبد الرحمان الثعالبي" وديوان الأمير عبد القادر.

2-4/ المخطوطات:

كما لا يمكننا أن نُهمل جانباً ثقافياً مهماً في هذا البعد الثقافي والفكري للطرق الصوفية الجزائرية والزوايا والمتمثّل في دورها الكبير في الحفاظ على التراث المخطوط، «كما يتجلّى الدور الثقافي الذي قامت به الزوايا والطرق الصوفية في غرب إفريقيا من خلال عدد الكتب التي حوتها بعض مكتبات هذه الزوايا، وقد قُدّر عدد كُتب مكتبة زاوية تمرغوث في سنة 1905م بما يقرب عن 10.000 كتاب ومخطوط شكّلت السند الأساسي لانتشار الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة في وقتٍ كادت فيه أن تنطفي كلّ معالم هذه الثقافة»³. خاصّة زوايا الجنوب الجزائري والتي تحتضن عدداً هاماً من هذه المخطوطات، مثل زاوية توات التي تتوفر

¹ - محمّد بن عمارة، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر. شركة النشر، الدار البيضاء، الجزائر. ط1، 2001، ص: 249.

² - البوصيري: ناظم القصيدة التي يقال لها "البردة" في مدحة من هو خير عدّة، محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله الصنهاجي البوصيري، شرف الدين، أبو عبد الله، شاعر، شعره في غاية الحسن واللّطافة، عذب الألفاظ، منسجم التركيب، أصله من قلعة "بني حماد"، في المغرب الأوسط (الجزائر)، وأظن وفاته كانت في سنة ست وتسعين أو سبع وتسعين وستمائة أو ما حولها. ابن قنفذ القسنطيني. كتاب الوفيات. مصدر سابق. ص: 335 - 336.

³ - عمّار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السّمراء. مرجع سابق. ص: 136.

على 400 مخطوط، ومكتبة علي بن عمر الطّوقي ببسكرة على 800 مخطوط، ومكتبة الهامل ببُوسعادة على 600 مخطوط، ومكتبة زاوية قصر ملوكة بأدرار على 500 مخطوط ومكتبة الزّاوية البكرية بتمنطيط على 500 مخطوط، ومكتبة الزّاوية القادرية بتمنطيط على 100 مخطوط ومكتبة الزّاوية التّيجانية بأغواط على 150 مخطوط وزاوية كرزاز ببشار على 100 مخطوط¹، فقد ساهمت ولا تزال، الطّرق الصّوفية من خلال زواياها المنتشرة في ربوع الوطن من الحفاظ على هذا التّراث الجزائريّ والإسلاميّ من الضّياع والاندثار، حيث تحوي كلّ زاوية على خزانة خاصّة لجمع هذه المخطوطات والحفاظ عليها، وتقديمها لطالبيها من الباحثين والمحقّقين للاستفادة منها، لأنّها بمثابة مصادر علمية هامّة لهم، كما أظهرت عمليات الجرد والإحصاء لتصانيف المخطوطات الجزائرية بالخزانة العامّة بالرباط إلى احتوائها على عدد كبير وبنسبة 55.13% من المخطوطات، لأصول مؤلّفات جزائرية صوفية من مختلف الفنون والعلوم أغلبها "للكنّتي"، و"الثعالبي" و"السنوسي" و"أبو مدين الغوث" و"أحمد البكاي" و"ابن زكري المناري التلمساني"².

والمحصّلة من هذا، أنّ الطّرق الصّوفية ساهمت وسمحت ببروز حركة نشيطة، ممثّلة في صناعة المخطوطات وتأسيس مدن وحواضر مُنتجة للكتاب المخطوط، إبداعًا واتّصالًا وصناعةً، فقد لعبوا في كلّ هذا دورًا بارزًا بإنشاء الحضارة العربية الإسلامية ساهم فيه علماء وشيوخ الزّوايا الجزائرية تأليفًا وحفظًا ممّا أعطى استمرارًا وحياةً لِعطاءاتهم الصّوفية، يصل ماضيهم بحاضرهم ومُستقبلهم، باعتبار المخطوطات مخزونًا فكريًا ومصدرًا أصيلًا للتّراث الحضاريّ، يعكس النّشاط الفكريّ والثّقافيّ والعلميّ وأرضية صلبة للتّأليف ومعينًا أصيلًا للثّروة المرتبطة بالأمة وهويتها ومكوّناتها.

2-5/ الملتقيات والمهرجانات الدّولية:

¹ عبيد بُوداود، دور الزّوايا في الحفاظ على التّراث المخطوط زاوية كرزاز أنموذجًا. المجلّة المغاربية للدراسات التّاريخية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، العدد الأوّل، 2009. ص ص: 37-40.

² عبد القادر بقادر، المخطوطات الجزائرية بالخزانة العامّة بالرباط. مجلة رفوف، جامعة أدرار، العدد 2، 2013، ص ص: 185-186.

ساهمت هذه الملتقيات والمهرجانات بإبراز الأبعاد الفكرية والمعرفية للتراث الصوفي الجزائري، من خلال العديد من ملتقيات محلية، وطنية ودولية تؤسس للبحث الجاد في هذه التجربة، ثقافة قيمة وآثارها الحضارية والثقافية والروحية للجزائر، لاستغلالها وتوظيفها تربوياً وتعليمياً وإبراز قيمها الإنسانية، واحترام الآخر، والتعايش معه، وحوار الحضارات والأديان، وبناء الهوية وترسيخ المرجعية الدينية ومن أهم هذه الملتقيات التي أقيمت بحضور عدد كبير من الشخصيات والباحثين والعلماء من مختلف دول العالم العربية والإسلامية ما يلي:

- المهرجان الثقافي الدولي للسمع الصوفي بسطيف بتاريخ 2014/11/04 بحضور فرق من مصر، ماليزيا، المغرب العربي، الهند، إيران، بريطانيا، دول البلقان السنغال، تركيا.

- مؤتمر دولي حول (التصوف والطرق الصوفية) بمدينة معسكر 2013/12/01 مارس 2014.

- مؤتمر دولي حول: التربية الصوفية وأثرها على السلوك السلمي. 2012. في إطار مشروع البحث PNR للأستاذ: حفيان محمد، بجامعة سعيدة.

- المؤتمر العالمي الأول في التصوف بمدينة مستغانم 2018/19/20 ماي 2016.

- المهرجان الدولي للسمع الصوفي من 27 إلى 30 جانفي 2019 بسطيف¹.

وغيرها من المؤتمرات والملتقيات المختلفة والمتنوعة، والمتعددة المواضيع الصوفية، والتي تجمع خيرة الباحثين والمشايخ، وتساهم مساهمة بارزة في إحداث حركة ثقافية واسعة وممتدة بين دول العالم.

2-6/ الاتحادات والجمعيات الصوفية:

تعمل هذه الاتحادات والجمعيات الجزائرية والعالمية على توحيد الصوفات تنظيمياً وإدارياً، والعمل على تنشيط الحياة الثقافية، داخلياً وخارجياً، وتكثيف الجهود وتوحيدها خدمة لنشر الخطاب الصوفي وتعميمه وهيكلته، والبحث في أنجع السبل لترقية هذا المنهج الروحي لبث

¹ - ياسين بودهان، تقرير الجزيرة لقناة الجزائر 2014/11/10. العدد الرابع، 10 فبراير 2019. على الموقع التالي:

الفكر الإسلامي الصحيح والتربية الروحية السليمة، ومراجعة الموروث الصوفي في كل مجالاته والعمل على تصحيح مفاهيمه وتوجيه المريدين والسالكين، ومن أهم هذه الاتحادات الفاعلة والنشطة داخلياً وخارجياً.

الاتحاد الوطني للزوايا الجزائرية، وهو تنظيم وطني جزائري يعنى بشؤون الزوايا والطرق في الجزائر، وقد نشأ هذا التنظيم في 23 مارس 1989م من أجل لم شمل صفوف الزوايا وتوحيد كلمتها ومن أجل تنظيم وتسطير الآفاق والمتابعة باهتمام حمل ونشاط هذه الزوايا والتخطيط الجماعي المهيكل لأدائها وعلاقاتها بالمحيط السياسي والاجتماعي وإعطاء الوجه الحقيقي للزوايا.

كما يسهر على إقامة المؤتمرات العالمية والدولية وطرح الانشغالات الفكرية ومناقشتها، وبعث الحركة اللازمة للتصوف.

تأسيس الاتحاد العالمي للتصوف برئاسة الجزائر:

في ختام المؤتمر العالمي الأول في التصوف، الذي أقيم بمدينة مستغانم من 18 إلى 20 ماي 2016، تم تأسيس الاتحاد العالمي للتصوف واختيرت الجزائر رئيسة له، وذلك من قبل المشاركين، وقد قام بتأسيس هذا الاتحاد العالمي ممثلو طرق الصوفية بالجزائر ومن أربعين بلداً إسلامياً إضافة إلى ممثلي الجالية الإسلامية من عشرة بلدان، الذين اتفقوا على اختيار الدكتور "عمر محمود شعلال" رئيس الاتحاد الوطني للزوايا الجزائرية رئيساً لهذا الصرح الديني العالمي¹.

ويهدف هذا الاتحاد العالمي للطرق الصوفية التركيز على بناء مرجعية موحدة، تخدم مصالح الأمة الإسلامية وتجمع كل الفرق تحت مظلة التصوف والتربية الروحية الإحسانية المعتدلة، للمحافظة على وحدتها وقوتها الروحية والاجتماعية وتجتمع تحت أمة واحدة.

¹ - الموقع التالي: www.Radio.Algerie.dz/pub

الفصل الرابع: دراسة ميدانية للأبعاد الوظيفية

1/- تحكيم الاستثمار.

2/- توزيع عينة الدراسة.

3/- تحليل ومناقشة الدراسة.

4/- الخلاصة.

تمهيد:

- حاولنا في هذا الفصل الأخير الخاص بالجانب التطبيقي المرتبط بالدراسة الميدانية الاعتماد على الأسلوب الإحصائي "SPSS"¹، لربط الجوانب النظرية بأبعاد التربية الصوفية وحققها ووظائفها في مجتمعنا الجزائري وركزنا خلالها بتحديد مجال الدراسة الجغرافي وتوزيع عينات الدراسة وجمع الاستمارات وتفريغها ومحاولة تحليل نتائجها.
- اعتمدنا في هذه الدراسة الميدانية على أداة "الاستمارة" أو "الاستبيان" وقمنا بتقسيم فقراتها إلى أربعة محاور رئيسية، محور يتعلّق بالبعد الروحي، ومحور ثانٍ يركّز على البعد الأخلاقي، أمّا المحور الثالث فقد اهتم بالبعد الحضاري والإنساني، والمحور الأخير خصصناه للبعد الفكري والثقافي، واستثنينا البعد الاجتماعي لتأصله ورسوخه في التربية الصوفية، ووظيفيته عند جميع الطرق الصوفية وشيوخها في المجتمع الجزائري.
- اعترضتنا صعوبات منهجية وموضوعية في بناء فقرات الاستمارة وتحليلها نلخصها في:
- مشكل البناء اللغوي الذي يستجيب ويتماشى مع مختلف العينات المتعددة والمتباينة المستوى والثقافة، مع ضرورة التناسق والتكامل مع المؤشرات والمعايير المحددة التي يراد تحقيقها من الاستمارة.
 - صعوبة التجاوب والتفاعل مع عينات الدراسة لاعتبارات عدّة أهمها اختلاف الفئات العمرية والمستويات العلمية والثقافية للمريدين والأتباع والمحبين للطرق الصوفية.
 - صعوبة الدراسة الإحصائية في حد ذاتها، وطرق التعامل معها ونسبية نتائجها للاعتبارات النفسية والتربوية للعينات المنتقاة.

1/- تحكيم الاستمارة:

¹ - "SPSS" هو اختصار لكلمات "Statistical package for the social sciences" ومعناها الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية، ويُعتبر البرنامج من أكثر البرامج استخدامًا لتحليل المعلومات الإحصائية في علم الاجتماع.

تمّ تحكيم الاستمارة من طرف مجموعة من الأساتذة الجامعيين ذو اختصاصات مختلفة (اللغة العربية، الفلسفة، التربية والاقتصاد)، لهم دراية بموضوع البحث والجوانب الإحصائية، وقمنا بتعديل الاستمارة وتعديلها وتوزيعها بناء على توجيهاتهم، من حيث الشكل والمضمون.

2/- توزيع عينة الدراسة:

تتوزع عينة الدراسة على عدّة زوايا وطُرق صوفية م ن م دن وولايات مختلفة من الوطن وهي:

- زاوية سيدي البودالي ولاية سعيدة
 - زاوية مولاي الطيب ولاية سعيدة
 - الزاوية العلاوية ولاية مستغانم
 - الزاوية القادرية ولاية ورقلة
 - زاوية تسابيت ولاية أدرار
 - الزاوية التيجانية عين ماضي ولاية الأغواط
- وقد تمّ اختيار 220 مريدا بطريقة عشوائية.

وقد شملت هذه الدراسة الميدانية الأبعاد والمضامين التالية:

البعد الأول: واشتمل على المضامين التالية:

- 1 . دوافع الانخراط في الطريقة وتأثيراتها .
- 2 . ممارسة شعيرة الصلاة والتغييرات الحاصلة .
- 3 . الالتزام بالأوراد والأذكار .
- 4 . نوافل العبادات .
- 5 . رؤية الشيخ في المنام .

البعد الثاني: واشتمل على العبارات التالية:

1. ترتيب الصفات من حيث الأهمية
2. المعصية والطاعة
3. أحوال النفس مع الطاعة والمعصية
4. نظرتك إلى العصاة
5. نظرة المريد إلى الكافر.

البعد الثالث: واشتمل على المحاور التالية:

1. علاقة المريد مع بقية الطرق الصوفية ومريديها.
2. مواضيع الزوايا واهتماماتها.
3. تنظيم الملتقيات والندوات الفكرية.
4. قيام الزوايا بنشر المؤلفات والمجلات.
5. علاقة المريد بالطرق والزوايا خارج الوطن.

البعد الرابع: اشتمل على العبارات التالية:

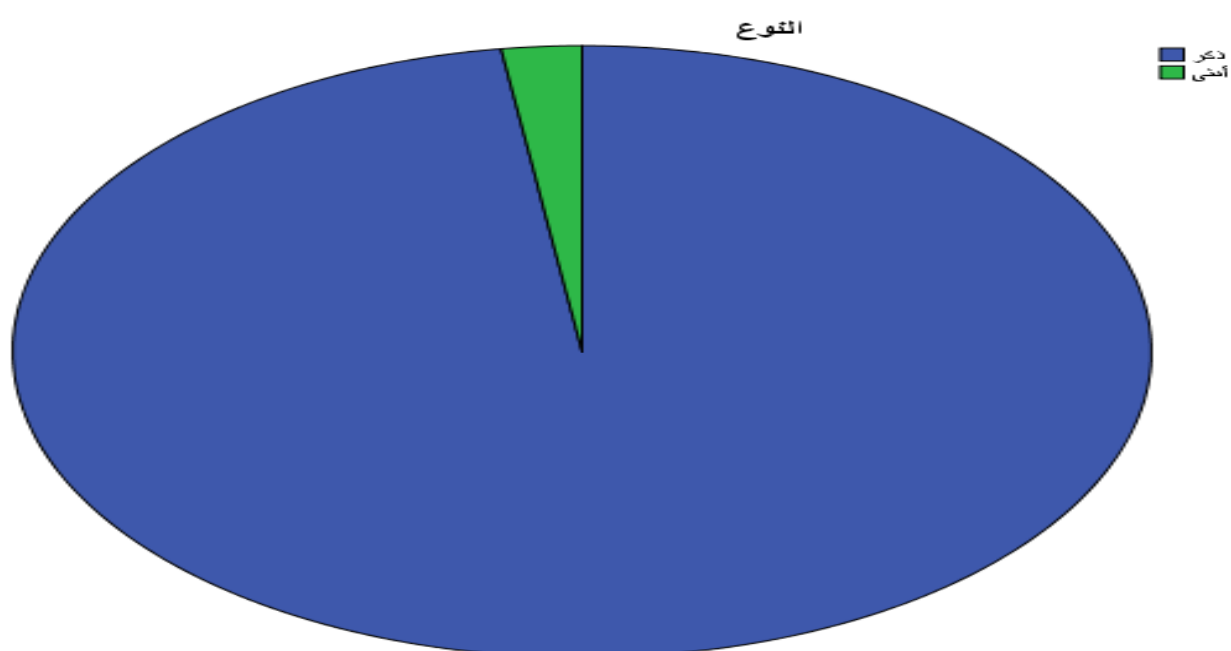
1. المواضيع المهمة في التصوف.
2. المتون والحكم الصوفية.
3. إنتاجات علماء التصوف في الجزائر.
4. مصادر التصوف.

3/- تحليل ومناقشة الدراسة:

جدول رقم (02): وصف العينة من حيث الجنس

النوع		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	ذكر	215	97,7	97,7	97,7
	أنثى	5	2,3	2,3	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

الشكل رقم (01): يُمثّل وصف العينة من حيث الجنس



تمثل فئة الإناث بمجموع 5 أفراد وبنسبة ضئيلة جدًا 2.3%، أما فئة الذكور بمجموع 215 فردا 97.7%، هذه النسبة لم تكن متوقعة، بدليل أن الدراسة الاستطلاعية لم تشمل هذه الفئة، ولم يتبن أمرها إلا أثناء التفريغ، ومن هنا رأينا استغلال هذه الفئة التي قد تقيّد في توضيح بعض الجوانب من الدراسة، كما أنها تعطي طابع الشمولية للدراسة.

وهذه النسب، على الرغم من تباينها تباينا كبيرا جدا بين الفئتين، إلا أنها تظهر أكثر منطقية لعدة عوامل اجتماعية وتربوية، وشعائرية، تركز فيها على المريدين الذكور، أما العنصر النسوي فيقتصر في ممارساته على أخذ العهد والأوراد والالتزام بها في البيت بالإضافة إلى المشاركة في المواسم والمناسبات الدينية، مع احترام الأحكام الشرعية في كل ذلك.

جدول رقم (03): وصف العينة من حيث السن

		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	من 16 إلى 25 سنة	36	15,9	15,9	15,9
	ما بين 25 إلى 35 سنة	63	28,6	28,6	44,5
	أكثر من 35 سنة	121	55,0	55,0	99,5
	Total	220	100,0	100,0	

القسم رقم 1 من مجتمع الدراسة تتراوح أعمارها ما بين 16 و 25 سنة وعددهم: 35.

القسم رقم 2 من مجتمع الدراسة تتراوح أعمارهم ما بين 25 إلى 35 وعددهم: 63.

القسم رقم 3 من مجتمع الدراسة تتجاوز أعمارهم 35 سنة وعددهم: 121.

وتقدّم هذه النسب مؤشرات إيجابية لتفاعل الزوايا والطرق الصوفية مع الفئة العمرية التي تتجاوز 35 سنة، والتي جعلها الفئة الأكثر ارتباطا واندماجا مع التربية الصوفية والممارسات الطرقية، مقارنة بالفئات العمرية الأخرى، لعدّ أسباب نفسية واجتماعية.

جدول رقم (04): وصف العينة من حيث الحالة الاجتماعية

الحالة الاجتماعية					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	أعزب	32	14,5	14,5	14,5
	متزوج	167	75,9	75,9	90,5
	حالات	21	9,5	9,5	100,0
	أخرى				
	Total	220	100,0	100,0	

على هذا المستوى نجد أنّ حظ كل مجموعة من الحالة الاجتماعية توزّعت كالآتي:

- المجموعة الأولى: تشكّلت من فئة العزّاب بنسبة 14.5% ومثّل عددهم 32 مريدا.

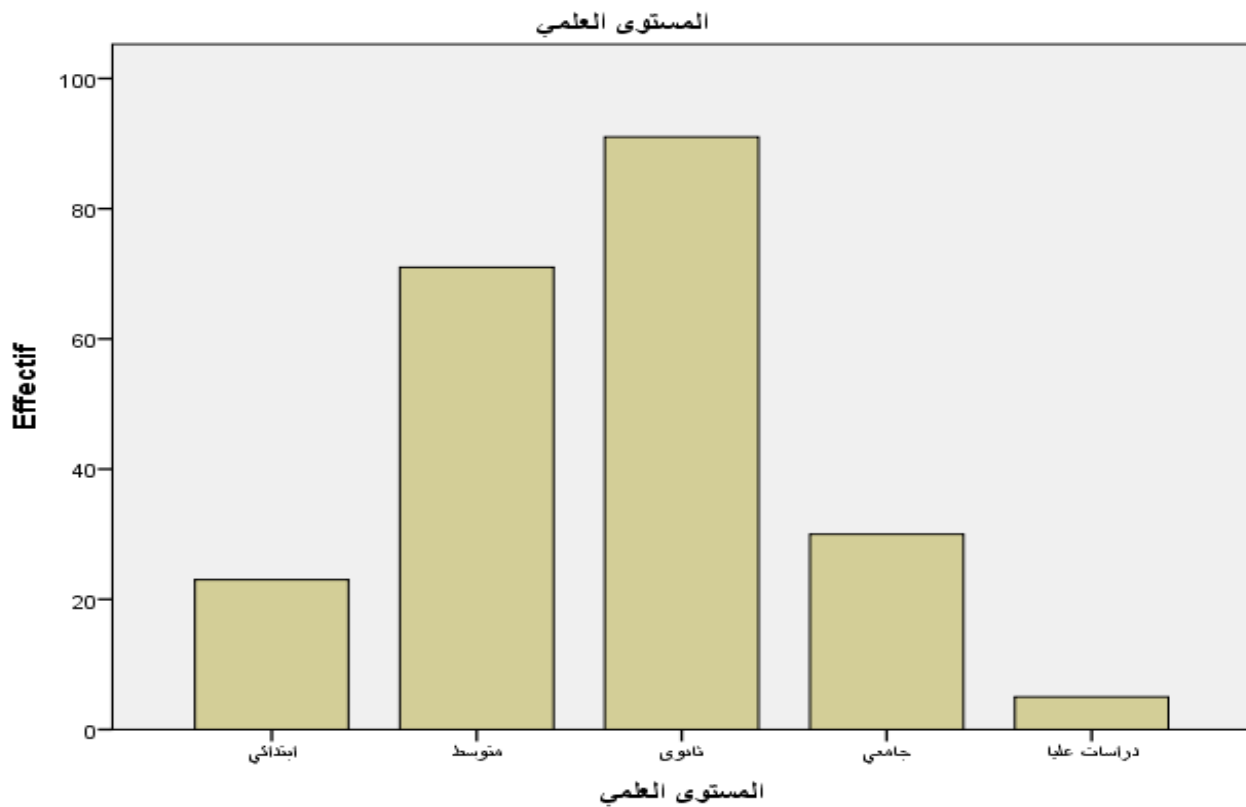
- المجموعة الثانية المتزوجون ومثّلت نسبتهم 75.9% وعددهم 167 مريدا.

- المجموعة الثالثة والمتمثلة في حالات أخرى كالمطلقين فقد مثّلت نسبة 9.5% وعددهم 21 حالة.

وهذه المعطيات والنتائج الكمية تظهر بوضوح انخراط فئة المتزوجون بكثرة في الطريق الصوفي، وربما تتداخل مع النسب السابقة المتعلقة بمتغير السن "تتجاوز 35 سنة"، فهم الفئة الأكثر ارتباطا بالطرق الصوفية، بحثا عن الاستقرار النفسي والاجتماعي، وتعلقهم بالجماعة.

جدول رقم (05) وصف العينة من حيث المستوى العلمي

المستوى العلمي					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	ابتدائي	23	10,5	10,5	10,5
	متوسط	71	32,3	32,3	42,7
	ثانوي	91	41,4	41,4	84,1
	جامعي	30	13,6	13,6	97,7
	دراسات عليا	5	2,3	2,3	100,0
	Total	220	100,0	100,0	



الشكل رقم (02) يُبين المستوى العلمي

اشتملت العينة الاستطلاعية على المستويات التالية :

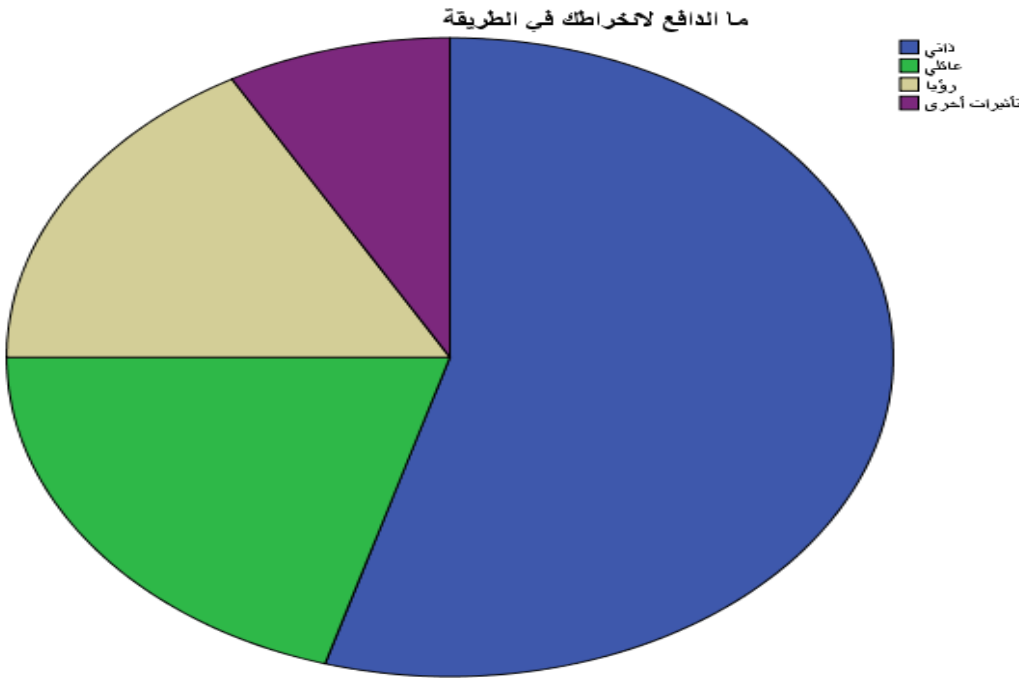
- 1 . مستوى ابتدائي وعددهم 23 فردا 10.5%.
- 2 . مستوى متوسط وعددهم 71 فردا بنسبة 32.3%.
- 3 . مستوى ثانوي وعددهم 91 فردا بنسبة 41.4%.
- 4 . مستوى جامعي وعددهم 30 فردا بنسبة 13,6%.
- 5 . مستوى دراسات عليا وعددهم 05 فردا بنسبة 2,3%.

ويظهر من خلال النتائج أنّ مستوى الدراسات العليا يمثل أقلّ نسبة من المستويات الأخرى على الرغم من أنّ نسبة المستوى العلمي عالية في المستوى الثانوي في العينة بـ 41.4% وربما

يرجع ذلك لعدم نجاح هذه الفئة بالحصول على شهادة البكالوريا ومواصلة دراستهم الجامعية، وربما للتأثير السلبي للالتحاق بالجامعة على مواصلة الانتساب للطريق الصّوفي.

جدول رقم (06): وصف العينة من حيث دوافع الانخراط في الطريقة

ما الدافع لانخراطك في الطريقة؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	ذاتي	120	54,5	54,5	54,5
	عائلي	45	20,5	20,5	75,0
	رؤيا	37	16,8	16,8	91,8
	تأثيرات أخرى	18	8,2	8,2	100,0
	Total	220	100,0	100,0	



الشكل رقم (03) يمثل الدافع للانخراط

وقد اتجهت العينة البحثية من المستجوبين إلى اختيار الدوافع الذاتية كأهم دافع للانخراط في الطرق الصوفي وقبول المنهج التربوي الصوفي، وبنسبة مئوية قدرها 54.5%، تلاها بعد ذلك الدافع العائلي كمسبب ثاني للانخراط في الطريق وبنسبة 20.5%، أما الدافع الثالث والمتمثل في الرؤيا المنامية فقد شكّلت نسبة 16.8%. ويتغلب الدافع الذاتي في هذا المؤشر لتوافر التربية الصوفية على الظروف المهيئة لـ"اللتحقّق الذاتي" للمنخرط، لما تتصف به هذه الطرق والزوايا ومشايخها وتجمعاتها من شروط وشعائر جذابة ومميّزة تأسر النفوس والعقول وتؤثّر فيها تأثيراً مباشراً، خاصّة حلقات الذكر الجماعي ودروس التوجيه والإرشاد وكذا تأطيرها بآداب معيّنة، والسمات الشخصية والعلمية للمشايخ وهيبته وحسن سيرهم واعتدال سلوكهم وكرم أخلاقهم، فهم القدوة والنموذج أخلاقياً واجتماعياً، ومثالا يُحتذى في الاستقامة، فصاروا بذلك خير ممثلين وأفضل رسل للطريق، لفظاً ولحظاً، ضف إلى ذلك الاستعداد الفطري للأشخاص وقابليتهم للعالم الروحي، وطلبهم للنجاة بالبحث عن نموذج روحي أصيل مؤثر وصادق، يلامس الروح والقلب ويوجه الإنسان إلى التعلّق الفعل ي به وقد مثلت النسبة العظمى في هذا الجانب "الدافع الذاتي" سببا في الانخراط في الطريقة الصوفية، يليه السبب العائلي بنسبة خاصّة في ظل فشل وتصدع التيارات الدعوية المعاصرة والتكتلات والتشكيلات الحزبية والسياسية والإيديولوجيا بمختلف مظهراتها في احتواء الأفراد والجماعات وتوفير الاستقرار النفسي والسلام الداخلي وإعطاء صورة إيجابية لنموذج مشع قادر على استيعابهم وإشباع فضولهم المعرفي والوجودي.

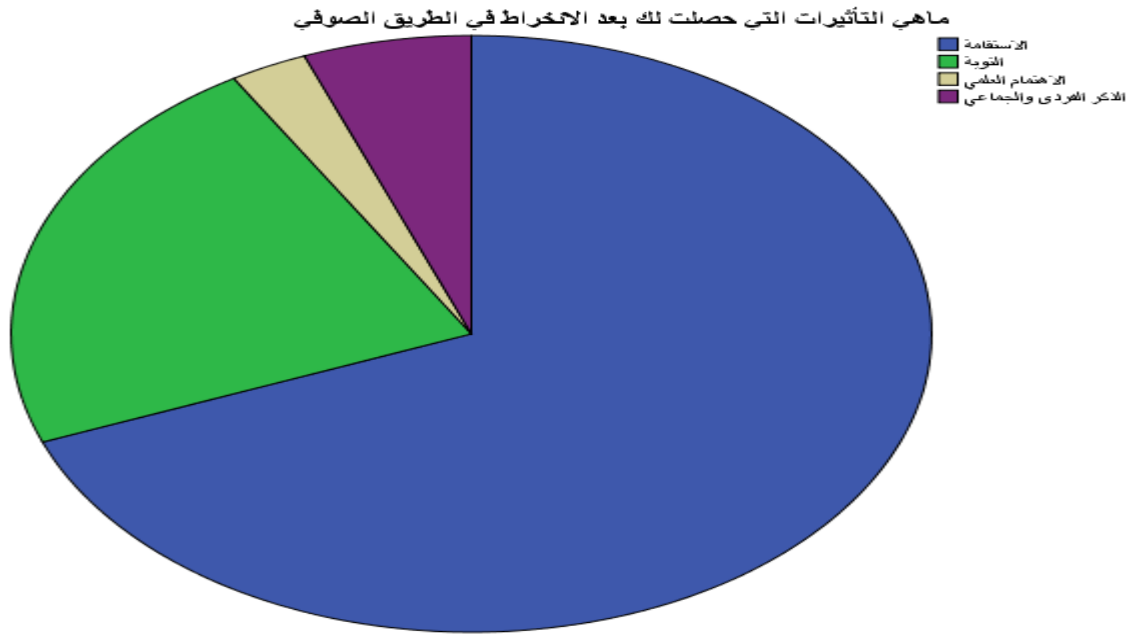
جدول رقم (07) وصف العينة من حيث التأثيرات الحاصلة بعد الانخراط في الطريقة

ما هي التأثيرات التي حصلت لك بعد الانخراط في الطريق الصوف؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	الاستقامة	152	69,1	69,1	69,1
	التوبة	49	22,3	22,3	91,4
	الاهتمام العلمي	6	2,7	2,7	94,1
	الذكر الفردي والجماعي	13	5,9	5,9	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

ركّزت العينة البحثية في التأثيرات الحاصلة بعد الانخراط في الطريق الصوفي وممارسة المنهج التربوي، على عنصر الاستقامة، ونسبة واضحة 69.1%، يليها بعد ذلك التوبة ونسبة 22.3%، لاهتمام مشايخ التربية بهذا المسلك العظيم والمهم في تأطير عملية تربية المريدين وتوجيههم وحثهم على ذلك، فالاستقامة التزام بالأوامر وتجنب وتوك للنواه ي وهي الاعتدال سلوكا وأخلاقا، والموازنة بين الإيمان والعمل، لأن المعاصي حجاب، تمنع من التدرج والوصول إلى استقامة القلب الذي لا تخطر عليه الخواطر النفسانية والشيطانية باتباع الشرع والانقياد له وتحقيق تقوى الله في السر والعلن، فالطريقة شريعة وسرها حقيقة فالكرامة الحقيقية تكمن في الاستقامة الكاملة، والإيمان والإيقان في ظل التصديق التام والاقتداء الكامل.

جدول رقم (08): وصف العينة من حيث نوعية هذا التغيير

إجابتك بنعم ما هو هذا التغيير كانت إذا					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	المحافظة عليها	127	57,7	57,7	57,7
	الخشوع فيها	64	29,1	29,1	86,8
	زيادة التنفل	29	13,2	13,2	100,0
	Total	220	100,0	100,0	



الشكل رقم (04) يوضح التأثيرات التي حصلت بعد الانخراط

ومع اتفاقهم على حدوث التغيير، إلا أنهم اختلفوا في قراءة وتحديد نوعية هذا التغيير الحاصل في هذا الركن العظيم، فاتجهت مجموعة من المبحوثين ونسبة 57.7% إلى أن هذا التغيير

تمثل في المحافظة عليها في وقتها، أما المجموعة الثانية والتي مثلت نسبة 29.1% فقد ركزت على الخشوع فيه، أما الفئة الثالثة والتي مثلت نسبة 13.2% فقد رأت أن التغيير الحاصل هو الاهتمام بالنوافل في الصلاة، والاختيارات الثلاث كلها، تحدد وبوضوح تأثر المريدين الإيجابي لفعل الصلاة والتركيز على حقيقتها محافظة وخشوعا وتنفلا ، فالمنهج التربوي الصوفي يركز كثيرا على التربية بالصلوات الخمس، ولهذا أوجبوا على مريديهم المحافظة على صلاة الجماعة وإقامتها في وقتها والتعلق بها والخشوع فيها، بل جعلت شرطا من شروط التسليك في الطريقة.

الجدول رقم (09): وصف العينة من حيث الالتزام بأوراد الطريقة في وقتها

هل تلتزم بأوراد الطريقة في الوقت؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	نعم	194	88,2	88,2	88,2
	لا	26	11,8	11,8	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

من خلال البيانات المقدّمة في الجدول، يظهر جليا التزام أفراد العينة المبحوثة بأوراد الطريقة بنسبة 88.2%، بينما لا تمثل نسبة عدم الالتزام بها إلا 11.8%، فالأوراد المرتبطة بأيّ طريق صوفي هي من أسس التربية الصّوفية، خاصّة المبتدئين منهم، يسمح بالتوجيه التربوي للمريد والتأكد من مدى أهليته للاستمرار في سبيل الطّريق، فالورد أو الذكر الفردي عهد معنوي يربط المريد السالك لطريق التربية بشيخه، وهي تمثل نوعا من أنواع التربية بـ"الأوراد والأذكار" ويركّز الشيخ على إعطائها لمريد ليداوم عليها ويفتح بها صفحة وحياة جديدة مبتدأها ومنتهاها بداية ميلاد معنوي جديد يرتكز أساسا على إعادة الروابط بالعالم الإلهي النوراني من خلال مفاتيح الذكر والأوراد، وطرد الغفلة من قلب المريد، ويكون الشيخ هو السبيل إلى هذه التزكية الجديدة،

بنقل هذا الشعار تواترا شيخا عن شيخ، من خلال تمكين مريديه الصادقين من استغراق أوقاتهم في العبادة وقطع العلائق والعوائق التي قد تحيد بهم عن الثبات على الطريق ومواصلة السير فيه، والابتعاد تدريجيا عن الشواغل والشواغب فيندرج في عملية التخلية والتحلية، فالمحافظة على هذه الأوراد محافظة على هذا العهد باعتباره جزءا رئيسا من الذكر المضبوط بصيغ وعدد معين، ويمارسه يوميا وفي أوقات محدّدة، يتعاهده بالرعاية والتثبیت، فهو يمتاز بالديمومة والاستمرارية والمواظبة، وهذه الأوراد كلّها موروثه من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

الجدول رقم (10): وصف العينة من حيث طريقة القيام بالورد

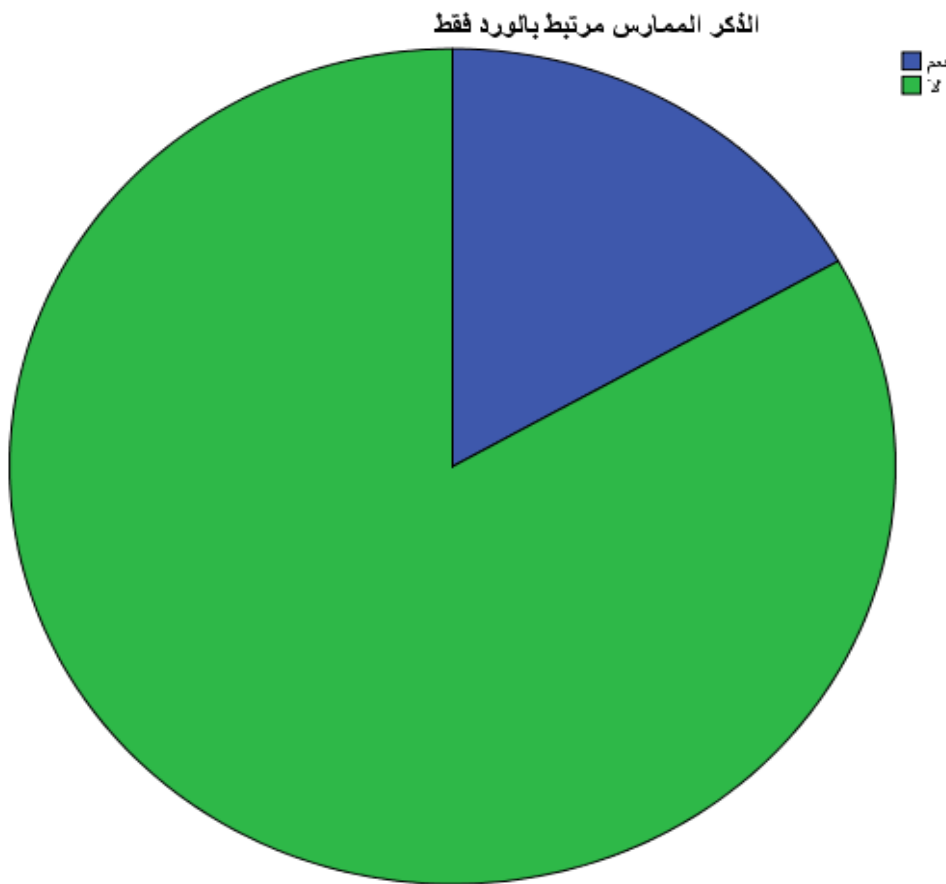
كيف تقوم بوردك؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	صباحا	23	10,5	10,5	10,5
	مساء	56	25,5	25,5	35,9
	صباحا	138	62,7	62,7	98,6
	مساء				
	محتوى الذكر	3	1,4	1,4	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

على الرغم من شبه الاتفاق الكلي للمستجوبين على الالتزام بأوراد الطريقة، إلا أنهم اختلفوا نوعا ما في طريقة الأداء، لاختلاف كل طريقة وشيخ في تحديد أوقات أدائها، ولخصوصية شيخ التربية في تربية مريديه في ذلك، ف عند إجابة أفراد العينة المبحوثة عن كيفية أداء الأوراد،

توزعت الإجابات وركزت على الفترات الزمنية المعنية بالقيام به، وكانت النسبة الأكبر مرتبطة بالفترتين الزمنيّتين "صباحا ومساء"، بنسبة 62.7%، تليها الفترة الصباحية بنسبة 25.5%، أما محتوى الذكر فعلى الرغم من أهميته لم تركز عليه الفئات المستجوبة بما مثل نسبة ضئيلة جدا قدرت بـ 1.4% فقط من الفئة الكلية، ربما لاحتياج ذكر المحتوى تفصيلات أكبر وتقريعات أطول.

الجدول رقم (11): وصف العينة من حيث وصف العينة من حيث ارتباط الذكر الممارس بالورد فقط

الذكر الممارس مرتبط بالورد فقط					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	نعم	37	16,8	16,8	16,8
	لا	183	83,2	83,2	100,0
	Total	220	100,0	100,0	



الشكل رقم (05): يمثل الذكر الممارس الذي ارتبط بالورد فقط

لقد ذهبت نسبة كثيرة من المبحوثين إلى الاتجاه السلبي في تحديد موقفهم بعدم ارتباطهم ذكرًا فقط بالأوراد المعهودة والملقنة من الشيخ ونسبة 83.2% فزيادة على التزامهم بهذه الأوراد في وقتها، تجاوزوها لممارسة الذكر عموماً، باعتباره الاسم والفعل الجامع لسائر الأعمال والعبادات الظاهرة والباطنة، بل هو أساس ولب الطريق، فهو منشور الولاية، فدخل الحضرّة الإلهية يكون بدخول الحضرّة النبوية، ولا يتم دخول هذه الحضرّة إلا بدخول حضرّة الشيخ، وحضرّة الشيخ مفتاحها تلقين الذكر، باعتباره انتماء للسلسلة الروحية والسند النبوي وتلقي النور المتوارث من هذه الحضرّة، ولهذا يركز مريدو الطريقة على الذكر وممارسته باللسان والجوارح والقلب في كل أحوالهم وأوقاتهم، حتى يصير حالة دائمة مستقرة، فيأمنون بالله ولا يستوحشون أبداً.

الجدول رقم (12): وصف العينة من حيث أداء بعض النوافل

هل تؤدي بعض نوافل العبادة؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	صيام	9	4,1	4,1	4,1
	صلاة	37	16,8	16,8	20,9
	نوافل أخرى	22	10,0	10,0	30,9
	صيام وصلاة	36	16,4	16,4	47,3
	صيام وصلاة ونوافل أخرى	116	52,7	52,7	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

أجمعت العينة البحثية على قيامها بممارسة و أداء نوافل العبادات المختلفة، واخ تارت أكثر من نصف العينة (52.7%) أداء نوافل متعددة من صيام وصلاة ونوافل أخرى، ولم تقتصر فيها على الصلاة والصيام فقط، وهذا يدل دلالة واضحة على إدراكهم التام لشأن النوافل التعبدية في السير إلى الله وبلوغ منازل الصالحين والمقربين، فالنافلة باب مهم من أبواب تهذيب النفس وشغلها دائما بالله، كما أنها سبيل لنيل محبة الله والقرب منه، لمن ذاق حلاوتها وعرف قدرها وانغمس في أسرارها، فالنافلة كلها زيادة وبركة، كما أنها دليل واضح على محبة الرسول عليه الصلاة والسلام "الرحمة المهداة"، وأعمدة الطريق التربوي الصوفي مبني على نوافل العبادات، من سهر وجوع وصمت...، خاصة في بداية طريق التهذيب للمريد.

الجدول (13): رقم وصف العينة من حيث رؤية الشيخ في المنام

هل رأيت شيخك في المنام؟

		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	نعم	216	98,2	98,2	98,2
	لا	4	1,8	1,8	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

وقد بينت الدراسة وجود مستوى عال -إن لم نقل كلي- للارتباط الروحي بين المريد وشيخه، فقد صرحت العينة البحثية بنسبة كبيرة جدا 98.2% برؤية مشايخهم في رؤياهم المنامية، على اختلاف حالات الرؤيا وعددها، وهذا دليل قاطع على أنّ رؤيا الشيخ في المنام يعتبر ممارسة للفعل التربوي من خلال عالم الخيال، لأنّ المشايخ يتواصلون مع مريديهم عبر هذا العالم لأنّه مطلق وهذا دليل على أنّ الفعل التربوي لا يقتصر على الكلام والمباشرة وهذا من علوم النبوة، لأنّ الرؤيا المنامية لها تأثير على نفسية المريد كما أنّها تمنحه النشاط وتشجعه على السير والثبات على الطريق فهي نوع من المبشرات أو المنذرات التي يتلقاها المريد من الشيخ على حسب سيره ومستواه الروحي، فهي تتجاوز مؤشرات الارتباط الروحي، لتشكل جزءا مهما من التربية والفعل التربوي الممارس على المريد عبر هذا العالم.

الجدول رقم (14): وصف العينة من حيث عدد المرات التي تمّ فيها رؤية الشيخ في المنام

إذا كان نعم فما عدد المرات التي تراه فيها؟				
	Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé

Valide	أسبوعيا	6	2,7	2,7	2,7
	شهريا	26	11,8	11,8	14,5
	سنويا	38	17,3	17,3	31,8
	حالات أخرى	501	67,7	67,7	99,5
	Total	220	100,0	100,0	

أقرّ كلّ أفراد العيّنة المبحوثة من مريدي الطّرق والزوايا الصوفيّة تعلّقهم بالشيخ من خلال الرؤيا المنامية، وبنسبة كاملة 100%. لكنّهم اختلفوا في حالات عدد مرّات الرؤيا، فتمثّلت نسبة الرؤيا الأسبوعية أقلّ نسبة بـ 2.7%، وشهريا نسبة 11.8%، أمّا سنويا فتمثّلت ما نسبته 17.3%، وقدّرت اعلي نسبة بـ 67.7%، والتي تمثّلت في "حالات أخرى" غير هذه الحالات المذكورة، والتي قد تفسّر بالرؤيا اليومية الدائمة والمستمرّة، وقد تكون تمثّل أكثر من سنة، وعلى الرغم من اختلاف هذه الحالات، إلّا أنّنا نستشف مدى تأثير شيخ التربية في مريديه وتعلّقهم به، وارتباطهم به روحيا وسلوكيا.

الجدول رقم (15): وصف العينة من حيث ترتيب الصفات

رتب الصفات التالية حسب الأهمية في رأيك				
	Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé

Valide	الكرم	3	1,4	1,4	1,4
	الصدق	197	89,5	89,5	90,9
	الإيثار	20	9,1	9,1	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

فيما يخص ترتيب الصفات المبيّنة في الجدول عند المستجوبين، نجد اختيارهم جليا لصفة الصدق عن بقية الصفات المذكورة ونسب 89.5% لإدراكهم التام لدورها في طريق التربية والسلوك ولتركيز مشايخ التربية عليها على الدوام، فالصدق هو عنوان الطريق، وسيف الله في الأرض، فما من مقام إلّا ويدخله الصدق، فأول مقام التوبة، ولا توبة إلّا بصدق، كما أنّ الصدق يثمر معية الله للمريد، لأنّ الادّعاء من مفسدات السير إلى الله، وهو الفاصل بين أشباه المريدين وأشباه المتمشّخين، وهو المميّز بين المريدين الذين دخلوا الطريق للوصول إلى الحضرة الإلهية والمريد الذي دخل الطريق لمصلحة أو فضول، كما أنّ الصدق هو السبيل لمقام الصديقية، فالصديق مبالغة في الصدق لا يجاوزه إلّا مقام النبوة، صدق مع نفسه ومع الله، في السرّ والعلن، قولاً وفعلاً وحالاً، فهو كمال الإخلاص لله وحده.

الجدول رقم (16): وصف العينة من حيث حالة المريد بين الطاعة والمعصية

أيهما أفضل؟ المعصية المقرونة بالندم أم الطاعة مع الرضا بالنفس				
	Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé

Valide	المعصية المقرونة بالندم	180	81,8	81,8	81,8
	الطاعة مع الرضا عن النفس	40	18,2	18,2	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

ولقد فاضلت الفئة المستجوبة المعصية المقرونة بالندم على الطاعة مع الرضا عن النفس بنسبة 81.8% ويعدد 180 فردا، متمثلين في ذلك الحكمة العطائية رقم ستين التي يقول فيها "ابن عطاء الله السكندري" معصية أورثت ذلا وافتقارا خيرا من طاعة أورثت عزا واستكبارا فلا رجاء ينفع مع طاعات يصاحبها الاستكبار، فالطائع المتكبر بعمله الناظر لفعله بنظرة الرضا عنها، في محل المتأله المسيء الأدب مع خالقه، كبرا وعجبا واغترارا، ف لا خير في طاعة لا تثمر خوفا وخشوعا وانقيادا وتذلا، فإن فقدت هذه الصفات الملازمة للطاعة فقدت معها الأسرار والمعاني الحقيقية الملازمة لها، وانعكست م آلاتها على النفس سلبا و أورثت معصية تفوق الطاعات المقامة.

الجدول رقم (17): وصف العينة من حيث الإحساس عند القيام بالطاعة

إحساسك عند قيامك بطاعة معينة				
	Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé

Valide	فرح	60	27,3	27,3	27,3
	عادي	28	12,7	12,7	40,0
	عدم رضا	132	60,0	60,0	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

وهذا مُتَمِّم للحالة التي قبلها، وهنا تبرز إجابات العينات المختارة بنسبة 60% عدم رضاهم عن طاعاتهم القولية والفعلية التي يقومون بها، لأنّ من لوازم التّربية الصوفية و من ثمراتها وقيمها المتمثلة عند مرديها ألاّ يفرح بطاعاته مهما تعاظمت في عينه، ومهما كثرت وتنوعت، لاعتبارات عديدة، أهمها أنّ طاعاته كلها مصدرها الأوّل هو توفيق الله له لأدائها ولولاه ما قام بها ولا انقاد لها، كما أنّ هذه الطّاعات مهما تعاظمت تظل قاصرة لا تفي الله حق نعمه وآلائه للعبد، ولا كمال فيها ولا يستيقن قُبولها من رفضها، ولا يأمن مكر الله عليه ما دام حيّاً، ولهذا يظلّ إحساسه عند قيامه بهذه الواجبات والطاعات يتقلب بين الخوف والرجاء وعدم الرضا.

الجدول رقم (18): وصف العينة من حيث كره العاصي

هل تكره العاصي؟				
	Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé

Valide	نعم	52	23,6	23,6	23,6
	لا	168	76,4	76,4	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

وتظهر تجليات التربية الصوفية باعتقادهم بنسبة تتجاوز 76% على عدم كُره العاصي لأنّ الصّوفي الحقيقي مُحترقٌ لنفسه ولأعماله مهما بانّت وكثرت، فكلما ازداد تربية وتهذيباً وتخلّقاً وتصوّفاً، ازداد إنكاراً لذاته وتبحّر في معرفة حقيقة نفسه وحقيقة الإنسان عموماً، بل وقد قرنت الطّرق الصوفية منهجها التربوي ودخول الطريق والمداومة عليه بالذلة والانكسار والافتقار، فلا تراه يتعزّز على الآخرين ولا يترفع عليهم، فالخلق عندهم كلهم عيال الله، ولا مزية لأحد على آخر، ولا يكون في قلبك بُغضٌ لهم ولا احتقارٌ، ولا تدري المقبول الواصل عنده سبحانه وتعالى، ولهذا كانت من ثمرات التربية الصوفية الظاهرة والباطنة إحسان الظن بالناس ووجوبها على كل مريدٍ، وضرورة التماس المعاذير لهم على كثرة أخطائهم ومعاصيهم، وترك الاعتراض عليها، ومُحاولة الابتعاد عن تصنيفهم وتبديعهم وتفسيقهم والإغلاظ لهم قولاً وفِعلاً، لأنّ الصوفي الحقيقي لا يُؤمن مكر الله ولا يدري بما يختتم له وما ثمّ إلّا البدايات أمّا النّهائيات فغير معقولة ولا مضمونة.

الجدول رقم (19): وصف العينة من حيث رؤية المريد للكافر

هل ترى نفسك أفضل من الكافر؟

		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	نعم	127	57,7	57,7	57,7
	لا	93	42,3	42,3	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

وهنا تقاربت نسب أجوبة العينة، حيث مثّلت نسبة الذين رأوا بأنهم أفضل من الكافر 57.7% وهذا ليس لاعتبارات أخروية، بل باعتبار حالتهم الآن واجتباؤهم كمسلمين مسلمين موحدين دون النظر إلى المآلات التي قد تحدث مستقبلا، من إمكانية اعتناقهم للإسلام أو توبتهم وأوبتهم قبل وفاتهم، وأمّا الذين رأوا أنّهم ليسوا بأفضل من الكفار لإيمانهم المطلق بقدره الله على تغيير الأحوال ما داموا أحياء فله الأمر من قبل ومن بعد، ولا يجب أن يأمن المريد مكر الله به، وعليه أن يدعو الله بتثبيته على دينه وموته عليه.

الجدول رقم (20): وصف العينة من حيث تواصل المريدين مع مريدي طرق أخرى داخل الوطن)

هل أنت على تواصل مع مريدين آخرين من طرق صوفية أخرى؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	نعم	201	91,4	91,4	91,4
	لا	19	8,6	8,6	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

الانتماء إلى الطريق الصوفي ليس انتماء إيديولوجيا يستدعي بغض أو كره من لا ينتمى إلى طريقة معينة، بل كل الطرق تبجل بعضها البعض وكلها من نور رسول الله عليه الصلاة والسلام ملتصقة ولهذا أجمعت أقوالهم وأفعالهم على الانفتاح على الطرق الأخرى ومشايخها

وحبهم ونبذ كل اعتبارات جغرافية أو سياسية أو عرقية، مستشعرين في ذلك أحب الكل واتبع واحداً، وقد عبّرت ما نسبته 91.4% على وجود علاقاتٍ وتواصلٍ مع مريدين آخرين من طُرُقٍ صُوفيّةٍ أخرى، وهذا لا ينافي المنهج التربوي الصوفي وتعليمات الطرق الصوفية لأنّ منبع هذه الطرق جميعها مهما اختلفت من مشكاة واحدة، رغم اختلاف المشايخ والمناهج والسبل المؤدية للحقيقة.

الجدول رقم (21): وصف العينة من حيث طابع المواضيع التي تهتم بها الطريقة الصوفية

المواضيع التي تهتم بها الطريقة الصوفية أو الزاوية هي ذات طابع					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	خاص	30	13,6	13,6	13,6
	وطني	82	37,3	37,3	50,9
	عالمي	108	49,1	49,1	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

وقد مثّلت نسبة 49.1% من العيّنة باهتمام الطريقة والزاوية بالمواضيع العالمية، تلتها بعد ذلك المواضيع الوطنية بنسبة 37.3%، وجاءت أخيراً المواضيع الخاصة بنسبة 13.6% وهذا يدلّ على الرؤية المتفتحة لهذه الطرق على القضايا المختلفة عالمياً، وعدم انحصارها وجمودها وانغلاقها، فالتربية الصوفية تهتم عموماً بالنفس الإنسانية، من حيث أنّها نفس بشرية، ومعرفة عللها ومحاولة تهذيبها والتماس الفضائل الخلقية، من خلال الترقّي المقامي والتطهير المستمر.

الجدول رقم (22): وصف العينة من حيث تنظيم الزوايا للملتقيات والندوات

هل تقوم الزاوية بتنظيم ملتقيات وندوات فكرية؟

		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	نعم	65	29,5	29,5	29,5
	لا	155	70,5	70,5	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

عبرت نسبة 70.5% عن عدم قيام زواياها وطرقها بتنظيم ملتقيات وندوات فكرية، وذلك لابتعادها عن الرّسميات والتّكليفات، واحتياج تنظيم هذه الملتقيات آليات تنظيمية إدارية ووسائل مادية وهيكلية في ضبطها وتنظيمها وتسييرها، ولابتعادها عن أولويات الطرق الصوفية التي تركز على التربية والتعليم والتسلّيك والتنشئة وتحفيظ القرآن وتدرّس العلوم الشرعية، بالإضافة إلى اعتماد الزوايا والطرق الصوفية على اجتماعاتها اليومية والأسبوعية وفي المناسبات ودونها إلى تفعيل مبدأ الاستمرارية والديمومة، من خلال الدروس والتوجيه والإرشاد والذكر.

الجدول رقم (23) وصف العينة من حيث مرجعية التصوف خاصّة أم عامّة

التصوف مرجعية أخلاقية				
	Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé

Valide	للمريد فقط	32	14,5	14,5	14,5
	للمجتمع	84	38,2	38,2	52,7
	للإنسان	104	47,3	47,3	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

وقد اعتبرت النسبة الكبيرة من العينة التصوّف كمرجعية أخلاقية للإنسان عامّة 47.3%، بينما اختارت نسبة 38.2% التصوّف كمرجعية أخلاقية خاصّة بالمجتمع، ورأت ما نسبته 14.5% أنّ التصوّف مرتبط بالمريد السالك، وعلى الرّغم من الاختلافات في النسب وتفاوتها، إلّا أنّ السبب راجع في الأصل لفهم التجليات الحقيقية للتربية الصوفية وتمثّلها وتجسيدها، بداية ونهاية، فبداياتها الأخلاقية نفسية وشخصية، تلحق المريد، لتنصبغ بعد ذلك في مجتمعه، وتتطوّر لتشمل رؤية أعمّ وأشمل فتثمر أخلاقاً إنسانية سامية، انطلاقاً من إخوانه ومريدي الطريق، وتتسع لتشمل مجتمعه وأمتّه، لتنتهي وتبلغ ذروتها بالتخلّق الإنساني المعبر عنه بالمحبّة والتسامح والتعامل الإيجابي مع كلّ النّاس.

الجدول رقم (24): وصف العينة من حيث نشر الزوايا للمؤلفات والمجلات

هل تقوم الزاوية بنشر مجلات ومؤلفات؟				
	Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé

Valide	نعم	34	15,5	15,5	15,5
	لا	185	84,1	84,1	99,5
	Total	220	100,0	100,0	

وانحصر هذا التأليف تقريبا فقط على الطريقة العلوية، التي تتوفر على مطبعة خاصة، ولما تمتلكه من مؤهلات تنظيمية وتوجهات حديثة وعصرية، وفق منظور مشايخها الذين تداولوا على ترسيخ مبادئها وطريقة انفتاحهم على العالمين الداخلي والخارجي، وكثرة تأليفهم ومنشوراتهم ومجلاتهم، بينما لا نرى تقريبا لباقي الطرق نشاطا حثيثا في هذا المجال، الذي حاولوا تفعيله بطرق أخرى، من خلال إنشاء مواقع إلكترونية، مُهتمة بنشر دروس المشايخ وبث نشاطاتهم المتنوعة ونشر مؤلفات مشايخهم والمؤلفات التي كتبت حول الطريقة والمشايخ التابعين لها.

الجدول رقم (25): وصف العينة من حيث اتصال مع مريدين وزوايا أخرى خارج الوطن

هل عندك أصدقاء من طرق وزوايا أخرى خارج الوطن؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	نعم	37	16,8	16,8	16,8
	لا	183	83,2	83,2	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

أشارت إجابات الفئات المستجوبة إلى عدم وجود أصدقاء من طرق وزوايا أخرى خارج الوطن، ونسبة 83.2%، بينما أوضحت ما نسبته 16.8% بوجود أصدقاء لهم خارج الوطن، وهذا يُبرز اهتمامهم بالتربية والتسلي ك داخل زواياهم وارتباطهم بمشايخهم على المستوى الوطني الداخلي وعدم التركيز على اتخاذ أصدقاء لهم، خاصة خارج الوطن وباعتبار أغلبية العينة من

الذين فاقت أعمارهم 35 سنة، ومتزوجون مما يعني تزايد انشغالاتهم العائلية والاجتماعية وغيرها من مشاغل الحياة والعمل وتربية الأولاد، بالإضافة لارتباطاتهم مع مشايخهم وطرقهم وزواياهم التي ينتمون إليها ، وعدم تجاوبهم مع تكنولوجيا الإعلام وقلة تحكمهم في تقنيات التواصل الحديثة وولوج عالم الإنترنت.

الجدول رقم (26): وصف العينة من حيث طبيعة المواضيع التي تُوليها أهمية كبيرة في التصوف

ما هي المواضيع التي توليها أهمية كبيرة في التصوف؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	سير المشايخ	115	52,3	52,3	52,3
	الكرامات	17	7,7	7,7	60,0
	المتون	63	28,6	28,6	88,6
	الحكم	25	11,4	11,4	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

وقد اختارت العينة المستجوبة بما نسبته 52.3% سير المشايخ وبمجموع 115 فوداً من مجموع العينة الكلية، وهذا يفسر دور المشايخ وسيرهم أحياءً وأمواتاً في النهج التربوي لمريديهم، وحبهم لهم وتمثلهم لطريقتهم، من خلال الدور الكبير الذي تلعبه هذه السير في التربية بمطالعة كتبهم وسيرهم وقصصهم وأخذ القيم والحكم منها، فقد أخذت من هذه السير نماذج تربوية وأشكالا مهمة في تمثل مواقفها وخبراتها الحياتية والسلوكية والأخلاقية في محاكاتها والاستفادة منها، في طلب العلم والصبر على الطريق والمجاهدات والتأدب فيستشعر بذلك تجلياتها

الروحية ويتمعن فيها، فحياتهم كلها علم وتربية وآداب، من الشيخ عبد القادر الجيلاني، إلى الشيخ الشاذلي وأبي مدين شعيب، وصولا إلى التيجاني والعلّوي والأمير عبد القادر...، فسيرهم أحسن السير وسلوكهم أفضل سلوك.

الجدول رقم (27): وصف العينة من حيث معرفة بعض المتون والحكم

ما هي أسماء بعض المتون التي تحفظها متن؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	متن ابن عاشر	147	66,8	66,8	66,8
	الحكم العطائية	56	25,5	25,5	92,3
	جوهرة التوحيد	8	3,6	3,6	95,9
	متون أخرى	9	4,1	4,1	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

قد أبانت العينة ارتباطها بنسبة كبيرة بمتن ابن عاشر ونسبة 80% على الرغم من أنه ليس متنا متفردا ومتخصصا فقط في علوم التربية والتسليك والحقائق، بقدر اهتمامه بالجوانب الفقهية والأحكام الشرعية، وما فقه الباطن فيه إلا جزءا يسيرا من عدد الأبليات الكلية ويظهر اهتمام مشايخ التصوف به وتحفيظه وتعليمه وشرحه للمريدين لأسباب عديدة، أهمها أن جل الطرق الصوفية متمذهبة بالمذهب المالكي، ولبساطة هذا المتن وسهولة حفظه وتطبيقه للعوام وعند

المريدين، ولجمع الطريق الصوفي التربوي بين الظاهر والباطن وبين الشريعة والحقيقة، فكان لزاما على المريدين معرفة دينهم وأهم أحكامه الشرعية للسير في الطريق، فلا حقيقة دون شريعة، دون محاولة التعمق والتخصص فيها، بل أهم الأحكام التي تمنح المريد حصانة شرعية وتسمح له بالتعبد بطريقة صحيحة، وهذا ما يتوافر عليه هذا المتن الفريد، بالإضافة إلى تركيزه على أهم أحكام التصوف وأصول المنهج التربوي عندهم وتحديد مقامات التربية وشروطها.

ويُلي اهتمامهم بعد متن ابن عاشر "الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري" والذي شكّل نسبة 55% من مجمل اختيارات المستجوبين، ولا غرابة في ذلك لمن تدبّر هذه الحكم وعرف معانيها وأسرارها، فالحكم العطائية لبُّ السلوك في طريق التربية الروحية وتوجه المريد إلى كفايات السلوك، ويحرص كلّ الشيوخ على الاعتراف من منهلها، لتكون سندا معرفيا وتربويا للمريد على مواصلة التسليك وبلوغ الغايات، لما تتضمنه من معاني ربانية وأبعاد عرفانية وتربوية عظيمة، وقد أبانت هذه الحكم فعاليتها وعمقها الدلالي الإحساني واكتست عند كلّ الطرق باختلاف مشاربها قيمة رسالية خالدة، وأضحت فعليا دستورا ومعينا لتربية النفس وتركيتها، فلا يخلو عصر من العصور من حفاظ وقراء وشرّاح لها.

الجدول رقم (28): وصف العيّنة من حيث الطّريقة المنتمى إليها

ما طريقة الزاوية التي تنتمي إليها؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	الشاذلية	92	41,8	41,8	41,8
	تيجانية	46	20,9	20,9	62,7

	علاوية	43	19,5	19,5	82,3
	قادرية	39	17,7	17,7	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

وهذا يتناسب فقط مع الزوايا والطرق التي تم انتقاؤها للتعامل مع الدراسة الميدانية ولا ارتباطات دلالية أخرى من حيث الكثرة أو القلة، لأننا لم نقم هنا بدراسة إحصائية لجميع الطرق، بل تم اختيار بعض الطرق والزوايا ومحاولة تنويعها لإثبات العلاقة القائم ة سلبا أو إيجابا بين الجوانب التنظيرية للتربية الصوفية ومنهجها، وانسجامها وتمثلها واقعا وتطبيقيا وممارستها، من خلال الأبعاد الرئيسة التي اعتمدناها في ذلك.

الجدول رقم (29): وصف العينة من حيث أهم إنتاجات علماء الصوفية

ماهي أهم إنتاجات العلماء الصوفية؟					
		Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé
Valide	تصوف	77	35,0	35,0	35,0
	فقه	64	29,1	29,1	64,1
	تفسير	20	9,1	9,1	73,2
	حديث	15	6,8	6,8	80,0
	اللغة العربية	44	20,0	20,0	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

لا يمكننا من خلال تحديد جزئية في محور كامل للبعد الثقافي والفكري، من قياس إنتاجات وتراث علماء التصوف في بلادنا، لاعتبارات عديدة أهمها كثرة التأليف وتنوعها، وارتباط كل طريق صوفي بمشايخه، وعلى الرغم من كل هذا فقد أبانت أفراد العينة البحثية عن نسب متقاربة نوعا ما فيما يخص إنتاجات هؤلاء العلماء، فمثلت نسبة التأليف في التصوف 35% من النسبة الكلية، يليها كتب الفقه بنسبة 29.1%، وجاءت المؤلفات اللغوية في المرتبة الثالثة بنسبة 20%، وبعدها التفسير بنسبة 9.1% وأخيرا تأليف الحديث بنسبة 6.8%، وهذا يدل على تنوع اختصاصات مشايخ التصوف، وانفتاحهم على كل العلوم الشرعية، باعتبارها علوما متكاملة ومتداخلة، يخدم بعضها بعضا.

الجدول رقم (30): وصف العينة من حيث ذكر ثلاثة مصادر للتصوف

اذكر مصادر للتصوف				
	Effectifs	Pourcentage	Pourcentage valide	Pourcentage cumulé

Valide	ذكر أقل من ثلاث مصادر	122	55,5	55,5	55,5
	ذكر ثلاث مصادر للتصوف	98	44,5	44,5	100,0
	Total	220	100,0	100,0	

تمكّنت ما نسبته 55.5% من ذكر وتحديد ثلاث مصادر للتصوّف، بينما فشلت 44.5% من العيّنة نفسها من القيام بذلك، وهذا ما يفسّر اختلاف المستويات العلمية بين مريدي الطرق، وعدم تركيزهم على الجوانب الثقافية والفكرية، بقدر اهتمامهم الواضح بأولويات أخرى، كالجوانب الروحية والأخلاقية، والتربوية، وحفظ القرآن وبعض المتون، التي يعتبرونها الأساس في النجاح والثبات على الطريق، خاصّة للمبتدئين في السلوك.

مناقشة نتائج الدراسة:

البعد الروحي:

من الملاحظ أنّ نسبة الذين تفاعلوا إيجاباً مع البعد الروحي ومع جميع محاوره، من خلال الأسئلة المطروحة في الاستمارة، أظهروا جلياً وظيفية هذا البعد وتأصله العميق في التجربة التربوية الصوفية ووظيفته في المجتمع الجزائري، فالاتجاه العام للإجابات المرتبطة بأفراد العينة البحثية أثبت التغيّر النفسي والروحي لمنخرطي الطريق الصوفي وينسب عالية من حيث الاستقامة والتوبة وممارسة الذكر والتقيد بالأوراد في وقتها، والزيادة في التنقل والارتباط الشديد بشيخ التربية، المتعهد لهذا السالك والأخذ بيده في قطع مراحل وعقبات الطريق وقواطعه والتغلب على النفس وشهواتها وميولها، فالحقيقة الواضحة الجلية روحياً أنّ هذه التربية الصوفية الإحسانية والسير في قطع مقامات السلوك، والمجاهدات والرياضات تحوّل النفس تحولاً كاملاً، وتحيل الإنسان لحالات روحية ومعنوية عجيبة من الصفاء والحب والوجد، وقوة الشخصية، والإخلاص والإقدام والفتوة والتضحية.

فالسّلطة الروحية تتأسس على المعرفة، لأنّ المعرفة أو العرفان حالة ملكوتية وحقيقة روحية يتوصّل إليها بالبحث المعمق في باطن الروح وسرّ الوجود، وترتبط بالمبادئ السامية وتحاول المحافظة عليها، متجلية في البحث عن الحقيقة والحكمة، اللتان يتولّدان منها كثرة داخلية وسرّ من أسرارها.

البعد الأخلاقي:

من خلال معطيات الجداول المقدّمة والأشكال المختلفة يبرز جلياً دور التربية الصوفية في تفعيل البعد الأخلاقي في حياة المريد، مع شيخه وأفراد جماعته، ومجتمعه، فالاتجاه العام للإجابات جميعها بيّنت التأثير الإيجابي لأفراد العينة أخلاقياً، وهذا ما تجلّى وبصورة واضحة في تركيزهم على خلق "الصدق" كخلق مهم وأساسي لبقية الصفات، وإجماعهم على وجوب التواضع والتذلل والافتقار والسكينة مهما بلغت أعمالهم ومهما كثرت، صف إلى ذلك احتقارهم لأنفسهم وعدم ترفعهم وتكبرهم على العاصي والكافر، فالبعد الأخلاقي له أهمية خاصة في المباحث الصوفية، باعتبار أنّ الأخلاق جوهر التّصوّف وثمرته ونتاجه علماً وعملاً.

ولهذا ركّز المتصوّفة في تربيتهم على موضوع الأخلاق، الذي هو سلوكيات الإنسان الصادرة عنه قولاً وفعلًا، فوصفوا لها مبادئ معيارية ضابطة لها، تربيةً ومعالجةً وتوجيهًا لهذه السلوكات، وتجاوز النصائح المجردة والتوجّهات الجافّة، محاولةً لبناء أخلاق إنسانية إيجابية قائمة على التأمل والتّجريب والارتكاز على بناء "ضمير حيّ" مُشبع بالقيم الروحية الأخلاقية المستمدّة من النّصوص القرآنية والسّيرة النّبوية وسيرة الرّسول ﷺ عليه وآله وصحبه الكرام، وفق منهجٍ ذوقيٍّ مُحبّ.

فالمنهج الصّوفيّ التّربويّ، يُمثّل امتدادًا واختزالًا لنظامٍ معرفيّ وأخلاقيّ قائم بذاته، يجعل من التّصفية الباطنية المرتبطة بـ"المجاهدة والتّزكية" منهاجًا ونظامًا مضبوطًا ومُتدرّبًا لضبط السلوك وأخلاق الإنسان وكبح الغرائز الإنسانية، وتوجيهها توجيهًا مثاليًا للتّحليّ بالأخلاق الكريمة الفاضلة لتتسرّخ كمنهج ذاتيّ تقويميّ مُستمرّ، يُمارس تلقائيًا عملية التّصفية هذه والتّطور الدائم "بفعل الذات" بعد اكتسابها للوصول والتّحقّق، لأنّ أهمّ المبادئ الأساسية لعملية التّكوين على الأخلاق وممارستها أنّها مُركزة على أساس قابلية الأخلاق للتّغيير والتّهذيب والتّشجيع.

البعد الحضاري والإنساني:

فالانطباع الأوّل الذي تقدّمه البيانات فيما يخصّ البعد الإنساني والحضاري رغم تباين نتائجها أحيانًا، هو انفتاح الشيوخ والمريدين على الآخر، مهما اختلفت طرقهم وتعددت مشاربهم داخل الوطن أو خارجه، فواجبات الإنسان نحو الإنسان من حيث هو إنسان وهي النظرة للإنسان كمركز للوجود، وهو من أهمّ صفات النّزعة الإنسانيّة للتّربية الصّوفيّة، وكمرحلة ثانية تطمح لارتقاء الإنسان الوجوديّ المخلوق الضّعيف إلى الإنسان الرّبانيّ "الإنسان الكامل"، من الإنسان الحيوان إلى الإنسان الخليفة، في رؤية إنسانية للعالم، وهو مشروعٌ وغاية المجاهدة والمكابدة التي يكده الصّوفيّة من أجلها، لبناء الإنسان وترقيته ونيل غاية خلقه وسرّ وجوده، عبر معراجٍ روحيّ.

فَالْإِنْسَانِيَّةُ لَا بَدَّ لَهَا مِنْ رُوحٍ مُتَعَالِيَةٍ، تَفْقَهُ وَتَتَذَوَّقُ وَتَسْمُو عَلَى الْمَعَانِي وَالِدَّلَالَاتِ الْفَقْهِيَّةِ وَالْكَلَامِيَّةِ، وَتَثْمُرُ مِنْ لَبِّهَا أَسْرَارَهَا الَّتِي أودعها الله فيها لِتُجَدِّدَ دَوْمًا حَيَاتَهَا وَتَسْمَحَ بِالْبَحْثِ الْمُسْتَمَرِّ عَلَى الْحَقِيقَةِ اللَّامْتُنَاهِيَةِ فِيهَا وَفِي بَاطِنِهَا.

البعد الفكري والثقافي:

والأمر نفسه ينطبق على هذا البعد المهم في مجتمعنا الجزائري، فإجابات العيّنات المقدّمة توحى بالوظائف المهمة لهذا البعد، فهو يمثل جزءا يجمع التراث الصوفي الجزائري بجميع مكوناته التربوية والتعليمية والتأليفية وشخصياته العلمية والمخطوطات وغيرها من هذه المكونات التي مازال عبقها يفوح في كامل أرجاء الوطن حتّى يومنا هذا، فلا تخلّ مدينة أو قرية أو معالم من أثر هؤلاء العلماء العارفين الريانيين والمشايخ المكرمين الذين تركوا بصماتهم راسخة وفي جميع الفنون والعلوم، وقد أجمعت إجابات الفئات المستجوبة على استمرارية حضور هذا التراث الصوفي الفكري والثقافي إلى يومنا هذا، من خلال استنكار سير المشايخ ومؤلفاتهم وذكر أسماء المتون التي مازالت تحفّظ كمتن ابن عاشر والحكم العطائية وغيرها من المتون، بالإضافة إلى ذكر مصادر التصوّف وأمّهات كتبهم وأهم إنتاجاتهم في الفقه والتفسير والتصوّف واللغة والحديث، كما أنّ المنهج الصوّفي يتّسم في نسقه الثقافيّ الفكريّ على الانفتاح على الحقول المعرفية المختلفة الأخرى كالفقه وعلم الكلام والفلسفة والأدب، وغيرها من العلوم الأخرى، لانفتاح مشايخ وعلماء الصوّفيّة وتعدّد مشاربهم وغنى أفكارهم وتعدّد تجاربهم وكثرة تآليفهم واجتهاداتهم، ومُعالجتهم لقضايا الوجود والإنسان لا تقلّ في قيمتها ومضامينها وعمق استنتاجاتها عمّا وصل إليه الفلاسفة أنفسهم رغم تباين واختلاف المنهج بينهما.

وفي الجزائر يتّضح جليّا بأنّ الطّرق الصوّفيّة ومؤسسات الزّوايا قد لعبت دورا ثقافيا إيجابيا في الحفاظ على الهوية الوطنية، ومُحاربة الأميّة، بفضل المدارس القرآنية والكتاتيب والمعاهد، في تحفيظ القرآن الكريم وتدرّيس مُختلف العلوم الشرّعية، كما كان لها الأثر الإيجابي في حقل إنتاج وإعادة إنتاج المعرفة، بفضل تراثٍ ضخمٍ من المؤلّفات في شتّى الفنون والعلوم الدّينية

والأدبية والصوفيّة، كما ساهمت مساهمةً جليةً في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية والثقافة الإسلامية عُمومًا في جميع أقطار العالم العربي والإسلامي والإفريقي.

الخلاصة:

وفي نهاية الدراسة الميدانية وتحليل ومناقشة نتائجها، نقف على النتيجة التالية أنّ أفراد العينة البحثية من المستجوبين الذين تمت عليهم الدراسة على اختلاف طرقهم وزواياهم وتنوّع مشاربهم قد اعترفوا بهذا التأثير كل حسب طاقته ومستواه وحسب تاريخه مع هذه الطريقة، فالفروق الإحصائية بين المجموعات كانت دالة إيجابا في كل الأبعاد الأربعة التي تطرقت لها

الدراسة والتي كانت بمثابة عيّات تمثّل المشايخ والمريدين والسّالّكين، وقد أبرزت وبوضوح ضرورة الاستفادة من النموذج التربوي الصوفي في إصلاح وتهذيب النفوس والأخلاق، وإحداث التوازن بين عالمي الحس والروح، وتخفّف من حدّة النزعات المادّية والمغريات الدنيوية، ومجابهة الأفكار التغريبية المعاصرة.

رغم هذه النتيجة، كانت هناك اختلافات نسبية فيما يتعلق ببعض الأبعاد وبعض المتغيرات التي كانت فيها الإجابات مختلفة ومتمايزة من فئة لفئة أخرى، خاصّة البعد الثقافي والفكري، لأنّ هذا البعد لم يبرز فعليا وإيجابيا مدى تفاعل هذا المنهج التربوي، من خلال الطرق والزوايا المشكّلة له، مستويات ارتباط واتجاهات مقنعة عند أفراد العيّنة، وربّما لاختلاف المستويات العلمية والثقافية بين أفراد العيّنة المذكورة، كما لا يجب أن نغفل أمرا هاما، وهو اختلاف المدارك والمستويات حتى بين مشايخ الطرق المكلفون بالإرشاد والتوجيه وضمان تربية صوفية ناجعة، فهناك مشايخ تربية عاملون حقيقيون، وهناك مشايخ للتبرّك فقط، وليس لهم علم ولا قدرة على التربية والتسليك.

ضف إلى ذلك خصوصية التربية الصوفية وصُعوبة قياسها وتقنينها، فهي تجربة ذوقية متقرّدة، لها أصولها وأدواتها وغاياتها المؤطّرة لها، فلا يُمكن الإحاطة التامة بها وتمثّلها حقيقةً إلّا بخوضها ومُعاشتها ومُصاحبة شيوخها والتّلمذ على أيديهم ومُخالطتهم.

الخاتمة

وجود التربية الصوفية في حياتنا دليل واضح على دوام التعلّق بالتوجّه الروحي، الذي يصدق علينا بالفيوضات الرحمانية الربانية والتجليات الإلهية، وتجديد العهد الأزلي المعقود بين الله والإنسان منذ عالم الذر لقوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ١٧٢) سورة الأعراف، الآية 172، الذي يمكّننا من السعي الدائم نحو المطلق المتسامي، وتعميق الحضور الإنساني مع الله في رحلته في هذه الحياة.

الوصول إلى معرفة الحقائق الإيمانية والكشوفات الإحسانية لا يتم إلا عبر السلوك الروحي في ظل العقيدة الصحيحة والأحكام الشرعية، مروراً بمرحلة اليقين علماً وعيناً ثم حقا وحقيقة، وصولاً إلى الحضرة الإلهية، فيلج دائرة الولاية الصغرى والكبرى.

جوهر التربية الصوفية في حقيقته امتداد للتربية النبوية، التي مصدرها القرآن والسنة الشريفة وسيرة السلف الصالح من هذه الأمة، والتي تقوم على إعداد المريّد وتدريبه على ممارسة المجاهدات والرياضات وقطع المقامات والتحكّم في مفاتيح هذا السير القلبي ووسائل الترقّي الروحي، والوقوف الفعلي معها واستيفاء شروطها وعلاماتها، والتحقّق بها ظاهراً وباطناً، وفي علاقته مع ذاته ومع الآخريين، وعدم الاقتصار على الحالات الروحية الوجدانية، الذوقية والكشفية، بل محاولة تجسيدها إلى ممارسات عملية وأداب أخلاقية واجتماعية، والترقي عبر مراتب الدّين الثلاث الواردة في حديث جبريل عليه السّلام.

ولهذا ركّزت التربية الصوفية في منهج السير والسلوك أساساً على المعرفة الدقيقة بالنفس الإنسانية واستتطاق أحوالها وعللها وأنواعها والسعي الحثيث لتهدئتها وتشجيعها والترقي بها من النفس الأمّارة بالسوء إلى النفس الرّاضية المرضية، ومن النفس البهيمية الشهوانية الغضبانية إلى الروحانية النورانية المتعالية، وبلوغها درجات المعرفة الحقيقية والكمال الإنساني اقتداء بالرسول ﷺ وفعلاً وحالاً.

والطرق الصوفية بالجزائر امتداد لهذه التزكية الإحسانية الروحية في كل جوانبها التربوية مع امتيازها بخصوصيات تفرّدت بها، نشوءاً وتأصيلاً، كالرحمانية والسنوسية وغيرها وصارت هذه الطرق، رغم أصولها الشاذلية أو القادرية، وكأنّها طرق منفصلة عنها للتغييرات والاجتهادات التي لحقتها ومستمها مع الشيوخ الذين تداولوا عليها، واختلافهم في أساليبهم التربوية وطرقهم التسليكية، ومراعاتهم مشارب الناس وكفاءات واستعدادات المريدين وتنوّع مسالكهم ومراتبهم، كالتركيز على كثرة الصلاة على النبي ﷺ والاستحضار الصورة المحمدية، وأحياناً أخرى اعتماد التربية بأسماء الله الحسنى، كالأسماء السبع في السير والسلوك عند الطريقة الرحمانية الخلوتية، وكانتهاج الطريقة الهبرية الدرقاوية الشاذلية على التربية باسم الذات العلية، وسلوك الاسم المفرد الأعظم (الله)، ولكل طريقة وشيخ ميل إلى نوع معين من أنواع السير والسلوك. شيوخ التربية هم الذين يحدّدون المسالك للمريدين، والنوع الذي يناسبهم وقدراتهم، لأنّهم حاملوا الميراث النبوي، وحافظوا الأمانة المعرفية والقائمون على تبليغها ضمن التنظيم التراثي الذي ينتمون إليه، وهذا ما يشكّل أهم خصوصية في التربية الصوفية، لارتباطها بحالات ومقامات وإشراقات رمزية إلهامية وكشفية، لا تكفي مطالعة الكتب والسير الفردي بالتحقق بها وبلوغها، لأنّ الشيخ وحده الضامن والعارف بمسالك هذا الطريق، بداية ونهاية ورجوعاً، ومميّز لأنواع الإلقاءات القلبية الشيطانية منها والزبانية، والقادر على تخفيف صدمات الواردات والمواجد وتصفية صدقها من كذبها.

ولهذا حافظت التربية الصوفية على حيويتها وحساسيتها، وأبانت وليومنا هذا القدرة الكبيرة على التأثير الإيجابي الفعّال، وصناعة أنموذج إنساني متكامل ومؤثر، ذوقاً وحالاً وسلوكاً روحياً وأخلاقياً، ثقافياً واجتماعياً، إنسانياً وحضارياً، كما أنّها منهج سوي، قادر على إصلاح النفوس وترقيتها، خاصّة في ظل النزعات الماديّة الطاغية، المفضية إلى الاغتراب الروحي والفراغ الإيماني والصراع الإيديولوجي، والمذهبي واللّهث اللامتناهي وراء الشهوات والنزوات الدنيوية، وفي ظلّ العولمة والحداثة وما بعدهما الدّاعية للعقلانية المفرطة والفردانية والمصلحية، فالتربية

الصوفيّة محاولة جادّة وحقيقية في تغيير هذا الواقع وإعادة الفرد المريد السالك إلى وعيه الحقيقي وربطه من جديد بعالمه العلوي المتسامي الروحاني.

كما أثبتت هذه الدّراسة ضرورة هذا المنهج التربوي ووظيفيته الرّوحية والأخلاقية والاجتماعية والثقافية والإنسانية، وامتدادها في الزّمان والمكان، وأنّ أبعادها التي تسعى لتوظيفها تجمع بين المعرفة والسلوك، بين علم التزكية وعلم الحقائق، مروراً بالتجربة الفعلية المصبوغة بالتحقيق، مؤكدة على اليقين المتّصل بالواقع، والتي تسمح فعليا للسالك خوض هذه التربية السلوكيّة الذاتية الواعية والعميقة، ومعرفة أسرارها وبلوغ مراتب العبوديّة الحقّة والوصول إلى القرب والصديقّة.

أسّ الأبعاد الوظيفية للتربية الصوفية، هو الجانب الرّوحي والذي يعمل على نقل الأثر الرّوحي المتوارث عن مشايخ التربية لهذه السلسلة النورانية المتحققة عن مشكاة النبوة بالارتباط الحقيقي والفعّال بهاته السلاسل التراثية الأصيلة، لاحتوائها على السر التربوي والرّوحي، فتحدث تصفية للنفس وتحرّرها من سجن الجسد وتستعيد طهارتها العلوية وتتبعث اتصالاتها بالعالم القدسي، وتجمع بين الماديّات واللاماديّات، والظاهر بالباطن، والحقيقة والشريعة، من منطلق تغيير ذات الإنسان وتصفية نفسه وتزكيتها، الذي يسمّى ح بالارتقاء في المقامات الرّوحيّة من توبة وزهد وورع وفقر وصبر وتوكل ورضا، والسفر عبر معراج روحيّ، يتحقق فيه بآدابها وحقائقها، بصدق الإخلاص والتوجه إلى الله تعالى.

كما تجلّت آثار هذه التربية الرّوحية عند المريدين والمنخرطين بالمسارعة في التوبة إلى الله والاستقامة في حياتهم، والانقياد للأوامر الشرعية والالتزام بالأوراد والأذكار، الفردية والجماعية، وبالمحافظة على الصلّاة والخشوع فيها والزيادة في التتفل فيها، وفي نوافل العبادات الأخرى، من صيام وصلّاة، كما أبرزت النتائج في هذا الجانب الرّوحي الارتباط الرّوحي الشديد بين شيوخ التربية والمريدين وتعلّقهم بهم.

ومن آثار هذه التّركية الرّوحية التخلّق بالأخلاق القرآنية والتّخلّي عن الأخلاق الدنيّة، والتي تنقسم إلى أخلاق بين العبد وربّه وبين العبد ونفسه وبين العبد ومجتمعه، ويتمثّل البعد الوظيفي لهذه التربية في أخلاق حياة الفرد والمجتمع، وهذا بتحقيق "الاستقامة في السلوك" والجمع بين "التحلية والتخلية"، فالأخلاق جوهر التربية الصوفية ونتاجها علما وعملا، باتّباع نظام منهجي متكامل، قائم على تفعيل الغايات السلوكية والأخلاق المرضية، في جميع الأحوال والأوقات، كخلق الصّدق والأخوة والمحبة والتواضع والتسامح والكرّم والإيثار مع نفسه ومجتمعه وخالفه، وتتمّ كذلك بمعاينة النّفس الدائمة ومجاهدتها، وعدم الرّضا على الأعمال الخيرية مهما تعاظمت، ونبذ التكبر والتعجب والغرور، وتتجلّى آثار هذه التربية الصّوفية أخلاقيا كذلك في حسن الظن بالناس وعدم بغضهم وكرههم، ولو كانوا عصاة، والتماس الأعذار لهم والدعاء لهم بالهداية .

أمّا البعد الوظيفي الاجتماعي لهذه التربية، فهو بعد راسخ ومتجدّد وفعّال، يسعّى الصّوفي من خلاله ليكون عنصرا إيجابيا ومساهما في تحقيق حياة اجتماعية متناغمة ومستقرّة بالمشاركة في العمل والكّد والاجتهاد وبناء أسرة مثالية، وعدم الاتّكال على الغير، وفي إقامة مجتمع يسوده الأمن والأمان، والقضاء على مظاهر التطرّف والانحلال وترسيخ القواعد الأخلاقية والآداب الاجتماعية، وإرساء نموذج صوفي سام ومتفاعل وإيجابي، كما تساهم الطرق الصوفية والزوايا فيه بالتربية والتعليم واستقطاب كل الفئات الشعبية والمستويات التعليمية واحتضانهم وخلق لحمة اجتماعية قوية ومتوازنة.

لهذا اهتمت التربية الصوفية كثيرا بأدب الأخوة والصحة وسبل تعميقها اجتماعيا، وعملت على تجسيدها بتوكيد أواصر المحبة والتكافل والمساعدة والإيثار، والمساهمة الفعّالة في حل القضايا والنزاعات الفردية والجماعية والسعي في إصلاح ذات البين، وترسيخ مبادئ الهوية الوطنية، ونبذ كل أنواع العنف والتطرّف.

كما يسعى المنهج التربوي الصوفي في بعده الثقافي والفكري على استحضار هذا النموذج الرّاقى والممتد في التاريخ معرفيا وفكريا وثقافيا، بتفعيل اجتهادات مشايخ الطّرق في أساليب التّربية وما تثمره من ثمار في حقول المعرفة والعلم في شتّى الميادين، تأليفا وتربية وتكويناً فساهمت مساهمة هائلة في تشكيل الهوية الثقافية لبلادنا وسائر البلاد العربية والإسلامية وحتى العالمية، ولا تزال إلى يومنا هذا تواصل في مسيرتها الجادة في تربية وتعليم النشء والحفاظ على الهوية الوطنية ومحاربة الأمية والجهل، ونشر الثقافة العربية الإسلامية وتحفيز القراءة والتمتون والأحكام الشرعية، والمحافظة على المخطوطات الثمينة.

كما يعمل المنهج التربوي الصوفي في بعده الإنساني الحضاري باعتباره منهجا يتّسم بوحدة الغاية، فوجه الله هو المطلوب، وهو الهدف الأسمى في رحلة السير والسلوك، فالصوفي السالك الحق لا يفاضل ولا يفرّق بين الإنسان كإنسان، مهما اختلفت ديانتها وجنسه وعرقه فهو يهدف عموماً للارتقاء بهذا الإنسان إلى مرتبة "الكمال"، وتمكين الإيمان العميق عنده الذي يعيد للإنسان إنسانيته، ويحرّره من طغيان المادّة والصّراعات الإيديولوجية والطائفية وكلّ الخطابات التي تمجّد وتدعو إلى الكراهية والإقصاء والعنف، وتسعى جاهدة لإفشاء المحبة وتقبل الآخر والتعايش معه.

ومن التوصيات التي يمكن الوصول إليها من خلال هذه الأطروحة:

- تفعيل دور الطّرق الصّوفية للقيام بالدور التربوي المنوط بها، وهذا بالتّوكيز على دور شيخ التربية.

- تعميم البحوث والدراسات الميدانية وتطبيقاتها في المشاريع البحثية الأكاديمية المرتبطة بالمنهج التربوي الصوفي، وإحداث تخصصات فرعية في ذلك، تقدّم لهذا المنهج وتعيد قراءته وآليات توظيفه في مناهجنا التربوية المعاصرة.

- إجراء دراسات مكّلة لموضوع الأبعاد الوظيفية للتربية الصوفية وربطها بمواضيع أخرى لها علاقة بهذا الموضوع كخصوصيات التجربة التربوية الصّوفية بالجزائر والتربية الفنية والجمالية والإبداعية عند المتصوّفة الجزائريين عبر العصور الزمنية المختلفة.

قائمة المصادر

والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

1/- المصادر:

1. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، تح: يوسف علي طویل. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط01، 2002.
2. ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف. تح: محمد الكتاني. دار الثقافة. الدار البيضاء، المغرب. ط01، 1970.
3. ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تح: احمد التوفيق. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. المغرب. ط2، 1997.
4. ابن الصبّاغ، دُرّة الأسرار وتُحفّة الأبرار. المكتبة الأزهرية للتراث. 2001.
5. ابن القنفذ، الفارسية في مبدأ الدولة الحفصية. تح: محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي. الدار التونسية للنشر، 1968.
6. ابن تيمية، مجموع الفتاوى. ج10. دار الوفاء المنصورة، القاهرة، مصر. مج 05، ط01، 1997.
7. ابن حجر العسقلاني، مختصر زوائد مسند البزار. ج01. تح: صبري بن عبد الخالق أبو ذر. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان. ط01، 1992.
8. ابن خلدون، المقدمة. ج02. تح: عبد الله محمد الدرويش. دار يعرب، دمشق، سوريا. ط01، 2004.
9. ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل. تح: محمد مطيع الحافظ. دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان. ط01، 1996.
10. ابن سعد، الطبقات الكبير. ج03. تح: علي محمد عمر. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2001.

11. ابن سينا، **عيون الحكمة**. تح: عبد الرحمن بدوي. دار القلم، بيروت، لبنان. ط 02، 1980.
12. ابن عجيبة الحسني، **الفتوحات الإلهية**. تح: عبد الرحمن حسن محمود. عالم الفكر، القاهرة. مصر.
13. ابن عجيبة الحسني، **شرح نونية الششتري**. تح: محمد العدلوني الإدريسي. دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب. ط01، 2013.
14. ابن عربي، **الإسرا إلى المقام الأسرى**. تح: سعاد الحكيم. دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. ط01، 1988.
15. ابن عربي، **التدابير الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية**. تح: محمد عبد الحي العدلوني الإدريسي. دار الثقافة، المغرب. ط01، 2015.
16. ابن عربي، **الرسالة الوجودية**. ج03. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط01، 2004.
17. ابن عربي، **الرسائل**. تح: محمد شهاب الدين العربي. دار صادر، بيروت، لبنان. 1997.
18. ابن عربي، **الفتوحات المكية**. ج03، تح: أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط01، 1999.
19. ابن عربي، **إنشاء الدوائر**. تح: عاصم إبراهيم الكيلاني. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط01، 2005.
20. ابن عربي، **ترجمان الأشواق**. تح: عبد الرحمن المصطاوي. دار المعرفة، بيروت، لبنان. ط01، 2005.
21. ابن عربي، **تهذيب الأخلاق**. تح: عبد الرحمن حسن محمود. عالم الفكر، القاهرة. ط 01، 1986.
22. ابن عربي، **رسالة الذي لا يُعوّل عليه**. الكرمة للنشر، وهران. 2017.
23. ابن عربي، **عنقاء مغرب في ختم الأولياء، وشمس المغرب**. تح: عاصم إبراهيم الكيلاني. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط01، 2005.

24. ابن عربي، **فصوص الحكم**. شرح الشيخ عبد الرزاق القاشاني. آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر. ط01، 2016.
25. ابن عطاء الله السكندري، **لطائف المنن**. تح: عبد الحليم محمود. دار الكتاب المعرفي، القاهرة، مصر.
26. ابن عطاء الله السكندري، **مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح**. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
27. ابن قنفذ القسطيني. **كتاب الوفيات**. تح: عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة. بيروت، لبنان. ط04. 1983.
28. ابن قيم الجوزية، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**. تح: محمد أجمل الإصلاحي. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية. ط01، 2008.
29. ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**. ج02. دار الحديث، القاهرة، مصر. 2005.
30. ابن مريم التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**. المطبعة النعالبية، الجزائر. 1908.
31. أبو إسحاق الشاطبي، **الاعتصام**. ج02. تح: محمد رشيد رضا. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر. دت.
32. أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**. ج03. تح: عبد الله دراز. دار المعرفة، بيروت، لبنان. ط01، 1992.
33. أبو الحسن الششتري، **الرسالة الششتيرية**. تح: محمد العدلوني الإدريسي. دار الثقافة. الدار البيضاء، المغرب. ط01، 2004.
34. أبو الحسن الندوي، **الششتري الرسالة الششتيرية**. تح: محمد العدلوني الإدريسي. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب. ط01، 2004.
35. أبو الحسن، السيد علي بن عثمان بن أبو علي الجلابي الهجويري، **كشف المحجوب**. تح: إسعاد عن الهادي تنديل. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأثرية، القاهرة. 2007.

36. أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. تح: عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان. ط02، 1979.
37. أبو الفدا إسماعيل المجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس. ج02. تح: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف. المكتبة العصرية. بيروت، لبنان. ط01، 2000. الحديث رقم 2123.
38. أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف. تح: آرثر جوى أربري. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر. ط02، 1994.
39. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. ج01. دار ابن حزم، بيروت، لبنان. ط01، 2005.
40. أبو حامد الغزالي، الأربعين في أصول الدين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق. تح: عبد الله عبد الحميد عرواني، محمد بشير الشقفة. دار القلم، دمشق، سوريا. 2003.
41. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال. تح: جميل صليبا، كامل عواء. دار الأندلس، بيروت، لبنان. (د.ت.). (د.ط.).
42. أبو حامد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين. دار النهضة الحديثة، بيروت، لبنان. ط01.
43. أبو طالب المكي، قوت القلوب. ج02. تح: محمود إبراهيم محمد الرضواني. دار العلوم، القاهرة، مصر. ط01، 2001.
44. أبو عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف. تح: يوسف زيدان. دار الجيل، بيروت، لبنان. ط01، 1999.
45. أبو نصر السراج الطوسي، اللمع. تح: عبد الحليم محمود، عبد الباقي سرور. دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر. 1960.
46. أبو نعم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. ج01. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. 1996.
47. أبو يعقوب يوسف بن يحيى التّالي، التشوّف إلى رجال التصوّف. تح: أحمد توفيق. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء، المغرب. ط02، 1997.

48. أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية. تح: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف. دار المعارف، القاهرة. 1994.
49. أحمد الرفاعي الحسيني، البرهان المؤيد. ج 01. تح: عبد الغني نكه مي. دار كتاب النفيس، بيروت، لبنان. ط01، 1987.
50. أحمد النقشبندی الخالدي، جامع الأصول في الأولياء الطرق الصوفية. مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان. ط01، 1997.
51. أحمد بن أبي بكر السكوني الشريف الفيقي، تقوية إيمان المجيبين. تح: ظاهرية عبد الله. دار الأديب للنشر والتوزيع. الجزائر. (د.ط.). (د.ت.).
52. أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى. تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض. السعودية. المجلد 10. ط 1. 2004.
53. أحمد بن مصطفى الكمشخاني، جامع الأصول في الأولياء. تح: أحمد فريد. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط01، 2002.
54. أحمد رزوق، قواعد التصوف. تح: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. 2005.
55. أحمد زروق، عدة المريد الصادق. تح: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. ط01، 2006.
56. إسماعيل بن محمد العجلوني. كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس. تح: يوسف بن محمود الحاج أحمد. مكتبة العلم الحديث. بيروت. لبنان. 1999. ج2.
57. الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف الروحية والفيوضات. ج 02. تح: عاصم إبراهيم الكيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط01، 2004.

58. البرتلي الطالب مُحَمَّد بن أبي بكر الصديق الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان وعلماء التكرور. تح: إبراهيم الكتاني محمد حجي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط 01، 1981.
59. بلهاشمي بن بكار، مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب. مطبعة ابن خلدون. تلمسان، الجزائر. 1967.
60. جلال الدين الرومي، المثنوي. ج 02. تح: مُحَمَّد عبد السلام كناني. المكتبة العصرية، بيروت، لبنان. 1967.
61. جلال الدين السيوطي، الباهر في حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالباطن والظاهر. تح: مُحَمَّد خيرى فيربانس أوغلو. دار الكام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر. ط 01، 1987.
62. جلال الدين السيوطي، تأييد الحقيقة العلية وتشديد الطريقة الشاذلية. تح: عبد الله بن مُحَمَّد الصديق الغماري. المطبعة الإسلامية، مصر. 1934.
63. جلال الدين السيوطي، مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة. تح: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط 01، 1987.
64. الجنيد البغدادي، تاج العارفين. تح: سعاد الحكيم. دار الشروق، القاهرة، مصر. ط 02، 2005.
65. الحارث المحاسبي، الرعاية لحقوق الله. تح: عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط 04، (د.ت.).
66. الحارث المحاسبي، كتاب الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين. تح: أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان. 1955.
67. حسين بن منصور الحلاج، الطواسين، تر: لويس ماسينيون. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، مصر. (د.ط)، 1956.
68. خير الدين زركلي. الأعلام. ج 9. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. 1989.

69. سيدي محمد الكنتي. الطرائف والتلائد. تح: يحي ولد سيدي محمد. دار المعرفة. الجزائر. ج1. ص: 217. مصر
70. سيدي محمد الكنتي. الطرائف والتلائد. تح: يحي ولد سيدي محمد. دار المعرفة. الجزائر. ج1. (د.ط.). (د.ت.). ص: 217.
71. شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء. ج 13. تح: شعيب الأرنؤوط علي أبو زيد. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. ط11، 1998.
72. شهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي، عوارف المعارف . ج 02. تح: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف. دار المعارف، القاهرة، مصر، 2000.
73. الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد، الياقوتة. مكتبة المعارف تميمون. أدرار، الجزائر. (د.ط.)، (د.ت.).
74. الشيخ عده بن تونس، الدرة البهية في أورد وسند الطريقة الهلاوية . المطبعة العلاوية. مستغانم، الجزائر. ط01، 1987.
75. الشيخ عده بن تونس، الروضة السنية في المآثر العلاوية . المطبعة العلاوية. مستغانم، الجزائر.
76. عبد الرزاق القاشاني، آداب الطريقة وأسرار الحقيقة. تح: عاصم إبراهيم الكيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط01، 2005.
77. عبد الرزاق القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام. تح: أحمد عبد الرحيم السايح وآخرون. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر. ط01، 2005.
78. عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف . ج02. مكتبة البابلي الحلبي، مصر. 1956.
79. عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني . تح: أنس مهرة. منشورات الجمل. بغداد، العراق. ط01، 2007.

80. عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل. تح: عاصم الكيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط2، 2005.
81. عبد الله أحمد ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم. تح: محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، القاهرة، مصر، دت، دط.
82. عبد الله أحمد بن عجيبة، معراج التّصوّف إلى حقائق التّصوّف. تح: عبد المجيد خيّالي. مركز التراث الثقافيّ المغربيّ، الدّار البيضاء، المغرب. (د.ط)، (د.ت).
83. عبد الله الأنصاري الهروي، منازل السائرين. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. 1988.
84. عبد الوهاب الشّعراني، الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصّوفية. ج01. تح: طه عبد الباقي سرور، السيّد مُحمّد عبد الشّافي. مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، 1998.
85. عبد الوهاب الشّعراني، الكوكب الشّاهق في الفرق بين المريد الصّادق وغير الصّادق. تح: مُحمّد شرقاوي. دار المعارف، القاهرة، مصر. 1991.
86. عبد الوهاب الشّعراني، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان.
87. عبد الوهاب الشّعراني، لطائف المنن والأخلاق المنن الكبرى. تح: أحمد عزو عناية. دار التّقوى، القاهرة، مصر. ط01، 2004.
88. علي حراز، جواهر المعاني وبُلُوغ الأمانى في فضل سيدي أبي العباس التّجاني . تح: عبد اللّطيف عبد الرّحمان. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط01، 1997.
89. مُحمّد إسماعيل البخاري، الجامع الصّحيح. بيت الأفكار الدّولية للنّشر، الرياض، السّعودية، 1958م/1334هـ.
90. مُحمّد بن العربي بن مُحمّد السّائح التّجاني، بُغية المستفيد لِشرح منية المريد . ج01. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. 2001.

91. محمد بن جعفر الكتّاني، سلوة الأنفاس ومُحادثة الأكياس عن أقبر من العلماء والصّحاء بفاس. تح: عبد الله الكامل الكتّاني وآخرون. دار الثقافة. الدّار البيضاء، المغرب. ط 01، 2004.
92. مُحمّد بن عبد الجبّار النفري، المواقف والمخاطبات. ج02. تح: آرثر أربري. دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر. 1934.
93. مُحمّد بن عبد الواحد بن عاشر، المرشد المعين على الضّروريّ من علوم الدّين. دار الفقه المالكي، ط03، 2012.
94. مُحمّد بن مُحمّد المهدي التّمستاني، الإمام مولاي العربي الدّرقاوي شيخ الطّريقة الدّرقاوية الشاذلية ترجمته وبعض آثاره. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط01، 2008.
95. محمد بن مخلوف. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. تح: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ج1. ط1. 2002.
96. محمد حسين الدّهبي، التّفسير والمفسّرون. ج02. مكتبة وهبة، القاهرة، مصر. دت.
97. محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الرياض. السعودية. ط2. 1995.
98. محي الدين بن عربي، رسائل ابن عربي. دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان. (د.ت).
99. مُسند الإمام أحمد ابن حنبل، ج06. دار إحياء التّراث العربي، القاهرة، مصر. 1993.

2- المراجع:

1. إبراهيم الدّسوقي شتاء، التّصوّف عند الفرس. دار المعارف، القاهرة، مصر، 1978.
2. إبراهيم مياشي، قبسات من تاريخ الجزائر. دار هومة للطّبع. الجزائر. 2012.
3. أبو الحسن الندوي، ربّانية لا زهبانية. دار الفتح للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان. ط 01، 1966.

4. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج01. دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط01، 1998.
5. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي. دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة، مصر. 1979.
6. أحمد بن مصطفى العلاوي، المنح القدوسية. المطبعة العلاوية، مستغانم، الجزائر. ط02، 1986.
7. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر. دار الكتاب، الجزائر. 1963.
8. أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث، الجزائر. 2007.
9. آدم عبد الله الإلوري، الإسلام اليوم وغداً في نيجيريا. مكتبة وهبة، القاهرة، مصر. 1985.
10. الأرمي أحمد، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي. ج01. دار الطبع. المغرب. 2000.
11. إريك يونس جوفرا، المستقبل للإسلام الروحاني. تر: هاشم صالح. فيض للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر. ط01، 2016.
12. ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم. تر: عبد الرحمان بدوي. دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان. ط03، 1987.
13. ألفرد بل، بني سنوس ومساجدها. تر: محمد حمداوي. دار الغرب. وهران، الجزائر. 2001.
14. الإمام أبي الحسن الشاذلي، أرواد الطريقة الشاذلية. دار الزاهد للنشر والتوزيع. عمان، الأردن. 1997.
15. أمباكي نديم محمد سعيد، التصوف والطرق الصوفية في السنغال. معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب. 2002.

16. أنا ماري شميل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف . تر: محمد إسماعيل السيّد، رضا حامد فُطب. منشورات الجمل، بغداد، العراق. 2004.
17. إيريك يونس جوفرا، المستقبل للإسلام الروحاني. تر: هاشم صالح. نبض للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر. ط01، 2016.
18. بسام محمود بارود، مجموع الرسائل الإمام المحقق والعلامة المدقق مولاي العربي الدرقاوي الشريف الحسني. منشورات المجمع الثقافي. أبو ظبي، الإمارات. 1999.
19. بودواية بلحيا، التصوف في بلاد المغرب العربي . دار القدس العربي للنشر والتوزيع. وهران، الجزائر. ط01، 2009.
20. بوعتو بشير، التصوف في الجزائر. دار السبيل، الجزائر. ط03، 2013.
21. ت ج دي تجيتزي ج بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام. تر: محمد عبد الهادي أبو ريّة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر. ط02، 1948.
22. جان شوفالييه، التصوف والمتصوفة. تر: عبد القادر قنيني. إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان. 1999.
23. جواد المرابط، التصوف والأمير عبد القادر. منشورات وزارة الثقافة. الجزائر. 2007.
24. جورج طرابيشي، من النهضة إلى الردة تمرّقات الثقافة العربية في عصر العولمة. دار السّاقى، بيروت، لبنان. ط01، 2011.
25. جوزيبي سكاتولين، تأملات في التصوف والحوار الديني . تح: عمّار عليّ حسن. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر. 2013.
26. جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام. تر: محمد يوسف وموسى وآخرون. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر. 2013.
27. جون سبنسر ترمجهام، الفرق الصوفية في الإسلام. تح: عبد القادر البحراوي. دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر. 1994.

28. الجياش عبد الحميد، التّصوّف الإسلاميّ بين الحقيقة والواقع. دار النهضة العربيّة، مصر. ط1، 2009.
29. حامد إبراهيم محمد صقر نور، التّحقيق في صحّة أعمال الطّريق . مطبعة التّأليف، مصر. ط2، 1970.
30. حُسين مروة، النّزعات الماديّة في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة. ج3. دار الفارابي، بيروت، لبنان. ط2، 2008.
31. حفناوي باعلي، الشّيخ العلّامة مُحمّد بن يُوسف السنوسي التّلمساني. دار السّبيل. تلمسان، الجزائر. ط1، 2011.
32. حميدي خميسي، نشأة التّصوّف الفلسفيّ في المغرب الإسلاميّ الوسيط. منشورات وزارة الثقافة. الجزائر. 2007.
33. حيدر الآملي، أسرار الشّريعة وأطوار الطّريقة وأنوار الحقيقة. دار الحجة البيضاء، بيروت، لبنان. ط1، 2012.
34. الدجاني أحمد صدقي، الحركة السنوسية نشأتها ونُمُوها في القرن التّاسع عشر. مطبعة دار الجزائر العربيّة. دمشق، سوريا. 1966.
35. الرّاوي إبراهيم، السّير والمسايع. دار التّقوى للطّباعة والنّشر والتّوزيع. دمشق، سوريا. 2006.
36. روبرت كاسبر، اتّجاهات غربيّة في دراسة التّصوّف. تح: مُحمد عبد الله الشّرقاوي. القاهرة، مصر. 1996.
37. روني جينو، رموز الإنسان الكامل. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث إريد. الأردن. ط1، 2016.
38. رينولد آلن نيكولسون، في التّصوّف الإسلاميّ وتاريخه. تح: أبو العلا عفيفي. مطبعة لجنة التّأليف والتّربية والنّشر، القاهرة، مصر. 1947.

39. زاهر إحدادر، الصّحافة الإسلاميّة الجزائريّة من بدايتها إلى سنة 1930. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1986.
40. زكي مبارك، التّصوّف الإسلاميّ في الأدب والأخلاق. ج 01. المكتبة العصرية، بيروت، لبنان. 2012.
41. سامي علي النّشار، نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام. ج 03. دار المعارف، القاهرة، مصر. ط 08، 1980.
42. سعيد جاب الخير، أبحاث في التّصوّف والطّرق الصّوفيّة الزّوايا والمرجعية الدّينية في الجزائر. دار الفيروز للإنتاج الثقافيّ، الجزائر. 2013.
43. سعيد حوى، الأساس في التّفسير، ج 1، دار السّلام للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط 06، (د.ت).
44. سعيد حوى، تربيّتنا الرّوحية. دار السّلام للطّباعة والنّشر. القاهرة، مصر. ط 06، 1999.
45. السيّد إسماعيل بن السيّد محمّد سعيد، الفيوضات الربّانية في المآثر والأوراد القادرية . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر، د.ت.
46. سيّد حسين نصر، الصّوفيّة بين الأمس واليوم. تر: كمال خليل اليازجي. الدّار المتّحدة للنّشر، بيروت، لبنان. 1975.
47. سيّد حسين نصر، ثلاثة حكماء مسلمين. تر: ماجد نخري. دار النّهار للنّشر، بيروت، لبنان. ط 02، 1986.
48. شرف الدّين القيصري، رسائل القيصري، دار الصّفدي. القاهرة، مصر. 1996.
49. الشّريف الحسني، مجموعة رسائل الإمامة المحقّق والعلامة المدقّق مولاي العربي الدّرقاوي. تح: سام محمّد بارو. المجمع الثقافيّ. أبو ظبي. 1999.
50. الشّيخ الحداد، التّقييد المحلّ للتّعقيد في التّصوّف. تح: عمّار طالبي وآخرون. البصائر للنّشر والتّوزيع، الجزائر. ط 01، 2014.

51. صادق سلام، فرنسا ومسلموها قرن من السياسة الإسلامية 1895-2005. تح: زهيدة درويش جبور. دار كلة. أبو ظبي، الإمارات. ط01، 2012.
52. صلاح مؤيد العظم، رحلة في الصحراء الكبرى بإفريقيا. تح: صلاح الدين حسن السّوري. مركز جهاد للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا. 1998.
53. صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها. دار البصائر. الجزائر. ط02، 2009.
54. الطاهر بوناني، التصوف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين 12 و13 الميلاديين. دار الهدى. عين مليلة، الجزائر. 2004.
55. طه عبد الرحمن، العمل الديني وتحديد العقل. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ط01، 1997.
56. طه عبد الرحمن، دين الحياء من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني. المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، لبنان. ط01، 2017.
57. طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الانتمانية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ط02، 2012.
58. طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحدثا الغربية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ط02، 2005.
59. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر . مؤسسة نويهض الثقافية. بيروت، لبنان. ط2، 1980.
60. عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ أحمد التيجاني وأتباعه. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. 2008.
61. عبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. 2009.

62. عبد الحليم محمود، قضية التّصوّف المنقذ من الضلال. دار المعارف، القاهرة، مصر. ط05، 2007، عبد الغني قاسم، المذاهب الصّوفيّة ومدارسها. مكتبة المدبولي، القاهرة، مصر. ط02، 1999.
63. عبد الحميد حميدو التّلمساني، السّعادة الأبديّة. المطبعة الجديدة. فاس، المغرب. 1996.
64. عبد الحيّ القادري، الرّواية القادرية عبر التّاريخ والعصور. مطبعة تطوان. المغرب. 1986.
65. عبد الرّحمان بدوي، الإنسانيّة والوجود في الفكر العربيّ. مكتبة النّهضة العربيّة، مصر. 1974.
66. عبد الرّحمان بدوي، تاريخ التّصوّف الإسلاميّ من البداية حتّى نهاية القرن الثّاني. وكالة المطبوعات، الكويت. ط01، 1975.
67. عبد الرّحمان جيلالي، تاريخ الجزائر العام. ج03. دار الأمة. الجزائر، 2009.
68. عبد السّتار عزّ الدين الرّاوي، التّصوّف والباراسكولوجيا. المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، لبنان. ط01، 1994.
69. عبد السلام الغرميني، الصّوفيّ والآخِر: دراسات تقديّة في الفكر الإسلاميّ المقارن. المدارس، الدّار البيضاء، المغرب. ط01، 2000.
70. عبد العزيز بن عبد الله، معلّمة التّصوّف الإسلاميّ التّصوّف المغربيّ خواص ومميّزات. ج02. مطبعة المعارف الجديدة، الرّباط، المغرب. 2001.
71. عبد القادر أحمد عطا، التّصوّف الإسلاميّ بين الأصالة والاقتباس في عصر النّابلسي. دار الجيل، بيروت، لبنان. ط1. 1987.
72. عبد القادر الكوهيني، خلاصة شرح ابن عجيبة على متن الأجرومية في التّصوّف. مكتبة النّجاح، طرابلس، ليبيا. دت.
73. عبد القادر زكي، النّفحة العلية في أورد الشاذلية. مطبعة النّيل. مصر. ط01، 1321هـ.

74. عبد القادر عيسى، **حقائق عن التصوف**. منشورات دار العرفان، حلب، سوريا. ط 16، 2007.
75. عبد القادر محمد سيلا، **المسلمون في السّغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل**. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر. ط01، 1985.
76. عبد القادر محمود، **الفلسفة الصوفية في الإسلام**. مطبعة المعرفة، القاهرة، مصر. ط01، 1967.
77. عبد الله حمادي الإدريسي، **زاوية سيدي أحمد بن موسى السّاوري بوادي السّاورة وبلاد كرزاز**. دار بوسعادة للنشر والتوزيع. الجزائر. ط01، 2013.
78. عبد الله ركيبي، **الشعر الديني الجزائري الحديث الشعر الديني الصوفي**. ج01. دار الكتاب العربي، القبة، الجزائر. 2009.
79. عبد الله ركيبي، **الشعر الديني الجزائري الحديث**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1981.
80. عبد الله طواهرية، **تذكرة الخلاف في مناقب العلامة الشيخ سليمان أبي سماعة**. المطبعة الغربية. غرداية، الجزائر. ط01، 2002.
81. عبد المجيد الصّغير، **التصوف كوعي وممارسة**. دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، المغرب. ط01، 1999.
82. عبد المنعم القاسمي الحسيني، **أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى**. دار الخليل القاسمي، المسيلة، الجزائر. ط1. 2005.
83. عبد المنعم القاسمي الحسيني، **الطريقة الرحمانية الأصول والآثار**. دار الخليل للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر. ط01، 2013.
84. عبد الواحد يحي، **أزمة العالم الحديث**. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن. ط01، 2017.

85. عبد الواحد يحي، **التربية والتحقق الروحيّ تصحيح ومفاهيم** . تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط01، 2014.
86. عبد الواحد يحي، **التصوّف الإسلاميّ المقارن** . تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط01، 2013.
87. عبد الواحد يحي، **السلطة الروحيّة والحكم الزمنيّ** . تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط01، 2018.
88. عبد الواحد يحي، **رُموز العلم المقدّس**. تح: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط01، 2014.
89. عبد الواحد يحي، **شرق وغرب**. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط01، 2016.
90. عبد الواحد يحي، **نظرات في التربية الروحية**. تر: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط01، 2014.
91. عبد الواحد يحي، **هيمنة الكمّ وعلامات آخر الزّمان** . تح: عبد الباقي مفتاح. عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن. ط01، 2013.
92. عبد الوهاب شعلان، **إشكالية الفكر العربيّ المعاصر**. مكتبة الآداب، القاهرة، مصر. ط01، 2006.
93. عرفان عبد الحميد فتاح، **نشأة الفلسفة الصّوفية وتطوّرها**. دار الجيل، بيروت، لبنان. ط01، 1993.
94. علي أحمد سعيد أدونيس، **الصّوفيّة والسريالية**. دار الساقي، بيروت، لبنان. ط 03، 2004.
95. علي سالم عمار، **أبو الحسن الشاذلي**. دار التّأليف، القاهرة، مصر. ط01، 1961.
96. عمّار هلال، **الطّرق الصّوفيّة ونشر الإسلام والثّقافة العربية في غرب إفريقيا السّمر**. مطبوعات وزارة الثّقافة، الجزائر.

97. عُمر فروخ، تاريخ الفكر العربي. منشورات المكتب التجاري، بيروت، لبنان. ط 01، 1962.
98. عميرايي احميدة، رسالة الطريقة القادرية في الجزائر. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر. 2003.
99. غلام حسين الإبراهيمي الديباني، إشراق الفكر والشهود في فلسفة السهروري. دار الهادي، بيروت. ط 01، 2005.
100. غيتاوي التهامي، الرائد في ذكر جملة من حياة وفضائل وكرامات الشيخ سيدي محمد بلقايد. المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار. الرويبة، الجزائر. 2002.
101. فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1985.
102. فوزي محمد أبو زيد، الأجوبة الربانية في الأسئلة الصوفية. دار الإيمان، القاهرة، مصر. ط 01، 1108.
103. قاسم عباس محمد، أبو زيد البسطامي المجموعة الصوفية الكاملة. دار الهدى للثقافة والنشر. دمشق، سوريا. ط 01، 2004.
104. كولن ولسن، سقوط الحضارة. تر: أنيس زكي حسن. منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان. ط 03، 1982.
105. لويس ماسينيون، مصطفى عبد الرزاق، التصوف. تر: دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان. ط 01، 1984.
106. محمد أبو القاسم حاج محمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية. دار الهادي، بيروت، لبنان. ط 03، 2004.
107. محمد أبو رمان، أسرار الطريق الصوفي مجتمع التصوف والزوايا والحضرات في الأردن. عالم الفكر للطباعة، عمان، الأردن. ط 01، 2020.

108. مُحَمَّدٌ أَبُو رَمَان، الصَّوْفِيَّةُ الْيَوْمَ قِرَاءَةُ مُعَاَصِرَةٍ فِي مُجْتَمَعِ التَّصَوُّفِ وَنَمَازِجِهِ. عَالَمُ الْفِكْرِ لِلطَّبَاعَةِ، عَمَّانَ، الْأُرْدُن. ط01، 2020.
109. مُحَمَّدٌ إِقْبَال، دِيْوَانُ الْأَسْرَارِ وَالرَّمُوزِ. تَر: عَبْدُ الْوَهَّابِ عَزَّام. مُؤَسَّسَةُ هِنْدَاوِي لِلتَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَةِ. الْقَاهِرَةُ، مِصْر. 2014.
110. مُحَمَّدٌ إِقْبَال، رِسَالَةُ الْخُلُودِ. تَر: مُحَمَّدُ السَّعِيدُ جَمَالُ الدِّينِ. مَطْبَاعُ سِجْلِ الْعَرَبِ. الْقَاهِرَةُ، مِصْر. 1974.
111. مُحَمَّدٌ الصَّالِحُ حَوْثِيَّة، تَوَاتٍ وَالْأَزْوَادِ. ج01. دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ. الْجَزَائِر. 2007.
112. مُحَمَّدٌ الْمُخْتَارُ السَّرْسِي، الْمَعْسُولُ. ج 15. مَطْبَعَةُ الْجَامِعَةِ. الدَّارُ الْبَيْضَاءُ، الْمَغْرِب. 1961.
113. مُحَمَّدٌ بِاسْمُ دِهْمَان، الْأَدَابُ السَّلَوَكِيَّةُ لِطَالِبِي الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ. دَارُ الْعَصْمَاءِ، دِمَشْق، سُورِيَا. ط01، 2010.
114. مُحَمَّدٌ بْنُ أَحْمَدَ الْبُزَيْدِي، الْأَدَابُ الْمَرْضِيَّةُ لِسَالِكِ طَرِيقِ الصَّوْفِيَّةِ. دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوت، لُبْنَان. ط01، 2006.
115. مُحَمَّدٌ بْنُ الطَّيِّبِ، إِسْلَامُ الْمُتَصَوِّفَةِ. دَارُ الطَّلِيْعَةِ، بَيْرُوت، لُبْنَان. ط01، 2007.
116. مُحَمَّدٌ بْنُ بَرِيكَةَ، التَّصَوُّفُ الْإِسْلَامِيُّ مِنَ الرَّمْزِ إِلَى الْعِرْفَانِ. دَارُ الْمَتُونِ لِلنَّشْرِ وَالطَّبَاعَةِ وَالتَّوْزِيْعِ. الْجَزَائِر. ط01، 2006.
117. مُحَمَّدٌ بْنُ عِمَارَةَ، الْأَثَرُ الصَّوْفِيُّ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْمَعَاصِرِ. شَرَكَةُ النَّشْرِ، الدَّارُ الْبَيْضَاءُ، الْجَزَائِر. ط01، 2001.
118. مُحَمَّدٌ عَبْدُ الْجَابِرِي، الْعَقْلُ الْأَخْلَاقِيُّ الْعَرَبِيُّ. مَرْكَزُ دِرَاسَاتِ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ، بَيْرُوت، لُبْنَان. ط01، 2001.
119. مُحَمَّدٌ عَبْدُ الْجَابِرِي، بُنْيَةُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ. مَرْكَزُ دِرَاسَاتِ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ، بَيْرُوت، لُبْنَان. ط09، 2009.

120. مُحَمَّد عبد الرَّحمان بن حسين، الفتوحات الإلهية في نُصرة التَّصَوِّف الحقَّ الخالي من الشَّوائب البدعية. دار المعارف، بيروت، لبنان. ط01، 2012.
121. مُحَمَّد فتحه، النوازل الفقهية والمجتمع - أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي. منشورات كُلية الآداب والعلوم الإنسانية. الدَّار البيضاء، المغرب. 1999.
122. مُحَمَّد قُطب، منهج الفن الإسلامي. دار الشُّروق، القاهرة، مصر. ط02، 2006.
123. مُحَمَّد مُصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام. دار الكتاب اللبَّاني، بيروت، لبنان، 2010.
124. مخلف يحيى القادري الحسيني، العقد الفريد في بيان خُلوَّة التَّوْحِيد على منهج الطَّريقة القادرية العلية. دار النور العلمية، الإسكندرية، مصر. ط01، 2017.
125. منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، دور الشَّيخ عدَّة بن غلام الله في نشر الحكمة الصَّوفية وممارسة القضاء. سلسلة القوافل العلمية. تسيَّمسيلت، الجزائر. 2011.
126. مُولاي التَّوْهامي غيتاوي، الدَّرر النفيسة في ذكر جُملة من حياة الشَّيخ أحمد بن موسى. الوكالة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر. ط01، 2004.
127. ناجي حسين جودة، التَّصَوِّف عند فلاسفة المغرب ابن خلدون أنموذجًا، دار الهادي، بيروت، لبنان. ط01، 2006.
128. ناصر الدين سعيديوني، من التَّراث التَّاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. 1999.
129. نجيب زكي محمود، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري. دار الشُّروق، بيروت، لبنان. (د.ت).
130. نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع مُساهمة في التَّاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي. دار الفارابي، بيروت، لبنان. 2006.
131. نهاد خياطة، دراسة في التَّجربة الصَّوفية. دار المعرفة، دمشق، سوريا. ط01، 1994.
132. هادي العلوي، مدارات صُوفيَّة. دار الهدى للطباعة والنَّشر، دمشق، سوريا. ط01، 1997.

133. هشام جعيط، أزمة الثقافة الإسلامية. دار الطليعة، بيروت، لبنان. ط01، 2000.
134. هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين. تح: سامي الدروبي، عبد الله عبد الدائم. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر. ط01، 1971.
135. ولتر سيتس، التصوف والفلسفة، تر: إمام عبد الحميد الفتاح إمام. مكتبة المدبولي، القاهرة، مصر. 1999.
136. يحي بعبطيش، دراسات في الخطاب الصوفي عند أقطاب الطريقة العلوية. مؤسسة العالمين، القاهرة، مصر. ط01، 2009.
137. يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. ج02. دار الغرب الإسلامي. بيروت، لبنان. ط01، 1995.
138. يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب. ج01. دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع. عين مليلة، الجزائر.
139. يحي هويدي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية. ج01. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر. ط1. 1965.
140. يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية. المطبعة العربية، غرداية، الجزائر. 1992.
141. يوسف محمد زيدان طه، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر. دار الجيل. بيروت، لبنان. ط01، 1991.

3- الموسوعات والمعاجم:

1. ابن منظور، لسان العرب. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. مجلد 01. ط01، 2005.
2. أبي القاسم الزجاج الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن. دار المعرفة. بيروت، لبنان.
3. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة. تح: عبد السلام هارون. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1979.

4. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي. مكتبة النهضة العربية. القاهرة، مصر. ط 10، 1995.
5. إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح. تح: محمد محمد تامر. دار الحديث، القاهرة، مصر. ط 01، 2009.
6. أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية . ج 01. تعريب خليل أحمد خليل. منشورات عويدات. بيروت. لبنان. ط 2، 2001.
7. رابح خدوسي. موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين . منشورات الحضارة الجزائر. ج 1. (د.ط.). (د.ت.).
8. الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن. ج 01. مكتبة نزار مصطفى. مكة المكرمة. السعودية.
9. رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوّف الإسلامي. مكتبة ناشرون، بيروت، لبنان. ط 01، 1999.
10. عبد الحيّ الكتاني، فهرس الفهارس والأثبتات ومُعجم المعاجم والمسلسلات. ج 01. تح: إحسان عبّاس. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. 1982.
11. علي بن محمّد الجرجاني، التعريفات. ج 01، تح: إبراهيم الأعيادي. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. ط 01.
12. الفيروز آبادي، القاموس المحيط. تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة. بيروت، لبنان. ط 08، 2005.
13. الكسنزان مُحمّد، موسوعة الكسنزان فيما أُصطلح عليه أهل التّصوّف والعرفان. ج 07. دار آية، بيروت، لبنان. ط 01، 2005.
14. مُجمّع اللّغة العربية، المعجم الوسيط. مكتبة الشّروق الدّولية. ط 04، 2004.

1. بشير جلطي، البُعد التربويّ في الطّريقة العلاويّة. مجلة الحضارة الإسلامية ، العدد الرابع والعشرون، 2014، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر.
2. بن عمر حسن. أسلوب الرسائل الأدبية الدينية الصوفية عند الإمام الشاعر المادح سيدي الحاج محمد بن يلس. مجلة أنثربولوجيا الأديان. العدد التاسع.
3. ع. زهيرة، مُبادرة من أئمة وشيوخ زوايا بعنابة: زيارة صلح إلى ولاية غرداية. جريدة الخبر. الأربعاء 19 فيفري 2014.
4. عبد الحميد مرزوقي، مُحمّد بوزيدي، مجلة البصائر. العدد 861. الجزائر. 2021.
5. عبد القادر بقادر، المخطوطات الجزائرية بالخزانة العامّة بالرباط. مجلة رفوف ، جامعة أدرار، العدد 2، 2013.
6. عبيد بُوداود، دور الزّوايا في الحفاظ على التّراث المخطوط زاوية كرزاز أنموذجًا . المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، العدد الأوّل، 2009.
7. عزيز الكبيطي إدريس، ظاهرة التصوف الإسلامي في الغرب الحديث. مجلة حوليات التّراث، جامعة مستغانم، الجزائر. العدد 10، 2010.
8. عزيز بطران، الشيخ المختار الكنتي الكبير ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب إفريقيا، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد، السنة الثالثة، العدد الثاني، 1981.

5/- الرسائل الجامعية:

1. الطّاهر بوناني، الحركة الصّوفيّة في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتّاسع الهجريين 14/13م. رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر. 2009.
2. منال عبد المنعم، السيّد جاد الله، أثر الطّريقة الصّوفيّة في الحياة الاجتماعية لأعضائها. رسالة دكتوراه. القاهرة، مصر. 1996.

6/- المواقع الإلكترونية:

1. الموقع التّالي: [www. Radio Algerie.dz/pub](http://www.RadioAlgerie.dz/pub)
 2. الموقع التّالي: [www.aps. Dz/ ar/ algerie// www.maghreb voices. Com](http://www.aps.Dz/ar/algerie//www.maghrebvoices.Com)
 3. موقع مدينة قمار 23 سبتمبر 2018. المكتبة الفلسفية الصّوفيّة. على الموقع التّالي: [maktaba-falsafia. com](http://maktaba-falsafia.com)
 4. علي بن محمد. ترجمة الشيخ محمد بلقايد . المنشور في 2015/02/09، تمّ الاطلاع عليه يوم 2021/06/17 على الموقع التّالي: <https://assafaa.ahlamontada.com/t2316-topic>
 5. ياسين بودهان، تقرير الجزيرة لقناة الجزائر 2014/11/10. العدد الرّابع، 10 فبراير 2019. على الموقع التّالي: [www. Magalla.com](http://www.Magalla.com)
- 7/- المراجع بالّلغة الأجنبيّة:**
1. Andreur Rauvlimoom : A history of westerw sufism , Discus, vol 1, N01, 1993.
 2. Eric Geoffroy. Le soufisme. Voice intérieure de l'islam seuil. Coll. "point" 2009.
 3. EVA de vitray – Meyerovitch. Anthologie de soufisme Spiritualites viantes. Albin Michel. Coll. Spiritualites vivantes, 1995.
 4. Zidane Meriboute, la fracture islamique demain le soufisme biblioteque fayard paris France, 2004.

قائمة الملاحق

جامعة مولاي الطاهر سعيدة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم علم الاجتماع

يهدف هذا الاستبيان إلى التعرف على أبعاد التربية الصوفية ووظيفتها في المجتمع الجزائري، ولهذا يسرنا كثيرا تعاونكم معنا، والإجابة عن الأسئلة المتضمنة فيه بشكل صريح وموضوعي، وكافة المعلومات التي سيتم الحصول عليها سوف تكون سرية ولن تستخدم إلا لغرض البحث العلمي، وشكرا لكم.

1- البعد الحضاري والإنساني:

- هل أنت على تواصلٍ مع مريدين آخرين من طُرُقٍ صُوفِيَّةٍ أُخرى ☐ نعم ☐
- المواضيع التي تهتم بها الطريقة الصوفية أو الزاوية هي ذات طابع ☐ خاص ☐ وطني ☐ عالمي
- هل تقوم الزاوية بتنظيم ملتقيات وندوات فكرية ؟ ☐ نعم ☐ لا
- التصوف مرجعية أخلاقية ☐ للمريد فقط ☐ للمجتمع ☐ للإنسان
- هل تقوم الزاوية بنشر مجلات ومؤلفات ☐ نعم ☐ لا
- هل عندك أصدقاء من طرق وزوايا أخرى خارج الوطن؟ ☐ نعم ☐ لا

2- البعد الفكري الثقافي:

- ماهي المواضيع التي توليها أهمية كبيرة في التصوف؟

- سير المشايخ ☐ الكرامات ☐ العلوم ☐ المتون ☐ الحكم ☐

- ما هي أسماء بعض المتون التي تحفظها؟ اذكر بعض الحكم الصوفية؟

.....

- ما طريقة الزاوية التي تنتمي إليها؟

.....

- وما أصلها؟

.....

- ومن هم أهم مشايخها؟

.....

- اذكر طريقتين أخريتين تعرفهما وأهم مشايخها؟.

.....

- ما هي أهم إنتاجات العلماء الصوفية؟ فقه ☐ تفسير ☐ حديث ☐ لغة ☐ تصوف ☐

- اذكر نماذج مما اخترته

.....

- اذكر ثلاث مصادر للتصوف

.....

3- البعد الروحي:

- ما الدافع لانخراطك في الطريقة؟ ذاتي ☐ عائلي ☐ رؤيا ☐ ثيرات أخرى ☐

إذا كان تأثير آخر ما هو؟

.....
- ما هي التأثيرات التي حصلت لك بعد الانخراط في الطريق الصوفي؟
.....

ما نوعها؟

.....
- ممارستك لشعيرة الصلاة هل حدث فيها تغيير؟ نعم ☐ لا ☐

إذا كانت إجابتك ب"نعم" ما هو هذا التغيير؟
.....

- تلتزم بأوراد الطريقة في الوقت نعم ☐ لا ☐

- كيف تقوم بوردك؟
.....

- الذكر الممارس مرتبط بالورد فقط نعم ☐ لا ☐

- هل تؤدي بعض نوافل العبادة؟ صيام ☐ صلاة ☐ نوافل أخرى ☐

- هل رأيت شيخك في المنام؟ نعم ☐ لا ☐

إذا كان نعم ما عدد المرات التي تراه؟

أسبوعيا ☐ شهريا ☐ سنويا ☐ حالات أخرى ☐

4- البعد الأخلاقي:

- رتب الصفات التالية حسب الأهمية في رأيك: ☐ الكرم ☐ الصدق ☐ الإيثار ☐
- أيهما أفضل؟ ☐ المعصية المقرونة بالندم ☐ الطاعة مع الرضا عن النفس ☐
- إحساسك عند قيامك بطاعة معينة: ☐ فرح ☐ عادي ☐ عدم رضا ☐
- هل تكره العاصي؟ ☐ نعم ☐ لا ☐
- هل ترى نفسك أفضل من الكافر؟ ☐ نعم ☐ لا ☐

المعلومات الشخصية:

- الجنس: ☐ ذكر ☐ أنثى ☐
- السن: ☐ 25-16 ☐ ما بين 25-35 ☐ أكثر من 35 ☐
- الحالة الاجتماعية: ☐ أعزب ☐ متزوج ☐ حالات أخرى ☐
- المستوى العلمي: ☐ ابتدائي ☐ متوسط ☐ ثانوي ☐ جامعي ☐ دراسات عليا ☐

الفهارس

سورة الإسراء	الآية 24، 85	ص 07، 16
سورة يوسف	الآية: 53، 58، 53	ص 13، 71، 168
سورة القيامة	الآية 02	ص 14
سورة الفجر	الآية 27-28	ص 14
سورة العنكبوت	الآية 69	ص 23، 44، 92،
سورة الحجرات	الآية 13	ص 23
سورة النساء	الآية 77	ص 23
سورة الطلاق	الآية 03	ص 23
سورة إبراهيم	الآية 09	ص 23
سورة المائدة	الآية 83	ص 72
سورة البقرة	الآية 282، 110	ص أ، 23، 155
سورة الكهف	الآية 65، 28	ص 23، 54
سورة الحجر	الآية 09	ص 56
سورة آل عمران	الآية 18، 191، 08	ص 56، 155، 157
سورة الأعراف	الآية 172	ص 59، 299
سورة الشورى	الآية 11	ص 70
سورة محمد	الآية 06	ص 71
سورة المدثر	الآية 02	ص 96
سورة النجم	الآية 02-05، 08-09، 17	ص 96، 96، 97
سورة الحشر	الآية 21،	ص 144
سورة الأحزاب	الآية 56	ص 153
سورة الشعراء	الآية 88-89	ص 170

ص 10، 29	«...قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ"»
ص 11	«ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَأَنَّهٗ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنْ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»
ص 10، 11، 29، 94، 45	«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»
ص 17	((مَا وَسَعَنِي لَا سَمَائِي وَلَا أَرْضِي وَلَكِنْ وَسَعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ))
ص 17	((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ))
ص 29،	((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا. فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ: وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعَذِّبَهُ))
ص 44، 182	((... وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ...))
ص 44	((قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزَاةٍ لَهُ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقَدِمٍ، قَالَ: مُجَاهِدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ))
ص 98	((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا. فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ: وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعَذِّبَهُ))
ص 182	((حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ))
ص 182	((وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))
ص 184	((إِذَا رَأَيْتَ شَحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ))
ص 185	((كَانَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِذَا رَجَعَ وَحَطَّ عَنْ رَاحِلَتِهِ، قَالَ: الْجَمَاعَةُ))
ص 195	((خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ))
ص 208	((الْيَسْتِ نَفْسًا))
ص 209	((لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَكَ وَقَالَ لِي: أَنْتَ مَعْنَى الْكُونِ كُلِّهِ...))

ص 218	((إنّ الله خلق آدم على صورته))
-------	--------------------------------

فهرس الأعلام الأجانب	
ص: 05، 20.	لويس ماسينيون (Louis Massignon) (1883-1962م)
ص: 05، 33، 176، 236، 244	ريني جينو (René Guénon) الذي أصبح اسمه عبد الواحد يحي (15 نوفمبر 1886، 07 يناير 1951م)
ص: 05.	إيفادو فيتراي مياروفيتش، Eva de Vitray-Meyerovitch (5 نوفمبر سنة 1909 - 24 يولييه 1999).
ص: 08	أندريه لالاند (André Lalande) (1876-1963).
ص: 20، 21	رينولد ألين نيكلسون (Reynold Alleyne Nicholson) (1285-1364هـ / 1868-1945م)
ص: 20، 89.	جون سبنسر ترمنجهام (J. Spencer Trimingham) (1904-1987م)
ص: 20، 21.	اجنتس جولد تسهر (Ignác Goldziher) (1266-1340هـ / 1850-1921م)
ص: 20،	جورج ماكدونالد (George MacDonald) (1824-1905م)
ص: 20.	مرجريت سميث (Margaret Smith) (1884-1970م)
ص: 59.	أنا ماري شيميل (Annemarie Schimmel) (1922م-2003م)
ص: 244، 245	فرثيوف شوون "Frithjof Schuon" أصبح اسمه عيسى نور الدين أحمد (1907-1998م)
ص: 245،	إيفيان آجيلي أو إيفان أغيلي "Ivan Aguéli" أصبح اسمه الشيخ عبد الهادي عقيلي (1869-1917)
ص: 246،	تيتوس بوركهاردت "Titus Burckhardt" " 1327هـ - 1404 هـ / 1908-1984م" أصبح اسمه إبراهيم عز

الدين	
شارل ديغول (Charles de Gaulle) (1890-1970م)	ص: 200
إيزابيل إبيرهارت (Isabelle Eberhardt) (1877-1904م)	ص: 143

ص: 03، 30، 122	أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن مهران الأصفهاني (336هـ - 430هـ).
ص: 03، 23، 103، 111، 178.	عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري (376هـ - 465هـ).
ص: 03، 24، 103، 193.	أبو نصر عبد الله السراج الطوسي (ت. 378هـ / 988م)
ص: 03، 103، 111	أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي، المكي (ت. 386هـ).
ص: 03، 08، 80، 103.	أحمد بن محمد بن الحسين بن الحسن، أبو نصر البخاري الكلاباذي (398 - 323هـ / 935 - 1008م)
ص: 03، 21، 31، 109، 136.	شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي البغدادي (539 هـ - 01 محرم 632 هـ).
ص: 04، 16، 42، 47، 69، 79، 80، 104، 105، 111، 112، 136، 178، 192	أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي البغدادي الخزّاز القواريري (298 - 215هـ)
ص: 04، 80، 192.	أبو بكر دلف بن جعفر بن يونس الشبلي (247-334هـ/ 861-946م)
ص: 04، 81، 111،	أبو الحسين أحمد بن محمد البغوي النوري، المعروف بـ "ابن البغوي" (ت 295هـ)
ص: 06، 160.	مُحمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (13 رجب 23 ق.هـ - 17 مارس 599 م - 21 رمضان 40 هـ / 27 يناير 661 م.
ص: 06، 179	أبو حفص عمرو بن سلّمة النيسابوري (ت. 264هـ).
ص: 06، 148، 149، 150، 157	أبو المعالي محمّد العربي الدرقاوي الزروالي (1159هـ - 1239هـ / 1737م - 1823م)
ص: 06، 13، 16، 17، 21، 69،	محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي

72، 77، 84، 116، 128، 129، 133، 136، 224، 236	الأندلسي الشهير بـ محيي الدين بن العربي (1164- 1240م)
ص: 6، 105، 137، 142، 285.	هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني أو الكيلاني (11 ربيع الثاني 470هـ / 10 ربيع الثاني 561هـ)
ص: 07	سعد الدين، مسعود بن فخر الدين عمر بن عبد الله التفتازاني (722-792هـ / 1322-1389م)
ص: 08، 70.	الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني أو الأصبهاني، المعروف بالراغب (ت. 502هـ / 1108م)
ص: 08، 10	سعيد بن محمد ديب حوى (1354-1409هـ / 1953- 1989م)
ص: 09، 153، 235، 243، 285.	الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي (1291هـ- 1304هـ)
ص: 11	نَقِيّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ النُّمَيْرِيُّ الْحَرَّانِيُّ الملقَّب ابن تيمية (1269-1328م)
ص: 11	أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللّخمي الشامي الطبراني (260هـ-360هـ / 821م-918م)
ص: 12، 50، 68، 69، 91، 93، 100، 112، 138، 139، 140، 181، 182.	أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ الْعَزَّالِيُّ الطُّوسِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ الصُّوفِيُّ الشَّافِعِيُّ الْأَشْعَرِيُّ (450-505هـ / 1058-1111م)
ص: 16	النَّبَاجِيُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ سَعِيدُ بْنُ بُرَيْدٍ الصُّوفِيُّ (ت 225هـ)
ص: 09، 25، 27، 28، 29، 31، 42، 49، 50، 63، 88، 96، 100، 126، 144، 152، 158، 159، 178، 179، 182، 186، 195، 217، 236، 269، 273، 280،	أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم

293، 299.	
ص: 17، 29	أبو هُرَيْرَةَ عبد الرحمن بن صخر الدوسي (21ق.هـ - 59هـ / 602م - 679م)
ص: 21، 47، 134، 138، 194، 219.	أبو الْمُغِيثِ الْحُسَيْن بن مَنْصُور الحَلَّاج (244-309هـ / 858-922م)
ص: 21، 69، 129، 132.	عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الغافقي العكي (614-669هـ / 1217-1269م) المعروف بابن سبعين
ص: 27	مُحَمَّدُ مُصْطَفَى حلمي (1904-1969م)
ص: 30، 77.	أبو بكر الصَّدِّيق عبد الله بن أبي قُحافة التَّيْمِي الْقُرَشِيّ (50 ق.هـ - 13هـ / 573م - 634م)
ص: 10، 29،	أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي القرشي، المُلقب بالفاروق (40 ق.هـ - 23هـ / 586-644م)
ص: 31	محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المشهور بابن سعد (168-230هـ / 784-845م)
ص: 31	أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلي (ت. 63هـ)
ص: 31	عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي الملقب بأبو الدرداء (ت. 39هـ)
ص: 31	أبو ذر جُنْدَب بن جنادة الغفاري (ت. 32هـ)
ص: 31	سلمان الفارسي المكنى بأبي عبد الله (ت. 36هـ)
ص: 32	أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي (28 ق.هـ - 37هـ / 594م - 657م)
ص: 23، 63، 149.	موسى عليه السّلام عليه السلام
ص: 23	سيّدنا الخضر عليه السلام

ص: 58، 82، 238، 276، 287	أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الجذامي السكندري (658هـ-709هـ / 1260م-1309م)
ص: 137، 140، 145، 146، 150، 285	أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي (571-656هـ / 1196-1258م)
ص: 114، 115، 121، 142، 145، 235، 247، 285	أبو مدين الغوث شُعَيْب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الإشبيلي، وَكُنْيَتُهُ "أبو مدين" (509 - 594هـ / 1116-1198م)
ص: 157، 158، 159، 235، 285	أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني (1150 - 1230هـ / 1737-1815م)
ص: 201، 227، 233، 235، 247، 285	الأمير عبد القادر بن محي الدين المعروف بـ عبد القادر الجزائري (1223-1300هـ / 1808-1883م)
ص: 42، 194	جَعْفَرُ الْخُلْدِيِّ، واسمه جَعْفَرُ بن مُحَمَّد بن نصير أَبُو مُحَمَّد الْخَوَاص، وَيُكْنَى أبا محمد (253-348هـ / 867-959م)
ص: 42، 105، 111، 112، .	أبو الحسن السريُّ بنُ الْمُعَلِّسِ السَّقَطِي (160هـ- 251هـ)
ص: 42	أبو حمزة أنس بن مالك النجاري الخزرجي (10 ق.هـ- 93هـ)
ص: 44	فضالة بن عبيد (ت. 53هـ)
ص: 44	طه عبد الرحمن (ولد في سنة 1944)
ص: 45، 68، 105	أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني (140هـ- 215هـ)
ص: 48، 83، 92	عَبْد الرَّحْمَنِ بن مُحَمَّد ابن خَلْدُون أَبُو زَيْد وَلِي الدِّين

	الْحَضْرَمِيُّ الْإِشْبِيلِي المعروف بابن خَلْدُون (1332-1406م / 784-804هـ).
ص: 49.	مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن حُسَيْن بَهَاء الدِّين الْبَلْخِي الْبَكْرِي، عرف أيضا باسم مولانا جلال الدِّين الرُّومِي (604-672هـ / 1207-1273م)
ص: 50، 258، 286، 287، 296.	عبد الواحد بن عاشر هو أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي ابن عاشر الأنصاري، (990-1040هـ / 1582-1631م)
ص: 50، 104.	أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السُّلَمِي الشافعي (577 هـ - 660هـ / 1181م - 1262).
ص: 58، 81، 234، 271، 282.	تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الجذامي (658هـ-709هـ / 1260م-1309م)
ص: 61، 72، 179.	أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجويري الغزنوي (1009م-1072م)
ص: 62، 122، 145، 237.	سيدي أبو سالم إبراهيم بن محمد بن علي اللّنتي التّازي (ت. 866هـ / 1462م)
ص: 153، 204، 213، 240، 244، 245	أحمد بن مُصطفى بن عليوة أو العلوي الجزائري (1867م - 1934م)
ص: 59، 91، 218، 219	آدم عليه السلام
ص: 228.	خالد بن تونس (1949م)

ص: 201، 229، 231، 243	أحمد توفيق بن محمد بن أحمد بن محمد المدني القبي الغرناطي الجزائري (1317-1404هـ / 1899-1983م)
ص: 243	علي نور الدين الشرطي (1846-1899م)
ص: 64.	أبو عبيد البكري هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري (404هـ-487هـ/ 1030م-1094م)
ص: 104، 143، 145	جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضير السيوطي المشهور باسم جلال الدين السيوطي، (849-911هـ / 1445-1505م)
42، 68، 105.	معروف بن فيروز الكرخي (750م-815م)
ص: 113، 122، 132، 194، 230	أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي الغبريني، وكنيته أبو العباس (644هـ - 704هـ / 1246م - 1305م)
ص: 134، 195، 230	ابن مريم التلمساني هو محمد بن محمد بن أحمد، أبو عبد الله الشريف المليتي (ت 1014هـ)
ص: 230	أبو القاسم الحفناوي هو أبو القاسم بن الشيخ بن أبي القاسم الحفناوي الإبراهيمي الديسي
ص: 231	محمد بنعزوز بن المختار القاسمي الحسني الهاملي الشريف، أبو عبد الله عبد المنعم (1324هـ - 1404هـ/ 1906م - 1984م)
ص: 231، 235	محمد بن بركة الحسني (1958-2019م)
ص: 135، 145، 231	أبي القاسم سعد الله (1930م- 2013م)
ص: 231	عبد الرحمان بن محمد الجيلالي الحسني (1908- 2010م)
ص: 231، 232	أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي البجائي (702- 2010م)

	786هـ / 1303-1384م)
ص: 235، 245	عدّة بن تونس (1898 - 1952)
ص: 231	الحسين بن محمد السعيد الورتيلاني (1125-1193هـ / 1713-1779م)
ص: 232	يحي العبدليّ (ت 882هـ / 1486م)
ص: 232،	أبو الرّوح عيسى بن مسعود المنكلاتي الزواوي (664هـ - 743هـ / 1342م).
ص: 104، 115، 122، 145، 232، 233، 247، 248	عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (786 هـ - 875 هـ / 1384 - 1471م)
ص: 122، 145، 160، 232، 234، 240، 242، 248	مُحمّد يُوسف السنوسي (832-895هـ / 1426-1490م)
ص: 122، 145، 232	محمد هوارى (751-843هـ / 1350-1439م)
ص: 232	أبو مهدي عيسى بن سلامة البسكري (ت 860هـ)
ص: 133، 142	الحسن بن أبي القاسم بن باديس: (701 - 787هـ / 1301 - 1385م)
ص: 233	أحمد بن محمد المقرئ هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني القرشي المالكي الأشعري (986-1041هـ / 1578-1631م)
ص: 233	أبو حامد المشرفي العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي الحسني الغريسي (ت 1313هـ - 1895م)
ص: 233	عبد القادر السنوسي الخطابي المنور التلمساني
ص: 233	محمد بن علي السنوسي بن العربي، يعرف بالسنوسي الكبير (1787-1859م)
ص: 234	أحمد بن عبد الرّحمان النقاوس البجائي (ت. 797هـ - 1395م)
ص: 234	يُوسف بن مُحمّد بن يُوسف المعروف بابن النّحوي

	التوزري التلمساني، الحمادي (513 - 433هـ / 1041 - 1119م)
ص: 131، 234	يحي بن زكريا (أبو زكريا السطايفي): (ت 677 هـ / 1278م):
ص: 114، 121، 234	أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الإشبيلي، (510 - 581 هـ / 1116 - 1185م)
ص: 235، 248	عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماعة البكري ويُعرف بـ"سيدي الشيخ" (951 - 1025 هـ / 1544 - 1616م)
ص: 235، 240، 241، 248	المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن الشيخ سيد امر بن الشيخ سيد أحمد البكاي المعروف بـ الشيخ الكنتي الكبير (1142 - 1226 هـ)
ص: 235،	أبو عبد الله الشريف هو أبو عبد الله محمد بن أحمد العلويني الشريف الحسني المعروف بالشريف التلمساني (ت 771 هـ / 1369م)
ص: 236	عبد الباقي بن أحمد مفتاح (1952م)
ص: 237،	محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصبّاغ القلعي (920 هـ / 1514م)
ص: 237	عبد الرحمن بن محمد الأخضر: (920 - 953 هـ / 1514 - 1545م):
ص: 237	سيدي محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي الناصري (ت 1238م)
ص: 237،	أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري (ت 963 هـ / 1555م)

ص: 238،	مصطفى بن عبد الرحمن بن مصطفى بن محمد بن رمضان بن عصمان البسكري (1211هـ - 1323هـ/ 1797م - 1906م).
ص: 238	محمد بن أبي القاسم بن ربيع بن محمد بن عبد الرحيم بن سائب بن منصور بن عبد الرحيم أبو عبد الله الهاملي (1240 - 1315 هـ/ 1824 - 1897م)
ص: 104، 142، 143، 240، 243	عبد الله محمد بن عبد الكريم محمد المغيلي التلمساني (1425/1504م)
ص: 240، 248	سيد أحمد "البكاي" بن الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير بن سيدي اعل (ت 920هـ)
ص: 242	آدم بن عبد الباقي بن حبيب الله بن عبد الله الإلوري (1336-1413هـ / 1917-1992م)
ص: 243	محمد بن أحمد بن الهاشمي بن عبد الرحمن التلمساني (1298-1381هـ / 1881-1961م)
ص: 248	محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله الصنهاجي البوصيري، شرف الدين، أبو عبد الله (608- 696هـ / 1213-1295م)
ص: 248	أحمد بن محمد بن زكري المانوي أبو العباس المغراوي التلمساني (830هـ - 900هـ)
ص: 250	عمر محمود شعلال (1368-1437هـ / 1949- 2016م)
ص: 68، 69، 183.	الحارث بن أسد بن عبد الله العنزي المحاسبي البصري البغدادي (170هـ 243هـ)
ص: 68، 69، 80	ثوبان بن إبراهيم، كنيته "أبو الفيض" ولقبه "ذو النون" (179هـ - 245هـ / 796م - 859م)

ص: 69.	أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي (ت. 194هـ)
ص: 69.	أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري (200هـ - 283هـ)
ص: 69، 104، 111، 169، 224.	أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي (188هـ - 261هـ)
ص: 70.	أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروز آبادي (729هـ - 817هـ / 1329م - 1415م)
ص: 70،	هو أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب، أبو الحسين الرّازيُّ القزويني، المعروف بالرازي المالكي (329 - 395هـ / 941 - 1004م)
ص: 70،	أبو الحسن أحمد بن الحسن بن عبد الكريم الجوهري الخالدي الشاذلي (ت 1182)
ص: 71، 72	شرف الدين داود بن محمود بن محمد القيصري (ت 751هـ / 1350م)

ص: 194	بو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي ثم البلخي. وقيل: أبو بكر محمد بن حماد بن إسماعيل بن خالد الترمذي (ت 240هـ)
ص: 111، 194	أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار المعروف بالقصار (271هـ - 880م)
ص: 194	يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري يكنى أبا بكر، ويعرف بابن الصيرفي (1074-1162م)
ص: 194	أبو العباس ابن العلامة جمال الدين محمود بن أحمد البخاري، الحنفي (ت 698هـ)
ص: 111، 118، 194	أبو زكريا يحيى بن يوغان الصنهاجي (537هـ / 1142م)
ص: 194	أبو النجم هلال بن يونس الغبريني
ص: 194،	أبو سليمان داود بن مطهر الوجهاني (ت 1534م)
ص: 194، 195	محمد بن المدني بن كنون أبي عبد الله المستاري (ت 1302هـ)
ص: 129، 131، 195	أبو عبد الله الشوزي الحلوي توفي أوائل القرن (7هـ - 13م)
ص: 198	أبو زكريا يحيى بن أبي علي المشتهر بالزواوي (ت 611هـ / 1214م)
ص: 200،	إبراهيم بن عمر بيوض (1316هـ - 1401هـ / 1899 - 1981م)
ص: 201	الناصر بن شهرة أو بن ناصر بن شهرة (1804- 1884م)
ص: 201	محمد بن عبد الله بن وداح الملقب ببومعزة (1818م)
ص: 201	محمد أمزيان بن علي الحداد (1789-1873م)

ص: 201	لالة فاطمة نسومر "فاطمة سيد أحمد" (1830-1863م)
ص: 202	عبد الله الركيبي (1928-2011م)
ص: 203	عمر بن قدور ابن سعيد ابن باسن يمينة بنت أحمد (1886م - 1932م)
ص: 88، 92، 104	أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المشهور بالشعراني (898-973هـ)
ص: 89	الشيخ عبد الحليم محمود (1910-1978م)
ص: 90	عبد الغني بن قاسم بن عبد الرزاق، أبو القاسم، المقدسي الأصل، المصري الحنبلي (618هـ)
ص: 97	القاسم بن فيره ابن خلف بن أحمد أبو القاسم، وأبو محمد الشاطبي الرعيني، الضرير (538-590هـ/ 1144-1194م)
ص: 104،	عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم بن خليفة بن أحمد بن محمود الربيعي نسبا القادري طريقة عبد الكريم بن إبراهيم، قطب الدين. لقب بـ "الجيلي أو الجيلاني" (767-826هـ / 1366-1424م)
ص: 104	الخواجة أبو إسماعيل عبد الله الهروي الأنصاري ويُعرف أيضاً باسم أبي إسماعيل الهروي (396-481هـ/ 1006-1089م)
ص: 105	إبراهيم بن أدهم بن منصور بن جابر العجلي التميمي، والملقب بأبي إسحاق (80-166هـ)
ص: 105، 142،	حماد بن مسلم الدباس (ت 525هـ)
ص: 105	الكبير أبو البيان، نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الهوراني، ثم الدمشقي الشافعي (ت 551هـ)

ص: 111، 112	أحمد بن عيسى الخراز، أبو سعيد (ت 279هـ)
ص: 114	أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي (ت 580هـ)
ص: 114	أحمد بن حسن بن علي الخطيب القسطنطيني المعروف بابن قنفذ، وكنيته أبو العباس (740-810هـ / 1339-1407م)
ص: 115، 122، 145، 155	أحمد بن يوسف الملياني أبو العباس سيدي أحمد بن يوسف الراشدي (ت 931هـ - 1524م)
ص: 116،	أبو عبد الله محمد بن مسرة الجبلي الأندلسي (269-319هـ / 883-931م)
ص: 116، 128،	أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، ويُعرف بابن العريف (481-536هـ)
ص: 118،	أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي (400-500هـ / 1009-1006م)
ص: 118	أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي (476-537هـ / 1083-1143م)
ص: 119	عبد السلام التّونسي" (ت 512هـ-1118م)
ص: 119	يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد (603-680هـ / 1206-1282م)
ص: 119	مُحمّد بن مُحمّد أبي بكر بن مرزوق" (629-689هـ)
ص: 119	أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور ويُعرف بابن الخياط (ت 932/320م)
ص: 119	أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور بن مروان الأسلمي الديلمي الكوفي (144-207هـ)
ص: 119	أبو زكريا يحيى بن حفص أو أبو زكرياء يحيى أو أبو

	زكرياء يحيى الأول أو أبو زكرياء الأول (628هـ-649هـ/1228م-1249م)
ص: 119، 120	يحيى زكرياء أول (633هـ - 644هـ / 1236م-1248م)
ص: 120	أبو عبد الله محمد المستنصر هو -حسب ابن الشماخ - المولى أبو عبد الله محمد المنتصر ابن أبي زكرياء بن عبد الله أبي محمد عبد الواحد (647هـ-675هـ/1249م-1277م)
ص: 120	أبو عبد الله محمد بن علي القصري (ق7هـ - 13 م)
ص: 121	أبو يعزى يلنور بن ميمون، وقيل ابن عبد الله وقيل بن ميمون بن عبد الله بن عبد الرحمان. وقيل أنه أبو يعزى عبد الله بن عبد الرحمان بن ميمون الدكالي الهزميري (ت 572)
ص: 122	محمد الهواري (ت 843هـ)
ص: 122	مُحمّد التواتي البجائي (797هـ - 1395م)
ص: 128	ابن برجان عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الاشبيلي (ت 536هـ / 1141م)
ص: 129، 132	إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق (600هـ - 1214م)
ص: 129، 131، 132	أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري الأندلسي (610-668هـ / 1212-1269م)
ص: 130	ابن أحلى (ت 640هـ)
ص: 130	الحاج المغربي هو أحمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن يعقوب بن سعيد المناوي الورنيدي، عرف بـ"ابن الحاج" اليبدي التلمساني (897 ت هـ - 1493م)
ص: 130، 131	أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرالي

	التجيبى (ت 638هـ - 1241م):
ص: 130	شهاب الدين بن حبش السهرودى (ت 1183م)
ص: 130،	أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري المعروف بابن سينا (370- 427هـ / 980-1037م)
ص: 131	أبو الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي (ت 662هـ / 1263م)
ص: 131	أبو الحسن بن علي بن عمران بن موسى الملياني المعروف بابن أساطير (ت 670هـ / 1271م)
ص: 131	يحيى بن زكريا بن محجوبة القرشي، أبو زكرياء السطيفي (677هـ / 1278م)
ص: 132	محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش الأنصاري الخزرجي؛ تلمسني أندلسي الأصل، أبو العيش (600هـ - 654هـ)
ص: 133، 235	"عفيف الدين" سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني (610-690هـ / 1213-1291م)
ص: 178	محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، ثم الدمشقي الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية (691-751هـ)
ص: 178	الحسين بن أحمد بن جعفر، أبو عبد الله المعروف بابن البغدادى (ت 404هـ)
ص: 178،	أبو عبد الأحد، عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني، الإدريسي الحسني، الفاسي، المتكني بأبي الإسعاد، وأبي الإقبال، والمكني أيضا بأبي الإرشاد

	وأبي المجد وأبي الكُنَى (1302هـ - 1382هـ)
ص: 178	محمد زكي عبد السلام مبارك (1892م - 1952م)
ص: 136، 137	أحمد بن علي بن يحيى البدوي الحسيني الفاسي (596- 675هـ / 1199- 1276م)
ص: 136،	إبراهيم بن عبد العزيز أبو المجد لُقّب نفسه بالدسوقي (653-696هـ / 1255-1296م)
ص: 146	شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخزرجي الأنصاري المرسى (616هـ - 686هـ / 1219- 1281م)
ص: 147	أبو الحسن سيدي علي بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن إبراهيم بن عمران الشريف الحسني الإدريسي العمراني من شرفاء بني عمران أهل قبيلة بني حسان؛ لُقّب بالجمال (ت 1194هـ)
ص: 148	مُحمّد العربي الدّرّقاوي (1159هـ - 1239هـ / 1737م - 1823م)
ص: 148	أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور بالله (أو اختصاراً: يعقوب الخليفة الموحد أو يعقوب المنصور (1160-1199م)
ص: 06، 148، 149، 150، 157،	أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد بن الحسن بن سعيد الحسني، المعروف بمولاي العربي الدرقاوي (1150- 1239هـ / 1737-1823م)
ص: 150، 151،	سيّدي الحاج مُحمّد بن أحمد بن عبد الرّحمان العزّاوي الشّهير بالهبري (1280 - 1319هـ / 1863-1901م)
ص: 150،	أبو سعيد بن تونارت الدكالي (ت 749هـ)

ص: 151	سيدي الحاج محمد بن يلس (1271هـ - 1346هـ / 1855م - 1927م)
ص: 151	محمد بلقايد بن أحمد بن الحاج محمد بن العربي بن محمد الكبير الشريف الحسني الإدريسي، (1332 هـ - 1419 هـ / 1911م - 1998م)
ص: 151	محمد البشير الإبراهيمي (1306-1385هـ / 1889-1965م)
ص: 151	مصالي الحاج الملقب بـ "أبو الأمة" (1898-1974م)
ص: 152	سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة (940-1025هـ / 1533-1616م)
ص: 155	أحمد بن موسى بن خليفة مولى كرزاز (907هـ - 1013هـ / 1505م - 1604م)
ص: 155، 156	أحمد بن موسى الكرزازي (907-1016هـ / 1492-1608م)
ص: 156	محمد الطيّب بن إبراهيم بن أحمد الشريف "مولى ورقلة"، المعروف بـ "محمد بن عبد الله" (1240 - 1319هـ / 1825 - 1901م)
ص: 156	مُؤلاي الطيّب بن سيدي مُحمّد بن سيدي مُؤلاي عبد الله الشريف الوزاني (1005هـ - 1089هـ / 1597م - 1678م)
ص: 157، 158، 159، 235، 285	أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني (1150هـ - 1230هـ / 1737م - 1815م)
ص: 160	مُحمّد بن يوسف أبو عبد الله السنوسي الحسني (832هـ)

	- 895هـ)
ص: 161	أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي القاسم الحسني الأزهري الإدريسي (1126هـ - 1208هـ)
ص: 163	محمد العيد الشيخ الحاج علي بن الحاج عيسى التماسيني (1180-1260هـ / 1766-1844م)
ص: 187،	هشام جعيط (1936-2021م)
ص: 191	سيد حسين نصر (1933)
ص: 105	الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني (107-187هـ)

1/- فهرس الأشكال:

218	يُمثّل وصف العينة من حيث الجنس	1.
254	يُبيّن المستوى العلمي	2.
258	يُمثّل الدّافع للانخراط	3.
259	يوضّح التّأثيرات التي حصلت بعد الانخراط	4.
263	يُمثّل الذّكر الممارس الذي ارتبط بالورد فقط	5.

2/- فهرس الجداول:

15	1. أنواع النَّفس ومقاماتها
257	2. وصف العينة من حيث الجنس
258	3. وصف العينة من حيث السن
259	4. وصف العينة من حيث الحالة الاجتماعية
260	5. وصف العينة من حيث المستوى العلمي
262	6. وصف العينة من حيث دوافع الانخراط في الطريقة
264	7. وصف العينة من حيث التأثيرات الحاصلة بعد الانخراط في الطريقة
265	8. وصف العينة من حيث نوعية هذا التغيير
266	9. وصف العينة من حيث الالتزام بأوراد الطريقة في وقتها
267	10. وصف العينة من حيث طريقة القيام بالورد
268	11. وصف العينة من حيث وصف العينة من حيث ارتباط الذكر الممارس بالورد فقط
270	12. وصف العينة من حيث أداء بعض النوافل
271	13. وصف العينة من حيث رؤية الشيخ في المنام
272	14. وصف العينة من حيث عدد المرات التي تمّ فيها رؤية الشيخ في المنام
273	15. وصف العينة من حيث ترتيب الصفات
274	16. وصف العينة من حيث حالة المريد بين الطاعة والمعصية
275	17. وصف العينة من حيث الإحساس عند القيام بالطاعة
276	18. وصف العينة من حيث كره العاصي
277	19. وصف العينة من حيث رؤية المريد للكافر
277	20. وصف العينة من حيث تواصل المريدين مع مريدي طرق أخرى داخل الوطن
279	21. وصف العينة من حيث طابع المواضيع التي تهتم بها الطريقة الصوفية
279	22. وصف العينة من حيث تنظيم الزوايا للملتقيات والندوات

280	وصف العينة من حيث مرجعية التصوف خاصّة أم عامّة	23.
281	وصف العينة من حيث نشر الزوايا للمؤلفات والمجلات	24.
282	وصف العينة من حيث اتصال مع مريدين وزوايا أخرى خارج الوطن	25.
283	وصف العينة من حيث طبيعة المواضيع التي تُوليها أهمية كبيرة في التصوف	26.
284	وصف العينة من حيث معرفة بعض المتون والحكم	27.
285	وصف العينة من حيث الطريقة المنتمى إليها	28.
286	وصف العينة من حيث أهمّ إنتاجات علماء الصوفيّة	29.
287	وصف العينة من حيث ذكر ثلاثة مصادر للتصوّف	30.

ملخص البحث:

تناولنا في هذا البحث الإجابة عن الإشكالية التالية وهي: ما هي الأبعاد الوظيفية للتربية الصّوفية، وهل تمكّنت من تفعيل هذا المنهج التربوي وتجسيده في مجتمعنا الجزائري؟، وتمّت مناقشة هذه الإشكالية من خلال التعرّض لأصول التربية الصّوفية وشروطها، وأهم الطرق الصّوفية بالجزائر وخصوصيات كلّ طريق، وركّزنا كذلك على الأبعاد الوظيفية الروحية والأخلاقية، الاجتماعية والحضارية الإنسانية، والثقافية الفكرية، باعتماد الدّراسة الميدانية التطبيقية على مجموعة من مشايخ ومريدي بعض الطّرق ببلادنا.

فقد اهتمّت التربية الصّوفية في منهجها التربوي لبلوغ مقام الإحسان على التّركيّة والتّطهير "التّخلية والتّحلية"، وإعادة بناء الإنسان روحيا وأخلاقيا والسير به غير المقامات والمجاهدات، لتحقيق الاستقامة، وإحداث التوازن بين المتطلّبات الماديّة والروحيّة، مركّزة في ذلك على صدق التوجّه واتخاذ شيخ تربية، والمجاهدة والذكر والخلوّة.

وقد وقفنا من خلال هذه الدّراسة ومناقشة نتائجها وتحليلها على مدى أصالة ووظيفية هذه التربية في مجتمعنا الجزائري، من حيث الأبعاد المذكورة وأهميتها في بناء وترسيخ هويّته والمحافظة على كينونته ووحدته، وضرورة المحافظة والتّفعيل لهذه التربية وترسيخها.

Résumé:

Dans cette recherche, nous avons abordé la réponse à la problématique suivante : Quelles sont les dimensions fonctionnelles de l'éducation soufie, et avez-vous pu activer ce curriculum éducatif et l'incarner dans notre société algérienne ?, Cette problématique a été abordée à travers l'exposition aux origines de L'éducation soufie et ses conditions, les méthodes soufies les plus importantes en Algérie et les spécificités de chaque parcours, Nous nous sommes également concentrés sur les dimensions fonctionnelle, spirituelle, morale, sociale, civile, humaine et intellectuelle, en adoptant une étude de terrain appliquée sur un groupe des cheikhs et des adeptes de certains ordres de notre pays.

Dans son programme éducatif, l'éducation soufie visait à atteindre la station de charité sur la purification et la purification, « raffiner et adoucir », et à reconstruire l'être humain spirituellement et moralement, et à l'amener au-delà des stations et des luttes, afin d'atteindre l'intégrité. , et de trouver un équilibre entre les exigences matérielles et spirituelles, en se concentrant en cela sur la sincérité de l'orientation et en prenant un cheikh éducatif, et aldhikr et la solitude.

A travers cette étude, discussion et analyse de ses résultats, nous avons examiné l'authenticité et la fonctionnalité de cette éducation dans notre société algérienne, en termes de dimensions mentionnées et son importance dans la construction et la consolidation de son identité et la préservation de son entité et son unité, et la nécessité de maintenir, d'activer et de consolider cette éducation.

Summary:

In this research, we approached the answer to the following problem: What are the functional dimensions of Sufi education, and were you able to activate this educational curriculum and embody it in our Algerian society? Through exposure to the origins of Sufi education and its conditions, the most important Sufi methods in Algeria and the specificities of each course, We also focused on the functional, spiritual, moral, social, civil, human and intellectual, by adopting a field study applied to a group of sheikhs and disciples of some orders in our country.

In its educational program, Sufi education aimed to reach the station of charity on purification and purification, "to refine and soften", and to rebuild the human being spiritually and morally, and to bring him beyond the stations. and struggles, in order to achieve integrity. , and to find a balance between material and spiritual demands, focusing in this on sincerity of guidance and taking an educational sheikh, and aldhike and seclusion.

Through this study, discussion and analysis of its results, we have examined the authenticity and functionality of this education in our Algerian society, in terms of the dimensions mentioned and its importance in the construction and consolidation of its identity and the preservation of its entity and its unity, and the need to maintain, activate and consolidate this education

كلمة شكر

إهداء

مقدمة..... أ-د

85-01 الفصل الأول: التّربية الصّوفية ومنهجها

03	المبحث الأول: مقارنة مفاهيمية للتّربية الصّوفية ومصادرها.....
03	1- تعريف التّصوّف.....
07	2- مفهوم التّربية الصّوفية.....
11	3- التّركية.....
12	4- النّفس عند المتصوّفة.....
13	4-1/ النّفس الأمّارة بالسّوء.....
14	4-2/ النّفس اللّوامة.....
14	4-3/ النّفس المطمئنة.....
16	5- الرّوح.....
20	6- مصدرية التّصوّف.....
21	7- مصادر التّربية الصّوفية.....
22	7-1/ القرآن الكريم.....
26	7-2/ السّنة النّبوية.....
29	7-3/ حياة الصّحابة وأحوالهم.....
33	المبحث الثّاني: أصول التّربية الصّوفية وشروطها.....
33	1- شروط التّربية الصّوفية.....
33	1-1/ الكمون.....
37	1-2/ التّجريد والتّبليغ والتّهيؤ.....
43	1-3/ المجاهدة.....
47	2- المجاهدات ومُراقبتها.....
47	2-1/ مُجاهدة النّفوس.....
47	2-2/ مُجاهدة الاستقامة.....

48	 3-2 / مُجاهدة الكشف وَالاطّلاع
49	 3- / الشّيح
53	 4- / المريد
55	 4-1 / مِنْ آداب المريد مع شيخه
55	 4-2 / مِنْ آداب المريد مع إخوانه
55	 4-3 / مِنْ آداب المريد في السّلوكة
56	 5- / الذّكر
59	 6- / العهد والتلقين
60	 7- / لبس الخرقة
63	 8- / الخلوة
68	 المبحث الثالث: البعد العرفاني للتربية الصّوفيّة
70	 1- / مفهوم المعرفة "العرفان"
70	 1-1- / العرفان لُغَةً
71	 1-2- / العرفان اصطلاحًا
73	 2- / هدف المعرفة الصّوفيّة
84	 3- / حقائق المعرفة

164-86 الفصل الثاني: الطّرق الصّوفيّة بالجزائر التّأصيل والخصوصية

88	 المبحث الأول: الطّريقة وعلاقتها بالشّريعة والحقيقة
88	 1- / تعريف الطّريقة
90	 2- / الطّريقة طرُق
94	 3- / الشّريعة والحقيقة
101	 4- / العلاقة بين الشّريعة والحقيقة
105	 5- / الطّريقة وعلاقتها بالشّريعة والحقيقة
109	 المبحث الثاني: تأصيل الطّريقة الصّوفيّة تاريخيًا
112	 1- / إرهابات صوفيّة
113	 2- / الحركة الصّوفيّة في المغرب الأوسط وأسباب انتشاره

114	 1-2- عوامل فكرية
118	 2-2- عوامل سياسية
123	 3-2- عوامل اجتماعية
127	 3- التّصوّف التّخويّ التّطريّ
135	 4- التّصوّف الشّعبيّ
136	 المبحث الثالث: خصوصية الطّرق بالجزائر ومناهجها التّربوية
136	 1- الخصوصيات العامّة
141	 2- الطّرق الصّوفية في الجزائر وخصوصيتها
142	 1-2/ القادرية
144	 2-2/ الشاذلية
147	 3-2/ الدرقاوية
150	 4-2/ الطّريقة الهبرية
152	 5-2/ الشّيخية
153	 6-2/ العلوية
155	 7-2/ الكرزازية
156	 8-2/ الطّيبية
157	 9-2/ الطّريقة التّجانية
160	 10-2/ الطّريقة السنوسية
161	 11-2/ الطّريقة الرّحمانية

251-165

الفصل الثالث: الأبعاد الوظيفية للتّربية الصّوفية

167	 المبحث الأول: البعد الرّوحي والأخلاقيّ
167	 1- البعد الرّوحيّ
177	 2- البعد الأخلاقيّ
187	 المبحث الثاني: البعد الاجتماعيّ
187	 1- مظاهر البعد الاجتماعيّ
192	 1-1/ أدب الأخوة

193	2-1/ تكوين الأسرة.....
194	3-1/ الصّوفيّة والعمل.....
197	4-1/ التّكافل الاجتماعيّ.....
197	5-1/ وظيفة الإيواء والإطعام.....
198	6-1/ حل القضايا والنزاعات وإصلاح ذات البين.....
199	7-1/ تحقيق الوحدة الاجتماعية وترسيخ الهوية الوطنية.....
202	2-/ دور الرّوايا في نشر العلم.....
205	3-/ السّلام النّفسي والاجتماعيّ ونبذ العنف.....
207	المبحث الثالث: البعد الإنسانيّ والحضاريّ والثقافيّ.....
207	1-/ البعد الإنسانيّ والحضاريّ.....
210	1-1/ حاجة الإنسانية للتّصوّف.....
210	1-1-1/ إرواء الظّمأ الأنطولوجي للمقدس.....
213	1-1-2/ المبرر الحضاريّ.....
213	1-1-3/ المبرر الإيديولوجي.....
214	2-1/ التّصوّف والإخاء الإنسانيّ.....
217	1-2-1/ الإنسان الكامل.....
221	2-2-1/ التّسامي الإنسانيّ.....
223	3-2-1/ المحبّة.....
225	4-2-1/ السّلام والسّعادة الإنسانين.....
228	2-/ البعد الثقافيّ.....
230	1-2-/ حركة التّأليف.....
239	2-2-/ دور الطّرق الصّوفية في نشر الدّعوة الإسلامية.....
245	3-2-/ الآداب والفنون.....
247	4-2-/ المخطوطات.....
249	5-2-/ الملتقيات والمهرجانات الدّولية.....
250	6-2-/ الاتّحادات والجمعيات الصّوفيّة.....

297-252	الفصل الرابع: دراسة ميدانية للأبعاد الوظيفية
255	1/- تحكيم الاستثمار.....
255	2/- توزيع عينة الدراسة.....
257	3/- تحليل ومناقشة الدراسة.....
297	4/- الخلاصة.....
304-298	خاتمة.....
329-305	قائمة المصادر والمراجع.....
334-330	الملاحق.....
361-335	الفهارس.....
336	فهرس الآيات القرآنية.....
337	فهرس الأحاديث النبوية.....
339	فهرس الأعلام.....
359	فهرس الأشكال والجداول.....
362	ملخص البحث.....
365	فهرس الموضوعات.....

"التربية الصوفية وبعدها الوظيفي في المجتمع الجزائري – دراسة ميدانية –"

الملخص:

وتناولنا في هذا البحث الإجابة عن الإشكالية التالية وهي: ما هي الأبعاد الوظيفية للتربية الصوفية، وهل تمكنت من تفعيل هذا المنهج التربوي وتجسيده في مجتمعنا الجزائري؟، وتمت مناقشة هذه الإشكالية من خلال التعرض لأصول التربية الصوفية وشروطها، وأهم الطرق الصوفية بالجزائر وخصوصيات كل طريق، وركزنا كذلك على الأبعاد الوظيفية الروحية والأخلاقية، الاجتماعية والحضارية الإنسانية، والثقافية الفكرية، باعتماد الدراسة الميدانية التطبيقية على مجموعة من مشايخ ومريدي بعض الطرق ببلادنا.

فقد اهتمت التربية الصوفية في منهجها التربوي لبلوغ مقام الإحسان على التزكية والتطهير "التخلية والتحلية"، وإعادة بناء الإنسان روحيا وأخلاقيا والسير به عبر المقامات والمجاهدات، لتحقيق الاستقامة، وإحداث التوازن بين المتطلبات المادية والروحية، مركزة في ذلك على صدق التوجه واتخاذ شيخ تربية، والمجاهدة والذكر والخلوة.

وقد وقفنا من خلال هذه الدراسة ومناقشة نتائجها وتحليلها على مدى أصالة ووظيفية هذه التربية في مجتمعنا الجزائري، من حيث الأبعاد المذكورة وأهميتها في بناء وترسيخ هويته والمحافظة على كينونته ووحدته، وضرورة المحافظة والتفعيل لهذه التربية وترسيخها.

كلمات مفتاحية: التربية الصوفية، البعد، الوظيفي، المجتمع الجزائري، دراسة ميدانية،

«L'éducation soufie et sa dimension professionnelle dans la société algérienne, une étude de terrain »

Résumé :

Dans cette recherche, nous avons abordé la réponse à la problématique suivante : Quelles sont les dimensions fonctionnelles de l'éducation soufie, et avez-vous pu activer ce curriculum éducatif et l'incarner dans notre société algérienne ? Cette problématique a été abordée à travers l'exposition aux origines de L'éducation soufie et ses conditions, les méthodes soufies les plus importantes en Algérie et les spécificités de chaque parcours, Nous nous sommes également concentrés sur les dimensions fonctionnelle, spirituelle, morale, sociale, civile, humaine et intellectuelle, en adoptant une étude de terrain appliquée sur un groupe des cheikhs et des adeptes de certains ordres dans notre pays.

Dans son programme éducatif, l'éducation soufie visait à atteindre la station de charité sur la purification et la purification, « raffiner et adoucir », et à reconstruire l'être humain spirituellement et moralement, et à l'amener au-delà des stations et des luttes, afin d'atteindre l'intégrité. , et de trouver un équilibre entre les exigences matérielles et spirituelles, en se concentrant en cela sur la sincérité de l'orientation et en prenant un cheikh éducatif, et aldhikr et la solitude.

A travers cette étude, discussion et analyse de ses résultats, nous avons examiné l'authenticité et la fonctionnalité de cette éducation dans notre société algérienne, en termes de dimensions mentionnées et son importance dans la construction et la consolidation de son identité et la préservation de son entité et son unité, et la nécessité de maintenir, d'activer et de consolider cette éducation

Mots clés : éducation soufie, Dimensions fonctionnelles, la société algérienne , Étude empirique

« Sufi education and its career dimension in Algerian society, a field study »

Abstract :

In this research, we approached the answer to the following problem: What are the functional dimensions of Sufi education, and were you able to activate this educational curriculum and embody it in our Algerian society? Through exposure to the origins of Sufi education and its conditions, the most important Sufi methods in Algeria and the specificities of each course, We also focused on the functional, spiritual, moral, social, civil, human and intellectual, by adopting a field study applied to a group of sheikhs and disciples of some orders in our country.

In its educational program, Sufi education aimed to reach the station of charity on purification and purification, "to refine and soften", and to rebuild the human being spiritually and morally, and to bring him beyond the stations. and struggles, in order to achieve integrity. , and to find a balance between material and spiritual demands, focusing in this on sincerity of guidance and taking an educational sheikh, and aldhikr seclusion.

Through this study, discussion and analysis of its results, we have examined the authenticity and functionality of this education in our Algerian society, in terms of the dimensions mentioned and its importance in the construction and consolidation of its identity and the preservation of its entity and its unity, and the need to maintain, activate and consolidate this education

Key words : Sufi education, Functional dimensions, Algerian society, Empirical Study .

